دار الكتب المصرية

القسم الأدبى

الجامع لأحكام القرآن

لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى

الجزء الأول

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥١ هـ — ١٩٣٣ م

دار الكتب المصرية

القسم الأدبى

الجامع لأحكام القرآن

لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى

الجزء الأول

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٣ هـ — ١٩٣٥ م

فهرس

الجزء الأول من التفسير

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بنعمه تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المرسل بالآيات البينات .

هذا، وإن الله جلت قدرته، قيّض لهذا الدين القويم، حامى حمى الإسلام، ورافع مناره، حضرة صاحب الجلالة، الملك المعظم "فؤاد الأوّل" ملك مصر . فأصدر أمره الكريم خدمة لهذا الدين المتين، بأن يطبع المصحف الشريف، على رسم مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه، وأن يضبط بما اتفق عليه أئمة القرّاء، فقابل المسلمون فى جميع بقاع الإسلام نشر هذا المصحف الكريم بقلوب فرحة، وصدور منشرحة، وعدّوا أمر جلالته بطبعه مفخرة من مفاخر عصره الذهبى .

ولما كان التفسير الجليل، لأبى عبد الله القرطبى، المسمى "الجامع لأحكام القرآن" تفسيرا ممتازا، ذائع الشهرة بين علماء الإسلام، اقترحتُ على المجلس الأعلى لدار الكتب المصرية طبعه ونشره ليكون مفخرة أخرى من مفاخر هذا العصر الزاهر، فقرر طبعه ونشره، ورَغِبَ إلىّ فى القيام بمراجعته وتصحيحه، فقابلت هذه الرغبة بجميل الشكر، وعظيم الاغتباط، علما منى بأن فى مراجعة هذا التفسير وتصحيحه خدمة لكتاب الله تعالى أرجو أن أنال بها جميل رضوانه وعظيم مغفرته، وقد تم ولله الحمد والمنة طبع الجزء الأوّل منه فى عهد حضرة صاحب الجلالة ملك مصر المعظم "فؤاد الأوّل" حفظه الله، وأيد ملكه، وأقرّ عينه بصاحب السموّ الملكى ولى عهده المحبوب الأمير "فاروق" حفظه الله، ومتعه بالعقل الراجح، والفكر الصائب، والخلق المحمود، فى ظل عرش والده الظليل م

محمد البيلاوى

نقيب الأشراف ومراقب إحياء الآداب العربية

بدار الكتب المصرية

ترجمة أبي عبد الله القرطبي
مؤلف هذا التفسير (*)

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح (بإسكان الراء وبالحاء المهملة) الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي المفسر، كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين، الورعين الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة، أوقاته معمورة، ما بين توجه وعبادة وتصنيف.

مؤلفاته

جمع في تفسير القرآن كتابا كبيرا في اثنى عشر مجلدا، سماه كتاب "جامع أحكام القرآن، والمبين لما تضمن من السنة وآي الفرقان" وهو من أجل التفاسير وأعظمها نفعا، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن، واستنباط الأدلة، وذكر القراءات، والاعراب، والناسخ والمنسوخ، وهو هذا التفسير وله كتاب " الأسنى، في شرح أسماء الله الحسنى"، وكتاب " التذكار، في أفضل الأذكار"، وضعه على طريقة التبيان للنووي، لكن هذا أتم منه، وأكثر علما، وكتاب " التذكرة، بأمور الآخرة"، وكتاب " شرح التقصي"، وكتاب " قمع الحرص بالزهد والقناعة، ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة"، قال ابن فرجون: لم أقف على تأليف أحسن منه في بابه، وله "أرجوزة جمع فيها أسماء النبي صلى الله عليه وسلم"، وله تواليف وتعاليق مفيدة، غير هذا، وكان مطرحا للتكلف يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية. قال صاحب نفح الطيب: أنه من الراحلين من الأندلس.

شيوخه

سمع من الشيخ ابى العباس أحمد بن عمر القرطبي بعض شرحه " المفهم، لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ".

وحدث عن الحافظ أبي علي الحسن بن محمد بن محمد البكري، وحدث أيضا عن الحافظ ابى الحسن علي بن محمد بن علي بن حفص اليحصبي وغيرهم.

وكان مستقرا بمنية ابن خصيب، وتوفى ودفن بها في [ليلة الاثنين التاسع من] شوال سنة ٦٧١

(*) عن الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (مذهب مالك) لابن فرحون وعن نفح الطيب للمقري.

بسم الله الرحمن الرحيم

و به نستعين

وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما

قال الشيخ الفقيه الإمام العالم العامل العلّامة المحدّث أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ابن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسيّ ثم القرطبيّ رضي الله عنه :

الحمد لله المبتدئ بحمد نفسه قبل أن يحمده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، الربّ الصمد الواحد، الحيّ القيوم الذي لا يموت، ذو الجلال والإكرام، والمواهب العظام؛ والمتكلم بالقرآن، والخالق للإنسان، والمنعم عليه بالإيمان، والمرسل رسوله بالبيان، محمدا صلى الله عليه وسلم ما اختلف الملوان، وتعاقب الجديدان؛ أرسله بكتابه المبين، الفارق بين الشك واليقين؛ الذي أعجزت الفصحاء معارضته، وأعيت الألباء مناقضته، وأخرست البلغاء مشاكلته، فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . جعل أمثاله عبرا لمن تدبّرها، وأوامره هدى لمن استبصرها؛ وشرح فيه واجبات الأحكام، وفرّق فيه بين الحلال والحرام، وكرّر فيه المواعظ والقصص للأفهام، وضرب فيه الأمثال وقصّ فيه غيب الأخبار، فقال تعالى : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ خاطب به أولياءه ففهموا، وبيّن لهم فيه مراده فعلموا؛ فقُرّاءُ القرآن حَمَلَةُ سرّ الله المكنون، وحَفَظَةُ علمه المخزون، خلفاء أنبيائه وأمناؤه، وهم أهله وخاصّته وخيرته وأصفياؤه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ لله أهلين منّا » قالوا : يا رسول الله من هم؟ قال : « هم أهل القرآن هم أهل الله وخاصّته » أخرجه ابن ماجه في سننه، وأبو بكر البزار في مسنده . فما أحقّ من علم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه، ويتذكر ماشرح له فيه، ويخشى الله ويتقيه، ويراقبه ويستحييه؛ فإنه قد حُمّل أعباء الرسل، وصار شهيدا في القيامة على من خالف من أهل الملل . قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ . ألا وإنّ الحجة على من علمه فأغفله،

أوكدُ منها على من قصّر عنــه وجهله . ومن أوتى علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيــه فلم يرتدع، وارتكب من المآثم قبيحا، ومن الجرائم فضوحا؛ كان القرآن حجة عليه، وخصما لديه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « القرآن حجةٌ لك أو عليك » خرّجه مسلم . فالواجب على من خصه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته، ويتدبر حقائق عبارته، ويتفهم عجائبه، ويتبين غرائبه؛ قال الله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَـاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ . وقال الله تعـالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَـا ﴾ . جعلنا الله ممن يرعاه حقّ رعايتــه، ويتدبّره حقّ تدبّره، ويقوم بقسطه، ويوفى بشرطه، ولا يلتمس الهدى فى غيره؛ وهدانا لأعلامه الظاهرة، وأحكامه القاطعة الباهرة، وجمع لنا به خير الدنيا والآخرة، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة . ثم جعل الى رسوله صـلى الله عليه وسلم بيان ما كان منه مجملا، وتفسير ما كان منه مشكلا، وتحقيق ما كان منه محتملا؛ ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به، ومنزلة التفويض اليه . قال الله تعـالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّـاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ . ثم جعل الى العلماء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم استنباط ما نبّه على معانيه، وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيــه إلى علم المراد، فيمتازوا بذلك عن غيرهم، ويختصوا بثواب اجتهادهم . قال الله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ فصار الكتاب أصلا والسنة له بيانا، واستنباط العلماء إيضاحا وتبيانا؛ فالحمد لله الذى جعل صدورنا أوعية كتابه، وآذاننا موارد سنن نبيه، وهمّتنا مصروفة إلى تعلمهما والبحث عن معانيهما وغرائبهما، طالبين بذلك رضا رب العالمين، ومتدرّجين به إلى علم الملة والدّين .

(وبعد) فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع، الذى استقل بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء الى أمين الأرض؛ رأيت أن أشتغل به مدى عمرى، وأستفرغ فيه مُنّتى؛ بأن أكتب فيه تعليقا وجيزا، يتضمن نكتا من التفسير واللغات، والإعراب والقراءات، والرّد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعا بين معانيهما، ومبينا ما أشكل منهما، بأقاويل السلف، ومن تبعهم من الخلف، وعملته تذكرة لنفسى، وذخيرة ليوم رمسى، وعملا صالحا بعد موتى . قال الله تعالى : ﴿ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا مات الإنسانُ انقطع عمله إلا من ثلاث صدقةٍ جاريةٍ أو علمٍ يُنتفَعُ به أو ولدٍ صالحٍ يدعو له» .

وشرطي في هذا الكتاب إضافةُ الأقوال إلى قائليها ، والأحاديث إلى مصنّفيها ، فإنه يقال : من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله ، وكثيرا ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهما ، لا يعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث ، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائرا لا يعرف الصحيح من السقيم ، ومعرفة ذلك علم جسيم ؛ فلا يقبل منه الاحتجاج به ، ولا الاستدلال حتى يضيفه الى من خرّجه من الأئمة الأعلام ، والثقات المشاهير من علماء الاسلام . ونحن نشير إلى جمل من ذلك في هذا الكتاب ، والله الموفق للصواب ؛ وأضرب عن كثير من قصص المفسرين ، وأخبار المؤرخين ، إلا ما لا بدّ منه ولا غَناءَ عنه للتبيين . واعتضت من ذلك تبيين آي الأحكام بمسائل تسفر عن معناها ، وترشد الطالب إلى مقتضاها ، فضمنت كل آية تتضمن حكما أو حكمين فما زاد ، مسائل نبيّن فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول والتفسير والغريب والحكم ؛ فإن لم تتضمن حكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل ، هكذا إلى آخر الكتاب .

(وسمّيته بالجامع لأحكام القرآن ، والمبيّن لما تضمنه من السنّة وآي الفرقان) ، جعله الله خالصا لوجهه ، وأن ينفعني به ووالديّ ومن أراده بمنّه ؛ إنه سميع الدعاء قريب مجيب آمين .

باب ذكر جمل من فضائل القرآن والترغيب فيه وفضل طالبه وقارئه ومستمعه والعامل به

إعلم أن هذا الباب واسع كبير ، ألف فيه العلماء كتبا كثيرة ، نذكر من ذلك نكتا تدل على فضله ، وما أعدّ الله لأهله ، اذا أخلصوا الطلب لوجهه ، وعملوا به . فأول ذلك أن يستشعر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام ربّ العالمين غير مخلوق ، كلام من ليس كمثله شيء ، وصفة من ليس له شبيه ولا ند ، فهو من نور ذاته جلّ وعز ، وأن القراءة أصوات القرّاء ونغماتهم ، وهي أكسابهم التي يؤمرون بها في حال ، إيجابا في بعض العبادات ، وندبا في كثير من الأوقات ، ويزجرون عنها اذا أجنبوا ، ويثابون عليها ويعاقبون على تركها . وهذا مما أجمع عليه المسلمون أهل الحق ونطقت به

الآثار، ودل عليها المستفيض من الأخبار؛ ولا يتعلق الثواب والعقاب إلا بما هو من أكساب العباد، على ما يأتى بيانه . ولو لا أنه — سبحانه — جعل فى قلوب عباده من القوّة على حمله ما جعله ليتدبّروه وليعتبروا وليتذكروا ما فيه من طاعته وعبادته، وأداء حقوقه وفرائضه، لضعفت ولاندكت بثقله، أو لتضعضعت له وأنّى تطيقه؛ وهو يقول — تعالى جدّه — وقوله الحق : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ . فأين قوة القلوب من قوة الجبال ! ولكن الله تعالى رزق عباده من القوّة على حمله ما شاء أن يرزقهم، فضلا منه ورحمة .

وأما ما جاء من الآثار فى هذا الباب — فأوّل ذلك، ما خرّجه الترمذىّ عن أبى سعيد، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يقول الربّ تبارك وتعالى من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» قال : «وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه» قال : هذا حديث حسن غريب . وروى أبو محمد الدارمىّ السمرقندىّ فى مسنده عن عبد الله قال : السبع الطوال مثل التوراة، والمئون مثل الإنجيل، والمثانى مثل الزبور، وسائر القرآن بعدُ فضلٌ . وأسند عن الحارث عن علىّ رضى الله عنه وخرّجه الترمذى، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «ستكون فتن كقطع الليل المظلم» قلت : يارسول الله وما المخرج منها ؟ قال : «كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله هو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعب معه الآراء ولا يشبع منه العلماء ولا يمله الأتقياء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا من علم علمه سبق ومن قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم خذها اليك يا أعور» الحارث رماه الشعبىّ بالكذب وليس بشىء، ولم يَبِنْ من الحارث كذب، وانما نقم عليه إفراطه فى حب علىّ وتفضيله له على غيره؛ ومن هاهنا والله أعلم كذبه الشعبىّ لأن الشعبىّ يذهب الى تفضيل أبى بكر، وإلى أنه أوّل من أسلم . قال أبو عمر بن عبد البر : وأظن الشعبىّ عوقب لقوله فى الحارث الهمدانىّ : حدّثنى الحارث وكان أحد الكذابين .

وأســند أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمــد الأنباري النحوي اللغوي في كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن هــذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما آستطعتم إن هــذا القرآن هو حبل الله النور المبين والشفاء النافع عصمة من تمسك به ونجاة من آتبعه لا يعوجُّ فيقوّم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضي عجائبــه ولا يَخلَق عن ردّ فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول ألم حرف ولا ألفين أحدكم واضعا إحدى رجليه يدع أن يقرأ سورة البقرة فان الشيطان يفرّ من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة وإن أصفر البيوت من الخير البيت الصِّفرُ من كتاب الله». وقال أبو عبيد في غريبه عن عبد الله قال: إن هذا القرآن مأدبة الله فمن دخل فيه فهو آمن. قال: وتأويل الحديث، أنه شبَّه القرآن بصنيع صنعه الله عز وجل للناس، لهم فيــه خير ومنافع، ثم دعاهم إليــه. يقال: مأدُبة ومأدَبة، فمن قال: مأدُبة، أراد الصنيع يصنعه الانسان فيدعو اليه الناس، ومن قال: مأدَبة فانه يذهب به الى الأدب، يجعله مفعَلة من الأدب ويحتج بحديثه الآخر: «إن هذا القرآن مأدَبة الله عز وجل فتعلموا من مأدَبته» وكان الأحمر يجعلهما لغتين بمعنى واحد، ولم أسمع أحدا يقول هذا غيره؛ والتفسير الأول أعجب الي.

وروى البخاري عن عثمان بن عفان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلّمه». وروى مسلم عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لهــا وطعمها حلو ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثــل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثــل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة لا ريح لهــا وطعمها مر». وفي رواية مثل الفاجر بدل المنــافق. وقال البخاري: مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة، طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة، وذكر الحديث.

وذكر أبو بكر الأنباري وقد أخبرنا أحمــد بن يحيي الحلواني حدثنا يحيي بن عبد الحميــد حدثنا هشيم ح: وأنبأنا إدريس حدثنا خلف حدثنا هشيم عن العوام بن حوشب: أن أبا عبد الرحمن السلمي كان اذا ختم عليــه الخاتم القرآن أجلسه بين يديه ووضع يده على رأسه، وقال له: يا هذا اتق الله فــا أعرف أحدا خيرا منك ان عملت بالذي علمت! وروى الدارمي عن وهب الذِّماري قال:

من آتاه الله القرآن فقام به آناء الليل وآناء النهار، وعمل بما فيه ومات على الطاعة، بعثه الله يوم القيامة مع السفرة والأحكام[1] . قال سعد : السفرة : الملائكة، والأحكام : الأنبياء .

وروى مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران» التتعتع : التردد فى الكلام عيا وصعوبة، وإنما كان له أجران من حيث التلاوة ومن حيث المشقة، ودرجات الماهر فوق ذلك كله، لأنه قد كان القرآن متعتعا عليه، ثم ترقى عن ذلك الى أن شبه بالملائكة. والله أعلم . وروى الترمذى عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » . قال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقد روى موقوفا . وروى مسلم عن عقبة بن عامر قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى الصفة، فقال : « أيكم يحب أن يغدو كل يوم الى بطحان أو العقيق فيأتى منه بناقتين كوماوين فى غير إثم ولا قطيعة رحم » فقلنا : يا رسول الله كلنا نحب ذلك، قال : « أفلا يغدو أحدكم الى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين وثلاث خير له من ثلاث وأربع خير له من أربع ومن أعدادهن من الإبل » .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

وروى أبو داود والنسائى والدارمى والترمذى عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة » قال الترمذى : حديث حسن غريب . وروى الترمذى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم

(١) والأحكام هكذا فى النسخ التى رأيناها ولعل الغرض وذوى الأحكام . أو هو جمع حكيم كشريف وأشراف أو حكم كبطل وأبطال .

قال : « يجيء صاحب القرآن يوم القيامة فيقول يارب حلِه فيلبس تاج الكرامة ثم يقول يارب زده فيلبس حلة الكرامة ثم يقول يا رب ارض عنه فيرضى عنه فيقول له اقرأ وارق و يزاد لكل آية حسنة» قال : حديث صحيح . وروى أبوداود عن عبد الله ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » وأخرجه ابن ماجه فى سننه عن أبي سعيد الخدري، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة اقرأ واصعد فيقرأ ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه» .

وأسند أبو بكر الأنبارى عن أبي أمامة الحمصي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أعطى ثلث القرآن فقد أعطى ثلث النبوة ومن أعطى ثلثي القرآن فقد أعطى ثلثي النبوة ومن قرأ القرآن كله فقد أعطى النبوة كلها غير أنه لا يوحى اليه و يقال له يوم القيامة اقرأ وارق فيقرأ آية ويصعد درجة حتى ينجز مامعه من القرآن ثم يقال له اقبض فيقبض ثم يقال له أتدرى ما فى يديك فإذا فى يده اليمنى الخلد وفى اليسرى النعيم » .

حدثنا ادريس بن خلف حدثنا اسماعيل بن عياش عن تمام عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أخذ ثلث القرآن وعمل به فقد أخذ أمر ثلث النبوة ومن أخذ نصف القرآن وعمل به فقد أخذ أمر نصف النبوه ومن أخذ القرآن كله فقد أخذ النبوة كلها » . قال

وحدثنا محمد بن يحيى المروزي أنبأنا محمد وهو ابن سعدان حدثنا الحسين بن محمد عن حفص عن كثير بن زاذان عن عاصم بن ضمرة عن علي رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ القرآن وتلاه وحفظه أدخله الله الجنة وشفعه فى عشرة من أهل بيته كلٌّ قد وجبت له النار» . وقالت أم الدرداء : دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت لها : ما فضل من قرأ القرآن على من لم يقرأه ممن دخل الجنة ؟ فقالت عائشة رضى الله عنها : إن عدد آى القرآن على عدد درج الجنة ، فليس أحد دخل الجنة أفضل ممن قرأ القرآن، ذكره أبو محمد مكيّ . وقال ابن عباس : من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة ، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، وذلك بأن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ . قال ابن عباس : فضمن الله لمن اتبع القرآن ألا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة، ذكره مكيّ أيضا . وقال الليث : يقال : ما الرحمة الى

أحد بأسرع منها الى مستمع القرآن لقول الله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ولعل من الله واجبة .

وفى مسند أبى داود الطيالسى وهو أول مسند ألف فى الإسلام (1) عن عبدالله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين» . والآثار فى معنى هذا الباب كثيرة وفيما ذكرنا كفاية والله الموفق للهداية .

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى وما يكره منها وما يحرم واختلاف النـاس فى ذلك

روى البخارى عن قتادة قال : سألت أنسا عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كان يمد مدا [إذا] قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم .

وروى الترمذى عن أم سلمة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع قراءته يقول : الحمدُ لِلّهِ ربِّ العالمين ثم يقف ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ثم يقف ، وكان يقرأ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ . قال : حديث غريب . وأخرجه أبو داود بنحوه .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أحسن الناس صوتا من اذا قرأ رأيته يخشى الله تعالى» وروى عن زياد النميرى : أنه جاء مع القراء الى أنس بن مالك فقيل له : اقرأ فرفع صوته وطرّب وكان رفيع الصوت ، فكشف أنس عن وجهه وكان على وجهه خرقة سوداء ، فقال : يا هذا ما هكذا كانوا يفعلون ، وكان اذا رأى شيئا ينكره كشف الخرقة عن وجهه . وروى عن قيس ابن عباد أنه قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهون رفع الصوت عند الذكر . وممن روى عنه كراهة رفع الصوت عند قراءة القرآن سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والقاسم ابن محمد والحسن وابن سيرين والنخعى وغيرهم ، وكرهه مالك بن أنس وأحمد بن حنبل كلهم كره رفع الصوت بالقرآن والتطريب فيه . روى عن سعيد بن المسيب أنه سمع عمر بن عبد العزيز يؤم الناس فطرّب فى قراءته ، فأرسل اليه سعيد يقول : — أصلحك الله — إن الأئمة لا تقرأ هكذا ، فترك عمر التطريب بعدُ . وروى عن القاسم بن محمد : أن رجلا قرأ فى مسجد النبى

(1) يصح هذا إذا كان أبو داود هو الذى ألفه ولكن الذى ألفه تلميذه ابن حبيب فليس هو أول مسند ألف فى الاسلام .

صلى الله عليه وسلم فطرب، فأنكر ذلك القاسم وقال : يقول الله عز وجل : ﴿ وإنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ الآية .

وروى عن مالك : أنه سئل عن النبر في قراءة القرآن في الصلاة فأنكر ذلك وكرهه كراهة شديدة، وأنكر رفع الصوت به . وروى ابن القاسم عنه : أنه سئل عن الألحان في الصلاة فقال : لا يعجبني، وقال : إنما هو غناء يتغنون به ليأخذوا عليه الدراهم . وأجازت طائفة رفع الصوت بالقرآن والتطريب به، وذلك لأنه إذا حسن الصوت به كان أوقع في النفوس وأسمع في القلوب، واحتجوا بقوله عليه السلام : « زينوا القرآن بأصواتكم » رواه البراء بن عازب . أخرجه أبو داود والنسائي ؛ وبقوله عليه السلام : « ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن » أخرجه مسلم . وبقول أبي موسى للنبي صلى الله عليه وسلم : لو أعلم أنك تستمع لقراءتي لحبّرته لك تحبيرا ؛ وبما رواه عبد الله بن مغفل قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح في مسير له سورة الفتح على راحلته فرجّع في قراءته . وممن ذهب الى هذا أبو حنيفة وأصحابه والشافعي وابن المبارك والنضر بن شميل، وهو اختيار أبي جعفر الطبري وأبي الحسن بن بطال والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم . قلت : القول الأول أصح لما ذكرناه ويأتي . وأما ما احتجوا به من الحديث الأول فليس على ظاهره ، وإنما هو من باب المقلوب أي زينوا أصواتكم بالقرآن . قال الخطابي : وكذا فسره غير واحد من أئمة الحديث : زينوا أصواتكم بالقرآن؛ وقالوا : هو من باب المقلوب كما قالوا : عرضت الحوض على الناقة، وإنما هو عرضت الناقة على الحوض؛ قال : ورواه معمر عن منصور عن طلحة، فقدّم الأصوات على القرآن وهو الصحيح؛

قال الخطابي : ورواه طلحة عن عبد الرحمن بن عوسجة عن البراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « زينوا القرآن بأصواتكم » أي الهجوا بقراءته واشغلوا به أصواتكم واتخذوه شعارا وزينة ؛ وقيل : معناه الحض على قراءة القرآن والدءوب عليه . وقد روى عن أبي هريرة رضى الله عنه [أنه] قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « زينوا أصواتكم بالقرآن » وروى عن عمر أنه قال : « حسنوا أصواتكم بالقرآن » قلت : وإلى هذا المعنى يرجع قوله عليه السلام : « ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن » أي ليس منا من لم يحسن صوته بالقرآن ؛ كذلك تأوله عبد الله بن أبي مليكة . قال عبد الجبار ابن الورد : سمعت ابن أبي مليكة يقول : قال عبد الله بن أبي يزيد : مرّ بنا أبو لبابة فاتبعناه حتى

دخل بيته فإذا رجل رث الهيئة، فسمعته يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن » قال: فقلت لابن أبي مليكة: يا أبا محمد، أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال : يحسنه ما استطاع . ذكره أبو داود ، وإليه يرجع أيضا قول أبي موسى للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إني لو علمت أنك تستمع لقراءتي لحسنت صوتي بالقرآن وزيّنته ورتلته؛ وهذا يدل أنه كان يهذّ[1] في قراءته مع حسن صوته الذي جبل عليه ، والتحبير : التزيين والتحسين ، فلو علم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يسمعه لمدّ في قراءته ورتلها كما كان يقرأ على النبيّ صلى الله عليه وسلم، فيكون ذلك زيادة في حسن صوته بالقراءة . ومعاذ الله أن يتأوّل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : إن القرآن يزين بالأصوات أو بغيرها ، فمن تأوّل هذا فقد واقع أمرا عظيما أن يحوج القرآن الى من يزيّنه ، وهو النور والضياء والزين الأعلى لمن ألبس بهجته واستنار بضيائه ؛ وقد قيل : إن الأمر بالتزيين اكتساب القراءات وتزيينها بأصواتنا وتقدير ذلك أي زينوا القراءة بأصواتكم فيكون القرآن بمعنى القراءة ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ أي قراءة الفجر، وقوله : ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي قراءته . وكما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : إن في البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان عليه السلام، ويوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآنا أي قراءة . وقال الشاعر[2] في عثمان رضي الله عنه :

ضحّوا بأشمط عنوانُ السجود به يقطّع الليل تسبيحا وقرآنا

أي قراءة، فيكون معناه على هذا التأويل صحيحا إلا أن يخرج القراءة التي هي التلاوة عن حدّها على ما نبينه فيمتنع . وقد قيل : إن معنى يتغنى به يستغنى به من الاستغناء الذي هو ضدّ الافتقار ، لا من الغناء؛ يقال : تغنيت وتغانيت بمعنى استغنيت . وفي الصحاح : تغنّى الرجل بمعنى استغنى، وأغناه الله وتغانوا أي استغنى بعضهم عن بعض . قال المغيرة بن حبناء التميميّ :

كلانا غنيّ عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشدّ تغانيا

وإلى هذا التأويل ذهب سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح، ورواه سفيان عن سعد بن أبي وقاص، وقد روى عن سفيان أيضا وجه آخر، ذكره إسحاق بن راهويه أي يستغنى به عما سواه من الأحاديث

---

(١) الهذ في القراءة : الاسراع فيها . (٢) هو حسان بن ثابت رضي الله عنه .

والى هذا التأويل ذهب البخارىّ محمد بن اسماعيل لإتباعه الترجمة بقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ والمراد الاستغناء بالقرآن عن علم أخبار الأمم، قاله أهل التأويل .
وقيــل : إنّ معنى يتغنّى به يتحزن به أى يظهر على قارئه الحزن الذى هو ضــدّ السرور عند قراءته وتلاوته ، وليس من الغنية لأنه لو كان من الغنية لقال : يتغانى به ولم يقــل يتغنّى به . وذهب الى هذا جماعة من العلماء : منهم الإمام أبو محمد بن حبان البستىّ، واحتجوا بمــا رواه مطرّف بن عبد الله ابن الشخير عن أبيه، قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء . الأزيز بزايين : صوت الرعد وغليان القدر . قالوا : ففى هــذا الخبر بيان واضح على أن المراد بالحديث التحزّن؛ وعضدوا هذا أيضا بمــا رواه الأئمة عن عبد الله قال: قال لى النبىّ صلى الله عليه وسلم : « اقرأ علىّ » فقرأت عليه سورة النساء حتى اذا بلغت ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ فنظرت اليه فاذا عيناه تدمعان . فهذه أربعة تأويلات ليس فيها ما يدل على القراءة بالألحان والترجيع فيها . وقال أبو سعيد بن الأعرابىّ فى قوله صلى الله عليه وسلم: « ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن » قال : كانت العرب تولع بالغناء والنشيد فى أكثر أقوالها، فلما نزل القرآن أحبوا أن يكون القرآن هجيراهم مكان الغناء، فقال : « ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن » .

التأويل الخامس ما تأوّله من استدل به على الترجيع والتطريب فذكر عمر بن شبّة قال : ذكرت لأبى عاصم النبيل تأويل ابن عيينة فى قوله : يتغنّ يستغنى، فقال : لم يصنع ابن عيينة شيئا . وسئل الشافعىّ عن تأويل ابن عيينة فقال : نحن أعلم بهــذا ، لو أراد النبىّ صلى الله عليه وسـلم الاستغناء لقال : من لم يستغن، ولكن لمّــا قال : « يتغنّ » علمنا أنه أراد التغنّى . قال الطبرىّ : المعروف عندنا فى كلام العرب أن التغنّى انمــا هو الغناء الذى هو حسن الصوت بالترجيع . وقال الشاعر :

تغنّ بالشعر مهما كنت قائله * إن الغناء لهذا الشــعر مضمار

قال : وأما آدّعاء الزاعم أن تغنّيت بمعنى استغنيت فليس فى كلام العرب وأشـعارها ، ولا نعلم أحدا من أهل العلم قاله ، وأما احتجاجه بقول الأعشى :

وكنت آمرءًا زمنــا بآلعراق * خفيف المنــاخ طويل التّغنّ

وزعم أنه أراد الاستغناء فانه غلط منه، وانمـا عنى الأعشى فى هذا الموضع الاقامة، من قول العرب : غنى فلان بمكان كذا أى أقام. ومنه قوله تعالى: ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ وأما آستشهاده بقوله :

* ونحن إذا متنا أشدّ تغانيا *

فإنه إغفال منه، وذلك أن التغانى تفاعل من نفسين إذا استغنى كل واحد منهما عن صاحبـه، كما يقال تضارب الرجلان إذا ضرب كل واحد منهـما صاحبه . ومن قال هـذا فى فعـل الاثنين لم يجز أن يقول مثـله فى الواحد . غير جائز أن يقال : تغانى زيد وتضارب عمرو، وكذلك غير جائز أن يقال : تغنّى بمعنى آستغنى .

قلت : ما آدّعاه الطبرىّ من أنه لم يرد فى كلام العرب تغنّى بمعنى استغنى، فقد ذكره الجوهرىّ كما ذكرنا ، وذكره الهروىّ أيضا . وأما قوله : إن صيغة فاعل انمـا تكون من آثنين فقـد جاءت من واحد فى مواضع كثيرة : منها قول ابن عمر : وأنا يومئذ قد ناهزت آلاحتلام . وتقول العرب : طارقت النعـل وعاقبت اللص وداويت العليل، وهو كثير، فيكون تغانى منها . واذا احتمل قوله عليه الصلاة والسلام : « يتغنّ » الغناء والاستغناء فليس حمله على أحدهما بأولى من الآخر، بل حمله على الاسـتغناء أولى، لو لم يكن لنا تأويل غيره ، لأنه مروىّ عن صحابىّ كبير كما ذكر سفيان . وقد قال آبن وهب فى حق سـفيان : ما رأيت أعلم بتأويل الأحاديث من سـفيان بن عيينة ، ومعـلوم أنه رأى الشافعىّ وعاصره .

وتأويل سادس وهو ما جاء من الزيادة فى صحيح مسلم عن أبى هريرة أنه سمع رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : « ما أذِنَ الله لشئ أَذَنه لنبىّ حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به » : قال الطبرىّ : ولو كان كما قال ابن عيينة لم تكن لذكر حسن الصوت والجهر به معنى . قلنا : قوله : يجهر به لا يخلو أن يكون من قول النبىّ صلى الله عليه وسلم أو من قول أبى هريرة أو غيره ، فإن كان الأوّل وفيه بعد فهو دليل على عدم التطريب والترجيع لأنه لم يقل : يطرّب به، وإنما قال : يجهر به أى يسمع نفسه ومن يليه ؛ بدليل قوله عليه السـلام للذى سمعه وقد رفع صوته بالتهليـل : « أيها النـاس آرْبَعُوا على أنفسكم فإنكم لستم تدعون أصمّ ولا غائبا » الحديث . وسيأتى وكذلك إن كان من صحابىّ أو غيره فلا حجة فيـه على ما راموه؛ وقد اختار هذا التأويل بعض علمائنا فقال : وهـذا

أشبه لأن العرب تسمي كل من رفع صوته ووالى به غانيا ، وفعله ذلك غناء وإن لم يلحنه بتلحين الغناء؛ قال : وعلى هذا فسره الصحابيّ وهو أعلم بالمقال وأقعد بالحال .

وقد احتج أبو الحسن بن بطال لمذهب الشافعيّ فقال : وقد رفع الإشكال في هذه المسألة ما رواه ابن أبي شيبة، قال: حدّثنا زيد بن الحباب قال حدّثنا موسى بن علي بن رباح عن أبيه عن عقبة ابن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعلموا القرآن وغنّوا به واكتبوه فوالذى نفسي بيده لهو أشدّ تفصيا من المخاض من العُقُل » قال علماؤنا : وهذا الحديث وإن صح سنده فيرده ما يعلم على القطع والبتات من أن قراءة القرآن تلقيا متواترة عن كافة المشايخ جيلا فجيلا الى العصر الكريم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس فيها تلحين ولا تطريب، مع كثرة المتعمقين في مخارج الحروف وفي المد والإدغام والإظهار وغير ذلك من كيفية القراءات . ثم إن في الترجيع والتطريب همز ما ليس بمهموز ومدّ ما ليس بممدود، فترجع الألف الواحدة ألفات والواو الواحدة واوات والشبهة[1] الواحدة شبهات فيؤدّى ذلك الى زيادة في القرآن وذلك ممنوع، وإن وافق ذلك موضع نبر وهمز صيروها نبرات وهمزات ، والنبرة حيثما وقعت من الحروف فإنما هي همزة واحدة لا غير؛ إما ممدودة وإما مقصورة . فان قيل : وقد روى عبد الله بن مغفل قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسيرله سورة الفتح على راحلته فرجع في قراءته؛ وذكره البخاريّ وقال في صفة الترجيع : آء آء آء ثلاث مرات .

قلنا : ذلك محمول على إشباع المدّ في موضعه، ويحتمل أن يكون حكاية صوته عند هز الراحلة كما يعترى رافع صوته اذا كان راكبا من انضغاط صوته وتقطيعه لأجل هز المركوب؛ واذا احتمل هذا فلا حجة فيه . وقد خرّج أبو محمد عبد الغنيّ بن سعيد الحافظ من حديث قتادة عن عبد الرحمن ابن أبي بكرة عن أبيه قال : كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم المد ليس فيها ترجيع . وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن يطرّب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الأذان سهل سمح فإذا كان أذانك سمحا سهلا وإلا فلا تؤذن » أخرجه الدارقطنيّ في سننه . فاذا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم قد منع ذلك في الأذان فأحرى ألّا يجوّزه في القرآن الذى حفظه الرحمن ، فقال وقوله الحق : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

(١) لعل أصل العبارة — والشبه الواحدة شبهات . أو والشدّة الواحدة شدّات .

قلت : وهذا الخلاف انما هو ما لم يفهم معنى القرآن بترديد الأصوات وكثرة الترجيعات ، فان زاد الأمر على ذلك حتى لا نفهم معناه فذلك حرام باتفاق كما يفعل القراء بالديار المصرية الذين يقرءون أمام الملوك والجنائز، ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز، ضل سعيهم ، وخاب عملهم ، فيستحلون بذلك تغيير كتاب الله ، ويهونون على أنفسهم الاجتراء على الله بأن يزيدوا فى تنزيله ماليس فيه ، جهلا بدينهم ومروقا عن سنة نبيهم ، ورفضا لسير الصالحين فيه من سلفهم ، ونزوعا الى ما يزين لهم الشيطان من أعمالهم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ؛ فهم فى غيهم يترددون ، وبكتاب الله يتلاعبون ، فإنا لله وإنا اليه راجعون ؛ لكن قد أخبر الصادق أن ذلك يكون فكان كما أخبر صلى الله عليه وسلم .

ذكر الامام الحافظ أبو الحسين رزين وأبو عبد الله الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من حديث حذيفة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل الفسق ولحون أهل الكتابين وسيجيء بعدى قوم يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم» . اللحون : جمع لحن وهو التطريب وترجيع الصوت وتحسينه بالقراءة والشعر والغناء .

قال علماؤنا : ويشبه أن يكون هذا الذى يفعله قراء زماننا بين يدى الوعاظ وفى المجالس من اللحون الأعجمية التى يقرءون بها ، ما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . والترجيع فى القراءة ترديد الحروف كقراءة النصارى ، والترتيل فى القراءة هو التأنى فيها والتمهل وتبيين الحروف والحركات تشبيها بالثغر المرتل وهو المشبه بنور الأقحوان وهو المطلوب فى قراءة القرآن ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ . وسئلت أم سلمة عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلاته فقالت : ما لكم وصلاته ! ثم نعتت قراءته فإذا هى تنعت قراءة مفسرة حرفا حرفا . أخرجه النسائى وأبو داود والترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره

قال الله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ . روى مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول

الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال قاتلت فيك حتى استشهدت قال كذبت ولكنك قاتلت ليقال جريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار » . وقال الترمذيّ فى هذا الحديث : ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتى ، فقال : « يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة » . أبو هريرة اسمه عبد الله وقيل : عبد الرحمن ، وقال : كنيت أبا هريرة لأنى حملت هرّة فى كمّى فرآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ما هذه » قلت : هرّة ، فقال : « يا أبا هريرة » . قال ابن عبد البر : وهذا الحديث فيمن لم يرد بعمله وعلمه وجه الله تعالى . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من طلب العلم لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار » .

وخرّج ابن المبارك فى رقائقه عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يظهر هذا الدّين حتى يجاوز البحار وحتى تخاض البحار بالخيل فى سبيل الله تبارك وتعالى ثم يأتى أقوام يقرءون القرآن فإذا قرءوه قالوا من أقرأ منا من أعلم منا » ثم التفت الى أصحابه فقال : « هل ترون فى أولئكم من خير» قالوا : لا قال : «أولئك منكم وأولئك من هذه الأمة وأولئك هم وقود النار » .
وروى أبو داود والترمذيّ عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تعلم علما مما يُبْتَغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عَرف الجنة يوم القيامة » يعنى ريحها . قال الترمذيّ : حديث حسن . وروى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعوّذوا بالله من جبّ الحزن » قالوا : يا رسول الله وما جب الحزن ؟ قال : « وادٍ فى جهنم تتعوّذ منه جهنم فى كل يوم مائة مرة » قيل : يا رسول الله ، ومن يدخله ؟ قال : « القرّاء

المراءون بأعمالهم» قال : هذا حديث غريب. وفى كتاب أسد بن موسى: أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : «إن فى جهنم لواديا إن جهنم لتتعوذ من شرّ ذلك الوادى كل يوم سبع مرات وإن فى ذلك الوادى لجبا إن جهنم وذلك الوادى ليتعوذان بالله من شرّ ذلك الجبّ وإن فى الجبّ لحية وإن جهنم والوادى والجب ليتعوذون بالله من شرّ تلك الحية سبع مرات أعدها الله للأشقياء من حملة القرآن الذين يعصون الله » فيجب على حامل القرآن وطالب العلم أن يتقى الله فى نفسه ويخلص العمل لله ، فإن كان تقدّم له شىء مما يكره فليبادر التوبة والإنابة ، وليبتدئ الإخلاص فى التوبة وعمله ، فالذى يلزم حامل القرآن من التحفظ أكثر مما يلزم غيره ، كما أن له من الأجر ما ليس لغيره . روى الترمذى عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنزل الله فى بعض الكتب أو أوحى الى بعض الأنبياء قل للذين يتفقهون لغير الدّين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدّنيا بعمل الآخرة يلبسون للناس مسوك الكباش وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمرّ من الصّبر : إياى يخادعون وبى يستهزءون لأتيحنّ لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران » .

وخرّج الطبرىّ فى كتاب آداب النفوس : حدّثنا أبو كريب(1) محمد بن العلاء حدّثنا المحاربىّ عن عمرو بن عامر البجلىّ عن ابن صدقة عن رجل من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم أو من حدّثه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تخادع الله فإنه من يخادع الله يخدعه الله ونفسه يخدع لو يشعر » قالوا : يارسول الله وكيف يخادع الله ؟ قال : « تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره واتقوا الرياء فإنه الشرك وإن المرائى يدعى يوم القيامة على رءوس الأشهاد بأربعة أسماء ينسب إليها يا كافر يافاجر ياغادر ياخاسر ضـل عملك وبطل أجرك فلا خلاق لك اليوم فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع » . وروى علقمة عن عبد الله بن مسعود قال : كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم الكبير وتتخذ سنة مبتدعة يجرى عليها الناس فإذا غير منها شىء قيل : قد غيرت السنة قيل : متى ذلك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : إذا كثر قرّاؤكم، وقل فقهاؤكم، وكثر أمراؤكم، وقل أمناؤكم ، والتمست الدنيا بعمل الآخرة ، وتفقه لغير الدّين . وقال سفيان بن عيينة : بلغنا عن ابن عباس أنه قال : لو أن حملة القرآن أخذوه بحقه وما ينبغى لأحبهم الله ، ولكن طلبوا به الدنيا

(1) فى بعض النسخ « أبو بكر بن محمد » والصواب ما أثبتناه .

فأبغضهم الله، وهانوا على الناس . وروى عن أبي جعفر محمد بن علي في قول الله تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ قال : قوم وصفوا الحق والعدل بألسنتهم ، وخالفوه الى غيره . وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في أثناء الكتاب إن شاء الله تعالى .

باب ما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه

فأول ذلك أن يخلص في طلبه لله جل وعز كما ذكرنا ، وأن يأخذ نفسه بقراءة القرآن في ليله ونهاره في الصلاة أو في غير الصلاة لئلا ينساه . روى مسلم عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره ، وإن لم يقم به نسيه » وينبغي له أن يكون لله حامدا ، ولنعمه شاكرا ، وله ذاكرا ، وعليه متوكلا ، وبه مستعينا ، وإليه راغبا ، وبه معتصما ، وللموت ذاكرا ، وله مستعدا . وينبغي له أن يكون خائفا من ذنبه ، راجيا عفو ربه ، ويكون الخوف في صحته أغلب عليه ، إذ لا يعلم بما يختم له ، ويكون الرجاء عند حضور أجله أقوى في نفسه ، لحسن الظن بالله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظنّ » أي أنه يرحمه ويغفر له . وينبغي له أن يكون عالما بأهل زمانه ، متحفظا من سلطانه ، ساعيا في خلاص نفسه ، ونجاة مهجته ، مقدّما بين يديه ما يقدر عليه من عرض دنياه ، مجاهدا لنفسه في ذلك ما استطاع . وينبغي له أن يكون أهم أموره عنده الورع في دينه ، واستعمال تقوى الله ومراقبته فيما أمره به ونهاه عنه . وقال ابن مسعود : ينبغي لقارئ القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون ، وبنهاره إذا الناس مستيقظون ، وببكائه اذا الناس يضحكون ، وبصمته اذا الناس يخوضون ، وبخشوعه اذا الناس يختالون ، وبحزنه اذا الناس يفرحون . وقال عبد الله بن عمرو : لا ينبغي لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض ، ولا يجهل مع من يجهل ، ولكن يعفو ويصفح لحق القرآن ، لأن في جوفه كلام الله تعالى . وينبغي له أن يأخذ نفسه بالتصاون عن طرق الشبهات ، ويقل الضحك والكلام في مجالس القرآن وغيرها بما لا فائدة فيه ، ويأخذ نفسه بالحلم والوقار ، وينبغي له أن يتواضع للفقراء ويجتنب التكبر والإعجاب ويتجافى عن الدنيا وأبنائها إن خاف على نفسه الفتنة ، ويترك الجدال والمراء ، ويأخذ نفسه بالرفق والأدب . وينبغي له أن يكون ممن يؤمن شرّه ،

يرجى خيره ويسلم من ضره، وألا يسمع ممن نم عنده ؛ ويصاحب من يعاونه على الخير ويدله على الصدق ومكارم الأخلاق، ويزينه ولا يشينه . وينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتلو. فما أقبح لحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه . وما أقبح أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه ؛ فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا . وينبغي له أن يعرف المكيّ من المدنيّ ليفرق بذلك بين ما خاطب الله به عباده في أوّل الإسلام، وما ندبهم اليه في آخر الإسلام، وما افترض الله في أول الإسلام، وما زاد عليهم من الفرائض في آخره . فالمدنيّ هو الناسخ للمكيّ في أكثر القرآن، ولا يمكن أن ينسخ المكيّ المدنيّ لأن المنسوخ هو المتقدّم في النزول قبل الناسخ له . ومن كماله أن يعرف الإعراب والغريب ؛ فذلك مما يسهل عليه معرفة ما يقرأ، ويزيل عنه الشك فيما يتلو . وقد قال أبو جعفر الطبريّ: سمعت الجرميّ يقول: أنا منذ ثلاثين سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه ؛ قال محمد بن يزيد : وذلك أن أبا عمر الجرميّ كان صاحب حديث، فلما علم كتاب سيبويه تفقه في الحديث، إذ كان كتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفسير. ثم ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فبها يصل الطالب الى مراد الله عز وجل في كتابه؛ وهي تفتح له أحكام القرآن فتحا؛ وقد قال الضحاك في قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾ . قال : حق على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيها .

وذكر ابن أبي الحواريّ قال : أتينا فضيل بن عياض سنة خمس وثمانين ومائة ونحن جماعة ، فوقفنا على الباب فلم يأذن لنا بالدخول، فقال بعض القوم : إن كان خارجا لشيء فسيخرج لتلاوة القرآن، فأمرنا قارئا فقرأ فأطلع علينا من كوة، فقلنا : السلام عليك ورحمة الله؛ فقال : وعليكم السلام؛ فقلنا: كيف أنت يا أبا عليّ، كيف حالك؟ فقال : أنا من الله في عافية ومنكم في أذى، وإن ما أنتم فيه حَدَثٌ في الإسلام ، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ما هكذا كنا نطلب العلم، ولكنا كنا نأتي المشيخة فلا نرى أنفسنا أهلا للجلوس معهم، فنجلس دونهم ونسترق السمع، فإذا مرّ الحديث سألناهم إعادته وقيدناه، وأنتم تطلبون العلم بالجهل، وقد ضيعتم كتاب الله ولو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لما تريدون ، قال : قلنا قد تعلمنا القرآن؛ قال : إن في تعلمكم القرآن شغلا لأعماركم

وأعمار أولادكم؛ قلنا : كيف يا أبا علي؟ قال : لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه، ومحكمه من متشابهه، وناسخه من منسوخه؛ فإذا عرفتم ذلك استغنيتم عن كلام فضيل وآبن عيينة ، ثم قال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

قلت : فإذا حصلت هذه المراتب لقارئ القرآن كان ماهرا بالقرآن ، وعالما بالفرقان؛ وهو قريب على من قرّبه الله عليه ، ولا ينتفع بشيء مما ذكرنا حتى يخلص النية فيه لله جل ذكره عند طلبه أو بعد طلبه كما تقدّم . فقد يبتدئ الطالب للعلم يريد به المباهاة والشرف في الدنيا، فلا يزال به فهم العلم حتى يتبين أنه على خطأ في اعتقاده فيتوب من ذلك ويخلص النية لله تعالى ، فينتفع بذلك ويحسن حاله . قال الحسن : كنا نطلب العلم للدنيا بجرّنا إلى الآخرة . وقاله سفيان الثوري . وقال حبيب بن أبي ثابت : طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نية ثم جاءت النية بعدُ .

باب ما جاء في إعراب القرآن وتعليمه والحث عليه وثواب من قرأ القرآن معربا

قال أبو بكر بن الأنباري : جاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وعن أصحابه وتابعيهم رضوان الله عليهم من تفضيل إعراب القرآن ، والحض على تعليمه ، وذمّ اللحن وكراهيته ما وجب به على قرّاء القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد في تعلمه .

من ذلك ما حدّثنا يحيى بن سليمان الضبي قال حدّثنا محمد — يعني آبن سعيد — قال حدّثنا أبو معاوية عن عبد الله بن سعيد المقبري عن أبيه عن جدّه عن أبي هريرة : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه » . حدّثني أبي قال حدثنا إبراهيم بن الهيثم قال حدّثنا آدم — يعني آبن أبي إياس — قال حدّثنا أبو الطيب المروزي قال حدّثنا عبد العزيز بن أبي روّاد عن نافع عن ابن عمر، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ القرآن فلم يعربه وكل به ملك يكتب له كما أنزل بكل حرف عشر حسنات فإن أعرب بعضه وكل به ملكان يكتبان له بكل حرف عشرين حسنة فإن أعربه وكل به أربعة أملاك يكتبون له بكل حرف سبعين حسنة » .

وروى جويبر عن الضحاك قال : قال عبد الله بن مسعود : جرّدوا القرآن وزينوه بأحسن

الأصوات ، وأعربوه فإنه عربيّ والله يحب أن يعرب به ، وعن مجاهد عن ابن عمر قال : أعربوا القرآن . وعن محمد بن عبد الرحمن بن زيد قال : قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما : إعراب القرآن أحب الينا من حفظ حروفه . وعن الشعبيّ قال : قال عمر رحمه الله : من قرأ القرآن فأعربه كان له عند الله أجر شهيد . وقال مكحول : بلغني أن من قرأ بإعراب كان له من الأجر ضعفان ممن قرأ بغير إعراب . وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحبّ العرب لثلاث لأنى عربيّ والقرآن عربيّ وكلام أهل الجنة عربيّ » . وروى سفيان عن أبي حمزة قال : قيل للحسن فى قوم يتعلمون العربية قال : أحسنوا ، يتعلمون لغة نبيهم صلى الله عليه وسلم . وقيل للحسن : إن لنا إماما يلحن ، قال : أخروه .

وعن ابن أبي مليكة قال : قدم أعرابيّ فى زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : من يقرئنى مما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال : فأقرأه رجل براءة ، فقال : أن الله برىء من المشركين ورسوله بالجر ، فقال الأعرابيّ : أو قد برئ الله من رسوله ! فإن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه ، فبلغ عمر مقالة الأعرابيّ فدعاه ، فقال : يا أعرابيّ أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى قدمت المدينة ولا علم لى بالقرآن فسألت من يقرئنى ، فأقرأنى هذا سورة براءة ، فقال : أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فقلت : أو قد برئ الله من رسوله ، إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه ، فقال عمر : ليس هكذا يا أعرابيّ ، قال : فكيف هي يا أمير المؤمنين؟ قال : ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ فقال الأعرابيّ : وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه ، فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ألّا يقرئ الناس إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود فوضع النحو .

وعن عليّ بن الجعد قال : سمعت شعبة يقول : مثل صاحب الحديث الذى لا يعرف العربية مثل الحمار عليه مخلاة لا علف فيها . وقال حماد بن سلمه : من طلب الحديث ولم يتعلم النحو أو قال العربية فهو كمثل الحمار تعلق عليه مخلاة ليس فيها شعير . قال ابن عطية : إعراب القرآن أصل فى الشريعة ، لأن بذلك تقوم معانيه التى هى الشرع .

قال ابن الأنباريّ : وجاء عن أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وتابعيهم رضوان الله عليهم ، من الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله باللغة والشعر ما يبين صحة مذهب النحويين فى ذلك ، وأوضح

فساد مذاهب من أنكر ذلك عليهم . من ذلك ما حدّثنا عبيد بن عبد الواحد بن شريك البزاز قال حدّثنا ابن أبي مريم قال : أنبأنا ابن فروخ، قال أخبرني أسامة قال أخبرني عكرمة : أن ابن عباس قال : إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب . وحدّثنا إدريس ابن عبد الكريم قال حدّثنا خلف قال حدّثنا حماد بن زيد عن علىّ بن زيد بن جدعان قال سمعت سعيد بن جبير ويوسف بن مهران يقولان : سمعنا ابن عباس يسأل عن الشيء من القرآن فيقول فيه هكذا وهكذا ، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا . وعن عكرمة عن ابن عباس، وسأله رجل عن قول الله جل وعز : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : لا تلبس ثيابك على غدر، وتمثل بقول غيلان الثقفىّ :

وإنى بحمد الله لا ثوبَ غادرٍ ... لَبِستُ ولا من سَوْءَةٍ أتقنّعُ[1]

وسأل رجل عكرمة عن الزنيم قال : هو ولد الزنا ، وتمثل ببيت شعر :

زنيمٌ ليس يُعْرَفُ مَنْ أبوه ... بَغِيُّ الأم ذو حسبٍ لئيمِ

وعنه أيضا الزنيم : الدعىّ الفاحش اللئيم، ثم قال :

زنيمٌ تداعاهُ الرجالُ زيادةً ... كما زِيدَ فى عَرْضِ الأديمِ أكارِعُهْ

وعنه فى قوله تعالى : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ قال : ذواتا ظل وأغصان، ألم تسمع الى قول الشاعر :

ما هاج شوقَكَ من هَديلِ حمامةٍ ... تدعو على فَنَنِ الغصون حَماما

تدعو أبا فَرخَينِ صادفَ طائرا ... ذا مِخلَبين من الصُّقُور قَطَاما

وعن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ قال : الأرض، قاله ابن عباس ؛ وقال أمية بن أبي الصلت : «عندهم لحم بحر ولحم ساهرة»[2] . قال ابن الأنبارىّ والرواة يروون هذا البيت :

وفيها لحمُ ساهِرَةٍ وبَحْرٍ ... وما فاهُوا به لَهُمُ مُقيمُ

---

(١) أورد الألوسى فى تفسيره روح المعانى هذا البيت عند قوله تعالى « وثيابك فطهر » برواية أخرى هكذا :

فانى بحمد الله لا ثوب فاجر ... لبست ولا من غدرة أتقنع

(٢) كذا فى الأصول ولعل ابن عباس يريد ما تضمنه البيت الذى قاله أمية والذى ذكره ابن الأنبارى فيما يلى وقد عزى قول ابن الأنبارى صاحب اللسان فى مادة سهر وصاحب تفسير روح المعانى ج ١ ص ٢٨٦ طبع بولاق .

وقال نافع بن الأزرق لابن عباس: أخبرني عن قول الله جل وعز: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ما السِّنة؟ قال: النعاس، قال زهير بن أبي سلمى:

لا سِنَةٌ فى طُوَالِ الليل تأخُذُه ۞ ولا يَنَـامُ ولا فى أمره فَنَـدُ (١)

باب ما جاء فى فضل تفسير القرآن وأهله

قال علماؤنا رحمة الله عليهم:

وأما ما جاء فى فضل التفسير عن الصحابة والتابعين، فمن ذلك: أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم، فقال له رجل: — جعلت فداءك — تصف جابرا بالعلم وأنت أنت! فقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾. وقال مجاهد: أحب الخلق الى الله تعالى أعلمهم بما أنزل. وقال الحسن: والله ما أنزل الله آية الا أحب أن يعلم فيما أنزلت وما يعنى بها. وقال الشعبيّ: رحل مسروق الى البصرة فى تفسير آية، فقيل له إن الذى يفسرها رحل الى الشام، فتجهز ورحل الى الشام حتى علم تفسيرها. وقال عكرمة: فى قوله عز وجل: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته. وقال ابن عبد البر: هو ضمرة بن حبيب وسيأتى. وقال ابن عباس: مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما يمنعنى الا مهابته، فسألته فقال: هى حفصة وعائشة. وقال إياس بن معاوية: مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره، كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما فى الكتاب؛ ومثل الذى يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرءوا ما فى الكتاب.

باب ما جاء فى حامل القرآن ومن هو وفيمن عاداه

قال أبو عمر: روى من وجوه فيها لين عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من تعظيم جلال الله إكرام ثلاثة، الامام المقسط، وذى الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالى فيه ولا الجافى عنه»

(١) الفند: العجز.

وقال أبو عمر : وحَمَلةَ القرآن هم العالمون بأحكامه ، وحلاله وحرامه ، والعاملون بما فيه . وروى أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « القرآن أفضل من كل شيء فمن وقّر القرآن فقد وقّر الله ومن استخف بالقرآن استخف بحق الله تعالى حملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله المعظمون كلام الله الملبسون نور الله فمن والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد استخف بحق الله تعالى » .

باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمته

قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله فى نوادر الأصول : فمن حرمة القرآن ألا يمسه إلا طاهرا . ومن حرمته أن يقرأه وهو على طهارة . ومن حرمته أن يستاك ويتخلل فيطيب فاه، إذ هو طريقه . قال يزيد بن أبي مالك : إن أفواهكم طرق من طرق القرآن، فطهروها ونظفوها ما استطعتم . ومن حرمته أن يتلبس كما يتلبس[(1)] للدخول على الأمير لأنه مناج . ومن حرمته أن يستقبل القبلة لقراءته . وكان أبو العالية إذا قرأ اعتم ولبس وارتدى واستقبل القبلة . ومن حرمته أن يتمضمض كلما تنخع . روى شعبة عن أبي حمزة عن ابن عباس : أنه كان يكون بين يديه تور اذا تنخع مضمض ثم أخذ فى الذكر وكان كلما تنخع مضمض . ومن حرمته إذا تثاءب أن يمسك عن القراءة لأنه اذا قرأ فهو مخاطب ربه ومناج، والتثاؤب من الشيطان . قال مجاهد : اذا تثاءبت وأنت تقرأ القرآن فأمسك عن القرآن تعظيما حتى يذهب تثاؤبك . قال عكرمة : يريد أن فى ذلك الفعل إجلالا للقرآن . ومن حرمته أن يستعيذ بالله عند ابتدائه للقراءة من الشيطان الرجيم ، ويقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إن كان ابتداء قراءته من أول السورة أو من حيث بلغ . ومن حرمته اذا أخذ فى القراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الآدميين من غير ضرورة . ومن حرمته أن يخلو بقراءته حتى لا يقطع عليه أحد بكلام فيخلطه بجوابه، لأنه اذا فعل ذلك زال عنه سلطان الاستعاذة الذى استعاذ فى البدء . ومن حرمته أن يقرأه على تؤدة وترسيل وترتيل . ومن حرمته أن يستعمل فيه ذهنه وفهمه حتى يعقل ما يخاطب به . ومن حرمته أن يقف على آية الوعد فيرغب الى الله تعالى ويسأله من فضله، وأن يقف على آية الوعيد فيستجير بالله منه . ومن حرمته أن يقف على أمثاله فيتمثلها، ومن حرمته أن يلتمس غرائبه . ومن حرمته أن يؤدى لكل حرف حقه من الأداء حتى يبرز الكلام باللفظ تماما، فإن

(1) يقال : تلبس بالثوب بمعنى لبسه .

له بكل حرف عشر حسنات . ومن حرمته اذا انتهت قراءته أن يصدق ربه ويشهد بالبلاغ لرسوله صلى الله عليه وسلم، ويشهد على ذلك أنه حق ، فيقول : صدقت ربنا وبلّغ رسولك . ونحن على ذلك من الشاهدين، اللهم اجعلنا من شهداء الحق ، القائمين بالقسط ، ثم يدعو بدعوات ، ومن حرمته اذا قرأه ألا يلتقط الآى من كل سورة فيقرأ ، لأنه روى لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه مر ببلال وهو يقرأ من كل سورة شيئا فأمره أن يقرأ على السور أو كما قال . ومن حرمته اذا وضع الصحيفة ألا يتركه منشورا وألا يضع فوقه شيئا من الكتب حتى يكون أبدا عاليا لسائر الكتب ، علما كان أو غيره . ومن حرمته أن يضعه فى حجره اذا قرأه أو على شيء بين يديه ولا يضعه بالأرض . ومن حرمته ألا يمحوه من اللوح بالبصاق ولكن يغسله بالماء . ومن حرمته اذا غسله بالماء أن يتوقى النجاسات من المواضع التى توطأ ، فان لتلك الغسالة حرمة ، وكان من قبلنا من السلف منهم من يستشفى بغسالته . ومن حرمته ألا يتخذ الصحيفة اذا بليت ودرست وقاية للكتب ، فإن ذلك جفاء عظيم ، ولكن يمحوها بالماء . ومن حرمته ألا يخلى يوما من أيامه من النظر فى المصحف مرة . وكان أبو موسى يقول : إنى لأستحيى ألا أنظر كل يوم فى عهد ربى مرة . ومن حرمته أن يعطى عينيه حظهما منه فإن العين تؤدى الى النفس وبين النفس والصدر حجاب ، والقرآن فى الصدر فإذا قرأه عن ظهر قلب فإنما يسمع أذنه فتؤدى الى النفس ، فإذا نظر فى الخط كانت العين والأذن قد اشتركتا فى الأداء وذلك أوفر للأداء ، وكان قد أخذت العين حظها كالأذن . روى زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أعطوا أعينكم حظها من العبادة» قالوا : يارسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال : « النظر فى المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه » . وروى مكحول عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن نظرا » . ومن حرمته ألا يتأوله عند ما يعرض له شيء من أمر الدنيا . حدثنا عمرو بن زياد الحنظلى قال حدثنا هشيم بن بشير عن المغيرة عن ابراهيم قال : كان يكره أن يُتأول شيء من القرآن عند ما يعرض له شيء من أمر الدنيا ، والتأويل مثل قولك للرجل اذا جاءك : جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يا مُوسَى ، ومثل قوله تعالى : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ هذا عند حضور الطعام وأشباه هذا . ومن حرمته ألا يقال : سورة كذا كقولك : سورة النحل وسورة البقرة وسورة النساء ولكن يقال : السورة التى يذكر فيها كذا . قلت : هذا يعارضه

قوله صلى الله عليه وسلم : « الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما في ليلة كفتاه » خرّجه البخاري ومسلم من حديث عبدالله بن مسعود . ومن حرمته ألا يتلى منكوسا كفعل معلمي الصبيان يلتمس أحدهم بذلك أن يُرى الحذق من نفسه والمهارة، فان تلك مخالفة . ومن حرمته ألا يقعر في قراءته كفعل هؤلاء الهمزيين المبتدعين المتنطعين في إبراز الكلام من تلك الأفواه المنتنة تكلفا ، فإن ذلك محدث ألقاه اليهم الشيطان فقبلوه عنه . ومن حرمته ألا يقرأه بألحان الغناء كلحون أهل الفسق ولا بترجيع النصارى ولا نوح الرهبانية، فإن ذلك كله زيغ وقد تقدّم . ومن حرمته أن يجلل تخطيطه اذا خطه . وعن أبي حكيمة أنه كان يكتب المصاحف بالكوفة ، فمرّ عليّ رضي الله عنه فنظر الى كتابته، فقال له : أجل قلمك، فأخذت القلم فقططته من طرفه قطا ، ثم كتبت وعليّ رضي الله عنه قائم ينظر الى كتابتي، فقال : هكذا نوّره كما نوّره الله عز وجل . ومن حرمته ألا يجهر بعض على بعض في القراءة فيفسد عليه حتى يبغض اليه ما يسمع ويكون كهيئة المغالبة . ومن حرمته ألا يماري ولا يجادل فيه في القراءات، ولا يقول لصاحبه : ليس هكذا هو، ولعله أن تكون تلك القراءة صحيحة جائزة من القرآن، فيكون قد جحد كتاب الله . ومن حرمته ألا يقرأ في الأسواق ولا في مواطن اللغط واللغو ومجمع السفهاء، ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن وأثنى عليهم بأنهم اذا مرّوا باللغو مرّوا كراما، هذا لمروره بنفسه ، فكيف اذا مرّ بالقرآن الكريم تلاوة بين ظهراني أهل اللغو ومجمع السفهاء . ومن حرمته ألا يتوسد المصحف ولا يعتمد عليه ولا يرمى به الى صاحبه اذا أراد أن يناوله . ومن حرمته ألا يصغر المصحف ، روى الأعمش عن ابراهيم عن عليّ رضي الله عنه قال : لا يصغر المصحف . قلت : وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه رأى مصحفا صغيرا في يد رجل فقال : من كتبه ؟ قال : أنا ، فضربه بالدرّة ، وقال : عظموا القرآن . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يقال : مسيجد أو مصيحف . ومن حرمته ألا يخلط فيه ما ليس منه . ومن حرمته ألّا يحلى بالذهب ولا يكتب بالذهب فتخلط به زينة الدنيا . وروى مغيرة عن ابراهيم : أنه كان يكره أن يحلى المصحف أو يكتب بالذهب أو يعلم عند رءوس الآى أو يصغر . وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدبار[1] عليكم » وقال ابن عباس ورأى مصحفا قد زين بفضة : تغرون به السارق، وزينته في جوفه .

(١) الدبار : الهلاك . وفي رواية «فالدمار» بالميم بدل الباء الموحدة .

القرآن، وألا يكتب على الأرض ولا على حائط كما يفعل بهذه المساجد المحدثة . حدثنا محمد بن على الشقيق عن أبيه عن عبد الله بن المبارك عن سفيان عن محمد بن الزبير قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يحدث قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب فى أرض، فقال لشاب من هذيل : «ما هذا» قال : من كتاب الله كتبه يهودى؛ فقال : «لعن الله من فعل هذا، لا تضعوا كتاب الله إلا موضعه» . قال محمد بن الزبير : رأى عمر بن عبد العزيز ابنا له يكتب القرآن على حائط فضربه . ومن حرمته أنه اذا اغتسل بكتابته مستشفيا من سقم ألا يصبه على كناسة ، ولا فى موضع نجاسة ولا على موضع يوطأ، ولكن ناحية من الأرض فى بقعة لا يطؤه الناس، أو يحفر حفيرة فى موضع طاهر حتى ينصب من جسده فى تلك الحفيرة ثم يكبسها ، أو فى نهر كبير يختلط بمائه فيجرى . ومن حرمته أن يفتتحه كلما ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ختم يقرأ من أول القرآن قدر خمس آيات، لئلا يكون فى هيئة المهجور . و روى ابن عباس قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله أى العمل أفضل؟ قال : « عليك بالحال المرتحل » قال : وما الحال المرتحل؟ قال : «صاحب القرآن يضرب من أوله حتى يبلغ آخره ثم يضرب من أوله كلما حل ارتحل» .

قلت : ويستحب له إذا ختم القرآن أن يجمع أهله . ذكر أبو بكر الأنبارى أنبأنا إدريس حدثنا خلف حدثنا وكيع عن مسعر عن قتادة : أن أنس بن مالك كان اذا ختم القرآن جمع أهله ودعا . وأخبرنا ادريس حدثنا خلف حدثنا جرير عن منصور عن الحكم قال : كان مجاهد وعبدة بن أبى لبابة وقوم يعرضون المصاحف، فاذا أرادوا أن يختموا وجهوا الينا أحضرونا، فإن الرحمة تنزل عند ختم القرآن . وأخبرنا ادريس حدثنا خلف حدثنا هشيم العوام عن ابراهيم عن التيمى قال : من ختم القرآن أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسى، ومن ختم أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح؛ قال : فكانوا يستحبون أن يختموا أول الليل وأول النهار . ومن حرمته ألا يكتب التعاويذ منه ثم يدخل به فى الخلاء إلا أن يكون فى غلاف من أدم أو فضة أو غيره، فيكون كأنه فى صدرك . ومن حرمته إذا كتبه وشربه سمى الله على كل نفس وعظم النية فيه فإن الله يؤتيه على قدر نيته . روى ليث عن مجاهد قال : لا بأس أن تكتب القرآن ثم تسقيه المريض . وعن أبى جعفر قال : من وجد فى قلبه قساوة فليكتب « يس » فى جام بزعفران ثم يشربه . قلت : ومن حرمته ألا يقال : سورة صغيرة، وكره

أبو العالية أن يقال : سورة صغيرة أو كبيرة ؛ وقال لمن سمعه قالها : أنت أصغر منها ؛ وأما القرآن فكله عظيم ذكره مكيّ رحمه الله . قلت : وقد روى أبو داود ما يعارض هذا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أنه قال : ما من المفصل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤم بها الناس فى الصلاة .

باب ما جاء من الوعيد فى تفسير القرآن بالرأى والجرأة على ذلك ومراتب المفسرين

روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر من كتاب الله إلا آيا بعدد علمه إياهنّ جبريل . قال ابن عطية : ومعنى هذا الحديث فى مغيبات القرآن، وتفسير مجمله ونحو هذا، مما لا سبيل اليه إلا بتوقيف من الله تعالى . ومن جملة مغيباته ما لم يُعْلِم الله به، كوقت قيام الساعة ونحوها، مما يستقرى من ألفاظه كعدد النفخات فى الصور، وكرتبة خلق السموات والأرض . روى الترمذىّ عن ابن عباس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « اتقُوا الحديث علىّ إلا ما علمتم فمن كذب علىّ متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار » . وروى أيضا عن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » قال : هذا حديث غريب . وأخرجه أبو داود وتُكُلِّمَ فى أحد رواته . وزاد رَزِينٌ : ومن قال برأيه فأخطأ فقد كفر . قال أبو بكر محمد بن القاسم ابن بشار بن محمد الأنبارىّ النحوىّ اللغوىّ فى كتاب الرّد : فُسِّر حديث ابن عباس تفسيرين : أحدهما من قال فى مشكل القرآن بما لا يعرف من مذاهب الأوائل من الصحابة والتابعين فهو متعرض لسخط الله . والجواب الآخر وهو أثبت القولين وأصحهما معنى : من قال فى القرآن قولا يعلم أن الحق غيره فليتبوّأ مقعده من النار . ومعنى يتبوّأ : ينزل ويحلل، قال الشاعر :

وبُوِّئَتْ فى صَمِيم مَعْشَرِها   فَتَمَّ فى قومها مُبَوَّؤُها[1]

وقال فى حديث جندب : فحمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الرأى معنىّ به الهوى : من قال فى القرآن قولا يوافق هواه، لم يأخذه عن أئمة السلف فأصاب فقد أخطأ لحكمه على القرآن

(١) جاء فى لسان العرب مادّة بوأ تفسيرا لهذا البيت : أى نزلت من الكرم فى صميم النسب .

بمـا لا يعرف أصله ، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيه . وقال ابن عطية : ومعنى هذا أن يُسأل الرجل عن معنى من كتاب الله عز وجل فيتسوّر[1] عليه برأيه دون نظر فيا قال العلماء أو اقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول ؛ وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحويون نحوه والفقهاء معانيه ، ويقول كل واحد باجتهاده المبنيّ على قوانين علم ونظر ؛ فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلا لمجرّد رأيه . قلت : هذا صحيح وهو الذى اختاره غير واحد من العلماء ، فإن من قال فيه بمـا سنح في وهمه وخطر على باله من غير استدلال عليه بالأصول فهو مخطئ، وإن من استنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة المتفق على معناها فهو ممدوح .

وقال بعض العلماء : إن التفسير موقوف على السماع لقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ وهذا فاسد لأن النهى عن تفسير القرآن لا يخلو إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط ، أو المراد به أمرا آخر، وباطل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد في القرآن إلا بما سمعه ؛ فإن الصحابة رضى الله عنهم قد قرءوا القرآن واختلفوا في تفسيره على وجوه ، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا لابن عباس وقال : « ٱللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي ٱلدِّينِ وَعَلِّمْهُ ٱلتَّأْوِيلَ » فإن كان التأويل مسموعا كالتنزيل فما فائدة تخصيصه بذلك ! وهذا بيّن لا إشكال فيه ؛ وسيأتى لهذا مزيد بيان في سورة النساء إن شاء الله تعالى . وإنما النهى يحمل على أحد وجهين * أحدهما أن يكون له فى الشيء رأى ، واليه ميل من طبعه وهواه ، فيتأوّل القرآن على وَفْق رأيه وهواه ، ليحتج على تصحيح غرضه ، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى ؛ وهذا النوع يكون تارة مع العلم كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته ، وهو يعلم أن ليس المراد بالآية ذلك ، ولكن مقصوده أن يُلَبِّس على خصمه ؛ وتارة يكون مع الجهل ، وذلك اذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه الى الوجه الذى يوافق غرضه ، ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه ، فيكون قد فسّر برأيه أى رأيه حمله على ذلك التفسير ، ولولا رأيه لمـا كان يترجح عنده ذلك الوجه . وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به ، كمن يدعو الى مجاهدة القلب القاسى ، فيقول : قال

(١) من قولهم : تسوّر الحائط اذا صعد عليه ويعنى به هنا الهجم والاقدام بغير بصيرة ولا تدبر .

الله تعالى : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ ويشير الى قلبه ويومئ الى أنه المراد بفرعون ، وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ فى المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للستمع ، وهو ممنوع لأنه قياس فى اللغة ، وذلك غير جائز . وقد تستعمله الباطنية فى المقاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم الى مذاهبهم الباطلة ، فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعا أنها غير مرادة . فهذه الفنون أحد وجهى المنع من التفسير بالرأى * الوجه الثانى أن يتسارع الى تفسير القرآن بظاهر العربية ، من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن ، وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة (١) ، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير ؛ فمن لم يُحْكِمْ ظاهر التفسير وبادر الى استنباط المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلطه ، ودخل فى زمرة من فسر القرآن بالرأى ، والنقل والسماع لا بد له منه فى ظاهر التفسير أولا ليتقى به مواضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط ، والغرائب التى لا تفهم إلا بالسماع كثيرة ولا مطمع فى الوصول الى الباطن قبل إحكام الظاهر ، ألا ترى أن قوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ﴾ معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها ؛ فالناظر الى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ، ولا يدرى بماذا ظلموا وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم ، فهذا من الحذف والإضمار ؛ وأمثال هذا فى القرآن كثير وما عدا هذين الوجهين فلا يتطرق النهى اليه والله أعلم .

قال ابن عطية : وكان جملة من السلف كسعيد بن المسيب وعامر الشعبى وغيرهما يعظمون تفسير القرآن ويتوقفون عنه تورعا واحتياطا لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم . قال أبو بكر الأنبارى : وقد كان الأئمة من السلف الماضى يتورّعون عن تفسير المشكل من القرآن ، فبعض يقدّر أن الذى يفسره لا يوافق مراد الله عز وجل فيُحجم عن القول ؛ وبعض يُشفق من أن يُجعل فى التفسير إماما يُبنى على مذهبه ويُقتفى طريقه ؛ فلعل متأخرا أن يفسر حرفا برأيه ويخطئ فيه ، ويقول : إمامى فى تفسير القرآن بالرأى فلان الإمام من السلف . وعن ابن أبى مليكة قال : سئل أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه عن تفسير حرف من القرآن فقال : أىّ سماء تُظلّنى ، وأىّ أرض تُقلّنى ! وأين أذهب ! وكيف أصنع ! اذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى .

(١) هكذا فى كل النسخ التى بأيدينا .

قال ابن عطية : وكان جملة من السلف كثير عددهم يفسرون القرآن وهم أبقوا[1] على المسلمين في ذلك رضي الله عنهم، فأما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ويتلوه عبد الله بن عباس وهو تجرّد فيه للأمر وكمّله وتبعه العلماء عليه كمجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما، والمحفوظ عنه في ذلك أكثر من المحفوظ عن عليّ. وقال ابن عباس : ما أخذت من تفسير القرآن فمن عليّ بن أبي طالب، وكان عليّ رضي الله عنه يثني على تفسير ابن عباس ويحض على الأخذ عنه، وكان ابن مسعود يقول: نِعْمَ تَرْجُمانُ القرآن عبدُالله بن عباس. وقال عنه عليّ رضي الله عنه : ابن عباس كأنما ينظر الى الغيب من ستر رقيق. ويتلوه عبد الله بن مسعود وأبيّ بن كعب وزيد ابن ثابت وعبد الله بن عمرو بن العاص، وكلّ ما أُخذ عن الصحابة فحسن مقدّم لشهودهم التنزيل ونزوله بلغتهم. وعن عامر بن واثلة قال : شهدت عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يخطب فسمعته يقول في خطبته : سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء يكون الى يوم القيامة إلا حدّثتكم به، سلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا أنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم في سهل نزلت أم في جبل، فقام اليه ابن[2] الكوّاء فقال : يا أمير المؤمنين ما الذّاريات ذَرْوًا؟ وذكر الحديث. وعن المنهال بن عمرو قال: قال عبدالله بن مسعود: لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله منّي تبلغه المطيّ لأتيته، فقال له رجل : أما لقيت عليّ بن أبي طالب ؟ فقال : بلى قد لقيته. وعن مسروق قال : وجدت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مثل الإخاذ يُرْوِي الواحد والإخاذ يُرْوِي الإثنين، والإخاذ لو ورد عليه الناس أجمعون لأصدرهم، وإن عبد الله بن مسعود من تلك الآخاذ؛ ذكر هذه المناقب أبو بكر الأنباريّ في كتاب الرّدّ، وقال : الإخاذ عند العرب : الموضع الذي يحبس الماء كالمدير. قال أبو بكر حدّثنا أحمد بن الهيثم بن خالد حدّثنا أحمد بن عبد الله بن يونس حدّثنا سلّام عن زيد العمّي[3] عن أبي الصدّيق الناجي عن أبي سعيد الخدريّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرحم أمّتي بها أبو بكر وأقواهم في دين الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأقضاهم عليّ وأفرضهم زيد وأقرؤهم لكتاب الله عز وجل

(١) من قولهم : أبقيت على فلان اذا أشفقت عليه ورحمته.

(٢) اسمه عبد الله بن أبي أوفى اليشكري كما في تاريخ الطبري في عدة مواضع.

(٣) جاء في حاشية بهامش الأصل : أنه سمي زيدا العمي لأنه كان ينادي من رآه بيا عم. وجاء في تهذيب التهذيب عند الكلام على اسم زيد المذكور : أنه لقب بذلك لأنه كان اذا سئل عن الشيء يقول : حتى أسأل عمي.

أبيّ بن كعب وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجرّاح وأبو هريرة وعاء من العلم وسلمان بحر من علم لا يدرك وما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء — أو قال — : البطحاء من ذي لهجة أصدق من أبي ذرّ" .

قال ابن عطية : ومن المبرّزين في التابعين الحسن البصريّ ومجاهد وسعيد بن جبير وعلقمة، قرأ مجاهد على ابن عباس قراءة تفهم ووقوف عند كل آية؛ ويتلوهم عكرمة والضحاك وإن كان لم يلق ابن عباس، وإنما أخذ عن ابن جبير؛ وأما السدّيّ فكان عامر الشعبيّ يطعن عليه وعلى أبي صالح[1] لأنه كان يراهما مقصرين في النظر . قلت : وقال يحيى بن معين : الكلبيّ ليس بشيء . وعن يحيى ابن سعيد القطان عن سفيان قال : قال الكلبيّ : قال أبو صالح : كل ما حدّثتك كذب . وقال حبيب بن أبي ثابت : كنا نسميه الدّروَغْزَنْ — يعني أبا صالح — مولى أم هانئ؛ والدروَغْ زَنْ : هو الكذاب بلغة الفرس . ثم حمل تفسير كتاب الله تعالى عدول كل خلف، كما قال صلى الله عليه وسلم : « يحمل هذا العلم من كل خلف عُدُولُهُ يَنفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » خرّجه أبو عمر وغيره . قال الخطيب أبو بكر أحمد بن علي البغداديّ : وهذه شهادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم أعلام الدّين وأئمة المسلمين لحفظهم الشريعة من التحريف، والانتحال للباطل، وردّ تأويل الأبله الجاهل، وأنه يجب الرجوع إليهم، والمعوّل في أمر الدّين عليهم، رضي الله عنهم .

قال ابن عطية : وألف الناس فيه كعبد الرزاق والمفضل وعليّ بن أبي طلحة والبخاريّ وغيرهم . ثم إن محمد بن جرير رحمه الله جمع على الناس أشتات التفسير، وقرّب البعيد منها وشفى في الإسناد . ومن المبرّزين من المتأخرين أبو إسحاق الزجاج وأبو عليّ الفارسيّ؛ وأما أبو بكر النقاش وأبو جعفر النحاس فكثيرا ما استدرك الناس عليهما . وعلى سننهما مكيّ بن أبي طالب رضي الله عنه وأبو العباس المهدويّ متقن التأليف، وكلهم مجتهد مأجور رحمهم الله ونضّر وجوههم .

(١) اسمه باذام بمعجمة من أعلى، يروى عن مولاته أم هانئ كما في الخلاصة في أسماء الرجال .

المقدمة الأولى

باب تبيين الكتاب بالسنة وما جاء في ذلك

قال الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وفرض طاعته في غير آية من كتابه وقرنها بطاعته عز وجل ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ . ذكر ابن عبد البر في كتاب العلم له عن عبد الرحمن ابن يزيد : أنه رأى محرما عليه ثيابه فنهى المحرم ، فقال : ائتني بآية من كتاب الله تنزع ثيابي ، قال : فقرأ عليه ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ وعن هشام بن حجير[(1)] قال : كان طاوس يصلي ركعتين بعد العصر ، فقال ابن عباس : اتركهما ، فقال : إنما نهي عنهما أن تتخذا سنة ، فقال ابن عباس : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة بعد العصر ، فلا أدري أتعذب عليهما أم تؤجر ، لأن الله تعالى قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ . وروى أبو داود عن المقدام بن معديكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا وإني قد أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي ولا كل ذي ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه » .

قال الخطابي : قوله « أوتيت الكتاب ومثله معه » يحتمل وجهين من التأويل : أحدهما أن معناه أنه أوتي من الوحي الباطن غير المتلو ، مثل ما أعطي من الظاهر المتلو ؛ والثاني أنه أوتي الكتاب وحيا يتلى ، وأوتي من البيان مثله أي أذن له أن يبين ما في الكتاب فيعم ويخص ويزيد عليه ويشرع ما في الكتاب ؛ فيكون في وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن ؛ وقوله : « يوشك رجل شبعان » الحديث ، يحذر بهذا القول من مخالفة السنن التي سنها مما ليس له في القرآن ذكر على ما ذهبت إليه الخوارج والروافض ، فإنهم تعلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التي قد ضمنت بيان الكتاب ؛ قال : فتحيروا وضلوا ؛ قال والأريكة : السرير ، ويقال : إنه لا يسمى

---

(1) حجير بمهملة وجيم مصغر كما في الخلاصة في أسماء الرجال .

أريكة حتى يكون فى حجلة ، قال : وإنما أراد بالأريكة أصحاب الترفه والدعة الذين لزموا البيوت ولم يطلبوا العلم من مظانه ، وقوله : «إلا أن يستغنى عنها صاحبها» معناه أن يتركها صاحبها لمن أخذها استغناء عنها ، كقوله : ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ معناه تركهم الله استغناء عنهم ، وقوله : «فله أن يعقبهم بمثل قراه» هذا فى حال المضطر الذى لا يجد طعاما ويخاف التلف على نفسه ، فله أن يأخذ من مالهم بقدر قراه عوض ما حرموه من قراه . ويعقبهم يروى مشددا ومخففا من المعاقبة ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ أى فكانت الغلبة لكم فغنمتم منهم ، وكذلك لهذا أن يغنم من أموالهم بقدر قراه ؛ قال : وفى الحديث دلالة على أنه لا حاجة بالحديث الى أن يعرض على الكتاب ، فإنه مهما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حجة بنفسه ، قال : فأما ما رواه بعضهم أنه قال : «إذا جاءكم الحديث فأعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فخذوه وإن لم يوافقه فآتركوه» فانه حديث باطل لا أصل له .

ثم البيان منه صلى الله عليه وسلم على ضربين : بيان لمجمل فى الكتاب ، كبيانه للصلوات الخمس فى مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها ، وكبيانه لمقدار الزكاة ووقتها وما الذى تؤخذ منه من الأموال ، وبيانه لمناسك الحج ، قال صلى الله عليه وسلم إذ حج بالناس : «خذوا عنى مناسككم» وقال : «صلوا كما رأيتمونى أصلى» أخرجه البخارى . وروى ابن المبارك عن عمران بن حصين أنه قال لرجل : إنك رجل أحمق ، أتجد الظهر فى كتاب الله أربعا لا يجهر فيها بالقراءة ؟ ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا ، ثم قال : أتجد هذا فى كتاب الله تعالى مفسرا ! إن كتاب الله تعالى أبهم هذا ، وإن السنة تفسر هذا .

وروى الأوزاعىّ عن حسان بن عطية قال : كان الوحى ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضره جبريل بالسنة التى تفسر ذلك . وروى سعيد بن منصور : حدثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعىّ عن مكحول قال : القرآن أحوج الى السنة من السنة الى القرآن . وبه عن الأوزاعى قال : قال يحيى ابن أبى كثير : السنة قاضية على الكتاب ، وليس الكتاب بقاض على السنة . قال الفضل بن زياد : سمعت أبا عبد الله — يعنى أحمد بن حنبل — وسئل عن هذا الحديث الذى روى أن السنة قاضية على الكتاب ، فقال : ما أجسر على هذا ان أقوله ، ولكنى أقول : إن السنة تفسر الكتاب وتبينه .

[illegible] زيادة على حكم الكتاب كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، وتحريم الحمر الأهليـة ،وكل ذى ناب من السـباع ، والقضاء باليمين مع الشاهد وغير ذلك ، على ما يأتى بيـانه ان شاء الله تعالى .

باب كيفية التعلم والفقه لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وما جاء أنه سهل على من تقدّم العمل به دون حفظه

ذكر أبو عمـرو الدانى فى كتاب البيـان له باسناده عن عثمان وابن مسـعود وأبىّ : أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها الى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل ، فيعلمنا القـرآن والعمل جميعا . وذكر عبد الرزاق عن معمر عن عطاء بن السائب عن أبى عبـد الرحمن السلمىّ قال : كنا اذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التى بعـدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها . وفى موطإ مالك : أنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثمانى سنين يتعلمها . وذكر أبو بكر أحمد بن على بن ثابت الحافظ فى كتابه المسمّى[1] فى ذكر أسماء من روى عن مالك : عن مرداس بن محمد بن بلال الأشعرى قال : حدّثنا مالك عن نافع عن ابن عمر قال : تعلم عمر البقرة فى اثنتى عشرة سنة ، فلما ختمها نحر جزورا . وذكر أبو بكر الأنبارى : حدّثنى محمد بن شهريار حدّثنا حسين بن الأسود حدّثنا عبد[2] الله بن موسى عن زياد بن أبى مسلم أبى عمرو عن زياد بن مخراق قال : قال عبد الله بن مسعود : إنا يصعب علينا حفظ ألفاظ القرآن، و يسهل علينا العمل به ، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ ألفاظ القرآن ، و يصعب عليهم العمل به .

حدّثنا ابراهيم بن موسى حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا الفضل بن دكين حدّثنا اسماعيل بن ابراهيم ابن المهاجر عن أبيه عن مجاهـد عن ابن عمر قال : كان الفـاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السوره أو نحـوها ، و رزقوا العمل بالقرآن ؛ وإن آخر هـذه الأمة يقرءون القـرآن منهم الصبى والأعمى ولا يرزقون العمل به . حدّثنى حسن ابن عبد الوهاب أبو محمد بن أبى العنبر حدّثنا أبو بكر بن حماد المقرئ قال : سمعت خلف بن هشام

(١) هكذا فى النسخ التى وقفنا عليها .   (٢) فى بعض النسخ « عبيد الله » .

البزارى يقول : ما أظن القرآن إلا عارية فى أيدينا ، وذلك أنا روينا أن عمر بن الخطاب حفظ البقرة فى بضع عشرة سنة ، فلما حفظها نحر جزورا شكرا لله ؛ وإن الغلام فى دهرنا هـذا يجلس بين يدى فيقرأ ثلث القـرآن لا يسـقط منه حرفا ؛ فما أحسب القرآن إلا عارية فى أيدينا . وقال أهـل العلم بالحديث : لا ينبغى لطالب الحديث أن يقتصر على سماع الحديث وكتْبه ، دون معرفته وفهمه ، فيكون قـد أتعب نفسه من غير أن يظفر بطائل ، وليكن تحفظه للحديث على التدريج قليلا قليلا مع الليـالى والأيام . وممن ورد عنه ذلك من حفاظ الحديث شـعبة وابن عُلَيَّـة ومعمر ، قال معمر : سمعت الزهرى يقول : من طلب العلم جملة فاته جملة ، وإنما يدرك العلم حديثا وحديثين والله أعلم . وقال معاذ بن جبل : اعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا . قال ابن عبـد البر : وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مثل قول معاذ من رواية عباد بن عبد الصمد ، وفيـه زيادة أن العلماء همتهم الدراية ، وأن السفهاء همتهم الرواية . وروى موقوفا وهو أولى من رواية من رواه مرفوعا ، وعباد بن عبد الصمد ليس ممن يحتج به ، ولقد أحسن القائل فى نظمه فى فضل العلم وشرف الكتاب العزيز والسنة الغراء :

إن العـلوم وإن جلت محاسنها ... فتاجها مابه الإيمـان قد وجبا
هو الكتاب العـزيز الله يحفظه ... وبعـــد ذلك علم فـرّج الكربا
فذاك فاعلم حديث المصطفى فبه ... نور النبوة سنّ الشرع والأدبا
وبعد هـذا علوم لا انتهاء لهـا ... فاختر لنفسك يامن آثر الطلبا
والعـلم كنز تجـــده فى معادنه ... ياأيها الطالب ابحث وانظر الكتبا
واتل بفهم كتاب الله فيه أتت ... كل العـلوم تدبره تر العجبـا
واقرأ هديت حديث المصطفى وسل ... مولاك ما تشتهى يقضى لك الأربا
من ذاق طعما لعـلم الدين سرّبه ... اذا تزيّد منـــه قال واطـربا

الباب الثاني في معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه»

روى مسلم عن أبيّ بن كعب : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان عند أضاة[1] بني غفار ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف ، فقال : "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك" ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين ؛ فقال : «أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك» ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ؛ فقال: "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك" ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا . وروى الترمذي عنه قال : لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فقال : "يا جبريل إني بعثت إلى أمة أمية منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذي لا يقرأ كتابا قط فقال لي يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف" قال : هذا حديث حسن صحيح ، وثبت في الأمهات : البخاري ومسلم والموطإ وأبي داود والنسائي وغيرها من المصنفات والمسندات قصة عمر مع هشام بن حكيم ، وسيأتي بكماله في آخر الباب مبينا ان شاء الله تعالى .

وقد اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولا ذكرها أبو حاتم محمد ابن حبان البستيّ ، نذكر منها في هذا الكتاب خمسة أقوال :

الأول وهو الذي عليه أكثر أهل العلم كسفيان بن عيينة وعبد الله بن وهب والطبري والطحاوي وغيرهم : أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتقاربة بألفاظ مختلفة ، نحو أقبل وتعال وهلم . قال الطحاوي : وأبين ما ذكر في ذلك حديث أبي بكرة قال : جاء جبريل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : اقرأ على حرف ؛ فقال ميكائيل : استزده ، فقال : اقرأ على حرفين فقال ميكائيل : استزده حتى بلغ الى سبعة أحرف ؛ فقال : اقرأ فكل شاف كاف إلا ان تخلط آية رحمة بآية عذاب أو آية

(1) الأضاة : غدير صغير وقيل . هو مسيل الماء إلى الغدير . وهو موضع قريب من مكة فوق سرف . وغفار . قبيلة من كنانة .

عذابَ بآية رحمة، على نحو هلم وتعال وأقبل واذهب وأسرع وعجل. وروى ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب: أنه كان يقرأ: ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا ﴾ للذين آمنوا أمهلونا، للذين آمنوا أخرونا، للذين آمنوا ارقبونا. وبهذا الاسناد عن أبيّ كان يقرأ: ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ﴾ مروا فيه، سعوا فيه. وفي البخاري ومسلم قال الزهري: إنما هذه الأحرف في الأمر الواحد ليس يختلف في حلال ولا حرام.

قال الطحاوي: إنما كانت السعة للناس في الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم، لأنهم كانوا أميين لا يكتب إلا القليل منهم، فلما كان يشق على كل ذي لغة أن يتحول الى غيرها من اللغات، ولو رام ذلك لم يتهيأ له إلا بمشقة عظيمة، فوسع لهم في اختلاف الألفاظ إذ كان المعنى متفقا، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقدروا بذلك على تحفظ ألفاظه، فلم يسعهم حينئذ أن يقرءوا بخلافها. قال ابن عبد البر: فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كان في وقت خاص لضرورة دعت الى ذلك، ثم ارتفعت تلك الضرورة فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد.

روى أبو داود عن أبيّ قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أبيّ إني أقرئت القرآن فقيل لي على حرف أو حرفين فقال الملك الذي معي قل على حرفين فقيل لي على حرفين أو ثلاثة فقال الملك الذي معي قل على ثلاثة حتى بلغ سبعة أحرف ثم قال ليس منها الا شاف كاف إن قلت سميعا عليما، عزيزا حكيما، ما لم تخلط آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب". وأسند ثابت بن قاسم نحو هذا الحديث عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وذكر من كلام ابن مسعود نحوه. قال القاضي ابن الطيب: واذا ثبتت هذه الرواية — يريد حديث أبيّ — حمل على أن هذا كان مطلقا ثم نسخ، فلا يجوز للناس أن يبدلوا اسما لله تعالى في موضع بغيره مما يوافق معناه أو يخالف.

القول الثاني قال قوم: هي سبع لغات في القرآن على لغات العرب كلها: يمنها ونزارها، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجهل شيئا منها، وكان قد أوتي جوامع الكلم، وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه، ولكن هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن، فبعضه بلغة قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن قال الخطابي: على أن في القرآن ما قد

قرئ بسبعة أوجه، وهو قوله : ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ . وقوله : ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ وذكر وجوها كأنه يذهب الى أن بعضه أنزل على سبعة أحرف لا كله، والى هذا القول بأن القرآن أنزل على سبعة أحرف على سبع لغات، ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام واختاره ابن عطية قال أبو عبيد : وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حظا فيها من بعض ، وذكر حديث ابن شهاب عن أنس أن عثمان قال لهم حين أمرهم أن يكتبوا المصاحف : ما اختلفتم أنتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش ، فانه نزل بلغتهم . ذكره البخارى وذكر حديث ابن عباس قال : نزل القرآن بلغة الكعبين كعب قريش وكعب خزاعة قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لان الدار واحدة . قال أبو عبيد : يعنى أن خزاعة جيران قريش فأخذوا بلغتهم .

قال القاضى ابن الطيب رضى الله عنه : معنى قول عثمان : فإنه نزل بلسان قريش، يريد معظمه وأكثره ، ولم تقم دلالة قاطعة على أن القرآن بأسره منزل بلغة قريش فقط ، إذ فيه كلمات وحروف وهى خلاف لغة قريش، وقد قال الله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ ولم يقل قرشيا، وهذا يدل على أنه منزل بجميع لسان العرب ، وليس لأحد أن يقول : إنه أراد قريشا من العرب دون غيرها ، كما أنه ليس له أن يقول : أراد لغة عدنان دون قحطان، أو ربيعة دون مضر، لان اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولا واحدا .

وقال ابن عبد البر : قول من قال : إن القرآن نزل بلغة قريش معناه عندى فى الأغلب والله أعلم، لأن غير لغة قريش موجود فى صحيح القراءات من تحقيق الهمزات ونحوها ، وقريش لا تهمز . وقال ابن عطية : معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم : «أنزل القرآن على سبعة أحرف» أى فيه عبارة سبع قبائل بلغة جملتها نزل القرآن، فيعبر عن المعنى فيه مرة بعبارة قريش، ومرة بعبارة هذيل، ومرة بغير ذلك بحسب الأفصح والأوجز فى اللفظ، ألا ترى أن فطر معناه عند غير قريش ابتدأ بفاطر فى القرآن فلم تتجه لابن عباس ، حتى اختصم اليه أعرابيان فى بئر، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، قال ابن عباس : ففهمت حينئذ موقع قوله تعالى : ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ . وقال أيضا : ما كنت أدرى معنى قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ . حتى سمعت بنت ذى يزن تقول لزوجها : تعالى أفاتحك أى أحاكمك ، وكذلك قال عمر بن الخطاب وكان لا يفهم معنى قوله تعالى : ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ

عَلَى تَخَوُّفٍ ﴾ أى على تنقص لهم . وكذلك اتفق لقطبة بن مالك إذ سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصلاة : ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ ذكره مسلم في باب القراءة في صلاة الفجر إلى غير ذلك من الأمثلة .

القول الثالث : أن هـذه اللغات السبع انمـا تكون فى مضر قاله قوم ، واحتجوا بقول عثمان : نزل القرآن بلغة مضر، وقالوا : جائز أن يكون منها لقريش، ومنها لكنانة، ومنها لأسد، ومنها لهذيل، ومنها لتيم، ومنها لضبة، ومنها لقيس، قالوا : فهذه قبائل مضر تستوعب سبع لغات على هذه المراتب؛ وقد كان ابن مسعود يحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر. وأنكرآخرون أن تكون كلها فى مضر، وقالوا : فى مضر شـواذ لا يجوز أن يقرأ القـرآن بها ، مثل كشكشة قيس، وتمتمة تميم، فأما كشكشة قيس فانهم يجعلون كاف المؤنث شينا فيقولون فى : ﴿ جَعَـلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ . جعل ربش تحتش سريا ،وأما تمتمة تميم فيقولون فى الناس : النات ،وفى أكياس : أكيات، قالوا : وهذه لغات يرغب عن القرآن بها ولا يحفظ عن السلف فيها شيء .

وقال آخرون : أما إبدال الهمزة عينا وإبدال حروف الحلق بعضها من بعض فمشهور عن الفصحاء، وقـد قرأ به الجلة واحتجوا بقراءة ابن مسعود : ليسجننه عتى حيـن ذكرها أبو داود ، وبقول ذى الرمة :

فعيناك عيناها وجيدك جيدها * ولونك إلا عنّهـا غير طائل

القول الرابع : ما حكاه صاحب الدلائل عن بعض العلماء وحكى نحوه القاضي ابن الطيب قال : تدبرت وجوه الاختلاف فى القراءة فوجدتها سبعا : منها ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته، مثـل : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ وأطهرَ، ﴿ ويضيقُ صـدرى ﴾ ويضيقَ ، ومنها ما لا تتغير صورته ويتغير معناه بالإعراب : مثل ﴿ رَبَّنَا بَاعَدَ بين أسفارنا ﴾ وباعِدْ، ومنها ما تبقى صورته ويتغير معناه باختلاف الحروف، مثل قوله : ﴿ نُنْشِزُها ﴾ وننشرها ومنها ما تتغير صورته ويبقى معناه : ﴿ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ وكالصوف المنفوش، ومنها ما تتغير صـورته ومعناه، مثـل : ﴿ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴾ وطلع منضود، ومنها بالتقديم والتأخير كقوله : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ وجاءت سكرة الحق بالموت؛ ومنها بالزيادة والنقصان مثل قوله : تسع وتسـعون نعجة أنثى وقوله : وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين وقوله : فان الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم .

القول الخامس : أن المراد بالأحرف السبعة معانى كتاب الله تعالى ، وهى أمر ونهى و وعد ووعيد وقصص ومجادلة وأمثال . قال ابن عطية : وهذا ضعيف لأن هذا لا يسمى أحرفا ، وأيضا فالاجماع على أن التوسعة لم تقع فى تحليل حلال ولا فى تغيير شىء من المعانى . وذكر القاضى ابن الطيب فى هــذا المعنى حديثا عن النبىّ صلى الله عليــه وسلم ، ثم قال : ولكن ليست هذه هى التى أجاز لهم القراءة بها ، وإنما الحرف فى هذه بمعنى الجهة والطريقة ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ فكذلك معنى هذا الحديث على ســبع طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك . وقد قيل : إن المراد بقوله عليــه السلام : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » القراءات السبع التى قرأ بها القراء السبعة ، لأنها كلهــا صحت عن رســول الله صلى الله عليه وسلم ، وهــذا ليس بشىء لظهور بطلانه على ما يأتى .

(فصل) قال كثير من علمائنا كالداودى وابن أبى صفرة وغيرهما : هذه القراءات السبع التى تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هى الأحرف السبعة التى اتسعت الصحابة فى القراءة بها ، وإنما هى راجعة الى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذى جمع عليــه عثمان المصحف ، ذكره ابن النحاس وغيره ؛ وهذه القراءات المشهورة هى اختيارات أولئك الأئمة القراء ، وذلك أن كل واحد منهم اختار فيما روى وعلم وجهه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى ، فالتزمه طريقة ورواه وأقرأ به واشتهر عنه ، وعرف به ونسب اليه ، فقيل : حرف نافع ، وحرف ابن كثير ، ولم يمنع واحد منهم اختيار الآخر ولا أنكره بل سوّغه وجوّزه ، وكل واحد من هؤلاء السبعة روى عنه اختياران أو أكثر وكل صحيح ، وقد أجمع المسلمون فى هذه الأعصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة مما رووه ورأوه من القراءات وكتبوا فى ذلك مصنفات ، فاستمر الاجماع على الصواب ، وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب ؛ وعلى هذا الأئمة المتقــدمون والفضلاء المحققون كالقاضى أبى بكر بن الطيب والطبرى وغيرهما . قال ابن عطية : ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة وبها يصلى لأنها ثبتت بالاجماع ؛ وأما شاذ القراءات فلا يصلى به لأنه لم يجمع الناس عليه ، أما أن المروى منه عن الصحابة رضى الله عنهم وعن علماء التابعين فلا يعتقد فيه إلا أنهم رووه ، وأما ما يؤثر عن أبى السمال ومن قارنه فإنه لا يوثق به ؛ قال غيره : أما شــاذ القراءة عن المصاحف المتــواترة فليست بقرآن ، ولا يعمل بها على أنهــا منه ،

وأحسن محاملها أن تكون بيان تأويل مذهب من نسبت اليه كقراءة ابن مسعود : فصيام ثلاثة أيام متتابعات، فأما لو صرح الراوى بسماعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاختلف العلماء فى العمل بذلك على قولين : النفى والاثبات، ووجه النفى أن الراوى لم يروه فى معرض الخبر بل فى معرض القرآن. ولم يثبت فلا يثبت، والوجه الثانى أنه وإن لم يثبت كونه قرآنا فقد ثبت كونه سنة، وذلك يوجب العمل كسائر أخبار الاحاد .

فصل فى ذكر معنى حديث عمر وهشام . قال ابن عطية : أباح الله تعالى لنبيه عليه السلام هذه الحروف السبعة وعارضه بها جبريل عليه السلام فى عرضاته على الوجه الذى فيه الإعجاز وجودة الرصف، ولم تقع الإباحة فى قوله عليه السلام : « فاقرءوا ما تيسر منه » بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدل اللفظة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه، ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن، وكان معرضا أن يبدل هذا وهذا حتى يكون غير الذى نزل من عند الله، وإنما وقعت الإباحة فى الحروف السبعة للنبى صلى الله عليه وسلم ليوسع بها على أمته، فأقرأ مرة لأبى بما عارضه به جبريل، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضا، وعلى هذا تجىء قراءة عمر بن الخطاب لسورة الفرقان، وقراءة هشام بن حكيم لها، وإلا فكيف يستقيم أن يقول النبى صلى الله عليه وسلم فى كل قراءة منهما، وقد اختلفتا : « هكذا أقرأنى جبريل » هل ذلك إلا أنه أقرأه مرة بهذه ومرة بهذه وعلى هذا يحمل قول أنس حين قرأ : إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأصوب قيلا فقيل له : إنما نقرأ وأقوم قيلا. فقال أنس : وأصوب قيلا وأقوم قيلا وأهيأ واحد، فانما معنى هذا أنها مروية عن النبى صلى الله عليه وسلم، وإلا فلو كان هذا لأحد من الناس أن يضعه لبطل معنى قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ . روى البخارى ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنيها، فكدت أن أعجل عليه ، ثم أمهلته حتى انصرف ثم لببته بردائه، فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله، إنى سمعت هذا يقرأ سوره الفرقان على غير ما أقرأتنيها ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أرسله، اقرأ" فقرأ القراءة التى سمعته يقرأ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"هكذا أنزلت" ثم قال لى : "اقرأ" فقرأت فقال : "هكذا أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه" .

قلت : وفى معنى حديث عمر هذا، ما رواه مسلم عن أبىّ بن كعب قال : كنت فى المسجد فدخل رجل يصلى، فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما النبىّ صلى الله عليه وسلم، فقرآ فحسّن النبىّ صلى الله عليه وسلم شأنهما، فسقط فى نفسى من التكذيب ولا إذ كنت فى الجاهلية، فلما رأى النبىّ صلى الله عليه وسلم ما قد غشينى، ضرب فى صدرى ففضت عرقا . وكأنى أنظر الى الله تعالى فرقا، فقال : "يا أبىّ أرسل الىّ أن أقرأ القرآن على حرف فرددت اليه أن هوّن على أمتى فردّ الىّ الثانية أن أقرأه على حرفين فرددت اليه أن هوّن على أمتى فردّ الىّ الثالثة أن أقرأه على سبعة أحرف ولك بكل ردّة رددتكها مسألة تسألنيها فقلت : اللهم اغفر لأمتى وأخرت الثالثة ليوم يرغب الىّ فيه الخلق كلهم حتى ابراهيم عليه السلام" .

قول أبىّ رضى الله عنه فسقط فى نفسى معناه اعترتنى حيرة ودهشة أى أصابته نزعة من الشيطان ليشوّش عليه حاله، ويكدر عليه وقته؛ فانه عظم عليه من اختلاف القراءات ما ليس عظيما فى نفسه والا فأىّ شىء يلزم من المحال والتكذيب من اختلاف القراءات، ولم يلزم ذلك والحمد لله فى النسخ الذى هو أعظم، فكيف بالقراءة !

ولما رأى النبىّ صلى الله عليه وسلم ما أصابه من ذلك الخاطر نبهه بأن ضرب به فى صدره، فأعقب ذلك بأن انشرح صدره وتنوّر باطنه، حتى آل به الكشف والشرح إلى حالة المعاينة؛ ولما ظهر له قبح ذلك الخاطر خاف من الله تعالى وفاض بالعرق استحياء من الله تعالى، فكان هذا الخاطر من قبيل ما قال فيه النبىّ صلى الله عليه وسلم — حين سألوه : إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به — قال : "وقد وجدتموه" قالوا : نعم قال. "ذلك صريح الإيمان" أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة . وسيأتى الكلام عليه فى سورة الأعراف ان شاء الله تعالى .

باب ذكر جمع القرآن وسبب كتب عثمان المصاحف وإحراقه ما سواها وذكر من حفظ القرآن من الصحابة رضى الله عنهـم فى زمن النبي صـــلى الله عليــه وســـلم

كان القرآن فى مدة النبي صلى الله عليه وسلم متفرقا فى صدور الرجال، وقد كتب الناس منـه فى صحف وفى جريد وفى لِخاف وظُرَر وفى خزف وغير ذلك — قال الأصمعي : اللخاف : حجارة بيض رقاق واحدتها لَخْفة . والظرر : حجر له حد كحد السكين والجمع ظرار، مثل رطب ورطاب، ورُبَع ورباع، وظرزان أيضا مثل صرد وصردان — فلما استحر القتل بالقراء يوم اليمامة فى زمن الصديق رضى الله عنه، وقتل منهم فى ذلك اليوم فيما قيل سبعمائة، أشار عمر بن الخطاب على أبى بكر الصديق رضى الله عنهما بجمع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القرّاء، كأُبَيّ وابن مسعود وزيد، فندبا زيد بن ثابت الى ذلك، فجمعه غير مرتب السور، بعد تعب شديد، رضى الله عنه؛ روى البخارى عن زيد بن ثابت قال : أرسل إلىّ أبو بكر مقتلَ أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه، وإنى لأرى أن تجمع القرآن؛ قال أبو بكر : فقلت لعمر كيف أفعل شيئا لم يفعــله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : هو والله خير، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لذلك صدرى، ورأيت الذى رأى عمر؛ قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم، فقال لى أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك، كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن، قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أبو بكر : هو والله خير، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف[1] والعُسُب[2] وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصارى لم أجدهما مع

(١) الأكتاف : جمع كتف وهو عظم عريض يكون فى أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم .

(٢) العسب : جمع عسيب وهو جريد النخل إذا نزع عنه خوصه .

فيه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ إلى آخرها . فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر . وقال الليث حدثني عبد الرحمن بن خالد عن ابن شهاب وقال : مع أبي خزيمة الأنصاري ، وقال أبو ثابت حدثنا ابراهيم وقال : مع خزيمة أو أبي خزيمة ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ .

وقال الترمذي في حديثه عنه : فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ . قال : حديث حسن صحيح .

وفي البخاري عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا الصحف في المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب ، كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصاري الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ . وقال الترمذي عنه : فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ فالتمستها فوجدتها عند خزيمة بن ثابت أو أبي خزيمة ، فألحقتها في سورتها . قلت : فسقطت الآية الأولى من آخر براءة في الجمع الأول ، على ما قاله البخاري والترمذي ، وفي الجمع الثاني فقدت آية من سورة الأحزاب . وحكى الطبري : أن آية براءة سقطت في الجمع الأخير ، والأول أصح والله أعلم . فإن قيل : فما وجه جمع عثمان الناس على مصحفه ، وقد سبقه أبو بكر إلى ذلك وفرغ منه ؛ قيل له : إن عثمان رضي الله عنه لم يقصد بما صنع جمع الناس على تأليف المصحف ، ألا ترى كيف أرسل إلى حفصة : أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك على ما يأتي ؛ وإنما فعل ذلك عثمان لأن الناس اختلفوا في القراءات بسبب تفرق الصحابة في البلدان واشتد الأمر في ذلك ، وعظم اختلافهم وتشبثهم ؛ ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة رضي الله عنه ، وذلك أنهم اجتمعوا في غزوة أرمينية فقرأت كل طائفة بما روي لها ؛ فاختلفوا وتنازعوا وأظهر بعضهم إكفار بعض والبراءة منه وتلاعنوا ، فأشفق حذيفة مما رأى منهم ؛ فلما قدم حذيفة المدينة فيما ذكر البخاري

والترمذي دخل الى عثمان قبل أن يدخل الى بيته ، فقال أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك ، قال : فماذا ؟ قال : في كتاب الله ، إني حضرت هذه الغزوة وجمعت ناسا من العراق والشام والحجاز ، فوصف له ما تقدم وقال : إني أخشى عليهم أن يختلفوا في كتابهم كما اختلف اليهود والنصارى .

قلت : وهذا أدل دليل على بطلان من قال : إن المراد بالأحرف السبعة قراءات القراء السبعة ، لأن الحق لا يختلف فيه ، وقد روى سُوَيد بن غَفَلة عن علي بن أبي طالب أن عثمان قال : ما ترون في المصاحف فإن الناس قد اختلفوا في القراءة حتى إن الرجل ليقول : إن قراءتي خير من قراءتك ، وقراءتي أفضل من قراءتك ، وهذا شبيه بالكفر ، قلنا : ما الرأي عندك يا أمير المؤمنين ؟ قال : الرأي عندي أن يجتمع الناس على قراءة ، فإنكم إذا اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافا ، قلنا : الرأي رأيك يا أمير المؤمنين . فأرسل عثمان الى حفصة : أن أرسلي الينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردّها اليك ، فأرسلت بها اليه فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين : اذا اختلفتم أنتم وزيد ابن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى اذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف الى حفصة ، وأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سوى ذلك من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق ، وكان هذا من عثمان رضي الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجلة أهل الاسلام وشاورهم في ذلك ، فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت من القراءات المشهورة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم واطّراح ما سواها ، واستصوبوا رأيه وكان رأيا سديدا موفقا رحمة الله عليه وعليهم أجمعين . وقال الطبري فيما روى : إن عثمان قرن بزيد أبان ابن سعيد بن العاصي وحده وهذا ضعيف . وما ذكره البخاري والترمذي وغيرهما أصح ، وقال الطبري أيضا : إن الصحف التي كانت عند حفصة جعلت إماما في هذا الجمع الأخير ، وهذا صحيح .

قال ابن شهاب : وأخبرني عبيد الله بن عبد الله أن عبد الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف ، وقال : يامعشر المسلمين ، اعزل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل ، والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر! — يريد زيد بن ثابت — ولذلك قال عبد الله بن مسعود : يا أهل العراق اكتموا المصاحف التي عندكم وغلوها ، فإن الله عز وجل يقول : ﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ

يوم القيامة » فالقوا الله بالمصاحف ، خرجه الترمذى . وسيأتى الكلام فى هــذا فى سورة آل عمران ان شاء الله تعالى .

قال أبو بكر الأنبارى : ولم يكن الاختيار لزيد من جهة أبى بكر وعمر وعثمان على عبــد الله ابن مسعود فى جمع القرآن ، وعبد الله أفضل من زيد ، وأقدم فى الإسلام ، وأكثر سوابق ، وأعظم فضائل ، إلا لأن زيدا كان أحفظ للقرآن من عبد الله إذ وعاه كله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم حى ، والذى حفظ منه عبد الله فى حياة رسول الله صلى الله عليــه وسلم نيف وسبعون سورة ، ثم تعلم الباقى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فالذى ختم القرآن وحفظه ورسول الله صلى الله عليه وسلم حى ، أولى بجمع المصحف وأحق بالإيثار والاختيار ، ولا ينبغى أن يظن جاهل أن فى هــذا طعنا على عبد الله بن مسعود ، لأن زيدا اذا كان أحفظ للقرآن منه فليس ذلك موجبا لتقدمته عليه ، لأن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كان زيد أحفظ منهما للقرآن ، وليس هو خيرا منهما ولا مساويا لهما فى الفضائل والمناقب . قال أبو بكر : وما بدا من عبد الله بن مسعود من نكير ذلك فشىء نتجه الغضب ، ولا يعمل به ولا يؤخذ به ، ولا يشك فى أنه رضى الله عنــه قد عرف بعــد زوال الغضب عنــه حسن اختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبقى على موافقتهم وترك الخلاف لهم ، فالشائع الذائع المتعالم عند أهل الرواية والنقل : أن عبد الله بن مسعود تعلم بقية القرآن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال بعض الأئمة : مات عبد الله بن مسعود قبل أن يختم القرآن . قال يزيد بن هارون : المعوذتان بمنزلة البقرة وآل عمران من زعم أنهما ليسا من القرآن فهو كافر بالله العظيم ، فقيل له : فقول عبد الله بن مسعود فيهما؟ فقال : لا خلاف بين المسلمين فى أن عبد الله بن مسعود مات وهو لا يحفظ القرآن كله . قلت : هذا فيه نظر وسيأتى ، وروى اسماعيل بن اسحاق وغيره قال حماد : أظنه عن أنس بن مالك ، قال : كانوا يختلفون فى الآية فيقولون أقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلان بن فلان ، فعسى أن يكون من المدينة على ثلاث ليال فيرسل اليه فيجاء به ، فيقال : كيف أقرأك رسول الله صلى الله عليه وسلم آية كذا وكذا ؟ فيكتبون كما قال . قال ابن شهاب : واختلفوا يومئذ فى التابوت ، فقال زيد : التابوه ، وقال ابن الزبير وسعيد بن العاصى التابوت ، فرفع اختلافهم الى عثمان فقال : اكتبوه بالتاء ، فإنه نزل بلسان قريش أخرجه البخارى والترمذى . قال ابن عطية :

قرأه زيد بالهاء والقرشيون بالتاء، فأثبتوه بالتاء وكتبت المصاحف على ما هو عليه غابر الدهر، ونسخ منها عثمان نسخا، قال غيره : قيل سبعة وقيل أربعة وهو الأكثر، ووجه بها الى الآفاق ، فوجه للعراق والشام ومصر بأمهات، فاتخذها قراء الأمصار معتمد اختياراتهم ولم يخالف أحد منهم مصحفه على النحو الذى بلغه ، وما وجد بين هؤلاء القراء السبعة من الاختلاف فى حروف يزيدها بعضهم وينقصها بعضهم فذلك لأن كلا منهم اعتمد على ما بلغه فى مصحفه ورواه، إذ قد كان عثمان كتب تلك المواضع فى بعض النسخ ولم يكتبها فى بعض إشعارا بأن كل ذلك صحيح ، وأن القراءة بكل منها جائزة . قال ابن عطية : ثم إن عثمان أمر بما سواها من المصاحف أن تحرق أو تخرق، تروى بالحاء غير منقوطة وتروى بالخاء على معنى ثم تدفن؛ ورواية الحاء غير منقوطة أحسن .

وذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرد عن سويد بن غفلة قال : سمعت علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه يقول : يامعشر الناس اتقوا الله وإياكم والغلو فى عثمان وقولكم : حراق المصاحف، فوالله ما حرقها الا عن ملإ منا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وعن عمر بن سعيد قال : قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لوكنت الوالى وقت عثمان لعملت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان ، قال أبو الحسن بن بطال : وفى أمر عثمان بتحريق الصحف والمصاحف حين جمع القرآن جواز تحريق الكتب التى فيها أسماء الله تعالى، وأن ذلك إكرام لها وصيانة عن الوطء بالأقدام، وطرحها فى ضياع من الأرض . روى معمر عن ابن طاوس عن أبيه : أنه كان يحرق الصحف اذا اجتمعت عنده الرسائل فيها بسم الله الرحمن الرحيم . وحرق عروة بن الزبير كتب فقه كانت عنده يوم الحرة، وكره إبراهيم أن تحرق الصحف اذا كان فيها ذكر الله تعالى، وقول من حرقها أولى بالصواب، وقد فعله عثمان؛ وقد قال القاضى أبو بكر لسان الأمة : جائز للامام تحريق الصحف التى فيها القرآن ، اذا أداه الاجتهاد الى ذلك .

فصل — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وفى فعل عثمان رضى الله عنه رد على الحلولية والحشوية (١) القائلين بقدم الحروف والأصوات، وأن القراءة والتلاوة قديمة، وأن الايمان قديم، والروح قديم؛

(١) الحلولية : فرقة من المتصوفة تقول : إن الله حال فى كل شيء وفى كل جزء منه متحد به حتى جوزوا أن يطلق على كل شيء أنه الله . والحشوية طائفة من المبتدعة تمسكوا بالظواهر وذهبوا الى التجسيم وغيره .

[illegible] الأزل أئمة من النصارى واليهود والبراهمة بل كل ملحد وموحد أن القديم لا يفعل لا تتعلق به قدرة قادر بوجه ولا بسبب ، ولا يجوز العدم على القديم وأن القديم لا يصير محدثا ، والمحدث لا يصير قديما ، وأن القديم مالا أول لوجوده ، وأن المحدث هو ما كان بعد أن لم يكن ، وهذه الطائفة خرقت إجماع العقلاء من أهل الملل وغيرهم ، فقالوا : يجوز أن يصير المحدث قديما ، وأن العبد اذا قرأ كلام الله تعالى فعل كلاما لله قديما ، وكذلك اذا نحت حروفا من الآجر والخشب ، أو صاغ أحرفا من الذهب والفضة ، أو نسج ثوبا فنقش عليه آية من كتاب الله فقد فعل هؤلاء كلام الله قديما ، وصار كلامه منسوجا قديما ومنحوتا قديما ومصوغا قديما ، فيقال لهم : ما تقولون فى كلام الله تعالى : أيجوز أن يذاب ويمحى ويحرق ؟ فان قالوا : نعم ، فارقوا الدين ، وان قالوا : لا ، قيل لهم : فما قولكم فى حروف مصورة آية من كتاب الله تعالى من شمع ، أو ذهب أو فضة أو خشب أو كاغد فوقعت فى النار فذابت واحترقت فهل تقولون : إن كلام الله احترق ؟ فان قالوا : نعم ، تركوا قولهم ، وإن قالوا : لا قيل لهم : أليس قلتم : إن هذه الكتابة كلام الله وقد احترقت ! وقلتم : إن هذه الأحرف كلامه وقد ذابت ؟ فان قالوا : احترقت الحروف وكلامه تعالى باق ، رجعوا الى الحق والصواب ودانوا بالجواب ، وهو الذى قاله النبى صلى الله عليه وسلم ، منبها على ما يقوله أهل الحق : «ولو كان القرآن فى إهاب ثم وقع فى النار ما احترق» وقال الله عز وجل : "أنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان" الحديث أخرجه مسلم فثبت بهذا أن كلامه سبحانه ليس بحرف ولا يشبه الحروف . والكلام فى هذه المسألة يطول وتتميمها فى كتب الأصول ، وقد بيناها فى «الكتاب الأسنى» فى شرح أسماء الله الحسنى» .

فصل — وقد طعن الرافضة — قبحهم الله تعالى — فى القرآن ، وقالوا : إن الواحد يكفى فى نقل الآية والحرف كما فعلتم ، فانكم اثبتم بقول رجل واحد وهو خزيمة بن ثابت وحده آخر سورة براءة ، وقوله : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ فالجواب أن خزيمة رضى الله عنه لما جاء بهما تذكرهما كثير من الصحابة ، وقد كان زيد يعرفهما ، ولذلك قال : فقدت آيتين من آخر سورة التوبة ولو لم يعرفهما لم يدر هل فقد شيئا أو لا فالآية انما ثبتت بالإجماع لا بخزيمة وحده . جواب ثان انما ثبتت بشهادة خزيمة وحده لقيام الدليل على صحتها فى صفة النبى صلى الله عليه وسلم ، فهى قرينة تغنى عن طلب شاهد آخر بخلاف آية

الأحزاب [illegible] بشهادة زيد وأبي خزيمة لسماعهما إياها من النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال معناه المهلب ، وذكر أن خزيمة غير أبي خزيمة ، وأن أبا خزيمة الذي وجدت معه آية التوبة معروف من الأنصار ، وقد عرفه أنس وقال : نحن ورثناه ، والتي في الأحزاب وجدت مع خزيمة بن ثابت فلا تعارض ، والقصة غير القصة لا إشكال فيها ولا التباس . وقال ابن عبد البر : أبو خزيمة لا يوقف على صحة اسمه وهو مشهور بكنيته ، وهو أبو خزيمة بن أوس بن يزيد بن أصرم بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار ، شهد بدرا وما بعدها من المشاهد ، وتوفي في خلافة عثمان بن عفان ، وهو أخو مسعود بن أوس ، قال ابن شهاب عن عبيد بن السباق عن زيد بن ثابت : وجدت آخر التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري وهو هذا ؛ وليس بينه وبين الحارث بن خزيمة(1) نسب إلا اجتماعهما في الأنصار ، أحدهما أوسي والآخر خزرجي . وفي مسلم والبخاري عن أنس بن مالك قال : جمع القرآن على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار : أبيّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد . قلت لأنس : من أبو زيد ؟ قال : أحد عمومتي . وفي البخاري أيضا عن أنس قال : مات النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد ، وأبو زيد ، ونحن ورثناه . وفي أخرى قال : مات أبو زيد ولم يترك عقبا ، وكان بدريا ، واسم أبي زيد سعد بن عبيد . قال ابن الطيب رضي الله عنه : لا تدل هذه الآثار على أن القرآن لم يحفظه في حياة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولم يجمعه غير أربعة من الأنصار كما قال أنس بن مالك ، فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان وعلي وتميم الداريّ وعبادة بن الصامت وعبد الله ابن عمرو بن العاص ، فقول أنس : لم يجمع القرآن غير أربعة يحتمل أنه لم يجمع القرآن وأخذه تلقينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير تلك الجماعة ، فان أكثرهم أخذ بعضه عنه وبعضه عن غيره ، وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم لأجل سبقهم الى الاسلام ، وإعظام الرسول صلى الله عليه وسلم لهم . قلت : لم يذكر القاضي ، عبد الله بن

---

(1) في الأصل الحارث بن خزيمة أبي خزيمة والصحيح أبي خزيمة مزيد والحارث بن خزيمة هذا قيل أنه هو الذي وجد معه آخر سورة التوبة . فلهذا ذكرنا للاشارة الى ذلك .

مسعود وسالما مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما فيما رأيت، وهذا ممن جمع القرآن . وروى جرير عن عبد الله بن يزيد الصهباني عن كميل قال :

قال عمر بن الخطاب : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر ومن شاء الله ، فمررنا بعبد الله بن مسعود وهو يصلي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"من هذا الذي يقرأ القرآن"، فقيل له : هذا عبد الله بن أم عبد، فقال : " إن عبد الله يقرأ القرآن غضا كما أنزل" . الحديث ، قال بعض العلماء : معنى قوله : «غضا كما أنزل» أي أنه كان يقرأ الحرف الأول الذي أنزل عليه القرآن دون الحروف السبعة التي رخص لرسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءته عليها بعد معارضة جبريل عليه السلام القرآن إياه في كل رمضان . وقد روى وكيع وجماعة معه عن الأعمش عن أبي ظبيان قال :

قال لي عبد الله بن عباس : أي القراءتين تقرأ؟ قلت : القراءة الأولى قراءة ابن أم عبد ؛ فقال لي : بل هي الآخرة ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعرض القرآن على جبريل في كل عام مرة، فلما كان العام الذي قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضه عليه مرتين، فحضر ذلك عبد الله فعلم ما نسخ من ذلك وما بدل . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «خذوا القرآن من أربعة من ابن أم عبد» . فبدأ به : «ومعاذ ابن جبل وأبي بن كعب وسالم مولى أبي حذيفة» . قلت : هذه الأخبار تدل على أن عبد الله جمع القرآن في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما تقدم، والله أعلم .

وقد ذكر أبو بكر الأنباري في كتاب الرد . حدثنا محمد بن شهريار حدثنا حسين بن الأسود حدثنا يحيى بن آدم عن أبي بكر عن أبي إسحاق قال : قال عبد الله بن مسعود : قرأت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتين وسبعين سورة أو ثلاثا وسبعين سورة، وقرأت عليه من البقرة الى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ . قال أبو إسحاق : وتعلم عبد الله بقيه القرآن من مجمع ابن جارية الأنصاري . قلت : فإن صح هذا صح الإجماع الذي ذكره يزيد بن هارون فلذلك لم يذكره القاضي أبو بكر بن الطيب مع من جمع القرآن وجعله في حياة النبي صلى الله عليه وسلم والله أعلم .

قال أبو بكر الأنباري : حدثني ابراهيم بن موسى الخوري حدثنا يوسف بن موسى حدثنا مالك بن اسماعيل حدثنا زهير عن أبي إسحاق قال : سألت الأسود ما كان عبد الله يصنع بسورة الأعراف ؟

فقال : ما كان يعلمها حتى قدم الكوفة ؛ قال : وقد قال بعض أهل العلم : مات عبد الله بن مسعود رحمة الله عليه قبل أن يتعلم المعوذتين ، فلهذه العلة لم توجدا فى مصحفه ، وقيل : غير هذا على ما يأتى بيانه آخر الكتاب عند ذكر المعوذتين ان شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : والحديث الذى حدثناه ابراهيم بن موسى حدثنا يوسف بن موسى حدثنا عمر بن هارون الخراسانى عن ربيعة بن عثمان عن محمد بن كعب القرظى قال : كان ممن ختم القرآن ورسول الله صلى الله عليه وسلم حى عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود ، حديث ليس بصحيح عند أهل العلم ، إنما هو مقصور على محمد بن كعب فهو مقطوع لا يؤخذ به ولا يعوّل عليه . قلت : قوله عليه السلام : «خذوا القرآن من أربعة من ابن أم عبد» . يدل على صحته ومما يبين لك ذلك أن أصحاب القراءات من أهل الحجاز والشام والعراق كل منهم عزا قراءته التى اختارها الى رجل من الصحابة قرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يستثن من جملة القرآن شيئا ، فأسند عاصم قراءته الى على وابن مسعود ، وأسند ابن كثير قراءته الى أبىّ ، وكذلك أبو عمرو ابن العلاء أسند قراءته الى أبىّ ، وأما عبد الله بن عامر فانه أسند قراءته الى عثمان ، وهؤلاء كلهم يقولون : قرأنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسانيد هذه القراءات متصلة ورجالها ثقات قاله الخطابىّ .

باب ما جاء فى ترتيب سور القرآن وآياته وشكله ونقطه وتحزيبه وتعشيره وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وآيه

قال ابن الطيب : إن قال قائل : قد اختلف السلف فى ترتيب سور القرآن ، فمنهم من كتب فى مصحفه السور على تاريخ نزولها ، وقدّم المكىّ على المدنىّ ، ومنهم من جعل فى أوّل مصحفه الحمد ، ومنهم من جعل فى أوّله : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ وهذا أوّل مصحف على رضى الله عنه ؛ وأما مصحف ابن مسعود فإن أوّله : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ثم البقرة ثم النساء على ترتيب مختلف ؛ ومصحف أبىّ كان أوّله الحمد لله ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام ثم الأعراف ثم المائدة ثم كذلك على اختلاف شديد . قال القاضى أبو بكر بن الطيب : فالجواب أنه يحتمل أن يكون ترتيب السور على ما هى عليه اليوم فى المصحف كان على وجه الاجتهاد من الصحابة . وذكر ذلك مكىّ رحمه الله فى تفسير سورة

براءة، وذكر أن ترتيب الآيات فى السور ووضع البسملة فى الأوائل هو من النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولمــا لم يأمر بذلك فى أول سورة براءة تركت بلا بسملة، هذا أصح ما قيل فى ذلك وسيأتى .

وذكر ابن وهب فى جامعه قال : سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يُسأل : لم قدمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة، وإنمــا نزلتا بالمدينة؟ فقال ربيعة : قد قدمتا وألف القرآن على علم ممن ألفــه ، وقد اجتمعوا على العلم بذلك ، فهذا ممــا ينتهى إليه، ولا يسأل عنــه . وقد ذكر سنيد قال حدثنا معتمر عن سلام بن مسكين عن قتادة قال : قال ابن مسعود : " من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب رســول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم كانوا أبرّ هــذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، وأقومها هديا، وأحسنها حالا، اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وســلم وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم فى آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم" . وقال قوم من أهل العلم : إن تأليف سور القرآن على ما هو عليه فى مصحفنا كان عن توقيف من النبى صلى الله عليه وسلم، وأما ما روى من اختلاف مصحف أُبَيّ وعليّ وعبد الله فإنما كان قبل العرض الأخير، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رتب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك . روى يونس عن ابن وهب قال : سمعت مالكا يقول : إنمــا ألف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله صلى الله عليــه وسلم . وذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرد : أن الله تعالى أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا، ثم فرق على النبى صلى الله عليه وسلم فى عشرين سنة، وكانت السورة تنزل فى أمر يحدث، والآية جوابا لمستخبر يسأل، ويوقف جبريل رسول الله صلى الله عليــه وسلم على موضع السورة والآية، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف، فكله عن محمد خاتم النبيين، عليه السلام عن رب العالمين، فمن أخر سورة مقدمة أو قدم أخرى مؤخرة فهو كمن أفسد نظم الآيات، وغيّر الحروف والكلمات، ولا حجة على أهل الحق فى تقديم البقرة على الأنعام، والأنعام نزلت قبل البقرة لأن رسول الله صــلى الله عليه وسلم أخذ عنه هذا الترتيب، وهو كان يقول : " ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن " . وكان جبريل عليه السلام يقفه على مكان الآيات .

حدثنا حسن بن الحباب حدثنا أبو هشــام حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبى إسحــاق عن البراء قال : آخر ما نزل من القرآن : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ . قال أبو بكر بن عياش :

وأخطأ أبو إسحاق لأن محمد بن السائب حدثنا عن أبي السائب عن ابن عباس قال : آخر مانزل من القرآن : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ . فقال جبريل للنبي عليهما السلام : يا محمد ضعها في رأس ثمانين ومائتين من البقرة .

قال أبو الحسن بن بطال : ومن قال بهذا القول لا يقول : إن تلاوة القرآن في الصلاة والدرس يجب أن تكون مرتبة على حسب الترتيب الموقّف عليه في المصحف، بل إنما يجب تأليف سوره في الرسم والخط خاصة ، ولا يُعلم أن أحدا منهم قال : إن ترتيب ذلك واجب في الصلاة وفي قراءة القرآن ودرسه ، وأنه لا يحل لأحد أن يتلقن الكهف قبل البقرة ولا الحج قبل الكهف ، ألا ترى قول عائشة رضي الله عنها للذي سألها : لا يضرك أيّه قرأت قبل ؛ وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصلاة السورة في ركعة ، ثم يقرأ في ركعة أخرى بغير السورة التي تليها ؛ وأما ما روى عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوسا ؛ وقالا : ذلك منكوس القلب ، فإنما عنيا بذلك من يقرأ السورة منكوسة ، ويبتدئ من آخرها الى أولها لأن ذلك حرام محظور ؛ ومن الناس من يتعاطى هذا في القرآن والشعر ليذلل لسانه بذلك ويقدر على الحفظ ، وهذا حظره الله تعالى ومنعه في القرآن، لأنه إفساد لسوره ومخالفة لما قصد بها .

ومما يدل على أنه لا يجب إثباته في المصاحف على تاريخ نزوله ما صح وثبت أن الآيات كانت تنزل بالمدينة فتوضع في السورة المكية، ألا ترى قول عائشة رضي الله عنها : وما نزلت سورة البقرة والنساء الا وأنا عنده — تعني بالمدينة — وقد قدّمنا في المصحف على ما نزل قبلهما من القرآن بمكة ، ولو ألفوه على تاريخ النزول لوجب أن ينتقض ترتيب آيات السور .

قال أبو بكر الانباري حدّثنا اسماعيل بن إسحاق القاضي حدّثنا حجاج بن منهال حدّثنا همام عن قتادة قال . نزل بالمدينة من القرآن البقرة، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، وبراءة ، والرعد ، والنحل ، والحج ، والنور ، والاحزاب ، ومحمد ، والفتح ، والحجرات ، والرحمن ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والممتحنة ، والصف ، والجمعة ، والمنافقون ، والتغابن ، والطلاق ، ويأيها النبي لم تحرّم إلى رأس العشر ، وإذا زلزلت ، وإذا جاء نصر الله . هؤلاء السور نزلن بالمدينة ؛ وسائر القرآن نزل بمكة .

قال أبو بكر : فمن عمـل على ترك الأثر والإعراض عن الإجماع ونظم السور على منازلهـا بمكة والمدينة، لم يدر أين تقع الفاتحة، لاختلاف الناس فى موضع نزولها، و يضطر إلى تأخير الآية التى فى رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة إلى رأس الأربعين ، ومن أفسد نظم القرآن فقـد كفر به ، ورد على محمد صلى الله عليه وسلم ما حكاه عن ربه تعالى ؛ وقد قيل : إن علة تقديم المدنى على المكى هو أن الله تعالى خاطب العرب بلغتها ، وما يعرف من أفانين خطابها ومحاورتها ؛ فلمـا كانـ فن من كلامهم مبنيا على تقديم المؤخر وتأخير المقدم خوطبوا بهذا المعنى فى كتاب الله تعالى الذى لو فقـدوه من القرآن لقالوا ما باله عرى من هـذا الباب الموجود فى كلامنا المسـتحلى من نظامنا . قال عَبيد ابن الأبرص :

أن بُدّلتْ منهـمُ وحوشا * وغيّرتْ حالَها الخطـوبُ
عيناكَ دمعهـما سَرُوب * كأنَّ شأنيهما شَـعيب

أراد عيناك دمعهما سروب لأن تبدّلت من أهلها وحوشا ، فقدّم المؤخر وأخر المقدّم ؛ ومعنى سروب : منصبّ على وجه الأرض . ومنه السارب، قال الشاعر :

* أنّى سربتِ وكنتِ غير سَرُوب *

وقوله شأنيهما، الشأن : واحد الشـؤون وهى مَواصـل قبائل الرأس وملتقاها، ومنها يجىء الدمع . شعيب : متفرّق .

فصل — وأما شكل المصحف ونقطه فروى أن عبد الملك بن مروان أمر به وعمله ، فتجرّد لذلك الحجاج بواسط وجدّ فيه وزاد تحزيبه، وأمر وهو والى العراق الحسن ويحيى بن يَعْمُر بذلك ، وألف إثر ذلك بواسـط كتابا فى القراءات جمع فيـه ما روى من اختلاف الناس فيما وافق الخط ، ومشى الناس على ذلك زمانا طويلا، إلى أن ألف ابن مجاهد كتابه فى القراءات .

وأسند الزبيدى فى كتاب الطبقات إلى المبرد أن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلى ؛ وذكر أيضا أن ابن سيرين كان له مصحف نقطه له يحيى بن يعمر .

فصل — وأما وضع الأعشار فقال ابن عطية : مرّ بى فى بعض التواريخ أن المأمون العباسى أمر بذلك ، وقيـل إن الحجاج فعـل ذلك . وذكر أبو عمرو الدانى فى كتاب البيان له عن عبد الله

ابن مســعود أنه كره التعشير فى المصحف ، وأنه كان يحكه . وعن مجاهد أنه كره التعشير والطيب فى المصحف . وقال أشهب : سمعت مالكا وسئل عن العشور التى تكون فى المصحف بالحمرة وغيرها من الألوان، فكره ذلك، وقال : تعشير المصحف بالحبر لا بأس به ؛ وسئل عن المصاحف يكتب فيها خواتم السور فى كل سورة ما فيها من آية، قال : إنى أكره ذلك فى أمهات المصاحف أن يكتب فيها شىء أو يشكل ، فأما ما يتعلم به الغلمان من المصاحف فلا أرى بذلك بأسا . قال أشهب : ثم أخرج إلينا مصحفا لجده، كتبه إذ كتب عثمان المصاحف، فرأينا خواتمه من حبر على عمل السلسلة فى طول السطر، ورأيته معجوم الآى بالحبر . وقال قتادة : بدءوا فنقطوا ثم خمسوا ثم عشروا . وقال يحيى بن أبى كثير : كان القرآن مجردا فى المصاحف ، فأول ما أحدثوا فيه النقط على البـاء والتاء والثـاء ، وقالوا : لا بأس به ، هو نور له ، ثم أحدثوا نقطا عند منتهى الآى ، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم . وعن أبى حمزة قال : رأى إبراهيم النخعى فى مصحفى فاتحة سورة كذا وكذا، فقال لى : امحه فان عبد الله بن مسعود قال : لاتخلطوا فى كتاب الله ما ليس فيه . وعن أبى بكر السراج قال . قلت لأبى رزين : أأكتب فى مصحفى سورة كذا وكذا، قال : إنى أخاف أن ينشأ قوم لا يعرفونه فيظنونه من القرآن .

قال الدانى رضى الله عنه : وهـذه الأخبار كلها تؤذن بأن التعشير والتخميس وفواتح السور ورءوس الآى من عمل الصحابة رضى الله عنهم ، قادهم إلى عمله الاجتهاد؛ وأرى أن من كره ذلك منهم ومن غيرهم إنما كره أن يعمل بالألوان كالحمرة والصفرة وغيرهما ؛ على أن المسلمين فى سائر الآفاق قد أطبقوا على جواز ذلك واستعماله فى الأمهات وغيرها ، والحرج والخطأ مرتفعان عنهم فيما أطبقوا عليه إن شاء الله .

فصل — وأما عدد حروفه وأحزابه فروى سلام أبو محمد الحِمّانى أن الحجاج بن يوسف جمع القراء والحفـاظ والكتاب، فقال : أخبرونى عن القرآن كله كم من حرف هو . قال : وكنت فيهم فحسبنا فأجمعنا على أن القرآن ثلثمائة ألف حرف وأربعون ألف حرف وسبعمائة حرف وأربعون حرفا؛ قال : فأخبرونى الى أى حرف ينتهى نصف القرآن، فاذا هو فى الكهف "وَلْيَتَلَطَّفْ" فى الفـاء؛ قال : فأخبرونى بأثلاثه فاذا الثلث الأول رأس مائة من براءة ، والثلث الثـانى رأس مائة وإحدى

من طسم الشعراء، والثلث الثالث ما بقي من القرآن، قال : فأخبروني بأسباعه على الحروف، فاذا أول سبع في النساء ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ﴾ في الدال، والسبع الثاني في الأعراف ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ﴾ في التاء، والسبع الثالث في الرعد ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ في الألف من آخر أكلها، والسبع الرابع في الحج ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ في الألف، والسبع الخامس في الأحزاب ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ في الهاء، والسبع السادس في الفتح ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ في الواو، والسبع السابع ما بقي من القرآن .

قال سلام أبو محمد : عملناه في أربعة أشهر، وكان الحجاج يقرأ في كل ليلة ربعا ، فأول ربعه خاتمة الأنعام، والربع الثاني في الكهف "وَلْيَتَلَطَّفْ"، والربع الثالث خاتمة الزمر، والربع الرابع ما بقي من القرآن، وفي هذه الجملة خلاف مذكور في كتاب البيان لأبي عمرو الداني، من أراد الوقوف عليه وجده هناك .

فصل — وأما عدد آي القرآن في المدني الأول، فقال محمد بن عيسى : جميع عدد آي القرآن في المدني الأول ستة آلاف آية . قال أبو عمرو : وهو العدد الذي رواه أهل الكوفة عن أهل المدينة ولم يسموا في ذلك أحدا بعينه يسندونه اليه .

وأما المدني الأخير فهو في قول اسماعيل بن جعفر : ستة آلاف آية ومائتا آية وأربع عشرة آية . وقال الفضل: عدد آي القرآن في قول المكيين ستة آلاف آية ومائتا آية وتسع عشرة آية . قال محمد ابن عيسى : وجميع عدد آي القرآن في قول الكوفيين ستة آلاف آية ومائتا آية وثلاثون وست آيات، وهو العدد الذي رواه سليم والكسائي عن حمزة وأسنده الكسائي الى علي رضي الله عنه . قال محمد: وجميع عدد آي القرآن في عدد البصريين ستة آلاف ومائتان وأربع آيات، وهو العدد الذي مضى عليه سلفهم حتى الآن ؛ وأما عدد أهل الشام فقال يحيى بن الحارث الذماري : ستة آلاف ومائتان وست وعشرون، في رواية ستة آلاف ومائتان وخمس وعشرون نقص آية . قال ابن ذكوان : فظننت أن يحيى لم يعد ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ . قال أبو عمرو : فهذه الأعداد التي يتداولها الناس تأليفا، ويعدون بها في سائر الآفاق قديما وحديثا .

وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان : جميع كلمات القرآن فى قول عطاء بن يسار : سبعة وسبعون ألفا وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة ، وحروفه ثلثمائة ألف وثلاثة وعشرون ألفا وخمسة عشر حرفا . قلت : هذا يخالف ما تقدّم عن الحمانى قبل هذا . وقال عبد الله بن كثير عن مجاهد قال : هذا ما أحصينا من القرآن ، وهو ثلثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفا ، وهذا يخالف ما ذكره قبل هذا عن الحمانى من عد حروفه .

باب ذكر معنى السورة والآية والكلمة والحرف

معنى السورة فى كلام العرب الابانة لها من سورة أخرى وانفصالها عنها ، وسميت بذلك لأنه يرتفع فيها من منزلة الى منزلة . قال النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

أى منزلة شرف ارتفعت اليها عن منزل الملوك . وقيل : سميت بذلك لشرفها وارتفاعها كما يقال لما ارتفع من الأرض سور . وقيل : سميت بذلك لأن قارئها يشرف على ما لم يكن عنده ، كسور البناء ، كله بغير همز . وقيل : سميت بذلك لأنها قطعت من القرآن على حدة ، من قول العرب للبقية : سؤر ، وجاء فى أسآر الناس أى بقاياهم ، فعلى هذا يكون الأصل سؤرة بالهمز ثم خففت فأبدلت واوا لانضمام ما قبلها . وقيل : سميت بذلك لتمامها وكمالها من قول العرب للناقة التامة : سورة ، وجمع سورة سور بفتح الواو . وقال الشاعر :

* سُود المحاجر لا يَقْرَأْنَ بالسور *

ويجوز أن يجمع على سُورات وسُوَرات .

وأما الآية فهى العلامة بمعنى أنها علامة لانقطاع الكلام الذى قبلها من الذى بعدها وانفصاله ، أى هى بائنة من أختها ومنفردة ، وتقول العرب : بينى وبين فلان آية ، أى علامة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ ﴾ وقال النابغة :

توهمت آيات لها فعرفتها * لستة أعوام وذا العام سابع

وقيل : سميت آية لأنهـا جماعة حروف من القرآن وطائفة منـه ، كما يقال : خرج القوم بآيتهم أى بجماعتهم . قال برج بن مسهر الطائى :

خرجنا من النقبين لاحىّ مثلنا * بآيتنا نزجى اللقـاح المطافلا

وقيل : سميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها . واختلف النحويون فى أصل آية ، فقال سيبويه أيية على فعلة مثـل أكمة وشجرة ، فلما تحركت الياء وانفتح ما قبلها انقلبت ألفا فصارت آية بهمزة بعدها مدة . وقال الكسائى : أصلها آيية على وزن فاعلة مثل آمنة فقلبت الياء ألفـا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، ثم حذفت لالتباسها بالجمع . وقال الفراء : أصلها أيّة بتشديد الياء الأولى فقلبت ألفا كراهة للتشديد فصارت آية وجمعها آى وآياء وآيات . وأنشد أبو زيد :

لم يبق هذا الدهر من آيائه * غير أثافيـــه وأرمـدائه

وأما الكلمة فهى الصورة القائمة بجميع ما يختلط بهـا من الشبهات[1] أى الحروف ، وأطول الكلم فى كتاب الله عز وجل مابلغ عشرة أحرف ، نحو قوله تعالى : ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ . ﴿وَأَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ وشبههما ؛ فأما قوله : ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ فهو عشرة أحرف فى الرسم[2] وأحد عشر فى اللفظ ؛ وأقصرهن ما كان على حرفين نحو ما ولا ولك وله وما أشبه ذلك . ومن حروف المعـانى ما هو على كلمة واحدة ، مثل همزة الاستفهام وواو العطف ، إلا أنه لا ينطق به مفردا . وقد تكون الكلمة وحدها آية تامة نحو قوله تعالى : ﴿والفجر﴾ . ﴿والضحى﴾ . ﴿والعصر﴾ . وكذلك ﴿الم﴾ . و ﴿المص﴾ . و ﴿طه﴾ و ﴿يس﴾ . و ﴿حم﴾ فى قول الكوفيين ، وذلك فى فواتح السـور ، فأما فى حشوهن فلا . قال أبو عمرو الدانى : ولا أعلم كلمة هى وحدها آية الا قوله فى الرحمن : ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ لا غير ، وقد أتت كلمتان متصلتان وهما آيتان ، وذلك فى قوله : ﴿حم عسق﴾ على قول الكوفيين لا غير . وقد تكون الكلمة فى غير هذا ، الآية التامة ، والكلام القائم بنفسه ، وإن كان أكثر أو أقل ، قال الله عز وجل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ قيل إنما يعنى بالكلمة هاهنا ، قوله تبارك وتعالى : ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الى آخر الآيتـين ، وقال عز وجل : ﴿وَأَلْزَمَهُمْ

(١) لم أر هذا التعبير لغير المؤلف وحسبناه فى صفحة ١٣ غلطا فعلقنا عليه .

(٢) كأنه اعتبر هاء الضمير كلمة أخرى فى الرسم فقط .

كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ : قال مجاهد : لا إله إلا الله . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : "كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم" وقد تسمى العرب القصيدة بأسرها، والقصة كلها، كلمة فيقولون : قال قُسٌّ في كلمته كذا، أى فى خطبته، وقال زهير فى كلمته كذا، أى فى قصيدته، وقال فلان فى كلمته يعنى فى رسالته، فتسمى جملة الكلام كلمة اذ كانت الكلمة منها، على عادتهم فى تسميتهم الشيء باسم ماهو منه وما قاربه وجاوره، وكان بسبب منه، مجازا واتساعا .

وأما الحرف فهــو الشبهة القائمة وحدها من الكلمة وقد يسمى الحرف كلمة والكلمة حرفا على ما بيناه من الاتساع والمجــاز — قال أبو عمرو الداني : فإن قيل فكيف يسمى ما جاء من حروف الهجاء فى الفواتح على حرف واحد نحو . ﴿ص﴾ و﴿ق﴾ و﴿ن﴾ حرفا أو كلمة؟ قلت : كلمة لا حرفا، وذلك من جهة أن الحرف لا يسكت عليه، ولا ينفرد وحده فى الصورة، ولا ينفصل مما يختلط به؛ وهذه الحروف مسكوت عليها منفــردة منفصلة كانفراد الكلم وانفصالهــا ، فلذلك سميت كلمات لا حروفا . قال أبو عمرو : وقد يكون الحرف فى غير هذا، المذهبَ والوجه، قال الله عز وجل : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُــدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ أى على وجه ومذهب، ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : «انزل القرآن على سبعة أحرف» أى سبعة أوجه من اللغات والله أعلم .

باب هل ورد فى القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا

لا خلاف بين الأئمة أنه ليس فى القرآن كلام مركب على أساليب غير العــرب، وأن فيه أسماء أعلاما لمن لسانه غير لسان العرب : كاسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط؛ واختلفوا هل وقع فيه ألفاظ غير أعلام مفــردة من غير كلام العرب ، فذهب القاضى أبو بكر بن الطيب والطبرى وغيرهما إلى أن ذلك لا يوجد فيه، وأن القرآن عربى صريح، وما وجد فيه من الألفاظ التى تنسب إلى سائر اللغات إنما اتفق فيها أن تواردت اللغات عليها فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة وغيرهم، وذهب بعضهم إلى وجودها فيه، وأن تلك الألفاظ لقلتها لا تخرج القرآن عن كونه عربيا مبينا، ولا رسول الله عن كونه متكلما بلسان قومه، فالمشكاة : الكوة، ونشأ : قام من الليل، ومنه﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ و﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ أى ضعفين . و﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ أى الأسد، كله بلسان الحبشة . والغساق :

البارد المنتن بلسان الترك ، والقسطاس : الميزان بلغـة الروم . والسجيل : الحجـارة والطين بلسان الفرس . والطود : الجبل . واليم : البحر بالسريانية . والتنور : وجه الأرض بالعجمية .

قال ابن عطية فحقيقة العبارة عن هـذه الألفاظ أنهـا فى الأصل أعجمية لكن استعملتها العرب وعربتها فهى عربية بهذا الوجه ، وقد كان للعرب العاربة التى نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات ، وبرحلتى قريش ، وكسفر مسافر[1] بن أبى عمرو إلى الشام ، وكسفر عمر بن الخطاب ، وكسفر عمرو بن العاصى ، وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة ، وكسفر الأعشى إلى الحيرة ، وصحبته لنصاراها مع كونه حجة فى اللغـة ؛ فعلقت العرب بهذا كله ألفاظا أعجمية غيرت بعضها بالنقص من حروفها ، وجرت إلى تخفيف ثقل العجمة واستعملتها فى أشعارها ومحاوراتها ، حتى جرت مجرى العربى الصحيح ، ووقع بها البيان ، وعلى هـذا الحد نزل بها القرآن ، فان جهلها عربى ما فكجهله الصريح بما فى لغة غيره ، كما لم يعرف ابن عباس معنى فاطر إلى غير ذلك .

قال ابن عطيـة : وما ذهب اليه الطبرى رحمه الله من أن اللغتين اتفقتا فى لفظـة لفظة فذلك بعيـد بل إحداهما أصـل والأخرى فرع ، لا أنا ندفع أيضا جواز الاتفاق قليـلا شاذا ، قال غيره : والأول أصح . وقوله : هى أصـل فى كلام غيرهم دخيلة فى كلامهم ، ليس بأولى من العكس ، فان العرب لا يخلو أن تكون تخاطبت بهـا أولا ، فان كان الأول فهى من كلامهـم إذ لا معنى للغتهـم وكلامهم إلا ما كان كذلك عنـدهم ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم ، وقد قال ذلك الامام الكبير أبو عبيدة .

فان قيل : ليست هذه الكلمات على أوزان كلام العرب فلا تكون منه ، قلنا : ومن سلم لكم انكم حصرتم أوزانهم حتى تخرجوا هذه منها ؟ فقد بحث القاضى عن أصول أوزان كلام العرب ورد هذه الأسماء اليها على الطريقة النحوية ، وأما إن لم تكن العرب تخاطبت بها ولا عرفتها استحال أن يخاطبهم الله بمـا لا يعرفون وحينئذ لا يكون القرآن عربيـا مبينا ، ولا يكون الرسـول مخاطبا لقومه بلسانهم والله أعلم .

---

(١) هو ابن عم أبى سفيان بن حرب بن أمية فانه مسافر بن أبى عمرو (ذكوان) بن أمية .

باب ذكر نكت فى إعجاز القرآن وشرائط المعجزة وحقيقتها

المعجزة واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهـم صلوات الله عليهم، وسميت معجـزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها، وشرائطها خمسة، فان اختل منها شرط لا تكون معجزة .

فالشرط الأول من شروطها أن تكون ممـا لا يقدر عليها إلا الله سبحانه، وإنما وجب حصول هذا الشرط للمعجزة لأنه لو أتى آت فى زمان يصح فيه مجئ الرسل وادعى الرسالة وجعل معجزته أن يتحرك ويسكن ويقوم ويقعد لم يكن هذا الذى ادعاه معجزة له، ولا دالا على صدقه لقدرة الخلق على مثله، وإنما يجب أن تكون المعجزات كفلق البحر، وانشقاق القمر، وما شا كلها ممـا لا يقدر عليـه البشر .

والشرط الثانى هو أن تخرق العادة، وإنمـا وجب اشتراط ذلك لأنه لو قال المدّعى للرسالة : آيتى مجئ الليل بعد النهار وطلوع الشمس من مشرقها لم يكن فيما ادعاه معجزة، لأن هـذه الأفعال وإن كان لا يقدر عليها إلا الله، فلم تفعل من أجله ، وقد كانت قبل دعواه على ما هى عليه فى حين دعواه، ودعواه فى دلالتهـا على نبـوته كدعوى غيره ، فبان أنه لا وجه له يدل على صـدقه ، والذى يستشهد به الرسول عليه السلام له وجه يدل على صدقه، وذلك أن يقول الدليـل على صدق أن يخرق الله تعالى العادة من أجل دعواى عليه الرسالة، فيقلب هذه العصا ثعبانا، ويشق الحجر ويخرج من وسـطه ناقة، أو ينبع المـاء من بين أصابعى كما ينبعه من العين، أو ما سـوى ذلك من الآيات الخارقة للعادات، التى ينفرد بها جبار الأرض والسموات ، فتقوم له هذه العلامات مقام قول الرب سبحانه، لو أسمعنا كلامه العزيز، وقال : صدق، أنا بعثته، ومثال هذه المسألة ولله ولرسوله المثل الأعلى، ما لو كانت جماعة بحضرة ملك من ملوك الأرض، وقال أحد رجاله وهو بمرأى ومسمع منـه والملك يسمعه : الملك يأمركم أيها الجماعة بكذا وكذا، ودليل ذلك أن الملك يصدّقنى بفعل من أفعاله، وهو أن يخرج خاتمه من يده قاصـدا بذلك تصديق ، فاذا سمع الملك كلامه لهم ودعواه فيهـم، ثم عمل ما استشهد به على صدقه، قام ذلك مقام قوله لوقال، صدق فيما ادعاه علىّ، فكذلك إذا عمل الله عملا لا يقدر عليه إلا هو، وخرق به العادة على يدى الرسـول، قام ذلك الفعل مقام كلامه تعالى لو أسمعناه، وقال : صدق عبدى فى دعوى الرسالة، وأنا أرسلته اليكم فاسمعوا له وأطيعوا .

والشرط الثالث هو أن يستشهد بهـا مدعى الرسالة على الله عز وجل، فيقول : آيتى أن يقلب الله سبحانه هذا المـاء زيتا أو يحرك الأرض عند قولى لها تزلزلى، فاذا فعل الله سبحانه ذلك حصل المتحدى به .

الشرط الرابع هو أن يقع على وفق دعوى المتحدى بها المستشهد بكونها معجزة له، وإنما وجب اشتراط هذا الشرط لأنه لو قال المدّعى للرسالة : آية نبوتى ودليل حجتى أن تنطق يدى أو هذه الدابة فنطقت يده أو الدابة، بأن قالت : كذب وليس هو نبى، فان هذا الكلام الذى خلقه الله تعالى دال على كذب ذلك المدّعى للرسالة، لأن ما فعله الله لم يقع على وفق دعواه، وكذلك ما يروى أن مسيلمة الكذاب لعنـه الله تفل فى بئر ليكثر ماؤها فغارت البـئر وذهب ما كان فيها من المـاء، فما فعل الله سبحانه من هذا، كان من الآيات المكذبة لمن ظهرت على يديه، لأنها وقعت على خلاف ما أراده المتنبئ الكذاب .

والشرط الخامس من شروط المعجزة ألا يأتى أحد بمثل ما أتى به المتحدى على وجه المعارضة، فان تم الأمر المتحدّى به المستشهد به على النبوة على هذا الشرط مع الشروط المتقدّمة، فهى معجزة دالة على نبوة من ظهرت على يده، فان أقام الله تعالى من يعارضه حتى يأتى بمثل ما أتى به ويعمل مثل ما عمل بطل كونه نبيا، وخرج عن كونه معجزا ولم يدل على صدقه، ولهذا قال المولى سبحانه : ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ وقال : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ كأنه يقول : إن ادعيتم أن هذا القرآن من نظم محمد صلى الله عليه وسلم وعمله فاعملوا عشر سـور من جنس نظمه، فاذا عجزتم بأسركم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من نظمه ولا من عمله .

لا يقال : إن المعجزات المفيدة بالشروط الخمسة لا تظهر إلا على أيدى الصادقين، وهذا المسيح الدجال فيما رويتم عن نبيكم صلى الله عليه وسلم تظهر على يديه من الآيات العظام، والأمور الجسام، ما هو معروف مشهور، فانا نقول : ذلك يدعى الرسالة، وهذا يدعى الربوبية وبينهما من الفرقان، ما بين البصراء والعميان، وقد قام الدليـل العقلى على أن بعثه بعض الخلق إلى بعض غير ممتنعة ولا مستحيلة، فلم يبعد أن يقيم الله تعالى الأدلة على صدق مخلوق أتى عنه بالشرع والملة .

ودلت الأدلة العقلية أيضا على أن المسيخ الدجال فيه التصوير والتغيير من حال إلى حال ، وثبت أن هذه الصفات لا تليق إلا بالمحدثات ، تعالى رب البريات عن أن يشبه شيئا أو يشبهه شيء ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

فصل — إذا ثبت هذا فاعلم أن المعجزات على ضربين : الأول ما اشتهر نقله وانقرض عصره بموت النبي صلى الله عليه وسلم ، والثاني ما تواترت الأخبار بصحته وحصوله ، واستفاضت بثبوته ووجوده ، ووقع لسامعها العلم بذلك ضرورة ، ومن شرطه أن يكون الناقلون له خلقا كثيرا وجما غفيرا ، وأن يكونوا عالمين بما نقلوه علما ضروريا ، وأن يستوى فى النقل أولهم وآخرهم ووسطهم فى كثرة العدد ، حتى يستحيل عليهم التواطؤ على الكذب ، وهذه صفة نقل القرآن ، ونقل وجود النبي عليه الصلاة والسلام ، لأن الأمة رضى الله عنها لم تزل تنقل القرآن خلفا عن سلف والسلف عن سلفه إلى أن يتصل ذلك بالنبي عليه السلام المعلوم وجوده بالضرورة ، وصدقه بالأدلة المعجزات ، والرسول أخذه عن جبريل عليه السلام عن ربه جل وعز ، فنقل القرآن فى الأصل رسولان معصومان من الزيادة والنقصان ، ونقله الينا بعدهم أهل التواتر الذين لا يجوز عليهم الكذب فيما ينقلونه ويسمعونه ، لكثرة العدد ، ولذلك وقع لنا العلم الضرورى بصدقهم فيما نقلوه من وجود محمد صلى الله عليه وسلم ومن ظهور القرآن على يديه وتحديه به ، ونظير ذلك من علم الدنيا علم الإنسان بما نقل اليه من وجود البلدان : كالبصرة والشام والعراق وخراسان والمدينة ومكة ، واشباه ذلك من الأخبار الكثيرة الظاهرة المتواترة ، فالقرآن معجزة نبينا صلى الله عليه وسلم الباقية بعده الى يوم القيامة ، ومعجزة كل نبي انقرضت بانقراضه ، أو دخلها التبديل والتغيير ، كالتوراة والانجيل .

ووجوه اعجاز القرآن الكريم عشرة .

منها : النظم البديع المخالف لكل نظم معهود فى لسان العرب وفى غيرها ، لأن نظمه ليس من نظم الشعر فى شيء ، وكذلك قال رب العزة الذى تولى نظمه : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ وفى صحيح مسلم أن أنيسا أخا أبي ذر ، قال لأبي ذر : لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله ، قلت : فما يقول الناس ، قال يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر ، وكان أنيس أحد الشعراء ، قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة ، فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر ، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون ، وكذلك أقر عتبة بن ربيعه أنه ليس بسحر

ولا شعر لمـا قرأ عليــه رسول الله صـلى الله عليه وســلم : «حم» فصلت، على ما يأتى بيانه هناك، فاذا اعترف عتبة على موضعه من اللسان وموضعه من الفصاحة والبلاغة، بأنه ما سمع مثل القرآن قط كان فى هذا القول مقرا بإعجاز القرآن له ولضربائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه .

ومنها : الاسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

ومنها : الجزالة التى لا تصح من مخلوق بحال، وتأمل ذلك فى سورة ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ إلى آخرها، وقوله سبحانه : ﴿والأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إلى آخر السورة، وكذلك قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ إلى آخر الســورة . قال ابن الحصار : فمن علم أن الله سبحانه وتعالى هو الحق، علم أن مثل هــذه الجزالة لا تصح فى خطاب غيره، ولا يصح من أعظم ملوك الدنيا أن يقول : «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ»، ولا أن يقول : «وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ» .

قال ابن الحصار : وهذه الثلاثة من النظم، والأسلوب، والجزالة، لازمة كل سورة، بل هى لازمة كل آية، وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التحدى والتعجيز، ومع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة، من غير أن ينضاف اليها أمر آخر من الوجوه العشرة، فهذه سوة «الكوثر» ثلاث آيات قصار، وهى أقصر سورة فى القرآن، وقد تضمنت الإخبار عن مغيبين، أحدهما : الإخبار عن الكوثر وعظمه وسعته وكثرة أوانيه، وذلك يدل على أن المصدقين به أكثر من اتباع سائر الرسل، والثانى : الإخبار عن الوليد بن المغيرة، وقد كان عند نزول الاية ذا مال وولد، على ما يقتضيه قوله الحق : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيــدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ ثم أهلك الله سبحانه، ماله وولده، وانقطع نسله .

ومنها : التصرف فى لسان العــرب على وجه لا يستقل به عربى؛ حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على اصابته فى وضع كل كلمة وحرف موضعه .

ومنها : الإخبار عن الأمور التى تقدمت فى أول الدنيا الى وقت نزوله من امى ما كان يتلو من قبله من كتاب، ولا يخطه بيمينه، فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها، والقرون الخالية فى دهرها،

وذكر ماسأله أهل الكتاب عنه، ويحدثوه به، من قصة أهل الكهف، وشأن موسى والخضر عليهما السلام، وحال ذى القرنين، بجاءهم — وهو امى من أمة أمية، ليس لها بذلك علم — بما عرفوا من الكتب السالفة صحته، فتحققوا صدقه .

قال القاضى ابن الطيب : — ونحن نعلم ضرورة — أن هذا مما لا سبيل اليه إلا عن تعلم، وإذا كان معروفا أنه لم يكن ملابسا لأهل الآثار، وحملة الأخبار، ولا مترددا إلى المتعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع اليه كتاب فيأخذ منه، علم أنه لايصل الى علم ذلك الا بتأييد من جهة الوحى .

ومنها : الوفاء بالوعد، المدرك بالحس فى العيان، فى كل ما وعد الله سبحانه، وينقسم : إلى أخباره المطلقة، كوعده بنصر رسوله عليه السلام، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه . وإلى وعد مقيد بشرط، كقوله : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ و﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾، وشبه ذلك .

ومنها : الإخبار عن المغيبات فى المستقبل التى لا يطلع عليها إلا بالوحى، فمن ذلك : ما وعد الله نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الآية . ففعل ذلك، وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا أغزى جيوشه عرفهم ما وعدهم الله فى إظهار دينه، ليثقوا بالنصر، وليستيقنوا بالنجح، وكان عمر يفعل ذلك، فلم يزل الفتح يتوالى شرقا وغربا، برا وبحرا، قال الله تعالى : ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وقال : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ . وقال : ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ . وقال : ﴿الم . غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ . فهذه كلها أخبار عن الغيوب التى لا يقف عليها إلا رب العالمين، أو من أوقفه عليها رب العالمين، فدل على أن الله تعالى قد أوقف عليها رسوله لتكون دلالة على صدقه .

ومنها : ما تضمنه القرآن من العلم الذى هو قوام جميع الأنام، فى الحلال والحرام، وفى سائر الأحكام .

ومنها : الحكم البالغة التى لم تجر العادة بأن تصدر فى كثرتها وشرفها من آدمى .

ومنها : التناسب في جميع ما تضمنه ظاهرا وباطنا من غير اختلاف، قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ .

قلت : فهذه عشرة أوجه ذكرها علماؤنا رحمة الله عليهم، ووجه حادى عشر قاله النظام وبعض القَـدَرية : أن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته ، والصَّرْفَةُ عند التحدى بمثله ؛ وأن المنع والصرفة هو المعجزة ،دون ذات القرآن ، وذلك أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحدّيهم بأن يأتوا بسورة من مثله ، وهذا فاسد ،لأن إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز ؛ فلو قلنا : إن المنع والصرفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزا ، وذلك خلاف الإجماع ، وإذا كان كذلك ، عُلِمَ أن نفسَ القرآن هو المُعْجِز ، لأن فصاحتَهُ وبلاغتَـهُ أمرٌ خارقٌ للعـادة ، إذ لم يُوجَد قطّ كلامٌ على هذا الوجه ، فلمّا لم يكن ذلك الكلام مألوفا معتادًا منهم ، دلّ على أن المنعَ والصرفةَ لم يكن مُعجزا ، وآختلف من قال بهذه الصرفة على قولين :

أحدهما : أنهم صُرِفوا عن القُدْرة عليه ، ولو تعرّضوا له لَعَجَزوا عنه .

الثانى : أنهـم صرفوا عن التعرّض له مع كونه فى مقدورهم ، ولو تعرّضوا له لجاز أن يقدروا عليـه .

قال ابن عطية : وجه التحدى فى القرآن إنما هو بنظمه ، وصحة معانيه ، وتوالى فصاحة ألفاظه ؛ ووجه إعجازه : أن الله تعالى قد أحاط بكل شىء علما ، وأحاط بالكلام كله علما ، فعلم بإحاطته أىّ لفظة تصلح أن تلى الأولى ، وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك ، من أول القرآن إلى آخره ، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن محيطا قط ، فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة . وبهـذا النظر يبطل قول من قال : إن العـرب كان فى قدرتهـا أن تأتى بمثل القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم صُرِفوا عن ذلك ، وعجزوا عنه . والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط فى قدرة أحد من المخلوقين ، ويظهر لك قصور البشر فى أن الفصيح منهم ، يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده ، ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا ، ثم يعطى لآخر بعده فأخذها بقريحة جامّة فيبدل فيها وينقح ، ثم لا تزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل ، وكتاب الله تعالى . لو نزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد .

ومن فصاحة القرآن أن الله تعالى جلّ ذكره، ذكر في آية واحدة أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين وهو قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ الآية؛ وكذلك فاتحة سورة المائدة : أمر بالوفاء ونهى عن النكث، وحلل تحليلا عاما، ثم آستثنى آستثناء بعد آستثناء، ثم أخبر عن حكمته وقدرته، وذلك مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه، وأنبأ سبحانه عن الموت : وحسرة الفوت، والدار الآخرة وثوابها وعقابها، وفوز الفائزين، وتردّى المجرمين، والتحذير من الاغترار بالدنيا، ووصفها بالقلة بالإضافة إلى دار البقاء بقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ الآية، وأنبأ أيضا عن قصص الأولين والآخرين، ومآل المترفين، وعواقب المهلكين، في شطر آية، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ ؛ وأنبأ جل وعز عن أمر السفينة وإجرائها وإهلاك الكفرة، وآستقرار السفينة وآستوائها، وتوجيه أوامر التسخير الى الأرض والسماء بقوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ إلى غير ذلك .

فلما عجزت قريش عن الإتيان بمثله، وقالت : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم تقوّله، أنزل الله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ . ثم أنزل تعجيزا أبلغ من ذلك فقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ . فلما عجزوا حطهم عن هذا المقدار، إلى مثل سورة من السور القصار، فقال جل ذكره : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ . فأفحموا عن الجواب، وتقطعت بهم الأسباب، وعدلوا إلى الحروب والعناد، وآثروا سبي الحريم والأولاد، ولو قدروا على المعارضة لكان أهون كثيرا، وأبلغ في الحجة وأشد تأثيرا . هذا مع كونهم أرباب البلاغة واللحن، وعنهم تؤخذ الفصاحة واللسن .

فبلاغة القرآن في أعلى طبقات الإحسان، وأرفع درجات الإيجاز والبيان؛ بل تجاوزت حدّ الإحسان والإجادة، إلى حيز الإرباء والزيادة . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما أوتي من جوامع الكلم، وآختص به من غرائب الحكم؛ إذا تأملت قوله صلى الله عليه وسلم في صفة الجنان، وإن كان في نهاية الإحسان، وجدته منحطا عن رتبة القرآن؛ وذلك في قوله عليه السلام : " فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر" فأين ذلك من قوله عز وجل :

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾، وقوله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾. هذا أعدل وزنا، وأحسن تركيبا، وأعذب لفظا، وأقل حروفا؛ على أنه لا يعتبر إلا فى مقدار سورة أو أطول آية؛ لأن الكلام كلما طال اتسع فيه مجال المتصرف، وضاق المقال على القاصر المتكلف؛ وبهذا قامت الحجة على العرب، إذ كانوا أرباب الفصاحة، ومظنة المعارضة؛ كما قامت الحجة فى معجزة عيسى عليه السلام على الأطباء، ومعجزة موسى عليه السلام على السحرة؛ فإن الله سبحانه إنما جعل معجزات الأنبياء عليهم السلام بالوجه الشهير أبرع ما يكون فى زمان النبى الذى أراد إظهاره؛ فكان السحر فى زمان موسى عليه السلام قد انتهى إلى غايته؛ وكذلك الطب فى زمن عيسى عليه السلام، والفصاحة فى زمن محمد صلى الله عليه وسلم.

باب التنبيه على أحاديث وضعت فى فضل سور القرآن وغيره

لا التفات لما وضعه الواضعون، واختلقه المختلقون، من الأحاديث الكاذبة، والأخبار الباطلة، فى فضل سور القرآن، وغير ذلك من فضائل الأعمال، قد ارتكبها جماعة كثيرة، اختلفت أغراضهم ومقاصدهم فى ارتكابها؛ فمن قوم من الزنادقة؛ مثل: المغيرة بن سعيد الكوفى، ومحمد بن سعيد الشامى، المصلوب فى الزندقة، وغيرهما، وضعوا أحاديث وحدثوا بها ليوقعوا بذلك الشك فى قلوب الناس؛ فما رواه محمد بن سعيد عن أنس بن مالك فى قوله صلى الله عليه وسلم: "أنا خاتم الأنبياء لا نبى بعدى إلا ما شاء الله"، فزاد هذا الاستثناء لما كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة. قال: وقد ذكره ابن عبد البر فى كتاب (التمهيد) ولم يتكلم عليه، بل قال: الاستثناء من الزنادقة والله أعلم.

ومنهم قوم وضعوا الحديث لهوى يدعون الناس إليه. قال شيخ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب: إن هذه الأحاديث دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم، فإنا كنا إذا هوينا أمرا صيرناه حديثا.

ومنهم جماعة وضعوا الحديث حسبة كما زعموا، يدعون الناس إلى فضائل الأعمال، كما روى عن أبى عصمة نوح بن أبى مريم المروزى، ومحمد بن عكاشة الكرمانى، وأحمد بن عبد الله الجويبارى[1]، وغيرهم. قيل لأبى عصمة: من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس فى فضل سور القرآن سورة سورة؟ فقال: إنى رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا [illegible]

(١) نسخة الجوبارى.

ابن إسحاق، فوضعت هذا الحديث حسبة . قال أبو عمرو عثمان بن الصلاح فى كتاب (علوم الحديث) له : وهكذا الحديث الطويل الذى يروى عن أبى بن كعب ، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى فضل القرآن سورة سورة، وقد بحث باحث عن مخرجه حتى انتهى إلى من اعترف بأنه وجماعة وضعوه ، وإن أثر الوضع عليه لبين . وقد أخطأ الواحدى المفسر ومن ذكره من المفسرين فى إيداعه تفاسيرهم .

ومنهم قوم من السؤال والمكدين يقفون فى الأسواق والمساجد، فيضعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث بأسانيد صحاح قد حفظوها، فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد ؛ قال جعفر ابن محمد الطيالسى : صلى أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين، فى مسجد الرُّصَافَة، فقام بين أيديهما قاص فقال : حدّثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا أنبأنا عبد الرزاق قال أنبأنا معمر عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قال لا إله إلا الله يخلق من كل كلمة منها طائر منقاره من ذهب وريشه مرجان؛ وأخذ فى قصة نحو من عشرين ورقة؛ فجعل أحمد ينظر إلى يحيى ويحيى ينظر إلى أحمد، فقال : أنت حدّثته بهذا فقال : والله ما سمعت به إلا هذه الساعة؛ قال : فسكتا جميعا حتى فرغ من قصصه، فقال له يحيى : من حدثك بهذا الحديث؟ فقال : أحمد بن حنبل ويحيى بن معين؛ فقال أنا ابن معين، وهذا أحمد بن حنبل، ما سمعنا بهذا قط فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كان ولا بد من الكذب فعلى غيرنا ؛ فقال له : أنت يحيى بن معين؟ قال : نعم، قال : لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق، وما علمته إلا هذه الساعة؛ فقال له يحيى : وكيف علمت أنى أحمق؟ قال : كأنه ليس فى الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما، كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هذا؛ قال : فوضع أحمد كمه على وجهه وقال : دعه يقوم؛ فقام كالمستهزئ بهما؛ فهؤلاء الطوائف كذبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن يجرى مجراهم . يذكر : أن الرشيد كان يعجبه الحمام واللهو به ؛ فأهدى إليه حمام وعنده أبو البخترى القاصى، فقال : روى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا سبق إلا فى خف أو حافر أو جناح" فزاد : "أو جناح"، وهى لفظة وضعها للرشيد، فأعطاه جائزة سنية ؛ فلما خرج قال الرشيد : والله لقد علمت أنه كذاب ، وأمر بالحمام أن يذبح؛ فقيل له : وما ذنب الحمام؟ قال : من أجله كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فترك العلماء حديثه لذلك، وغيره من موضوعاته، فلا يكتب العلماء حديثه بحال .

قلت : فلو اقتصر الناس على ما ثبت فى الصحاح والمسانيد وغيرهما من المصنفات التى تداولهـا العلماء، ورواها الأئمة الفقهاء، لكان لهم فى ذلك غنية، وخرجوا عن تحذيره صلى الله عليه وسلم حيث قال: "اتقوا الحديث على[1] إلا ما علمتم لمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار" — الحديث — ؛ فتخويفه صلى الله عليه وسلم أمته بالنار على الكذب، دليل على أنه كان يعلم أنه سيكذب عليه. فحذار مما وضعه أعداء الدين، وزنادقة المسلمين، فى باب الترغيب والترهيب وغير ذلك، وأعظمهم ضررا أقوام من المنسوبين إلى الزهد، وضعوا الحديث حسبة فيما زعموا، فيقبل الناس موضوعاتهم، ثقـة منهم بهم، وركونا إليهم، فضلوا وأضلوا .

باب ما جاء من الحجة فى الرد على من طعن فى القرآن وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان

لا خلاف بين الأمة، ولا بين الأئمة، أهل السنة، أن القرآن اسم لكلام الله تعالى الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم معجزة له، على ما تقدم، وأنه محفوظ فى الصدور، مقروء بالألسنة، مكتوب فى المصاحف ، معلومة على الاضطرار سوره وآياته ، مبرأة من الزيادة والنقصان حروفه وكلماته ؛ فلا يحتاج فى تعريفه بحد، ولا فى حصره بعد، فمن ادعى زيادة عليه، أو نقصانا منه، فقد أبطل الإجماع، وبهت الناس، ورد ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن المنزل عليه، ورد قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ وأبطل آية رسوله عليه السلام، لأنه إذ ذاك يصير القرآن مقدورا عليه، حين شيب بالباطل، ولما قدر عليه لم يكن حجة ولا آية، وخرج عن أن يكون معجزا .

فالقائل بأن القرآن فيـه زيادة ونقصان راد لكتاب الله ولما جاء به الرسول، وكان كمن قال : الصلوات المفروضات خمسون صلاة، وتزوج تسع من النساء حلال، وفرض الله أياما مع شهر رمضان، إلى غير ذلك مما لم يثبت فى الدين ؛ فإذا رد هذا بالإجماع ، كان الإجماع على القرآن أثبت وآكد وألزم وأوجب .

---

(١) فى الجامع الصغير : « عنى » .

قال الإمام أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنباري : ولم يزل أهل الفضل والعقل يعرفون من شرف القرآن، وعلو منزلتــه، ما يوجبه الحق والانصاف والديانة ، وينفون عنه قول المبطلين ، وتمويه الملحدين وتحريف الزائغين ، حتى نبع فى زماننا هذا زائغ زاغ عن الملة ، وهجم على الأمة بمـا يحاول به إبطال الشريعة التى لا يزال الله يؤيدها ، ويثبت أسّها ، وينمى فرعها ، ويحرسها من معايب أولى الحيف والجور، ومكايد أهل العدواة والكفر .

فزعم أن المصحف الذى جمعه عثمان رضى الله عنه ـ باتفاق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على تصويبه فيما فعل ـ لا يشتمل على جميع القرآن ، إذ كان قد سقط منه خمسمائة حرف، قد قرأت ببعضها وسأقرأ ببقيتها ، فمنها : «والعصر ونوائب الدهر» فقد سقط من القرآن على جماعة المسلمين « ونوائب الدهر » ومنها : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهــم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » ، فادعى هذا الإنسان أنه سقط على أهل الإسلام من القرآن : « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » ، وذكر ممـا يدعى حروفا كثيرة .

وادعى أن عثمان والصحابة رضى الله عنهم زادوا فى القرآن ما ليس فيه ، فقرأ فى صلاة الفرض والناس يسمعون : «الله الواحد الصمد» فأسقط من القرآن «قل هو» وغير لفظ «أحد» وادعى أن هذا هو الصواب والذى عليه الناس هو الباطل والمحال ، وقرأ فى صلاة الفرض : «قل للذين كفروا لا أعبد ما تعبدون » وطعن على قراءة المسلمين .

وادعى أن المصحف الذى فى أيدينـا اشتمل على تصحيف حروف مفســدة مغيرة، منهـا : ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فادعى أن الحكمة والعزة لا يشاكلان المغفرة، وأن الصواب : «وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم» . وترامى به الغىّ فى هذا وأشكاله حتى ادّعى أن المسلمين يصحفون : ﴿وكان عند الله وجيها﴾ والصواب الذى لم يغير عنده : «وكان عبد الله وجيها» ، وحتى قرأ فى صلاة مفترضة على ما أخبرنا جماعة سمعوه وشهدوه : « لا تحرك به لسانك إن علينا جمعه وقراءته فإذا قرأناه فاتبع قراءته ثم إن علينا نبأ به » ، وحكى لنا آخرون عن آخرين أنهــم سمعوه يقرأ : « ولقد نصركم الله ببدر بسيف علىّ وأنتم أذلة » ، وروى هؤلاء أيضا لنا عنه قال :

« هذا صراط علىّ مستقيم » ،وأخبرونا أنه أدخل فى آية من القرآن ما لا يضاهى فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يدخل فى لسان قومه الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ فقرأ : «ءاليس قلت للناس» فى موضع : ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾ وهذا لا يعرف فى نحــو المعربين، ولا يحمل على مذاهب النحويين ؛ لأن العرب لم تقل : ليس قمت، فأما : لست قمت، بالتاء فشاذ قبيح خبيث ردىء ؛ لأن ليس لا تجحد الفعل المــاضى، ولم يوجد مثل هذا إلا فى قولهم : أليس قد خلق الله مثلهم، وهو لغة شاذة لا يحمل كتاب الله عليها .

وادعى أن عثمان رضى الله عنه لمــا أسند جمع القرآن الى زيد بن ثابت لم يصب لأن عبد الله ابن مسعود وأُبَىّ بن كعب كانا أولى بذلك من زيد لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « أقرأ أمتى أُبَىّ ابن كعب» ولقوله عليه السلام : «من سره أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه بقراءة ابن أم عبد» ، وقال هذا القائل : لى أن أخالف مصحف عثمان كما خالفه أبو عمرو بن العلاء، فقرأ : «إن هذين» ، «فأصــدق وأكون » ، «و فبشر عبادى الذين» بفتح اليــاء ، فما « أتانى الله » بفتح اليــاء، والذى فى المصحف : ﴿ إِنَّ هَذَانِ ﴾ بالألف ، ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ ﴾ بغير واو ، ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ ، ﴿ فَمَا آتَانِ اللَّهُ ﴾ بغير ياءين، فى الموضعين . وكما خالف ابن كثير ونافع وحمزة والكسائى مصحف عثمان فقرءوا . ﴿ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بإثبــات نونين، يفتح الثانيــة بعضهم و يسكنها بعضهم، وفى المصحف نون واحدة، وكما خالف حمزة المصحف فقرأ . « أتمدونى بمــال » بنون واحدة ووقف على الياء ، وفى المصحف نونان ولا ياء بعدها ؛ وكما خالف حمزة أيضا المصحف فقرأ : «ألا إن ثمودا كفروا ربهم» بغير تنوين ، و إثبات الألف يوجب التنوين ؛ وكل هذا الذى شنع به على القراء ما يلزمهم به خلاف المصحف .

قلت : قد أشرنا إلى العذر فيما تقدم ممــا اختلف فيه المصاحف ، وسيأتى بيان هــذه المواضع فى مواضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : وذكر هذا الإنسان أن أبىّ بن كعب هو الذى قرأ « كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » وذلك باطل ؛ لأن عبــد الله بن كثير قرأ على مجاهد ، ومجاهد قرأ على ابن عباس، وابن عباس قرأ القرآن على أبىّ بن كعب ﴿ حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ

تُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾، فى رواية وقرأ أُبيّ القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وهذا الإسناد متصل بالرسول عليه السـلام نقله أهل العدالة والصيانة، وإذا صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر لم يؤخذ بحديث يخالفـه ، وقال يحيى بن المبارك اليزيدى : قرأت القرآن على أبى عمرو بن العلاء ، وقرأ أبو عمرو على مجاهد، وقرأ مجاهـد على ابن عباس ، وقرأ ابن عباس على أُبيّ بن كعب ، وقرأ أُبيّ على النبي صلى الله عليـه وسلم ، وليس فيها « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » فمن جحد أن هذه الزيادة أنزلها الله تعالى على نبيه عليه السلام فليس بكافر ولا آثم .

حدثنى أبى نبأنا نصر بن داود الصاغانى نبأنا أبو عبيد قال : ما يروى من الحروف التى تخالف المصحف الذى عليه الإجماع من الحروف التى يعرف أسانيدها الخاصة دون العامة فيما نقلوا فيه عن أُبى : «وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها» ، وعن ابن عباس «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج » ؛ ومـما يحكون عن عمر بن الخطاب أنه قرأ : « غير المغضوب عليهم وغير الضالين» مع نظائر لهـذه الحروف كثيرة، لم ينقلها أهل العلم على أن الصلاة بها تحل، ولا على أنهـا معارض بها مصحف عثمان ؛ لأنها حروف لو جحدها جاحد أنها من القرآن لم يكن كافرا ؛ والقرآن الذى جمعه عثمان بموافقة الصحابة له لو أنكر بعضه منكر كان كافرا، حكمه حكم المرتد، يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه . وقال أبو عبيد : لم يزل صنيع عثمان رضى الله عنه فى جمعه القرآن يُعتَدُّ له بأنه من مناقبه العظام ؛ وقد طعن عليه فيه بعض أهل الزيغ فانكشف عواره، ووضحت فضائحه ؛ وقال أبو عبيد : وقد حدثت عن يزيد بن زريع عن عمران بن جرير عن أبى مجلز قال : طعن قوم على عثمان رحمه الله بحمقهم جمع القرآن ، ثم قرءوا ما نسخ ؛ قال أبو عبيد : يذهب أبو مجلز إلى أن عثمان أسقط الذى أسقط بعلم كما أثبت الذى أثبت بعلم . قال أبو بكر : وفى قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ دلالة على كفر هذا الانسان ؛ لأن الله عز وجل قد حفظ القرآن من التغيير والتبديل ، والزيادة والنقصان ؛ فاذا قرأ قارئ : «تبت يدى أبى لهب وقد تب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب ومريته حمالة الحطب فى جيدها حبل من ليف» فقـد كذب على الله جل وعلا وقوّله ما لم يقل ، وبدّل كتابه وحرّفه ، وحاول ما قد حفظه منه ومنع من اختلاطه به ؛ وفى هذا الذى أتاه توطئة الطريق لأهل الإلحاد ، ليُدخلوا فى القرآن ما يحلّون به عُرا الإسلام ، وينسبونه إلى قوم

كهؤلاء القوم الذين أحال هـذا بالأباطيل عليهم ، وفيه إبطال الإجمـاع الذى به يحرس الإسلام، وبثباته تقام الصلوات، وتؤدى الزكوات، وتتحرى المتعبّدات . وفى قول الله تعالى : ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ دلالةٌ على بدعة هـذا الانسان وخروجه إلى الكفر، لأن معنى «أحكمت آياته» : منع الخلق من القدرة على أن يزيدوا فيها، أو ينقصوا منها، أو يعارضوها بمثلها ، وقد وجدنا هذا الانسان زاد فيها وكفى الله المؤمنين القتال، بعلى وكان الله قويا عزيزا، فقال فى القرآن هجرا، وذكر عليا فى مكان لو سمعه يذكره فيه لأمضى عليه الحدّ، وحكم عليه بالقتل، وأسقط من كلام الله «قل هو» وغير أحد فقرأ الله الواحد الصمد وإسقاط ما أسقطه نفى له وكفر، ومن كفر بحرف من القرآن فقد كفر به كلّه وأبطل معنى الآية؛ لأن أهل التفسير قالوا: نزلت الآية جوابا لأهل الشرك لمّا قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : صف لنا ربّك ؛ أمن ذهب أم من نحاس أم من صُفْر؟ فقال الله جل وعز ردّا عليهم : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ففى هو دلالةٌ على موضع الردّ ومكان الجواب فإذا سقط بطل معنى الآية، ووضح الافتراء على الله عزّ وجلّ، والتكذيب لرسوله صلى الله عليه وسلم، ويقال لهذا الإنسان ومن ينتحل نصرته : أخبرونا عن القرآن الذى نقرؤه ولا نعرف نحن ولا من كان قبلنا من أسلافنا سواه، هل هو مشتمل على جميع القرآن من أوله إلى آخره ، صحيح الألفاظ والمعانى عارٍ من الفساد والخلل؟ أم هو واقع على بعض القرآن والبعض الآخر غائب عنا كما غاب عن أسلافنا والمتقدمين من أهل ملتنا؟ فإن أجابوا بأن القرآن الذى معنا مشتمل على جميع القرآن لا يسقط منه شىء، صحيح اللفظ والمعانى، سليمها من كل زلل وخلل ، فقد قضوا على أنفسهم بالكفر حين زادوا فيه «فليس له اليوم ههنا حميم وليس له شراب إلا من غسلين من عين تجرى من تحت الجحيم» فأى زيادة فى القرآن أوضح من هذه، وكيف يخلط بالقرآن وقد حرسه الله منها ومنع كل مفتر ومبطل من أن يلحق به مثلها، وإذا تؤملت وبحث عن معناها وجدت فاسدة غير صحيحة، لا تشاكل كلام البارئ تعالى ولا تختلط به، ولا توافق معناه، وذلك أن بعدها «ولا يأكله إلا الخاطئون» فكيف يؤكل الشراب والذى أتى به قبلها «فليس له اليـوم ههنا حميم وليس له شراب إلا من غسلين من عين تجرى من تحت الجحيم لا يأكله إلا الخاطئون» فهذا متناقص يفسد بعضه بعضا، لأن الشراب لا يؤكل، ولا تقول العرب: أكلت الماء؛ لكنهم يقولون : شربته وذقته وطعمته؛ ومعناه فيما أنزل الله تبارك وتعالى على الصحة

فى القرآن الذى من خالف حرفا منه كفر : ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا من غِسْلِين﴾ لا يأكل الغسلين إلا الخاطئون أو لا يأكل الطعام إلا الخاطئون . والغسلين : ما يخرج من أفواههم من الشحم وما يتعلق به من الصديد وغيره ؛ فهذا طعام يؤكل عند البلية والنقمة ، والشراب محـال أن يؤكل ، فإن ادّعى هذا الإنسان أن هذا الباطل الذى زاده من قوله «من عين تجرى من تحت الجحيم» ليس بعدها «لا يأكله إلا الخاطئون» ونفى هــذه الآية من القرآن لتصح له زيادته ، فقــد كفر لمـا جحد آية من القرآن . وحسبك بهذا كلّه ردّا لقوله ، وخزيا لمقاله . وما يؤثر عن الصحابة والتابعين أنهم قرءوا بكذا وكذا إنما ذلك على جهة البيان والتفسير لا أن ذلك قرآن يتلى ، وكذلك ما نسخ لفظه وحكمه أو لفظه دون حكمه ليس بقرآن على ما يأتى بيانه عند قوله تعالى : ﴿ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ إن شاء الله تعالى .

القول فى الاســتعاذة

وفيها اثنتا عشرة مسئلة :

الأولى — أمر الله تعالى بالاستعاذة عند أوّل كل قراءة فقال تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ﴾ أى إذا أردت أن تقرأ ؛ فأوقع المـاضى موقعَ المستقبل كما قال الشاعر :

وإنى لآتيكم لذكرى الذى مضى * من الودّ واستئناف ما كان فى غد

أراد ما يكون فى غد ، وقيل : فى الكلام تقـديم وتأخير ، وأن كل فعلين تقاربا فى المعنى جاز تقديم أيهما شئت ، كما قال تعالى : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ المعنى فتدلى ثم دنا ، ومثله : ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ وهو كثير .

الثانية — هذا الأمر على الندب فى قول الجمهور وحكى النقّاش عن عطاء : إن الاستعاذة واجبة فى صدر كل قراءة فى غير الصلاة ، واختلفوا فيه فى الصلاة ، وكان ابن سيرين والنخَعِى وقوم يتعوّذون فى الصلاة فى كل ركعة ، ويمتثلون أمر الله فى الاستعاذة على العموم ؛ وأبو حنيفة والشافعى يتعوّذان فى الركعة الأولى من الصلاة ويريان قراءة الصلاة كأنها كقراءة واحدة ؛ ومالك لا يرى التعوّذ فى الصلاة المفروضة ويراه فى قيام رمضان .

الثالثة — أجمع العلماء على أن التعوّذ ليس من القرآن ولا آية منــه ، وهو قول القارئ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ وهذا اللفظ هو الذى عليه الجمهور من العلماء فى التعوّذ لأنه لفظ كتاب الله

تعالى . ورُوِى عن ابن مسعود أنه قال : قلت أعوذ بالله السميع العليم من الشـيطان الرجيم، فقال لى النبىّ صلى الله عليـه وسلم : « يابن أمّ عبد أعوذ بالله من الشـيطان الرجيم هكذا أقرأنى جبريل عن اللوح عن القلم » .

الرابعة — رَوى أبو داود وابن ماجه فى سننهما عن جُبير بن مُطْعِم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى صلاة فقال عمرو[1] : لا أدرى أىّ صلاة هى ؟ فقال : الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا الحمد لله كثيرا الحمد لله كثيرا ثلاثا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا، أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه؛ قال عمرو : همزه المُوتَةُ، ونفثه الشعر، ونفخه الكبر. وقال ابن ماجه : المُوتة يعنى الجنون . والنفث : نفخ الرجل من فيه من غير أن يخرج ريقه . والكبر : التيه . وروى أبو داود عن أبى سعيد الخُدْرى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل كبّر ثم قال : «سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك» ثم يقول : «لا إله إلا الله ثلاثا»؛ ثم يقول : «الله أكبر كبيرا ثلاثا أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»؛ ثم يقرأ . وروى سليمان بن سالم عن ابن[2] القاسم رحمه الله : أن الاستعاذة أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم بسم الله الرحمن الرحيم . قال ابن عطيّة : وأما المقرئون فأكثروا فى هذا من تبديل الصفة فى اسم الله تعالى، وفى الجهة الأخرى، كقول بعضهم : أعوذ بالله المجيد، من الشيطان المريد؛ ونحو هذا مما لا أقول فيه : نعمت البدعة، ولا أقول : إنه لا يجوز .

الخامسة — قال المهدوىّ : أجمع القرّاء على إظهار الاستعاذة فى أوّل قراءة سورة "الحمد" إلا حمزة فإنه أسرّها . وروى السدىّ عن أهل المدينة : أنهم كانوا يفتتحون القراءة بالبسملة . وذكر أبو الليث السَّمَرْقَنْدىّ عن بعض المفسرين : أن التعوّذ فرض، وإذا نسيه القارئ وذكره فى بعض الحزب قطع وتعوّذ، ثم ابتدأ من أوّله . وبعضهم يقول : يستعيذ ثم يرجع إلى موضعه الذى وقف فيه؛ وبالأوّل قال أسانيد الحجاز والعراق؛ وبالثانى قال أسانيد الشأم ومصر .

---

(١) لعله عمرو بن مرة المذكور فى سند هذا الحديث (راجع سنن ابن ماجه ج ١ ص ١٣٩ وسنن أبى داود ج ١ ص ٧٧ طبع مصر) .

(٢) فى بعض النسخ : « أبى القاسم » .

السادسة — حكى الزهراوي قال : نزلت الآية في الصلاة وندبنا إلى الاستعاذة في غير الصلاة وليس بفرض؛ قال غيره : كانت فرضا على النبي صلى الله عليه وسلم وحده، ثم تأسينا به .

السابعة — رُوِى عن أبي هُرَيْرة أن الاستعاذة بعد القراءة؛ وقاله داود . قال أبو بكر بن العربي انتهى العِيّ بقوم إلى أن قالوا : إذا فرغ القارئ من قراءة القرآن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . وقد روى أبو سعيد الخُدْرِي : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوّذ في صلاته قبل القراءة، وهذا نصّ . فإن قيل : فما الفائدة في الاستعاذة من الشيطان الرجيم وقت القراءة؟ قلنا : فائدتها امتثال الأمر؛ وليس للشرعيّات فائدة إلا القيام بحقّ الوفاء لها بامتثالها أمرا واجتنابها نهيا؛ وقد قيل : فائدتها امتثال الأمر بالاستعاذة من وسوسة الشيطان عند القراءة كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ . قال ابن العربي : ومن أغرب ما وجدناه قولُ مالك في المجموعة في تفسير هذه الآية : فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ قال : ذلك بعد قراءة أمّ القرآن لمن قرأ في الصلاة . وهذا قول لم يرد به أثرٌ، ولا يعضده نظر؛ فإن كان هذا كما قال بعض الناس : إن الاستعاذة بعد القراءة ، كان تخصيص ذلك بقراءة أمّ القرآن في الصلاة دعوى عريضة، ولا يشبه أصل مالك ولا فهمه ؛ فالله أعلم بسرّ هذه الرواية .

الثامنة — في فضل التعوّذ . رَوَى مُسلم عن سليمان بن صُرَد قال : استبّ رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فجعل أحدهما يغضب ويحمرّ وجهه وتنتفخ أوداجُه ؛ فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " . فقام إلى الرجل رجل سمع النبي صلى الله عليه وسلم، فقال : هل تدري ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم آنفا؟ قال " إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ". فقال له الرجل : أمجنونا تراني ! أخرجه البخاري أيضا . وروى مسلم أيضا عن عثمان بن أبي العاص الثقفي : أنه أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي ، وقراءتي يلبّسها عليّ ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ذاك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوّذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثا " قال : ففعلت فأذهبه الله عني . وروى أبو داود عن ابن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل عليه الليل قال : " يا أرض ربي وربك الله،

أعوذ بالله من شرك ومن شر ما خلق فيك ومن شر ما يدب عليك ومن أسـد وأسود ومن الحيـة والعقرب ومن ساكني البلد ووالد وما ولد" . وروت خولة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله صـلى الله عليه وسلم يقـول : " من نزل منزلا ثم قال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرتحل " أخرجه في الموطأ ومسلم والترمذيّ وقال : حديث حسن غريب صحيح . وما يتعوّذ منه كثير، ثابت في الأخبار، والله المستعان .

التـاسعة ـــ معنى الاستعاذة في كلام العرب الاستجارة، والتّحيز الى الشيء، على معنى الامتناع به من المكروه، يقال : عذت بفلان واستعذت به ، أي لجأت اليه ، وهو عياذي ، أي ملجئي وأعذت غيري به وعوّذته بمعنى، ويقال : عوذٌ بالله منك، أي أعوذ بالله منك، قال الراجز :

قالت وفيها حَيْدَةٌ وذُعُرْ ، عـوذٌ بربي منكم وحُجُـرْ

والعرب تقول عند الأمر [تنكره] (١) : حجرا له بالضم أي دفعا، وهو استعاذة من الأمر . والعوذة والمعاذة والتعويذ كله بمعنى، وأصل أعوذ : أعوذ نقلت الضمة الى العين لاستثقالها على الواو فسكنت .

العـاشرة ـــ الشيطان واحد الشياطين على التكسير والنون أصلية، لأنه من شطن إذا بعـد عن الخير، وشطنت داره أي بعدت، قال الشاعر (٢) :

نأت بسـعادَ عنك نوًى شَطُونُ ، فبانت والفـؤادُ بهـا رهينُ

وبئر شطون أي بعيـدة القعر . والشطن : الحبـل، سمّي به لبعد طرفه وامتداده . ووصف أعرابي فرسا [لا يحفى] (٣) فقال : كأنه شيطان في أشطان . وسمّي الشيطان شيطانا لبعده عن الحق وتمرده، وذلك أن كل عات متمرد من الجنّ والإنس والدوابّ شيطان، قال جرير :

أيام يدعونني الشيطانَ من غزلي ، وهنّ يهوينني إذ كنت شـيطانا

وقيل : إن شيطانا مأخوذ من شاط يشيط إذا بطل فالنون زائدة. وشاط اذا احترق . وشيّطت اللحم، اذا دخنته ولم تُنضجه ، واشاط الرجل ، إذا احتـدّ غضبا . وناقة مِشْياط التي يطير فيها السِّمَن . واشتاط، إذا هلك، قال الأعشى :

(١) الزيادة من لسان العرب مادة (حجر) .   (٢) [illegible] لسان العرب مادة (شطن) .

(٣) الزيادة من لسان العرب مادة (حفي) .

قد تخضب العير في مكنون فائله[1] * وقــد يشيط على أرماحنا البطل

أي يهلك .

ويُردّ على هذه الفرقة ، أن سيبويه حكى أن العرب تقول : تشيطن فلان إذا فعل أفعال الشياطين، فهذا بيّن أنه تفيعل من شطن ولو كان من شاط لقالوا : تشيط ويرد عليهم أيضا بيت أمية ابن أبي الصلت :

أيما شاطن عصــاه عكاه[2] * ورماه في السجن والأغلال

فهذا شاطن من شطن لاشك فيه .

الحادية عشرة — الرجيم أي المبعد من الخير المهان . وأصل الرجم : الرمي بالحجارة، وقد رجمته أرجمه، فهو رجيم ومرجوم . والرجم : القتل واللعن والطرد والشتم، وقد قيل هذا كله في قوله تعالى : ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ وقول أبي ابراهيم : ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، وسيأتي إن شاء الله تعالى .

الثانية عشرة — روى الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال : قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام : رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم عند الصفا وهو مقبل على شخص في صورة الفيل وهو يلعنه، قلت : ومن هذا الذي تلعنه يا رسول الله؟ قال : "هذا الشيطان الرجيم" فقلت : يا عدو الله والله لأقتلنك ولأريحن الأمة منك؛ قال : ما هذا جزائي منك؛ قلت : وما جزاؤك مني ياعدو الله؟ قال : والله ما أبغضك أحد قط إلا شركت أباه في رحم أمه .

البســـملة

وفيها سبع وعشرون مسئلة :

الأولى — قال العلماء : بسم الله الرحمن الرحيم، قسم من ربنا أنزله عند رأس كل سورة، يقسم لعباده : إن هذا الذي وضعت لكم ياعبادي في هذه السورة حق ، وإني أوفي لكم بجميع ما ضمنت في هذه السورة من وعدي ولطفي وبرى . و"بسم الله الرحمن الرحيم" مما أنزله الله تعالى في كتابنا وعلى

(١) الفائل : عرق في الفخذين يكون في خربة الورك . (٢) عكاه في الحديد والوثاق إذا شده .

هذه الأمة خصوصا، بعد سليمان عليه السلام، وقال بعض العلماء: إن بسم الله الرحمن الرحيم تضمنت جميع الشرع، لأنها تدل على الذات، وعلى الصفات، وهذا صحيح .

الثانية — قال سعيد بن أبي سكينة : بلغني ان علي بن أبي طالب رضي الله عنه نظر الى رجل يكتب "بسم الله الرحمن الرحيم" فقال له : جوّدها فإن رجلا جوّدها فغفر له ، قال سعيد : وبلغني أن رجلا نظر إلى قرطاس فيه "بسم الله الرحمن الرحيم" فقبله ووضعه على عينيه فغفر له . ومن هذا المعنى قصة بِشْر الحافي فإنه لما رفع الرقعة التي فيها اسم الله وطيبها ، طيب اسمه ، ذكره القشيري . وروى النسائي عن أبي المليح عن ردف رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا عثرت بك الدابة فلا تقل تعس الشيطان فانه يتعاظم حتى يصير مثل البيت ويقول بقوّتي صنعته ، ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم ، فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذباب" . وقال علي ابن الحسين في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ قال معناه : إذا قلت "بسم الله الرحمن الرحيم" وروى وكيع عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله ابن مسعود قال : من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ "بسم الله الرحمن الرحيم" ليجعل الله تعالى له بكل حرف منها جنة من كل واحد . فالبسملة تسعة عشر حرفا على عدد ملائكة أهل النار الذين قال الله فيهم : ﴿ عليها تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ وهم يقولون في كل أفعالهم : "بسم الله الرحمن الرحيم" فمن هنالك هي قوتهم ، وببسم الله استضلعوا . قال ابن عطية : ونظير هذا قولهم في ليلة القدر : إنها ليلة سبع وعشرين مراعاة للفظة هي من كلمات سورة إنا أنزلناه . ونظيره أيضا قولهم في عدد الملائكة الذين ابتدروا قول القائل : ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، فإنها بضعة وثلاثون حرفا ، فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لقد رأيت بضعا وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها أول" . قال ابن عطية : وهذا من ملح التفسير وليس من متين العلم .

الثالثة — روى الشعبي والأعمش : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكتب "باسمك اللهم" حتى أمر أن يكتب "بسم الله" فكتبها ، فلما نزلت : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ : كتب "بسم الله الرحمن" فلما نزلت : ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ كتبها . وفي مصنف أبي داود : قال الشعبي وأبو مالك وقتادة وثابت بن عمارة : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم حتى نزلت سورة النمل .

الرابعة — روى عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنه قال : البسملة تيجان السور قلت : وهذا يدل على أنها ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها .

وقد آختلف العلماء فى هذا المعنى على ثلاثة أقوال :

(الأول) ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها، وهو قول مالك .

(الثانى) أنها آية من كل سورة، وهو قول عبد الله بن المبارك .

(الثالث) قال الشافعيّ : هى آية فى الفاتحة ؛ وتردّد قوله فى سائر السور ؛ فمرّة قال : هى آية من كل سورة ، ومرّة قال : ليست بآية إلا فى الفاتحة وحدها . ولا خلاف بينهم فى أنها آية من القرآن فى سورة النمل .

وآحتج الشافعى بما رواه الدارقطنى من حديث أبى بكر عبد الحميد بن جعفر الحنفى عن نوح آبن أبى بلال عن سعيد بن أبى سعيد المقبرىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: « إذا قرأتم الحمد لله رب العالمين، فآقرءوا بسم الله الرحمن الرحيم، إنها أم القرآن، وأمّ الكتاب، والسبع المثانى، و بسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها » . رفع هذا الحديث عبد الحميد بن جعفر، وعبد الحميد هذا وثقه أحمد بن حنبل، ويحيى بن سعيد، ويحيى بن معين، وأبو حاتم يقول فيه : محله الصدق، وكان سفيان الثورىّ يضعّفه ويحمل عليه . ونوح بن أبى بلال ثقة مشهور .

وحجة ابن المبارك وأحد قولى الشافعىّ ما رواه مسلم عن أنس قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال : « نزلت علىّ آنفا سورة فقرأ » ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم : إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ . وذكر الحديث، وسيأتى بكماله فى سورة الكوثر إن شاء الله تعالى .

الخامسة — الصحيح من هذه الأقوال قول مالك ؛ لأن القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد وإنما طريقه التواتر القطعىّ الذى لا يختلف فيه . قال آبن العربىّ : ويكفيك أنها ليست من القرآن اختلاف الناس فيها، والقرآن لا يختلف الناس فيه . والأخبار الصحاح التى لا مطعن فيها دالة على أن البسملة ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها، إلا فى النمل وحدها . روى مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قال الله عز وجل قسمت الصلاة بينى وبين عبدى

نصفين ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . قال الله تعالى حمدنى عبدى ، وإذا قال العبد ﴿ الرَّحْمَنِ الرحيم ﴾ . قال الله أثنى علىّ عبدى ، وإذا قال العبد ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قال مجدنى عبدى — وقال مرة فوّض إلىّ عبدى — وإذا قال ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . قال هذا بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل ، فاذا قال ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ . قال هؤلاء لعبدى ، ولعبدى ما سأل » . فقوله سبحانه : قسمت الصلاة ، يريد الفاتحة ، وسماها صلاة ، لأن الصلاة لا تصح إلا بهـا ، فجعل الثلاث الآيات الأول لنفسه ، واختص بها تبارك اسمه ، ولم يختلف المسلمون فيها . ثم الآية الرابعة جعلها بينه وبين عبده ، لأنها تضمنت تذلل العبد وطلب الاستعانة منـه ، وذلك يتضمن تعظيم الله تعالى ، ثم ثلاث آيات تتمة سبع آيات . ومما يدل على أنها ثلاث قوله : "هؤلاء لعبدى" أخرجه مالك ، ولم يقل : "هاتان" فهـذا يدل على أن ﴿ انعمت عليهم ﴾ آية . قال ابن بكير قال مالك : ﴿ انعمت عليهم ﴾ آية ، ثم الآية السابعة إلى آخرها . فثبت بهذه القسمة التى قسمها الله تعالى . وبقوله عليه السلام لأبى : « كيف تقرأ إذا افتتحت الصـلاة » قال : فقرأت ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ حتى أتيت على آخرها : أن البسـملة ليست بآية منهـا ، وكذا عدّ أهل المدينة وأهل الشام وأهل البصرة ، وأكثر القراء عدوا ﴿ انعمت عليهم ﴾ آية ، وكذا روى قتـادة عن أبى نضرة عن أبى هريرة قال : الآية السادسة ﴿ انعمت عليهم ﴾ وأما أهل الكوفة من القراء والفقهاء فإنهم عدوا فيهـا " بسم الله الرحمن الرحيم " ولم يعدّوا ﴿ أنعمت عليهم ﴾ .

فإن قيل : فانها ثبتت فى المصحف وهى مكتوبة بخطه ونقلت نقله ، كما نقلت فى النمل ، وذلك متواتر عنهم .

قلنا : ماذكرتموه صحيح ، ولكن لكونها قرآنا ؟ أو لكونها فاصلة بين السور ، كما روى عن الصحابة كنا لا نعرف انقضاء السورة حتى تنزل "بسم الله الرحمن الرحيم" أخرجه أبو داود . أو تبركا بها ، كما قد اتفقت الأمة على كتبها فى أوائل الكتب والرسائل ، كل ذلك محتمل . وقد قال الجريرى : سئل الحسن عن « بسم الله الرحمن الرحيم » قال : فى صدور الرسائل . وقال الحسن أيضا : لم تنزل « بسم الله الرحمن الرحيم » فى شىء من القرآن الا فى طس ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ والفيصل

أن القرآن لا يثبت بالنظر والاستدلال ، وإنما يثبت بالنقل المتواتر القطعي الاضطراري . ثم قد اضطرب قول الشافعي فيها في أول كل سورة فدل على أنها ليست بآية من كل سورة ، والحمد لله .

فإن قيل : فقد روى جماعة قرآنيتها ، وقد تولى الدارقطني جمع ذلك في جزء صححه .

قلنا : لسنا ننكر الرواية بذلك وقد أشرنا إليها ، ولنا أخبار ثابتة في مقابلتها ، رواها الأئمة الثقات والفقهاء الأثبات . روت عائشة في صحيح مسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير ، والقراءة بالحمد لله رب العالمين ، الحديث . وسيأتي بكماله . وروى مسلم أيضا عن أنس بن مالك قال : صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر ، وعمر فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين ، لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم لا في أول قراءة ولا في آخرها .

ثم إن مذهبنا يترجح في ذلك بوجه عظيم ، وهو المعقول ، وذلك أن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة انقرضت عليه العصور ، ومرت عليه الأزمنة والدهور ، من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زمان مالك ، ولم يقرأ أحد فيه قط « بسم الله الرحمن الرحيم » اتباعا للسنة . وهذا يرد أحاديثكم ؛

بيد أن أصحابنا استحبوا قراءتها في النفل : وعليه تحمل الآثار الواردة في قراءتها أو على السعة في ذلك . قال مالك : ولا بأس أن يقرأ بها في النافلة ومن يعرض القرآن عرضا .

وجملة مذهب مالك وأصحابه : أنها ليست عندهم آية من فاتحة الكتاب ولا غيرها ، ولا يقرأ بها المصلي في المكتوبة ولا في غيرها لا سرا ولا جهرا ؛ ويجوز أن يقرأها في النوافل . هذا هو المشهور من مذهبه عند أصحابه . وعنه رواية أخرى : أنها تقرأ أول السورة في النوافل ، ولا تقرأ أول أم القرآن . وروى عنه ابن نافع : ابتداء القراءة بها في الصلاة الفرض والنفل ولا تترك بحال . ومن أهل المدينة من يقول : إنه لابد فيها من «بسم الله الرحمن الرحيم» منهم ابن عمر ، وابن شهاب ؛ وبه قال الشافعي ، وأحمد ، وإسحاق ، وأبو ثور ، وأبو عبيد . وهذا يدل على أن المسئلة مسئلة اجتهادية ، لا قطعية ، كما ظنه بعض الجهال من المتفقهة الذي يلزم على قوله تكفير المسلمين ؛ وليس كما ظن لوجود الاختلاف المذكور ؛ والحمد لله .

وقد ذهب جمع من العلماء الى الإسرار بها مع الفاتحة ، منهم : أبو حنيفة ، والثوري ؛ وروى ذلك عن عمر ، وعلي ، وابن مسعود ، وعمار ، وابن الزبير ؛ وهو قول الحكم ، وحماد ؛ وبه قال أحمد بن حنبل

وأبو عبيد؛ وروى عن الأوزاعيّ مثل ذلك؛ حكاه أبو عمر بن عبد البرّ في (الاستذكار) . واحتجوا من الأثر في ذلك بمـا رواه منصور بن زاذان عن أنس بن مالك قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسمعنا قراءة «بسم الله الرحمن الرحيم» . وما رواه عمار بن رزيق[1] عن الأعمش عن شعبة عن ثابت عن أنس قال : صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وخلف أبي بكر، وعمر، فلم أسمع أحدا منهم يجهر بسم الله الرحمن الرحيم .

قلت : هـذا قول حسن وعليه تتفق الآثار عن أنس ولا تتضادّ، ويخرج به من الخلاف في قراءة البسملة . وقد روى عن سعيد بن جبير قال : كان المشركون يحضرون المسجد ؛ فاذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم » قالوا : هذا محمد يذكر رحمان اليمامة — يعنون مسيلمة — فأمر أن يخافت ببسم الله الرحمن الرحيم، ونزل : ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ . قال الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله : فبقى ذلك الى يومنا هذا على ذلك الرسم وإن زالت العلة، كما بقى الرَّمَل في الطواف وإن زالت العلة، وبقيت المخافتة في صلاة النهار وإن زالت العلة .

السادسة — اتفقت الأمة على جواز كتبها في أوّل كل كتاب من كتب العلم والرسائل، فإن كان الكتاب ديوان شعر؛ فروى مجالد عن الشعبيّ قال : أجمعوا ألا يكتبوا أمام الشعر « بسم الله الرحمن الرحيم » وقال الزهريّ : مضت السنة ألا يكتبوا في الشعر « بسم الله الرحمن الرحيم » . وذهب الى رسم التسمية في أوّل كتب الشعر سـعيد بن جبير، وتابعـه على ذلك أكثر المتأخرين . قال أبو بكر الخطيب : وهو الذي نختاره ونستحبه .

السابعة — قال المـاورديّ ويقال لمن قال : بسم الله مبسمل، وهي لغة مولدة . وقد جاءت في الشعر، قال عمر بن أبي ربيعة :

لقـد بسملت ليلى غداة لقيتها فيا حبذا ذاك الحبيب المبسمل

قلت : المشهور عن أهل اللغة بسمل . قال يعقوب بن السكيت والمطرز والثعالبيّ وغيرهم من أهل اللغـة : بسمل الرجل، إذا قال : بسم الله . يقال : قد أكثرت من البسملة، أي من قول بسم الله . ومثـله حوقل الرجل ، إذا قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . وهلل، إذا قال : لا إله

(١) كذا في تهذيب التهذيب . ورزيق بتقديم الراء على الزاي مصغرا . وفي الأصول : « عمار عن زريق » وهو خطأ .

إلا الله . وسبحل، إذا قال: سبحان الله . وحمدل، إذا قال : الحمد لله . وحيعل، إذا قال: حيّ على الصـلاة . وجعفل، إذا قال : جعلت فداك . وطبقل، إذا قال : أطال الله بقاءك . ودمعز، إذا قال : أدام الله عزك . وحيفل، إذا قال : حيّ على الفلاح . ولم يذكر المطرز : الحيعلة، إذا قال : حيّ على الصلاة .

الثامنة — ندب الشرع إلى ذكر البسملة فى أوّل كل فعل، كالأكل والشرب والنحر والجماع والطهارة وركوب البحر، إلى غير ذلك من الأفعال، قال الله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ . وقال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم : "أغلق بابك واذكر اسم الله، وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله، وخمر إناءك واذكر اسم الله، وأوك سقاءك واذكر اسم الله" وقال: "لو أنّ أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدّر بينهما ولد فى ذلك لم يضره شيطان أبدا" وقال لعمر بن أبى سلمة: "يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك" وقال : "إنّ الشيطان ليستحل الطعام إلا أن يذكر اسم الله عليه" وقال : "من لم يذبح فليذبح باسم الله" وشكى إليه عثمان بن أبى العاص وجعا يجده فى جسده منذ أسـلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "ضع يدك على الذى يألم من جسدك وقل بسم الله ثلاثا وقل سـبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر" . هـذا كله ثابت فى الصحيح . وروى ابن ماجه والترمذى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "ستر ما بين [أعين][1] الجن وعورات بنى آدم إذا دخل [أحدهم][1] الكنيف أن يقول بسم الله" . وروى الدرقطنى عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مس طهوره سمى الله تعالى، ثم يفرغ المـاء على يديه .

التاسـعة — قال علماؤنا : وفيها ردّ على القَدَرِيَّة وغيرهم ممن يقول : إن أفعالهم مقدورة لهم . وموضع الاحتجاج عليهم من ذلك : أن الله سبحانه أمرنا عند الابتداء بكل فعل أن نفتتح بذلك، كما ذكرنا .

فمعنى بسم الله أى بالله، ومعنى بالله أى بخلقه وتقديره يوصل إلى ما يوصل إليه . وسيأتى لهذا مزيد بيان إن شـاء الله تعالى . وقال بعضهم : معنى قوله، بسم الله يعنى بدأت بعون الله وتوفيقه

(١) الزيادة عن الجامع الصغير .

وبركته ، وهـذا تعليم من الله تعالى عباده ، ليذكروا اسمـه عند افتتاح القراءة وغيرها ، حتى يكون الافتتاح ببركة الله جل وعز .

العاشرة — ذهب أبو عبيدة معمر بن المثنى إلى أن « اسم » صلة زائدة ، واستشهد بقول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السـلام عليكما * ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

فذكر اسم زيادة ، وإنما أراد ثم السلام عليكما

وقد آستدل علماؤنا بقول لبيد هذا على أن الاسم هو المسمى . وسيأتى الكلام فيه فى هذا الباب وغيره ، إن شاء الله تعالى .

الحادية عشرة — اختلف فى معنى زيادة « اسم » ؛ فقـال قطرب : زيدت لإجلال ذكره تعالى وتعظيمه . وقال الأخفش : زيدت ليخرج بذكرها من حكم القسم إلى قصد التبرك ؛ لأن أصل الكلام بالله .

الثـانية عشرة — اختلفوا أيضـا فى معنى دخول الباء عليـه ، هل دخلت على معنى الأمر؟ ؛ والتقدير : ابدأ بسم الله ، أو معنى الخبر؟ والتقدير : ابتدأت بسم الله ، قولان : الأول للفراء ، والثانى للزجاج . فبسم فى موضع نصب على التأويلين . وقيل : المعنى ابتدائى بسم الله ، فبسم الله فى موضع رفع خبر الابتداء . وقيل : الخبر محـذوف ، أى ابتدائى مستقر أو ثابت بسم الله ؛ فإذا أظهرته كان بسم الله فى موضع نصب بثابت أو مستقر ، وكان بمنزلة قولك : زيد فى الدار . وفى التنزيل : ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ فعنده فى موضع نصب ؛ روى هذا عن نحاة أهل البصرة . وقيل التقدير ، ابتدائى بسم الله موجود أو ثابت ، فبسم فى موضع نصب بالمصدر الذى هو ابتدائى .

الثالثة عشرة — بسم الله ، تكتب بغير ألف استغناء عنهـا بباء الإلصاق فى اللفظ والخط لكثرة الاستعمال ، بخلاف قوله : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ فإنها لم تحذف لقلة الاستعمال . وآختلفوا فى حذفها مع الرحمن والقاهر ؛ فقال الكسائى وسعيد الأخفش ، تحذف الألف . وقال يحيى بن وثاب : لا تحذف إلا مع بسم الله فقط ، لأن الاستعمال إنما كثر فيه .

الرابعـة عشرة — واختلف فى تخصيص باء الجر بالكسر على ثلاثة معان ؛ فقيل : ليناسب لفظها عملها . وقيل : لمـا كانت البـاء لا تدخل إلا على الأسمـاء خصت بالخفض الذى لا يكون

إلا في الأسماء . الثالث : ليفرق بينها وبين ما قد يكون من الحروف اسما ، نحو الكاف في قول الشاعر :

* وردنا بكابن الماء تجنب وسطنا *

أي بمثل ابن الماء أو ما كان مثله .

الخامسة عشرة — اِسم ، وزنه اِفع ، والذاهب منه الواو ، لأنه من سموت وجمعه أسماء وتصغيره سمي . واختلف في تقديرأصله ، فقيل : فِعل ، وقيل : فُعل . قال الجوهري : وأسماء يكون جمعا لهذا الوزن ، وهو مثل جذع وأجذاع ، وقفل وأقفال ، وهذا لاتدرك صيغته إلا بالسماع . وفيه أربع لغات : اسم بالكسر ، واسم بالضم ، قال أحمد بن يحيى : من ضم الألف أخذه من سموت أسمو ، ومن كسر أخذه من سميت أسمي . ويقال : سِمٌ وسُمٌ وينشد :

والله أسماك سما مباركا * آثرك الله به إيثاركا

وقال آخر :

وعامنا أعجبنا مُقَدَّمُه * يدعى أبا السمح وقرضاب سُمه
* مبتركا[1] لكل عظم يلحمه *

قَرْضَبَ الرجل : إذا أكل شيئا يابسا فهو قرضاب . سمه بالضم والكسر جميعا .

ومنه قول الآخر :

* باسم الذى فى كل سورة سِمه *

وسكنت السين من بسم اعتلالا[2] على غير قياس ، وألفه ألف وصل ، وربما جعلها الشاعر ألف قطع للضرورة ، كقول الأحوص :

وما أنا بالمخسوس فى جِذم مالك * ولا من تسمى ثم يلتزم الإسما

السادسة عشرة — تقول العرب فى النسب إلى الاسم : سُمَوِيٌّ ، وإن شئت : اسمى تركته على حاله ، وجمعه أسماء ، وجمع الأسماء أسام . وحكى الفراء : أعيذك بأسماوات الله .

---

(١) التصويب من اللسان مادة « برك ، سما » . ورجل مبترك : معتمد على الشيء ملح ، يلحمه : ينزع عنه اللحم .

(٢) كان الأصل اسم نقلت حركة الهمزة الى السين ثم حذفت الهمزة ولما وصلت الباء به سكنت السين تخفيفا .

السابعة عشرة — اختلفوا في اشتقاق الاسم على وجهين؛ فقال البصريون : هو مشتق من السمو وهو العلو والرفعـة، فقيل اسم لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به . وقيل لأن الاسم يسمو بالمسمى فيرفعه عن غيره . وقيـل إنما سمي الاسم اسما لأنه علا بقوته على قسمي الكلام : الحرف والفعل؛ والاسم أقوى منهما بالإجماع لأنه الأصل؛ فلعلوه عليهما سمي اسما؛ فهذه ثلاثة أقوال .

وقال الكوفيون : إنه مشتق من السِّمَة وهي العلامة ؛ لأن الاسم علامة لمن وضع له ؛ فأصل اسم على هذا «وسم» والأول أصح، لأنه يقال في التصغير سمي وفي الجمع أسماء، والجمع والتصغير يردّان الأشـياءَ إلى أصولها ؛ فلا يقال : : وسيم ولا أوسام . ويدل على صحته أيضا فائدة الخلاف وهي :

الثامنة عشرة — فإن من قال الاسم مشتق من العلو يقول : لم يزل الله سـبحانه موصوفا قبـل وجود الخلق وبعد وجودهم وعند فنائهم، ولا تأثير لهم في أسمائه ولا صفاته؛ وهذا قول أهل السنة. ومن قال الاسم مشتق من السـمة يقول : كان الله في الأزل بلا اسم ولا صـفة ، فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفات ، فاذا أفناهم بقي بلا اسم ولا صفة؛ وهذا قول المعتزلة وهو خلاف ما أجمعت عليـه الأمة؛ وهو أعظم في الخطإ من قولهم : إن كلامه مخـلوق ، تعالى الله عن ذلك ، وعلى هـذا الخلاف وقع الكلام في الاسم والمسمى وهي :

التاسعة عشرة — فذهب أهل الحق فيما نقـل القاضي أبو بكر بن الطيب : إلى أن الاسم هو المسمى وارتضاه ابن فورك؛ وهو قول أبي عبيدة وسيبويه . فإذا قال قائل : الله عالم، فقوله دال على الذات الموصوفة بكونه عالمـا ، فالاسم كونه عالمـا وهو المسمى بعينـه . وكذلك إذا قال : الله خالق، فالخالق هو الرب، وهو بعينه الاسم . فالاسم عندهم هو المسمى بعينه من غير تفصيل .

قال ابن الحصار : من ينفي الصـفات من المبـدعة يزعم أن لامدلول للتسميات إلا الذات . ولذلك يقولون : الاسم غير المسمى ، ومن يثبت الصفات يثبت للتسميات مدلولات هي أوصاف الذات وهي غير العبارات وهي الأسماء عندهم . وسيأتي لهذه مزيد بيـان في البقرة والأعراف إن شاء الله تعالى .

الموفيـة عشرين — قوله : ﴿الله﴾ هذا الاسم أكبر أسمائه سـبحانه وأجمعها، حتى قال بعض العلماء : إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره؛ ولذلك لم يثن ولم يجمع، وهو أحد تأويلي قوله تعالى:

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أى من تسـمى باسمه الذى هو "الله" . فالله اسم للوجود الحق الجامع لصفات الإلهية ، المنعوت بنعوت الربوبية، المتفرد بالوجود الحقيق، لا إله الا هو سبحانه . وقيل : معناه الذى يستحق أن يعبد . وقيل : معناه واجب الوجود الذى لم يزل ولا يزال؛ والمعنى واحد .

الحادية والعشرون — واختلفوا فى هذا الاسم، هل هو مشتق؟ أو موضوع للذات، علم . فذهب إلى الأول كثير من أهل العلم . واختلفوا فى اشتقاقه وأصله . فروى سيبويه عن الخليـل : أن أصله إلاه، مثل فعّال فأدخلت الألف واللام بدلا من الهمزة . قال سيبويه : مثل الناس أصـله أناس . وقيل : أصـل الكلمة "لاه" وعليه دخلت الألف واللام للتعظيم، وهذا اختيار سيبويه . وأنشـد :

لاه ابن عمك لا أفضلت فى حسب * عنى ولا أنت ديانى فتخزونى

كذا الرواية : فتخزونى، بالخاء المعجمة ومعناه : تسوسنى .

وقال الكسائى والفراء : معنى بسم الله، بسم الاله؛ فحذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى فى الثانية فصارتا لاما مشـددة كما قال عز وجل : ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ ومعناه : لكن أنا ، كذلك قرأها الحسن . ثم قيل هو مشتق من « وله » إذا تحير، والوله : ذهاب العقل . يقال : رجل واله وامرأة والهة وواله، وماء موله : أرسل فى الصحارى . فالله سبحانه تتحير الألباب وتذهب فى حقائق صفاته والفكر فى معرفته . فعلى هذا أصل " إلاه " « ولاه » وأن الهمزة مبدلة من واو كما أبدلت فى إشاح ووشاح، وإسادة ووسادة . وروى عن الخليل، وروى عن الضحاك أنه قال : إنمـا سمى "الله" إلها، لأن الخلق يتألهون إليه فى حوائجهم، ويتضرعون اليه عند شدائدهم . وذكر عن الخليل بن أحمد أنه قال : لأن الخلق يألَهون اليـه بنصب اللام ويألِهون أيضا بكسرها وهمـا لغتان . وقيل : إنه مشـتق من الارتفاع ، فكانت العرب تقول لكل شىء مرتفع : لاها، فكانوا يقولون إذا طلعت الشمس : لاهت . وقيل : هو مشتق من أله الرجل إذا تعبد . وتأله إذا تنسك . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَيَذَرَكَ وَإِلَٰهَتَكَ﴾ : على هذه القراءة ؛ فان ابن عباس وغيره قالوا : وعبادتك .

قالوا : فاسم الله مشتق من هذا، فالله سبحانه معناه : المقصود بالعبادة، ومنه قول الموحدين : لا إله الا الله، معناه : لا معبـود غير الله . وإلا فى الكلمة بمعنى غير، لا بمعنى الاستثناء . وزعم

بعضهم أن الأصل فيه «الهاء» التي هي الكناية عن الغائب، وذلك أنهم أثبتوه موجودا في فطر عقولهم فأشاروا إليه بحرف الكناية ثم زيدت فيه لام الملك إذ قد علموا أنه خالق الأشياء ومالكها فصار «له» ثم زيدت فيه الألف واللام تعظيما وتفخيما .

القول الثاني : ذهب إليه جماعة من العلماء أيضا منهم الشافعي، وأبو المعالي، والخطابي، والغزالي، والمفضل، وغيرهم . وروى عن الخليل وسيبويه : أن الألف واللام لازمة له لايجوز حذفهما منه. قال الخطابي : والدليل على أن الألف واللام من بنية هذا الاسم، ولم يدخلا للتعريف: دخول حرف النداء عليه، كقولك : يا الله، وحروف النداء لا تجتمع مع الألف واللام للتعريف ؛ ألا ترى أنك لا تقول : يا ٱلرحمن ولا يا ٱلرحيم، كما تقول : يا ألله فدل على أنهما من بنية الاسم . والله أعلم .

الثانيـة والعشرون — واختلفوا أيضا في اشتقاق اسم الرحمن . فقال بعضهم : لا ٱشتقاق له ، لأنه من الأسماء المختصـة به سبحانه، ولأنه لو كان مشتقا من الرحمة لاتصـل بذكر المرحوم، فجاز أن يقال : الله رحمن بعباده، كما يقال : رحيم بعباده. وأيضا لو كان مشتقا من الرحمة لم تنكره العرب حين سمعوه، إذ كانوا لاينكرون رحمة ربهم، وقد قال الله عز وجل : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الآية. ولمـا كتب علي رضي الله عنه في صلح الحديبية بأمر النبي صلى الله عليه وسلم: بسم الله الرحمن الرحيم ، قال سهيل بن عمـرو : ما ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم ! ولكن اكتب ما نعرف : باسمك اللهم، الحديث . قال ٱبن العربي : إنما جهلوا الصفة دون الموصوف، واستدل على ذلك بقوله : وما الرحمن؟ ولم يقولوا : ومن الرحمن؟ قال ابن الحصار : وكأنه رحمه الله لم يقرأ الآية الأخرى : ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ . وذهب الجمهور من الناس الى أن الرحمن مشتق من الرحمة مبني على المبالغة؛ ومعناه ذو الرحمة الذى لانظير له فيها، فلذلك لا يثنى ولا يجمع كما يثنى الرحيم ويجمع. قال ٱبن الحصار : ومما يدل على الاشتقاق ما خرجه الترمذي وصححه عن عبد الرحمن بن عوف ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " قال الله عز وجل أنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها ٱسمـا من اسمي ، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته " وهذا نص في الاشـتقاق، فلا معنى للمخالفة والشقاق، وإنكار العرب له لجهلهم بالله وما وجب له .

الثالثة والعشرون — زعم المبرّد فيما ذكر ابن الأنباري في كتاب « الزاهر » له : أن الرحمن اسم عبرانيّ فجاء معه بالرحيم . وأنشد :

لن تُدركوا المجدَ أو تشروا عباءكم * بالخزّ أو تجعلوا اليَنْبُوتَ ضَمْرانا
أو تتركون الى القَسَّيْنِ هجْرتكم * ومَسْحَكم صُلْبهم رَحمان قُرْبانا

قال أبو إسحاق الزجاج في معاني القرآن : وقال أحمد بن يحيى : الرحيم عربيّ والرحمن عبرانيّ، فلهذا جمع بينهما . وهذا القول مرغوب عنه .

وقال أبو العباس : النعت قد يقع للمدح كما تقول : قال جرير الشاعر . وروى مطرّف عن قتادة . في قول الله عز وجل : بسم الله الرحمن الرحيم قال : مدح نفسه . قال أبو إسحاق : وهذا قول حسن . وقال قطرب : يجوز أن يكون جمع بينهما للتوكيد . قال أبو إسحاق : وهذا قول حسن ، وفي التوكيد أعظم الفائدة . وهو كثير في كلام العرب ، ويستغنى عن الاستشهاد ، والفائدة في ذلك ما قاله محمد بن يزيد : إنه تفضل بعد تفضل ، وإنعام بعد إنعام ، وتقوية لمطامع الراغبين ، ووعد لا يخيب آمله .

الرابعة والعشرون — واختلفوا هل هما بمعنى واحد أو بمعنيين؟ فقيل : هما بمعنى واحد كندمان ونديم . قاله أبو عبيدة : وقيل : ليس بناء فَعلان كفَعيل ، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل نحو قولك : رجل غضبان ، للممتلئ غضبا . وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول . قال عملّس (١) :

فأما إذا عضت بك الحرب عضة * فإنك معطوف عليك رحيم

فالرحمن خاص الاسم عام الفعل . والرحيم عام الاسم خاص الفعل . هذا قول الجمهور .

قال أبو عليّ الفارسيّ : الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة ، يختص به الله ، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين كما قال تعالى : ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (٢) . وقال العرزميّ : الرحمن بجميع خلقه في الأمطار ونعم الحواس والنعم العامة ، والرحيم بالمؤمنين في الهداية لهم ، واللطف بهم . وقال ابن المبارك : الرحمن إذا سئل أعطى ، والرحيم إذا لم يسئل غضب . وروى ابن ماجه في سننه والترمذيّ في جامعه

---

(١) هو عملس بن عقيل كما في لسان العرب مادة رحم .

(٢) هو عبد الملك بن أبي سليمان العرزميّ كما في الخلاصة .

عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من لم يسأل الله يغضب عليه» لفظ الترمذيّ . وقال ابن ماجه : « من لم يدع الله غضب عليه » وقال : سألت أبا زرعة عن أبي صالح هـذا ، فقال : هو الذى يقال له : الفارسيّ وهو خوزيّ[1] ولا أعرف اسمه . وقد أخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال :

الله يغضب إن تركت سؤاله ❊ وبنيّ آدم حين يسئل يغضب

وقال ابن عباس : هما اسمان رقيقان ، أحدهما أرق من الآخر أى أكثر رحمة .

قال الخطابيّ : وهذا مشكل ، لأن الرقة لا مدخل لهـا فى شىء من صفات الله تعالى . وقال الحسين بن الفضل البجلي : هذا وهم من الراوى ، لأن الرقة ليست من صفات الله تعالى فى شىء ، وإنمـا هما اسمان رفيقان أحدهما أرفق من الآخر ، والرفق من صفات الله عز وجل قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف » .

الخامسة والعشرون — أكثر العلماء على أن الرحمن مختص بالله عز وجل ، لا يجوز أن يسمى به غيره ، ألا تراه قال : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ فعادل الاسمَ الذى لا يشركه فيـــه غيره . وقال : ﴿ وَٱسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَـدُونَ ﴾ فأخبر أن الرحمن هو المستحق للعبادة جل وعز . وقد تجاسر مسيلمة الكذاب لعنه الله ، فتسمى برحمان اليمامة وما قرع مسامعه ، حتى ألزمه الله تعالى نعت الكذاب لذلك ، وإن كان كل كافر كاذبا ، فقد صار هذا الوصف لمسيلمة علما يعرف به ، ألزمه الله اياه . وقد قيل فى اسمه الرحمن : إنه اسم الله الأعظم ؛ ذكره ابن العربيّ .

السادسة والعشرون — الرحيم صفة مطلقة للمخلوقين ، ولمـا فى الرحمن من العموم ، قدّم فى كلامنا على الرحيم ، مع موافقة التنزيل ؛ قاله المهدويّ . وقيل : إن معنى الرحم أى بالرحيم وصلتم إلى الله وإلى الرحمن ، فالرحيم نعت محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد نعته تعالى بذلك فقال : ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ فكأن المعنى أن يقول : بسم الله الرحمن وبالرحيم ، أى وبمحمد صلى الله عليه وسـلم وصلتم إلىّ ، أى باتباعه وبما جاء به وصلتم إلى ثوابى وكرامتى والنظر إلى وجهى والله أعلم .

(١) نسبة الى خوزستان بلاد بين فارس والبصرة وفى بعض النسخ حوزى بالحاء المهملة نسبة الى حوز قرية . اهـ .

السابعة والعشرون — روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهــه أنه قال فى قوله : بسم الله شفاء من كل داء، وعون على كل دواء، وأما الرحمن، فهو عون لكل من آمن به، وهو اسم لم يسم به غيره، وأما الرحيم، فهو لمن تاب وآمن وعمل صالحا .

وقد فسره بعضهم على الحروف ؛ فروى عن عثمان ابن عفان : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير بسم الله الرحمن الرحيم، فقال : أما الباء فبلاء الله وروحه ونصره و بهاؤه، وأما السين فســناء الله . وأما الميم فملك الله ، وأما الله ، فلا إله غيره وأما الرحمن ، فالعاطف على البرّ والفاجر من خلقه ، وأما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصة . وروى عن كعب الأحبار أنه قال : الباء بهاؤه ، والسين سناؤه فلا شيء أعلى منه، والميم ملكه، وهو على كل شيء قدير، فلا شيء يعازّه . وقد قيل : إن كل حرف هو افتتاح اسم من أسمائه ، فالباء مفتاح اسمه بصير، والسين مفتاح اسمه سميع، والميم مفتاح اسمه مليك ، والألف مفتاح اسمه الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، والهاء مفتاح اسمه هادى، والراء مفتاح اسمه رازق ، والحاء مفتاح اسمــه حليم، والنون مفتاح اسمه نور ، ومعنى هــذا كله دعاء الله تعالى عند افتتاح كل شيء .

الثامنة والعشرون — واختلف فى وصل الرحيم بالحمد لله، فروى عن أم سلمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، الرحيم بتسكين الميم ويقف عليها، و يبتدئ بألف مقطوعة، وقرأ به قوم من الكوفيين، وقرأ جمهور الناس الرحيم الحمد، يعرب الرحيم بالخفض و يوصل الألف من الحمد . وحكى الكسائىّ عن بعض العرب أنها تقرأ الرحيم الحمد ، بفتح الميم وصلة الألف كأنها سكنت الميم وقطعت الألف ثم ألقيت حركتها على الميم وحذفت . قال ابن عطية : ولم ترو هذه قراءةً عن أحد فيما علمت . وهذا نظر يحيى بن زياد فى قوله تعالى الم آلله .

تفســـير سورة الفــاتحة

بحول الله وكرمه ، وفيها أربعـــة أبواب

البــاب الأوّل

فى فضائلها وأسمائها وفيه سبع مسائل

الأولى — روى الترمذىّ عن أبىّ بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أمّ القرآن، وهى السبع المثانى، وهى مقسومة[1] بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل" أخرج مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب: أن أبا سعيد مولى [ابن] عامر بن كريز أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى أُبَىّ بن كعب وهو يصلى؛ فذكر الحديث. قال ابن عبد البر: أبو سعيد لا يوقف له على اسم وهو معدود فى أهل المدينة، روايته عن أبى هريرة وحديثه هذا مرسل؛ وقد روى هذا الحديث عن أبى سعيد بن المعلى رجل من الصحابة لا يوقف على اسمه أيضا؛ رواه عنه حفص بن عاصم، وعبيد بن حنين .

قلت: كذا قال فى التمهيد: لا يوقف له على اسم . وذكر فى كتاب الصحابة الاختلاف فى اسمه . والحديث خرجه البخارى عن أبى سعيد بن المعلى قال: كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله إنى كنت أصلى؛ فقال: ألم يقل الله: ﴿ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ ثم قال: "إنى لأعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد" ثم أخذ بيدى فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل: لأعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن؛ قال: "الحمد لله رب العالمين، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته". قال ابن عبد البر وغيره: أبو سعيد بن المعلى من جلة الأنصار، وسادات الأنصار، تفرّد به البخارى، واسمه رافع ويقال: الحارث بن نفيع بن المعلى، ويقال: أوس بن المعلى، ويقال: أبو سعيد بن أوس بن المعلى؛ توفى سنة أربع وسبعين وهو ابن أربع وستين [سنة][2]، وهو أوّل من صلى إلى القبلة

(١) لعل هنا سقطا يبينه ما رواه مسلم عن أبى هريرة « يقول الله تعالى قسمت الصلاة (أى الفاتحة) بينى وبين عبدى » .

(٢) قال فى الإصابة وهو خطأ فإنه يستلزم أن يكون صحبه مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو صغير وسياق الحديث يأبى ذلك .

حين حوّلت . وسيأتى . وقد أسند حديث أُبَيّ يزيد بن زريع قال : حدّثنا رَوْحُ بن القاسم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أُبَيّ وهو يصلى، فذكر الحديث بمعناه .

وذكر ابن الأنبارى فى كتاب الرّد له : حدّثنى أبى حدّثنى أبو عبيد الله الوراق حدّثنا أبو داود، حدثنا شيبان عن منصور عن مجاهد قال : إن إبليس لعنه الله رنّ أربع رنات، حين لعن ، وحين أهبط من الجنة، وحين بعث محمد صلى الله عليه وسلم، وحين نزلت فاتحة الكتاب، وأنزلت بالمدينة .

الثانية — اختلف العلماء فى تفضيل بعض السور والآى على بعض، وتفضيل بعض أسماء الله تعالى الحسنى على بعض . فقال قوم : لافضل لبعض على بعض، لأن الكلام كلام الله ، وكذلك أسماؤه لامفاضلة بينها ؛ ذهب إلى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعرى، والقاضى أبو بكر بن الطيب، وأبو حاتم محمد بن حبان البستى، وجماعة من الفقهاء . وروى معناه عن مالك قال يحيى بن يحيى : تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ، وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردّد دون غيرها وقال عن مالك فى قول الله تعالى : ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾، قال: محكمة مكان منسوخة . وروى ابن كنانة مثل ذلك كله عن مالك . واحتج هؤلاء بأن قالوا : إن الأفضل يشعر بنقص المفضول، والذاتية فى الكل واحدة، وهى كلام الله ، وكلام الله تعالى لا نقص فيه . قال البستى : ومعنى هذه اللفظة (ما فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أم القرآن) ، أن الله تعالى لا يعطى لقارئ التوراة والانجيل مثل ما يعطى لقارئ أم القرآن، إذ الله بفضله فضل هذه الأمة على غيرها من الأمم، وأعطاها من الفضل على قراءة القرآن كلامه، أكثر مما أعطى غيرها من الفضل على قراءة كلامه، وهو فضل منه لهذه الأمة . قال : ومعنى قوله : أعظم سورة، أراد به فى الأجر لا أن بعض القرآن أفضل من بعض .
وقال قوم بالتفضيل، وأن ما تضمنه قوله تعالى : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ وآية الكرسى، وآخر سورة الحشر، وسورة الإخلاص من الدلالات على وحدانيته وصفاته ليس موجودا مثلا فى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ وما كان مثلها .

والتفضيل إنما هو بالمعانى العجيبة وكثرتها، لا من حيث الصفة، وهذا هو الحق . وممن قال بالتفضيل إسحاق بن راهويه، وغيره من العلماء والمتكلمين، وهو اختيار القاضى أبى بكر بن العربى، وابن

الحصار لحديث أبى سعيد بن المعلى وحديث أبىّ بن كعب أنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أبىّ أىّ آية معك فى كتاب الله أعظم" قال : فقلت : ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

قال : فضرب فى صدرى وقال : "ليهنك العلم يا أبا المنذر" أخرجه البخارى ومسلم .

قال ابن الحصار : عجبى ممن يذكر الخلاف مع هــذه النصوص .

وقال ابن العربى : قوله : "ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الانجيل ولا فى القرآن مثلها" وسكت عن سائر الكتب ، كالصحف المنزلة والزبور وغيرها ؛ لأن هذه المذكورة أفضلها ، و إذا كان الشيء أفضل الأفضل ، صار أفضل الكل ، كقولك زيد أفضل العلماء ، فهو أفضل الناس .

وفى الفاتحــة من الصفات ما ليس لغيرها حتى قيــل : إن جميع القــرآن فيها . وهى خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن . ومن شرفها أن الله سبحانه قسمها بينه وبين عبــده ، ولا تصح القربة إلا بها ، ولا يلحق عمل بثوابها ، وبهذا المعنى صارت أم القرآن العظيم ، كما صارت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن ، إذ القرآن توحيد وأحكام ، ووعظ ، و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها التوحيــد كله ، وبهذا المعنى وقع البيان فى قوله عليه الســلام لأبىّ : "أى آية فى القرآن أعظم" قال : ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ . وإنمــا كانت أعظم آية لأنها توحيد كلها كما صار قوله : " أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له " أفضل الذكر ، لأنها كلمات حوت جميع العلوم فى التوحيــد ، والفاتحة تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتــذكير ولا يستبعد ذلك فى قدرة الله تعالى .

الثالثــة — روى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فاتحة الكتاب ، وآية الكرسى ، وشَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، وقُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ، هذه الآيات معلقات بالعرش ، ليس بينهن وبين الله حجاب" . أسنده أبو عمرو الدانى فى كتاب (البيان) له .

الرابعة — فى أسمائها وهى اثنا عشر اسما :

(الأوّل) الصلاة ، قال الله[1] تعالى : "قسمت الصلاة بينى و بين عبدى نصفين" الحديث وقد تقدّم .

(١) أى فى الحديث القدسى .

(الثانى) الحمد، لأن فيها ذكر الحمد كما يقال : سورة الأعراف، والأنفال، والتوبة، ونحوها.

(الثالث) فاتحة الكتاب، من غير خلاف بين العلماء، وسميت بذلك لأنه تفتتح قراءة القرآن بها لفظا، وتفتتح بها الكتابة فى المصحف خطا، وتفتتح بها الصلوات .

(الرابع) أم الكتاب ، وفى هذا الاسم خلاف، جوّزه الجمهور ، وكرهه أنس، والحسن ، وابن سيرين، قال الحسن : أم الكتاب الحلال والحرام، قال الله تعالى : ﴿ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ . وقال أنس، وابن سيرين : أم الكتاب اسم اللوح المحفوظ . قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ ﴾ .

(الخامس) أم القرآن، واختلف فيه أيضا، فجوّزه الجمهور، وكرهه أنس، وابن سيرين، والأحاديث الثابتة تردّ هذين القولين . روى الترمذى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الحمد لله أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثانى» قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى البخارى قال : وسميت أم الكتاب لأنه يبتدأ بكتابتها فى المصاحف، ويبدأ بقراءتها فى الصلاة . وقال يحيى ابن يعمر : أم القرى مكة . وأم خراسان : مَرْوُ . وأم القرآن : سورة الحمد . وقيل : سميت أم القرآن لأنها أوّله ومتضمنة لجميع علومه، وبه سميت مكة أم القرى لأنها أوّل الأرض ومنها دحيت، ومنه سميت الأم أمّا لأنها أصل النسل، والأرض أمّا، فى قول أمية بن أبى الصّلت :

فالأرض معقلنا وكانت أمنا * فيها مقابرنا وفيها نولد

ويقال لراية الحرب : أم، لتقدمها واتباع الجيش لها، وأصل أم أمهة، ولذلك يجمع على أمهات قال الله تعالى : ﴿وأمهاتكم﴾ . ويقال : أمات بغير هاء . قال :

* فرجت الظلام بأماتكا *

وقيل : إن أمهات فى الناس، وأمات فى البهائم، حكاه ابن فارس فى المجمل .

(السادس) المثانى ، سميت بذلك لأنها تثنى فى كل ركعة . وقيل : سميت بذلك لأنها استثنيت لهذه الأمة فلم تنزل على أحد قبلها ذخرا لها .

(السابع) القرآن العظيم، سميت بذلك لتضمنها جميع علوم القرآن، وذلك أنها تشتمل على الثناء على الله عز وجل بأوصاف كماله وجلاله، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها، والاعتراف بالعجز

عن القيام بشيء منها إلا بإعانته تعالى ، وعلى الابتهال اليه ، فى الهداية الى الصراط المستقيم ، وكفاية أحوال الناكثين ، وعلى بيان عاقبة الجاحدين .

(الثامن) الشفاء ، روى الدارمى[(١)] عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فاتحة الكتاب شفاء من كل سم » .

(التاسع) الرقية ، ثبت ذلك من حديث أبى سـعيد الخدرى وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال للرجل الذى رقى سـيد الحى : « ما أدراك أنها رقيـة » فقال : يا رسول الله شيء ألقى فى رُوعى . الحديث خرجه الأئمة وسيأتى بتمامه .

(العاشر) الأساس ، شكا رجل الى الشعبى وجع الخاصرة ، فقال : عليك بأساس القرآن فاتحة الكتاب ، سمعت ابن عباس يقول : لكل شيء أساس ، وأساس الدنيا مكة ، لأنها منها دحيت ، وأساس السموات غريب ، وهى السماء السابعة ، وأساس الأرض عجيب ، وهى الأرض السابعة السفلى ، وأساس الجنان جنة عدن ، وهى سرة الجنان عليها أسست الجنة ، وأساس النار جهنم ، وهى الدركة السابعة السفلى عليها أسست الدركات ، وأساس الخلق آدم ، وأساس الأنبيـاء نوح ، وأساس بنى إسرائيل يعقوب ، وأساس الكتب القرآن ، وأسـاس القرآن الفاتحة ، وأساس الفاتحـة بسم الله الرحمن الرحيم ، فإذا اعتللت أو اشتكيت فعليك بالفاتحة تشفى .

(الحادى عشر) الوافية قاله سفيان بن عيينة : لأنها لا تتنصف ولا تحتمل الاختزال ، ولو قرأ من سائر السور نصفها فى ركعة ، ونصفها الآخر فى ركعة ، لأجزأ ، ولو نصفت الفاتحة فى ركعتين لم يجز .

(الثانى عشر) الكافية ، قال يحيى بن أبى كثير : لأنها تكفى عن سواها ولا يكفى سواها عنها . يدل عليه ماروى محمد بن خلاد الاسكندرانى قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : "أم القرآن عوض من غيرها وليس غيرها منها عوضا " .

الخامسة — قال المهلب : إن موضع الرقية منها إنما هو ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وقيل : السورة كلها رقية ، لقوله عليه السلام للرجل لما أخبره : "وما أدراك أنها رقيه" ولم يقل . إن فيها رقية . فدل هذا على أن السورة بأجمعها رقية ، لأنها فاتحة الكتاب ومبدؤه ، ومتضمنة لجميع علومه ، كما تقدم والله أعلم .

(١) فى بعض الأصول : « الدارقطنى » .

السادسة — ليس فى تسميتها بالمثانى وأم الكتاب ، ما يمنع من تسمية غيرها بذلك ، قال الله عز وجل : ﴿ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ ﴾ فأطلق على كتابه : مثانى ، لأن الأخبار تثنى فيه . وقد سميت السبع الطوال أيضا مثانى ، لأن الفرائض والقصص تثنى فيها . قال ابن عباس : أوتى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعا من المثانى . قال : السبع الطوال . ذكره النسائى ، وهى من البقرة إلى الأعراف ست واختلفوا فى السابعة ، فقيل : يونس ، وقيل الأنفال والتوبة ، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير . وقال أعشى همدان :

فلجوا المسجد وادعوا ربكم * وادرسوا هذى المثانى والطول

وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة الحجر ، إن شاء الله تعالى .

السابعة — المثانى جمع مثنى ، وهى التى جاءت بعد الأولى ، والطول جمع أطول . وقد سميت الأنفال من المثانى لأنها تتلو الطول فى القدر . وقيل : هى التى تزيد آياتها على المفصل وتنقص عن المئين . والمئون : هى السور التى تزيد كل واحدة منها على مائة آية .

الباب الثانى

فى نزولها وأحكامها ، وفيه عشرون مسألة

الأولى — أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات ، إلا ماروى عن حسين الجعفى : أنها ست ، وهذا شاذ . وإلا ما روى عن عمرو بن عبيد . أنه جعل ﴿ إياك نعبد ﴾ آية ، وهى على هذا ثمان آيات وهذا شاذ . وقوله تعالى : ﴿ ولقد آتيناك سبعا من ٱلمثانى ﴾ وقوله : " قسمت الصلاة " الحديث يرد هذين القولين . وأجمعت الأمة أيضا على أنها من القرآن . فإن قيل : لو كانت قرآنا لأثبتها عبد الله بن مسعود فى مصحفه . ولما لم يثبتها دل على أنها ليست من القرآن ، كالمعوذتين عنده .

الجواب ما ذكره أبو بكر الأنبارى قال : حدثنا الحسن بن الحباب حدثنا سليمان بن الأشعث حدثنا ابن أبى قدامة حدثنا جرير عن الأعمش قال : أظنه عن ابراهيم قال : قيل لعبد الله بن مسعود : لم لم تكتب فاتحة الكتاب فى مصحفك ؟ قال : لو كتبتها لكتبتها مع كل سورة . قال أبو بكر : يعنى أن كل ركعة سبيلها أن تفتتح بأم القرآن قبل السورة المتلوة بعدها ، فقال : اختصرت بإسقاطها ، ووثقت بحفظ المسلمين لها ، ولم أثبتها فى موضع فيلزمنى أن أكتبها مع كل سورة ، إذ كانت تتقدمها فى الصلاة .

الثانيـة — اختلفوا أهي مكية أم مدنية ؟ . فقال ابن عباس، وقتادة، وأبو العالية الرياحى — واسمه رفيع — وغيرهم : هي مكيـة . وقال أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهرى وغيرهم : هي مدنية . ويقال : نزل نصفها بمكة، ونصفها بالمدينة . حكاه أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندى فى تفسـيره . والأول أصح لقوله تعالى : وَلَقَـدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ والحجر مكية بإجماع . ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة . وما حفظ أنه كان فى الإسلام قط صلاة بغير الحمد لله رب العالمين، يدل على هذا قوله عليه السلام : " لاصلاة إلا بفاتحة الكتاب " وهذا خبر عن الحكم، لا عن الابتداء والله أعلم .

وقد ذكر القـاضى ابن الطيب اختلافَ الناس فى أوّل ما نزل من القـرآن، فقيل : المدثر، وقيل : إقرأ، وقيل : الفاتحة . وذكر البيهقى فى دلائل النبوّة : عن أبى ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : " إنى اذا خلوت وحدى سمعت نداء، وقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا " قالت : معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدّى الأمانة، وتصل الرحم، وتَصْدُقُ الحديث . فلما دخل أبو بكر، وليس رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ثَمَّ، ذكرت خديجة حديثـه له، قالت : يا عتيق، اذهب مع محمد إلى ورقة بن نوفل . فلمـا دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ أبو بكر بيده، فقال : انطلق بنا الى ورقة، فقال : ومن أخبرك . قال خديجة، فانطلقا اليـه، فقصا عليه، فقال : " اذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى يا محمد يا محمد، فأنطلق هاربا فى الأرض " فقال : لا تفعل، إذا أتاك فأثبت حتى تسمع ما يقول، ثم آئتى فأخبرنى . فلما خلا، ناداه : يا محمد قل بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين حتى بلغ ولا الضالين قل : لا إله إلا الله . فأتى ورقة، فذكر ذلك له، فقال له ورقة : أبشر ثم أبشر، فأنا أشهد أنك الذى بشر به عيسى ابن مريم، وأنك على مثل ناموس موسى، وأنك نبىّ مرسل، وأنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، وإن يدركنى ذلك لأجاهدن معك . فلمـا توفى ورقة قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : "لقد رأيت القَسَّ فى الجنة عليه ثياب الحرير لانه آمن بى وصدّقنى" يعنى ورقة . قال البيهقىّ رضى الله عنه : هذا منقطع يعنى هذا الحديث، فإن كان محفوظا فيحتمل أن يكون خبرا عن نزولها بعـد ما نزل عليه ﴿ آقرأ بِٱسمِ رَبِّك ﴾ و ﴿ يا أَيُّها المُدَّثِّر ﴾ .

الثالثة — قال ابن عطية : ظن بعض العلماء أن جبريل عليــه السلام لم ينزل بسورة الحمــد ؛ لمــا رواه مسلم عن ابن عباس قال : بينا جبريل قاعد عند النبيّ صلى الله عليه وسلم سمع نقيضاً[1] من فوقه، فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل إلا اليوم، فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبيّ قبلك : فاتحة الكتاب، وخواتيم ســورة البقرة، لن تقرأ بحرف منها إلا أوتيتــه . قال ابن عطية : وليس كما ظن، فان هذا الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام تقدم الملك إلى النبي صلى الله عليه وسلم مُعلِماً به وبما ينزل معه، وعلى هذا يكون جبريل شارك في نزولها والله أعلم .

قلت : الظــاهر من الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام لم يعلم النبيّ صلى الله عليه وسلم بشيء من ذلك . وقد بينا أن نزولها كان بمكة، نزل بها جبريل عليه السلام، لقوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾ وهذا يقتضي جميع القرآن، فيكون جبريل عليه السلام نزل بتلاوتها بمكة، ونزل الملك بثوابها بالمدينة . والله أعلم . وقد قيل : إنها مكية مدنية، نزل بها جبريل مرتين، حكاه الثعلبي . وما ذكرناه أولى، فإنه جمع بين القرآن والسنة، ولله الحمد والمنة .

الرابعة — قد تقدم أن البسملة ليست بآية منها على القول الصحيح، وإذا ثبت ذلك فحكم المصلي إذا كبر أن يصله بالفاتحة ولا يسكت، ولا يذكر توجيها، ولا تسبيحا، لحديث عائشة، وأنس المتقدمين وغيرهما، وقد جاءت أحاديث بالتوجيه، والتسبيح، والسكوت، قال بها جماعة من العلماء، فروى عن عمر ابن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، رضي الله عنهما : أنهما كانا يقولان إذا افتتحا الصلاة : سبحانك اللهــم وبحمدك، تبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك ؛ وبه قال سفيان، وأحمد، وإسحاق وأصحاب الرأي . وكان الشافعيّ يقول بالذي روى عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه كان إذا افتتح الصلاة كبر ثم قال : " وَجَّهْتُ وَجْهِي " الحديث، ذكره مسلم، وسيأتي بتمامه في آخر سورة الأنعام، وهناك يأتي القول في هذه المسألة مستوفى . إن شاء الله .

قال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا كبر في الصلاة سكت هنيهة قبل أن يقرأ يقول : " اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقني من

(١) النقيض : الصوت الخفي .

خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلنى من خطاياى بالمـاء والثلج والبرد "
واستعمل ذلك أبو هريرة . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : للإمام سكتتان فاغتنموا فيهما القراءة .
وكان الأوزاعى، وسعيد بن عبد العزيز، وأحمد بن حنبل ، يميلون الى حديث النبى صلى الله عليه
وسلم فى هذا الباب .

الخامسة — واختلف العلمـاء فى وجوب قراءة الفاتحة فى الصلاة، فقال مالك وأصحابه : هى متعينة للإمام والمنفرد فى كل ركعة . قال ابن خواز منداذ البصرى المـالكى : لم يختلف قول مالك انه من نسيها فى صلاة ركعة من صلاة ركعتين أن صلاته تبطل ولا تجزيه . واختلف قوله ، فيمن تركها ناسيا فى ركعـة من صلاة رباعية أو ثلاثية ؛ فقال مرة : يعيد الصـلاة، وقال مرة أخرى : يسجد سجدتى السهو،وهى رواية ابن عبد الحكم،وغيره،عن مالك . قال ابن خواز منداذ وقد قيل: إنه يعيد تلك الركعة ويسجد للسهو بعد السلام . قال ابن عبد البرّ : الصحيح من القول إلغاء تلك الركعة ويأتى بركعة بدلا منها، كمن أسقط سجدة سهوا . وهو اختيار ابن القاسم . وقال الحسن البصرى وأكثر أهل البصرة، والمغيرة بن عبد الرحمن المخزومى المدنى: إذا قرأ بأم القرآن مرة واحدة فى الصلاة أجزأه ولم يكن عليه إعادة؛ لأنها صلاة قد قرأ فيها بأم القرآن ؛ وهى تامة لقوله عليه السلام : " لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن " وهذا قد قرأ بها .

قلت : ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها فى كل ركعة، وهو الصحيح، على ما يأتى، ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها فى أكثر عدد الركعات، وهذا هو سبب الخلاف والله أعلم .

وقال أبو حنيفة، والثورى، والأوزاعىّ : إن تركها عامدا فى صـلاته كلها وقرأ غيرها أجزأه، على اختلاف عن الأوزاعىّ فى ذلك . وقال أبو يوسف، ومحمد بن الحسن : أقله ثلاث آيات أو آية طويلة كآية الدين . وعن محمـد بن الحسن أيضا ؛ قال : أسوّغ الاجتهاد فى مقدار آية ومقدار كلمة مفهومة؛ نحو : ﴿ الحمد لله ﴾ . ولا أسوّغه فى حرف لا يكون كلاما .

وقال الطبرىّ : يقرأ المصلى بأمّ القرآن فى كل ركعة، فإن لم يقرأ بها لم يجزه إلا مثلها من القرآن فى عدد آيها، وحروفها . قال ابن عبد البرّ : وهذا لا معنى له ؛ لأن التعيين لها والنص عليها قد خصها

بهذا الحكم دون غيرها ؛ ومحال أن يجيء بالبدل منها من وجبت عليه فتركها وهو قادر عليها، وإنما عليه أن يجيء بها ويعود اليها، كسائر المفروضات المتعينات فى العبادات .

السادسة — وأما المأموم فإن أدرك الإمام راكعا فالإمام يحمل عنه القراءة؛ لإجماعهم على أنه إذا أدركه راكعا أنه يكبر ويركع ولا يقرأ شيئا، وإن أدركه قائما فإنه يقرأ وهي المسئلة

السابعة — ولا ينبغى لأحد أن يدع القراءة خلف إمامه فى صلاة السرّ ؛ فإن فعل فقد أساء ولا شيء عليه عند مالك، وأصحابه . وأما إذا جهر الإمام وهى المسئلة

الثامنة — فلا قراءة بفاتحة الكتاب ولا غيرها فى المشهور من مذهب مالك، لقول الله تعالى : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مالى أنازع القرآن" وقوله فى الإمام : "إذا قرأ فأنصتوا" وقوله : "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة".

وقال الشافعى فيما حكى عنه البويطىّ، وأحمد بن حنبل: لا تجزئ أحدا صلاة حتى يقرأ بفاتحة الكتاب فى كل ركعة، إماما كان أو ماموما؛ جهر إمامه أو أسرّ . وكان الشافعىّ بالعراق يقول فى المأموم : يقرأ إذا أسر ولا يقرأ إذا جهر ؛ كمشهور مذهب مالك . وقال بمصر فيما يجهر فيه الإمام بالقراءة قولان : أحدهما أن يقرأ ، والآخر يجزئه ألا يقرأ ويكتفى بقراءة الإمام . حكاه ابن المنذر . وقال ابن وهب، وأشهب، وابن عبد الحكم، وابن حبيب ، والكوفيون : لا يقرأ المأموم شيئا، جهر إمامه أو أسر؛ لقوله عليه السلام: " فقراءة الامام له قراءة " وهذا عام؛ ولقول جابر : من صلى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فلم يصل، إلا وراء الإمام .

التاسعة — الصحيح من هذه الأقوال : قول الشافعىّ، وأحمد، ومالك، فى القول الآخر، وأن الفاتحة متعينة فى كل ركعة لكل أحد على العموم لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب » وقوله : « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج ثلاثا وقال أبو هريرة : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادى أنه : " لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فما زاد " أخرجه أبو داود . كما لا ينوب سجود ركعة ولا ركوعها عن ركعة أخرى ؛ فكذلك لا تنوب قراءة ركعة عن غيرها؛ وبه قال عبد الله بن عون، وأيوب السختيانى، وأبو ثور، وغيره من أصحاب الشافعىّ، وداود بن على . وروى مثله عن الأوزاعىّ ؛ وبه قال مكحول .

وروى عن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عباس ، وأبي هريرة ، وأبيّ بن كعب ، وأبي أيوب الأنصارى ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبادة بن الصامت ، وأبي سعيد الخدرى ، وعثمان بن أبي العاص ، وخوّات بن جبير ، أنهم قالوا : لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب . وهو قول ابن عمر والمشهور من مذهب الأوزاعيّ ؛ فهؤلاء الصحابة بهم القدوة ، وفيهم الأسوة ، كلهم يوجبون الفاتحة في كل ركعة .

وقد أخرج الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزوينيّ في سننه ما يرفع الخلاف ويزيل كل احتمال ؛ فقال : حدّثنا أبو كريب حدّثنا محمد بن فضيل ، وحدّثنا سويد بن سعيد حدّثنا علي بن مسهر جميعا عن أبي سفيان[1] السعديّ عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدريّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة الحمد وسورة في فريضة أو غيرها » . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أنه عليه السلام قال للذى علمه الصلاة : « وافعل ذلك في صلاتك كلها » وسيأتى . ومن الحجة في ذلك أيضا : ما رواه أبو داود عن نافع بن محمود بن الربيع الأنصارى قال : أبطأ عبادة بن الصامت عن صلاة الصبح ؛ فأقام أبو نعيم المؤذن الصلاة فصلى أبو نعيم بالناس ، وأقبل عبادة بن الصامت وأنا معه حتى صففنا خلف أبي نعيم ؛ وأبو نعيم يجهر بالقراءة ؛ فجعل عبادة يقرأ بأم القرآن ؛ فلما انصرف قلت لعبادة : سمعتك تقرأ بأم القرآن وأبو نعيم يجهر ؛ قال : أجل ! صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الصلوات التي يجهر فيها بالقراءة فالتبست عليه ؛ فلما انصرف أقبل علينا بوجهه فقال : « وهل تقرءون إذا جهرت بالقراءة » فقال بعض : إنا نصنع ذلك ، قال : « فلا وأنا أقول مالي ينازعني القرآن فلا تقرءوا بشيء من القرآن إذا جهرت إلا بأم القرآن » . وهذا نص صريح في المأموم . وأخرجه أبو عيسى الترمذيّ من حديث محمد بن إسحاق بمعناه ؛ وقال حديث حسن . والعمل على هذا الحديث في القراءة خلف الإمام عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم والتابعين ؛ وهو قول مالك بن أنس ، وابن المبارك ، والشافعي ، وأحمد وإسحاق ، يرون القراءة خلف الإمام . وأخرجه أيضا الدارقطني وقال : هذا إسناد حسن ، ورجاله كلهم ثقات ؛ وذكر : أن محمود بن الربيع كان يسكن إيلياء ، وأن أبا نعيم أول من أذن في بيت المقدس . وقال أبو محمد عبد الحق : ونافع بن محمود لم يذكره البخاريّ في تاريخه ولا ابن أبي حاتم ولا أخرج له

(١) اسمه طريف بن شهاب .

البخاري ومسلم شيئا . وقال فيه أبو عمر : مجهول . وذكر الدارقطني عن يزيد بن شريك قال : سألت عمر عن القراءة خلف الإمام ، فأمرني أن أقرأ ، قلت : وإن كنت أنت؟ قال : وإن كنت أنا ؛ قلت : وإن جهرت ؟ قال : وإن جهرت . قال الدارقطني : هذا إسناد صحيح . وروى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الإمام ضامن فما صنع فاصنعوا" قال أبو حاتم : هذا يصح لمن قال بالقراءة خلف الإمام ؛ وبهذا أفتى أبو هريرة الفارسيّ أن يقرأ بها في نفسه حين قال له : إني أحيانا أكون وراء الإمام، ثم استدل بقوله تعالى[1] : "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل". قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إقرءوا يقول العبد الحمد لله رب العالمين" الحديث .

العاشرة — أمّا ما استدل به الأوّلون بقوله عليه السلام : "وإذا قرأ فأنصتوا" أخرجه مسلم من حديث أبي موسى الأشعريّ ، وقال : وفي حديث جرير عن سليمان عن قتادة من الزيادة "وإذا قرأ فأنصتوا" قال الدارقطني : هذه اللفظة لم يتابع سليمان التيميّ فيها عن قتادة ؛ وخالفه الحفاظ من أصحاب قتادة فلم يذكروها ؛ منهم شعبة ، وهشام ، وسعيد بن أبي عروبة ، وهمام ، وأبو عوانة ، ومعمر ، وعديّ بن أبي عمارة . قال الدارقطني : فإجماعهم يدل على وَهْمه . وقد روى عن عبد الله بن عامر عن قتادة متابعة التيمي ؛ ولكن ليس هو بالقويّ . تركه القطان . وأخرج أيضا هذه الزيادة أبو داود من حديث أبي هريرة وقال هذه الزيادة "إذا قرأ فأنصتوا" ليست بمحفوظة . وذكر أبو محمد عبد الحق : أن مسلما صحح حديث أبي هريرة ، وقال : هو عندي صحيح .

قلت : ومما يدل على صحتها عنده إدخالها في كتابه من حديث أبي موسى وإن كانت مما لم يجمعوا عليها . وقد صححها الإمام أحمد بن حنبل وابن المنذر .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْآنُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ فإنه نزل بمكة ، وتحريم الكلام في الصلاة نزل بالمدينة ، كما قال زيد بن أرقم ، فلا حجة فيها ؛ فإن المقصود كان المشركين ، على ما قال سعيد بن المسيب . وقد روى الدارقطني عن أبي هريرة : أنها نزلت في رفع الصوت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة . وقال : عبد الله بن عامر ضعيف . وأما قوله عليه السلام : "مالي أنازع القرآن" فأخرجه مالك عن ابن شهاب عن ابن أكيمة الليثي ، واسمه فيما قال مالك : عمرو

(١) أي في الحديث القدسي .

وغيره يقول : عامر ، وقيل : يزيد ، وقيل : عمارة ، وقيل : عباد ، يكنى أبا الوليد توفي سنة إحدى ومائة وهو ابن تسع وسبعين سنة ، لم يرو عنه الزهري إلا هذا الحديث الواحد ، وهو ثقة ، وروى عنه محمد بن عمرو[1] وغيره ، والمعنى في حديثه : لا تجهروا إذا جهرت فإن ذلك تنازع وتجاذب وتخالج ، اقرءوا في أنفسكم . يبينه حديث عبادة ، وفتيا الفاروق ، وأبي هريرة الراوي للحديثين . فلو فهم المنع جملة من قوله : "مالي أنازع القرآن" لما أفتى بخلافه ، وقول الزهري في حديث ابن أكيمة : فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جهر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقراءة ، حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يريد بالجهر على ما بينا ؛ و بالله توفيقنا .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة" فحديث ضعيف أسنده الحسن بن عمارة وهو متروك ، وأبو حنيفة[2] وهو ضعيف ؛ كلاهما عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شداد عن جابر . أخرجه الدارقطني ، وقال : رواه سفيان الثوري ، وشعبة ، وإسرائيل بن يونس وشريك ، وأبو خالد الدالاني ، وأبو الأحوص ، وسفيان بن عيينة ، وجرير بن عبد الحميد ، وغيرهم عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شداد مرسلا عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو الصواب . وأما قول جابر : من صلى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فلم يصل إلا وراء امام ؛ فرواه مالك عن وهب بن كيسان عن جابر قوله ، قال ابن عبد البر ورواه يحيى بن سلام صاحب التفسير عن مالك عن أبي نعيم وهب ابن كيسان عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم . وصوابه موقوف على جابر ، كما في الموطأ . وفيه من الفقه إبطال الركعة التي لا يقرأ فيها بأم القرآن ، وهو يشهد لصحة ما ذهب اليه ابن القاسم ، ورواه عن مالك في إلغاء الركعة والبناء على غيرها ولا يعتد المصلي بركعة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب . وفيه أيضا أن الإمام قراءته لمن خلفه قراءة ؛ وهذا مذهب جابر وقد خالفه فيه غيره .

الحادية عشرة — قال ابن العربي لما قال صلى الله عليه وسلم : "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب" واختلف الناس في هذا الأصل هل يحمل هذا النفي على التمام والكمال ؛ أو على الإجزاء ؟

---

(١) في نسخة : « محمد بن عمر » .

(٢) لقد ترجمه ابن حجر في التهذيب وابن خلكان في الوفيات ولم يذكرا عنه ضعفا في الحديث ولكن ابن سعد في الطبقات قد وصفه بذلك .

اختلفت الفتوى بحسب اختلاف حال الناظر . ولما كان الأشهر في هـذا الأصل والأقوى أن النفي على العموم؛ كان الأقوى من رواية مالك أن من لم يقرأ الفاتحة في صلاته بطلت . ثم نظرنا في تكرارها في كل ركعة ؛ فمن تأول قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "افعـل ذلك في صلاتك كلها" لزمه أن يعيد القراءة كما يعيد الركوع والسجود . والله أعلم .

الثانية عشرة — ما ذكرناه في هذا البـاب من الأحاديث والمعـاني في تعيين الفاتحة؛ يردّ على الكوفيين قولهم : في أن الفاتحة لا تتعين، وأنها وغيرها من آي القرآن سواء؛وقد عينها النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله، كما ذكرنا، وهو المبيِّن عن الله تعالى مراده في قوله :﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾. وقد روى أبو داود عن أبي سعيد الخدري قال : أمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر . فدل هذا الحديث على أن قوله عليه السلام للأعرابيّ: "اقرأ ما تيسر معك من القرآن" مازاد على الفاتحة، وهو تفسير قوله تعالى : ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ . وقد روى مسلم عن عبادة بن الصامت :أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرءان" زاد في رواية "فصاعدا". وقوله عليه السلام : "هي خداج ثلاثا غير تمام" أي غير مجزئة بالأدلة المذكورة . والخـداج : النقص والفسـاد . قال الاخفش : خدجت الناقة ، اذا ألقت ولدها لغير تمام، وأخدجت إذا قذفت به قبل وقت الولادة وان كان تام الخلق .

والنظر يوجب في النقصان ألا تجوز معه الصـلاة؛ لأنهـا صلاة لم تتم؛ ومن خرج من صلاته وهي لم تتم فعليه إعادتها كما أمر، على حسب حكمها . ومن ادعى أنهـا تجوز مع اقراره بنقصها فعليه الدليل، ولا سبيل اليه من وجه يُلزم، والله أعلم .

الثالثة عشرة — روى عن مالك أن القراءة لا تجب في شيء من الصلاة ؛ وكذلك كان الشافعيّ يقول بالعراق فيمن نسيها؛ ثم رجع عن هذا بمصر فقال : لا تجزئ صلاة من يحسن فاتحة الكتاب إلا بها ؛ ولا يجزئه أن ينقص حرفا منها؛ فإن لم يقرأها أو نقص منها حرفا أعاد صلاته ، وإن قرأ بغيرها . وهذا هو الصحيح في المسئلة . وأما ما روى عن عمر رحمه الله أنه صلى المغرب فلم يقرأ فيها، فذُكر ذلك له ؛ فقال : كيف كان الركوع والسجود؟ قالوا : حسن، قال : لا بأس إذًا ، فحديث منكر اللفظ منقطع الإسناد، لأنه يرويه إبراهيم بن الحارث التيمي عن عمر ؛ ومرة يرويه إبراهيم عن أبي سـلمة

ابن عبد الرحمن بن عمر، وكلاهما منقطع لا حجة فيه؛ وقد ذكره مالك في الموطأ؛ وهو عند بعض الرواة، وليس عند يحيى وطائفة معه؛ لأنه رماه مالك من كتابه بأخرة[1]: وقال ليس عليه العمل لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج" وقد روى بن عمر أنه أعاد تلك الصلاة؛ وهو الصحيح عنه. روى يحيى بن يحيى النيسابوري قال: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم النخعي عن همام بن الحارث: أن عمر نسي القراءة في المغرب فأعاد بهم الصلاة. قال ابن عبد البر: وهذا حديث متصل شهده همام من عمر روى ذلك من وجوه. و روى أشهب عن مالك قال: سئل مالك عن الذي نسي القراءة: أيعجبك ما قال عمر؟ فقال: أنا أنكر أن يكون عمر فعله — وأنكر الحديث — وقال: يرى الناس عمر يصنع هذا في المغرب ولا يسبحون به! أرى أن يعيد الصلاة من فعل هذا.

الرابعة عشرة — أجمع العلماء على أن لا صلاة إلا بقراءة، على ما تقدم من أصولهم في ذلك، وأجمعوا على أن لا توقيت في ذلك بعد فاتحة الكتاب، إلا أنهم يستحبون ألا يقرأ مع فاتحة الكتاب إلا سورة واحدة لأنه الأكثر مما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم. قال مالك: وسنة القراءة أن يقرأ في الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورة، وفي الأخريين بفاتحة الكتاب. وقال الأوزاعي: يقرأ بأم القرآن فإن لم يقرأ بأم القرآن وقرأ بغيرها أجزأه، وقال: وإن نسي أن يقرأ في ثلاث ركعات أعاد. وقال الثوري: يقرأ في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة ويسبح في الأخريين إن شاء وإن شاء قرأ، وإن لم يقرأ ولم يسبح جازت صلاته، وهو قول أبي حنيفة وسائر الكوفيين. قال ابن المنذر: وقد روينا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: اقرأ في الأوليين، وسبح في الأخريين، وبه قال النخعي. قال سفيان: فإن لم يقرأ في ثلاث ركعات أعاد الصلاة لأنه لا تجزئه قراءة ركعة. قال: وكذلك إن نسي أن يقرأ في ركعة من صلاة الفجر. وقال أبو ثور: لا تجزئ صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب في كل ركعة، كقول الشافعي المصري، وعليه جماعة أصحاب الشافعي. وكذلك قال ابن خواز منداذ المالكي: قراءة الفاتحة واجبة عندنا في كل ركعة، وهذا هو الصحيح في المسألة. روى مسلم عن أبي قتادة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بنا فيقرأ في الظهر والعصر في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورتين، ويسمعنا الآية أحيانا، وكان يطول

(١) أي متأخرا بعد عن الخبر.

في الركعة الأولى من الظهر ويقصر الثانية ، وكذلك في الصبح . وفي رواية : ويقرأ في الركعتين الأخريين بفاتحة الكتاب ؛ وهذا نص صريح وحديث صحيح لما ذهب إليه مالك، ونص في تعيين الفاتحة في كل ركعة، خلافا لمن أبى ذلك، والحجة في السنة، لا فيما خالفها .

الخامسة عشرة — ذهب الجمهور الى أن ما زاد على الفاتحة من القراءة ليس بواجب ؛ لما رواه مسلم عن أبي هريرة قال : في كل صلاة قراءة، فما أسمعنا النبيّ صلى الله عليه وسلم أسمعناكم، وما أخفى منا أخفينا منكم ؛ فمن قرأ بأم القرآن فقد أجزأت عنه، ومن زاد فهو أفضل . وفي البخاريّ : «وإن زدت فهو خير» . وقد أبى كثير من أهل العلم ترك السورة لضرورة أو لغير ضرورة؛ منهم عمران بن حصين، وأبو سعيد الخدري، وخوات بن جبير، ومجاهد، وأبو وائل، وابن عمر، وابن عباس، وغيرهم قالوا : لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشيء معها من القرآن ؛ فمنهم من حدّ آيتين، ومنهم من حدّ آية، ومنهم من لم يحدّ، وقال : شيء من القرآن معها ؛ وكل هذا موجب لتعلّم ما تيسر من القرآن على كل حال مع فاتحة الكتاب ؛ لحديث عبادة، وأبي سعيد الخدري، وغيرهما . وفي المدوّنة : وكيع عن الأعمش عن خيثمة قال : حدّثني من سمع عمر بن الخطاب يقول : لا تجزئ صلاة من لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشيء معها . واختلف المذهب في قرءة السورة على ثلاثة أقوال : سنة، فضيلة، واجبة .

السادسة عشرة — من تعذر ذلك عليه بعد بلوغ مجهوده فلم يقدر على تعلم الفاتحة أو شيء من القرآن ولا علق منه بشيء، لزمه أن يذكر الله في موضع القراءة بما أمكنه، من تكبير أو تهليل أو تحميد أو تسبيح أو تمجيد أو لا حول ولا قوة إلا بالله، إذا صلى وحده، أو مع إمام فيما أسرّ فيه الإمام؛ فقد روى أبو داود وغيره عن عبد الله بن أبي أوفى قال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئا، فعلمني ما يجزئني منه ؛ قال : قل "سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله"؛ قال : يا رسول الله، هذا لله، فما لي ؟ قال : قل "اللهم ارحمني وعافني واهدني وارزقني" .

السابعة عشرة — فإن عجز عن إصابة شيء من هذا اللفظ فلا يدع الصلاة مع الإمام جهده ؛ فالامام يحمل ذلك عنه إن شاء الله، وعليه أبدا أن يجهد نفسه في تعلم فاتحة الكتاب فما زاد، إلى أن يحول الموت دون ذلك وهو بحال الاجتهاد فيعذره الله .

الثـامنة عشرة — من لم يؤاته لسانه إلى التكلم بالعربيـة من الأعجميين وغيرهم ترجم له الدعاء العربيّ بلسانه الذي يفقه لاقامة صلاته ؛ فإن ذلك يجزئه إن شاء الله تعالى .

التـاسعة عشرة — لا تجزئ صلاة من قرأ بالفارسية وهو يحسن العربية في قول الجمهور . وقال أبو حنيفة : تجزئه القراءة بالفارسـية وإن أحسن العربية؛ لأن المقصود إصابة المعنى . قال ابن المنذر : لا يجزئه ذلك ؛ لأنه خلاف ما أمر الله به، وخلاف ما علم النبيّ صلى الله عليه وسلم، وخلاف جماعات المسلمين . ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال .

الموفية العشرين — من ٱفتتح الصلاة كما أمر وهو غير عالم بالقراءة ، فطرأ عليه العلم بها في أثناء الصلاة ، ويتصوّر ذلك بأن يكون سمع من قرأها فعلقت بحفظه من مجرد السماع فلا يسـتأنف الصلاة؛ لأنه أدّى ما مضى على حسب ما أمر به؛ فلا وجه لإبطاله . قاله في كتاب ابن سحنون .

البـاب الثـالث

في التأمين ، وفيه ثمـان مسائل

الأولى — ويسنّ لقارئ القرآن أن يقول بعد الفراغ من الفاتحة بعد سكتة على نون ﴿ولا الضالين﴾ آمين، ليتميز ما هو قرآن مما ليس بقرآن .

الثانية — ثبت في الأمهات من حديث أبي هريرة أن رسول الله صـلى الله عليه وسلم قال : "إذا أمّن الإمام فأمّنوا ، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه" قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فترتبت المغفرة للذنب على مقدمات أربع ، تضمنها هذا الحديث؛ الأولى : تأمين الإمام، الثانية : تأمين من خلفه ، الثالثة : تأمين الملائكة، الرابعة : موافقـة التأمين؛ قيل : في الإجابة ، وقيل : في الزمن، وقيل : في الصفة، من إخلاص الدعاء، لقوله عليه السلام : "ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاه" .

الثالثة — روى أبو داود عن أبي مصبح المقرائي قال : كنا نجلس إلى أبي زهير النميري وكان من الصحابة ، فيحدث أحسن الحديث ، فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال : اختمه بآمين، فإن آمين مثل الطابع على الصحيفة؛ قال أبو زهير : ألا أخبركم عن ذلك ، خرجنا مع رسول الله صـلى الله عليه وسلم

ذات ليلة، فأتينا على رجل قد ألح في المسألة، فوقف النبي صلى الله عليه وسلم يستمع منه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أوجب إن ختم" فقال له رجل من القوم: بأي شيء يختم؟ قال: "بآمين فإنه إن ختم بآمين فقد أوجب" فانصرف الرجل الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم، فأتى الرجل فقال له: اختم يافلان وأبشر. قال ابن عبد البر: أبو زهير النميري اسمه يحيى بن نفير روى عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظم" وقال وهب بن منبه: آمين أربعة أحرف يخلق الله من كل حرف ملكا يقول: اللهم اغفر لكل من قال آمين. وفي الخبر: "لقنني جبريل آمين عند فراغي من فاتحة الكتاب، وقال: إنه كالخاتم على الكتاب" وفي حديث آخر: "آمين، خاتم رب العالمين". قال الهروي: قال أبو بكر: معناه أنه طابع الله على عباده؛ لأنه يدفع [به عنهم][1] الآفات، والبلايا؛ فكان كخاتم الكتاب الذي يصونه، ويمنع من إفساده، وإظهار ما فيه. وفي حديث آخر: "آمين درجة في الجنة"؛ قال أبو بكر: معناه أنه حرف يكتسب به قائله درجة في الجنة.

الرابعة — معنى آمين عند أكثر أهل العلم: اللهم استجب لنا، وضع موضع الدعاء. وقال قوم: هو اسم من أسماء الله، روي عن جعفر بن محمد، ومجاهد، وهلال بن يساف، ورواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصح؛ قاله ابن العربي. وقيل: معنى آمين: كذلك فليكن؛ قاله الجوهري: وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما معنى آمين؟ قال: "رب افعل" وقال مقاتل: هو قوة للدعاء، واستنزال للبركة. وقال الترمذي: معناه لا تخيب رجاءنا.

الخامسة — وفي آمين لغتان: المد على وزن فاعيل كياسين. والقصر على وزن يمين. قال الشاعر في المد:

يارب لا تسلبني حبها أبدا * ويرحم الله عبدا قال آمينا

وقال آخر:

آمين آمين لا أرضى بواحدة * حتى أبلغها ألفين آمينا

---

(١) الزيادة عن اللسان مادة (أمن).

وقال آخر في القصر :

تباعد مني فطحل إذ سألته * آمين فزاد الله ما بيننا بعدا

وتشديد الميم خطأ؛ قاله الجوهري . وقد روي عن الحسن، وجعفر الصادق ، التشديد؛ وهو قول الحسين بن الفضل؛ من أمّ إذا قصد أي نحن قاصدون نحوك؛ ومنه قوله : ﴿ وَلَآ آمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ . حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري .

قال الجوهري : وهو مبني على الفتح مثل أين وكيف لاجتماع الساكنين . وتقول منه : أمّن فلان تأمينا .

السادسة — واختلف العلماء : هل يقولها الإمام وهل يجهر بها ؟ فذهب الشافعي ومالك في رواية المدنيين إلى ذلك . وقال الكوفيون وبعض المدنيين : لا يجهر بها . وهو قول الطبري؛ وبه قال ابن حبيب من علمائنا . وقال ابن بكير : هو مخير . وروى ابن القاسم عن مالك : أن الإمام لا يقول آمين وإنما يقول ذلك من خلفه؛ وهو قول ابن القاسم والمصريين من أصحاب مالك؛ وحجتهم : حديث أبي موسى الأشعري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبنا فبين لنا سنتنا وعلمنا صلاتنا فقال : «إذا صليتم فأقيموا صفوفكم، ثم ليؤمكم أحدكم، فإذا كبر فكبروا، وإذا قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا آمين يجبكم الله » وذكر الحديث، أخرجه مسلم . ومثله حديث سُمَيٍّ عن أبي هريرة ، وأخرجه مالك . والصحيح الأول لحديث وائل بن حجر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ : ﴿ ولا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ . قال : «آمين» يرفع بها صوته ، أخرجه أبو داود والدار قطني .

قال أبو بكر : هذه سنة تفرد بها أهل الكوفة — هذا صحيح — والذي بعده، ترجم له البخاري باب جهر الإمام بالتأمين .

وقال عطاء : آمين دعاء؛ أمّن ابن الزبير ومن وراءه حتى إن للمسجد للجة . قال الترمذي : وبه يقول غير واحد من أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ومن بعدهم، يرون أن يرفع الرجل صوته بالتأمين لا يخفيها . وبه يقول الشافعي، وأحمد، وإسحاق . وفي الموطأ، والصحيحين، قال ابن شهاب وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «آمين» . وفي سنن ابن ماجه عن أبي هريرة قال : ترك الناس آمين، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾

قال : « آمين » حتى يسمعها أهل الصف الأول فيرتج بها المسجد . وأما حديث أبي موسى وسُمَيّ فمناهما التعريف بالموضع الذي يقال فيه آمين . وهو إذا قال الإمام : ﴿ ولا الضالين ﴾ — ليكون قولهما معا ولا يتقدموه بقول : آمين، لما ذكرناه، والله أعلم . ولقوله عليه السلام : « إذا أمّن الإمام فأمنوا » وقال ابن نافع في كتاب ابن الحارث : لا يقولها المأموم إلا أن يسمع الإمام يقول : ﴿ ولا الضالين ﴾ . وإذا كان ببعد لا يسمعه فلا يقل .

وقال ابن عبدوس : يتحرّى قدر القراءة ويقول : آمين .

السابعة — قال أصحاب أبي حنيفة : الإخفاء بآمين أولى من الجهر بها لأنه دعاء، وقد قال الله تعالى : ﴿ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ . قالوا : والدليل عليه ما روى في تأويل قوله تعالى : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ . قال : كان موسى يدعو وهارون يؤمن؛ فسماهما الله داعيين .

والجواب : أن إخفاء الدعاء إنما كان أفضل لما يدخله من الرياء . وأما ما يتعلق بصلاة الجماعة فشهودها إشهار شعار ظاهر، وإظهار حق يندب العباد إلى إظهاره . وقد ندب الإمام إلى إشهار قراءة الفاتحة المشتملة على الدعاء، والتأمين في آخرها ؛ فإذا كان الدعاء مما يسنّ الجهر فيه فالتأمين على الدعاء تابع له وجار مجراه وهذا بين .

الثامنة — كلمة آمين لم تكن قبلنا إلا لموسى وهارون عليهما السلام . ذكر الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول) : حدّثنا عبد الوارث بن عبد الصمد قال حدّثنا أبي قال حدّثنا رزين مؤذن مسجد هشام بن حسان قال حدّثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله أعطى أمتي ثلاثا لم تعط أحدا قبلهم السلام، وهو تحية أهل الجنة، وصفوف الملائكة، وآمين إلا ما كان من موسى وهارون " قال أبو عبدالله : معناه أن موسى دعا على فرعون، وأمّن هارون، فقال الله تبارك اسمه عند ما ذكر دعاء موسى في تنزيله : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ ولم يذكر مقالة هارون؛ وقال موسى ربنا ، فكان من هارون التأمين ، فسماه داعيا في تنزيله ، إذ صير ذلك منه دعوة . وقد قيل : إن آمين خاص لهذه الأمة، لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين " أخرجه ابن ماجه من حديث حماد بن سلمة عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الحديث . وأخرج أيضا من حديث ابن

عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على آمين ، فأكثروا من قول آمين " . قال علماؤنا[1] رحمة الله عليهم : إنما حسدنا أهل الكتاب لأن أولها حمد الله وثناء عليه ثم خضوع له واستكانة ، ثم دعاء لنا بالهداية والصراط المستقيم ، ثم الدعاء عليهم مع قولنا آمين .

البـاب الرابـــع

فيما تضمنته الفاتحة من المعانى والقراءات والإعراب وفضل الحامدين ، وفيـــه ست وثلاثون مسئلة

الأولى — قوله سبحانه وتعالى : ﴿الحمد لله﴾ . روى أبو محمـد عبد الغنى بن سعيد الحافظ من حديث أبي هريرة ، وأبي سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا قال العبد الحمد لله قال صدق عبدى الحمد لى " وروى مسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله ليرضى عن العبـد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها " وقال الحسن : ما من نعمة إلا والحمـد لله أفضل منها . وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذى أعطى أفضل مما أخذ " . وفى (نوادر الأصول) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أن الدنيـا كلها بحذافيرها بيـد رجل من أمتى ثم قال الحمـد لله لكانت الحمد لله أفضـل من ذلك قال أبو عبد الله : معناه عندنا أنه قد أعطى الدنيا ، ثم أعطى على أثرها هذه الكلمة حتى نطق بها ، فكانت هـذه الكلمة أفضل من الدنيا كلها ، لأن الدنيا فانيـة ، والكلمة باقية ، من الباقيات الصالحات . وقال : هو « خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » . وقيل فى بعض الروايات : لكان ما أعطى أكثر ممـا أخذ . فضمير الكلمة أعطى من العبد والدنيا أخذ من الله فهذا فى الدكير ، كذلك يجرى فى الكلام أن هذه الكلمة من العبد ، والدنيا من الله ، وكليهما من الله ، فى الأصل الدنيا منه ، والكلمة منه ، أعطاه

(١) هذا حمل منهم للحديث على الفاتحة مع آمين فى آخرها .

الدنيا فأغناه، وأعطاه الكلمة فشرفه بها في الآخرة . وروى ابن ماجه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم : "أن عبدا من عباد الله قال: يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك فَعَضَّلَتْ بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا الى السماء فقالا يا ربنا إن عبدا قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها، قال الله — وهو أعلم بما قال عبده — ماذا قال عبدي، فقالا يا رب إنه قد قال : يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فقال الله لهما : اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها" .

قال أهل اللغة : أعضل الأمر : اشتد واستغلق ؛ والمعضلات بتشديد الضاد ، الشدائد . وعضلت المرأة والشاة، إذا نشب ولدها فلم يسهل مخرجه، بتشديد الضاد أيضا ؛ فعلى هذا يكون: أعضلت الملكين أو عضلت الملكين بغير باء . والله أعلم . وروى عن مسلم عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض" وذكر الحديث .

الثانية — اختلف العلماء : أيما أفضل ؛ قول العبد: الحمد لله رب العالمين ، أو قول: لا إله إلا الله ؟ فقالت طائفة : قوله الحمد لله رب العالمين أفضل، لأن في ضمنه التوحيد الذي هو لا إله إلا الله ؛ ففي قوله توحيد وحمد ؛ وفي قوله لا إله إلا الله توحيد فقط . وقالت طائفة : لا إله إلا الله أفضل ؛ لأنها تدفع الكفر والإشراك، وعليها يقاتل الخلق ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله" واختار هذا القول ابن عطية؛ قال : والحاكم بذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : "أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له" .

الثالثة — أجمع المسلمون على أن الله محمود على سائر نعمه ،وأن مما أنعم الله به الإيمان؛ فدل على أن الإيمان فعله وخلقه ؛ والدليل على ذلك قوله : ﴿ رب العالمين ﴾ . والعالمون جملة المخلوقات؛ ومن جملتها الإيمان . لا كما قال القَدَرِيَّةُ : إنه خَلْقٌ لهم على ما يأتي بيانه .

الرابعة — الحمد في كلام العرب معناه الثناء الكامل، والألف واللام لاستغراق الجنس من المحامد؛ فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلا؛ وقد جمع لفظ الحمد جمع القلة في قول الشاعر:

وأبلج محمود الثناء خصصته * بأفضل أقوالي وأفضل أحمُدى

فالحمد: نقيض الذم؛ تقول: حمدت الرجل أحمده حمدا فهو حميد ومحمود؛ والتحميد أبلغ من الحمد؛ والحمد أعم من الشكر، والمحمد: الذي كثرت خصاله المحمودة. قال الشاعر:

* إلى الماجد القرم الجواد المحمد *

وبذلك سمي رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال الشاعر:

فشق له من اسمه ليجله * فذو العرش محمود وهذا محمد

والمحمدة: خلاف المذمة؛ وأحمد الرجل: صار أمره إلى الحمد؛ وأحمدته: وجدته محمودا؛ تقول: أتيت موضع كذا فأحمدته، أي صادفته محمودا موافقا، وذلك إذا رضيت سكناه أو مرعاه؛ ورجل حُمَـدَةٌ — مثل همزة — يكثر حمد الأشياء ويقول فيها أكثر مما فيها. وحَمَـدَةُ النار — بالتحريك —: صوت التهابها.

الخامسة — ذهب أبو جعفر الطبري وأبو العباس المبرد إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء، وليس بمرضي. وحكاه أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب "الحقائق" له عن جعفر الصادق وابن عطاء. قال ابن عطاء: معناه الشكر لله إذ كان منه الامتنان على تعليمنا إياه حتى حمدناه، واستدل الطبري على أنهما بمعنى بصحة قولك: الحمد لله شكرا. قال ابن عطية: وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه؛ لأن قولك شكرا، إنما خصصت به الحمد لأنه على نعمة من النعم. وقال بعض العلماء: إن الشكر أعم من الحمد، لأنه باللسان وبالجوارح والقلب؛ والحمد إنما يكون باللسان خاصة. وقيل: الحمد أعم لأن فيه معنى الشكر ومعنى المدح؛ وهو أعم من الشكر لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد. وروى عن ابن عباس أنه قال: الحمد لله كلمة كل شاكر، وإن آدم عليه السلام قال حين عطس: الحمد لله. وقال الله لنوح عليه السلام:

﴿ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ وقال إبراهيم عليه السلام : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾، وقال فى قصة داود وسليمان : ﴿ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ . وقال أهل الجنة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾ . ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . فهي كلمة كل شاكر .

قلت : الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان ، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان . وعلى هذا الحد قال علماؤنا : الحمد أعم من الشكر (١) ، لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد ، وعلى الشكر ، والجزاء مخصوص ، إنما يكون مكافأة لمن أولاك معروفا ؛ فصار الحمد أعم فى الآية ، لأنه يزيد على الشكر . ويذكر الحمد بمعنى الرضا ؛ يقال : بلوته فحمدته ، أى رضيته . ومنه قوله تعالى : ﴿ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ وقال عليه السلام : "أحمد إليكم غسل الإحليل" أى أرضاه لكم . ويذكر عن جعفر الصادق فى قوله : ﴿ الحمد لله ﴾ من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد ؛ لأن الحمد حاء وميم ودال ؛ فالحاء من الوحدانية ، والميم من الملك ، والدال من الديمومية ؛ فمن عرفه بالوحدانية والديمومية والملك فقد عرفه ، وهذا هو حقيقة الحمد لله . وقال شقيق بن إبراهيم فى تفسير ﴿ الحمد لله ﴾ قال : هو على ثلاثة أوجه : أولها إذا أعطاك الله شيئا تعرف من أعطاك . والثانى أن ترضى بما أعطاك . والثالث مادامت قوته فى جسدك ألا تعصيه ؛ فهذه شرائط الحمد .

السادسة — أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه ، وافتتح كتابه بحمده ، ولم يأذن فى ذلك لغيره ؛ بل نهاهم عن ذلك فى كتابه ، وعلى لسان نبيه عليه السلام ، فقال : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ وقال عليه السلام : "احثوا فى وجوه المداحين التراب" رواه المقداد وسيأتى القول فيه فى النساء إن شاء الله تعالى .

فمعنى الحمد لله رب العالمين : أى سبق الحمد منى لنفسى قبل أن يحمدنى أحد من العالمين ، وحمدى نفسى لنفسى فى الأزل لم يكن بعلة ؛ وحمد الخلق مشوب بالعلل . قال علماؤنا : فيستقبح من المخلوق الذى لم يعط الكمال أن يحمد نفسه ليستجلب لها المنافع ويدفع عنها المضار . وقيل : لما

(١) عقب ذلك ابن عطية فى تفسيره بقوله فالحامد من الناس قسمان الشاكر والمثنى بالصفات وبه يتضح كلام المؤلف .

علم سبحانه عجز عباده عن حمده، حمد نفسه بنفسه لنفسه في الأزل، فاستفراغ طوق عباده، هو محل العجز عن حمده. ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر العجز بقوله: "لا أحصي ثناء عليك" وأنشدوا:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح * فأنت كما نثني وفوق الذي نثني

وقيل: حمد نفسه في الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده وعجزهم عن القيام بواجب حمده فحمد نفسه عنهم، لتكون النعمة أهنأ لديهم، حيث أسقط عنهم به ثقل المنة.

السابعة — وأجمع القراء السبعة وجمهور الناس على رفع الدال من ﴿الحمد لله﴾. وروى عن سفيان بن عيينة، ورؤبة بن العجاج. الحمدَ لله؛ بنصب الدال وهذا على إضمار فعل. ويقال: الحمد لله بالرفع مبتدأ وخبر، وسبيل الخبر أن يفيد، فما الفائدة في هذا؟ فالجواب أن سيبويه قال: إذا قال الرجل الحمد لله بالرفع ففيه من المعنى مثل ما في قولك: حمدت الله حمدا، إلا أن الذي يرفع الحمد يخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق لله، والذي ينصب الحمد يخبر أن الحمد منه وحده لله. وقال غير سيبويه. إنما يتكلم بهذا تعرضا لعفو الله ومغفرته وتعظيما له وتمجيدا؛ فهو خلاف معنى الخبر وفيه معنى السؤال. وفي الحديث: "من شغل بذكري عن مسئلتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين". وقيل: إن مدحه عز وجل لنفسه، وثناءه عليها، ليعلم ذلك عباده، فالمعنى على هذا: قولوا الحمد لله. قال الطبري: الحمد لله ثناء أثنى به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه؛ فكأنه قال: قولوا الحمد لله؛ وعلى هذا يجيء قولوا إياك. وهذا من حذف العرب ما يدل ظاهر الكلام عليه، كما قال الشاعر:

وأعلم أنني سأكون رمسا * إذا سار النواعج لا يسير
فقال السائلون لمن حفرتم * فقال القائلون لهم وزير

المعنى المحفور له وزير فحذف لدلالة ظاهر الكلام عليه، وهذا كثير. وروى عن ابن أبي عبلة[1] الحمدُ لُله، بضم الدال واللام على اتباع الثاني الأول، وليتجانس اللفظ، وطلب التجانس في اللفظ كثير في كلامهم، نحو أُخوك وهو منحدُر من الجبل، بضم الدال والجيم[2]. قال:

* اضرب الساقينُ أُمك هابل *

(١) اسمه ابراهيم. (٢) لعله اتباعا للجيم.

بضم النون لأجل ضم الهمزة . وفي قرآة لأهل مكة "مُردِفين" بضم الراء اتباعا للميم، وعلى ذلك «مقتلين» بضم القاف . وقالوا : لأمك فكسروا الهمزة اتباعا للام، وأنشد النعمان بن بشير :

ويل آمها في هـــواء الجو طالبــة * ولا كهذا الذي في الأرض مطلوب

الأصل : ويل لأمها، فحذفت اللام الأولى واستثقل ضم الهمزة بعد الكسرة فنقلها للام ثم اتبع اللام الميم . وروى عن الحسن بن أبي الحسن، وزيد بن علي : الحمد لله، بكسر الدال على اتبــاع الأول الثــاني .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . أي مالكهم وكل من ملك شيئا فهو ربه، فالرب : المــالك . وفي الصحاح : والرب اسم من أسماء الله تعالى، ولا يقال في غيره إلا بالإضافة، وقد قالوه في الجاهلية للملك، قال الحارث بن حِلِّزة :

وهو الرب والشهيــد على يو * م الحيارين والبــلاء بلاء

والرب : السيد، ومنه قوله تعالى : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ . وفي الحديث : "أن تلد الأمة ربتها" أي سيدتها، وقد بيناه في كتاب (التذكرة) . والرب : المصلح، والمدبر، والجابر، والقائم . قال الهروي وغيره : يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه، قد ربه يربه فهو رب له وراب، ومنه سمي الربانيون لقيامهم بالكتب . وفي الحديث : "هل لك من نعمة تربها عليه" أي تقوم بها وتصلحها . والرب : المعبود، ومنه قول الشاعر :

أرب يبول الثُّعْلُبَانُ برأسه * لقد ذل من بالت عليه الثعالب

ويقال على التكثير : رباه وربيه وربته، حكاه النحاس . وفي الصحاح : ورب فلان ولده يربه ربا وربيه وتربيه بمعنى، أي رباه . والمربوب : المربَّى .

التاسعة — قال بعض العلماء : إن هذا الاسم هو اسم الله الأعظم، لكثرة دعوة الداعين به، وتأمل ذلك في القرآن، كما في آخر آل عمران، وسورة ابراهيم، وغيرهما، ولمــا يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الرب والمربوب، مع ما يتضمنه من العطف والرحمــة والافتقار في كل حال . واختلف في اشتقاقه، فقيل : إنه مشتق من التربية، فالله سبحانه وتعالى مدبر لخلقه، ومربيهم ومنه قوله تعالى : ﴿ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ ﴾ . فسمى بنت الزوجة ربيبة لتربية الزوج لها .

على أنه مدبر لخلقه ومربيهم يكون صـفة فعل ؛ وعلى أن الرب بمعنى المـالك والسيد ، يكون صفة ذات .

العاشرة — متى أدخلت الألف واللام على رب، اختص الله تعالى به لأنها للعهد؛ وإن حذفتا منه صار مشتركا بين الله وبين عباده، فيقال : الله رب العباد، وزيد رب الدار؛ فالله سبحانه رب الأرباب ؛ يملك المـالك والمملوك، وهو خالق ذلك ورازقه ، وكل رب سواه غير خالق ولا رازق، وكل مملوك فمملك بعد أن لم يكن، ومنتزع ذلك من يده، وإنمـا يملك شيئا دون شيء ؛ وصفة الله تعالى مخالفة لهذه المعانى، فهذا الفرق بين صفة الخالق والمخلوقين .

الحادية عشر — قوله تعالى: ﴿الْعَالَمِينَ﴾ . اختلف أهل التأويل فى العالمين اختلافا كثيرا؛ فقال قتادة : العالمون جمـع عالم ، وهو كل موجود سوى الله تعالى ، ولا واحد له من لفظه مثـل رهط وقوم . وقيـل : أهل كل زمان عالم؛ قاله الحسين بن الفضل لقوله تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أى من الناس . وقال العجاج :

* فَخِنْدِفٌ هامة هذا العالم *

وقال جرير بن الخَطَفى :

تنصفـه البرية وهو سام ⁕ ويضحى العالمون له عيالا

وقال ابن عباس : العالمون الجن والإنس . دليله قوله تعالى ﴿ لِيَكُونَ للعالمينَ نذيرًا ﴾ ولم يكن نذيرا للبهائم . وقال الفـراء، وأبو عبيدة : العـالم ، عبارة عمن يعقل ؛ وهم أربعة أمم : الإنس ، والجن، والملائكة، والشياطين . ولا يقال للبهائم عالم لأن هذا الجمع إنمـا هو جمع من يعقل خاصة . قال الأعشى :

* ما إن سمعت بمثلهم فى العالمينا

وقال زيد بن أسلم : هم المرتزقون؛ ونحوه قول أبى عمرو بن العلاء : هم الروحانيون، وهو معنى قول ابن عباس أيضا : كل ذى روح دب على وجه الأرض . وقال وهب بن منبه : إن الله عز وجل ثمانيـة عشر ألف عالم ؛ الدنيا عالم منها . وقال أبو سعيد الخـدرى : إن لله أربعين ألف عالم ؛

الدنيا من شرقها إلى غربها عالم واحد . وقال مقاتل : العالمون ثمانون ألف عالم، أربعون ألف عالم في البر، وأربعـون ألف عالم في البحر . وروى الربيع بن أنس عن أبي العالية قال : الجن عالم، والإنس عالم، وسوى ذلك للأرض أربع زوايا في كل زاوية ألف وخمسمائة عالم، خلقهم لعبادته .

قلت والقول الأول أصح هـذه الأقوال ؛ لأنه شامل لكل مخلوق وموجود دليله قوله تعالى : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ثم هو مأخوذ من العَلَم والعلامة، لأنه يدل على موجده كذا قال الزجاج قال: العالم كل ما خلقه الله في الدنيا والآخرة . وقال الخليل: العلم، والعلامة، والمعلم: ما دل على الشيء؛ فالعالم دال على أن له خالقا ومدبرا، وهذا واضح . وقد ذكر أن رجلا قال بين يدي الجنيد : الحمد لله؛ فقال له : أتمها كما قال الله؛ قل: رب العالمين؛ فقال الرجل : ومن العالمين حتى تذكر مع الحق ؟ قال قل يا أخي، فإن المحدث إذا قرن مع القـديم لا يبقى له أثر .

الثانية عشرة — يجوز الرفع والنصب في رب؛ والنصب على المدح، والرفع على القطع؛ أي هو رب العالميـن .

الثالثة عشرة — قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وصف نفسه تعالى بعد رب العالمين، بأنه الرحمن الرحيم، لأنه لمـا كان في اتصافه برب العالمين ترهيب، قرنه بالرحمن الرحيم، لمـا تضمن من الترغيب ليجمع في صفاته بين الرهبة منه، والرغبة إليه؛ فيكون أعون على طاعته وأمنع؛ كما قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ . وقال: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عنـد الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد" وقد تقدم ما في هذين الاسمين من المعاني، فلا معنى لإعادته .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ . قرأ محمـد بن السميقع : بنصب مالك ؛ وفيه أربع لغات : مَالِك ومَلِك ومَلْك — مخففة من مَلِك — ومَلِيك؛ وقال الشاعر[1] :

وأيام لنـا غر طـــوال * عصينا الملك فيها أن ندينا

(١) هو عمرو بن كلثوم .

وقال آخـــر(١) :

فاقنع بمـا قسم المليك فإنما * قسم الخلائق بيننا علامها

الخـلائق : الطبائع التي جبل الإنسان عليها . وروى عن نافع إشباع الكسرة فى ملك؛ فيقرأ ملكى على لغـة من يشبع الحركات؛ وهى لغة للعرب ذكرها المهدوى وغيره .

الخامسة عشرة — اختلف العلماء أيما أبلغ : ملك أو مالك ؟ والقراءتان مرويتان عن النبى صلى الله عليه وسلم، وأبى بكر، وعمر، ذكرهما الترمذى؛ فقيل : ملك أعم وأبلغ من مالك؛ إذ كل ملك مالك، وليس كل مالك ملكا، ولأن أمر الملك نافذ على المـالك فى ملكه، حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك؛ قاله أبو عبيدة والمبرد . وقيـل : مالك أبلغ؛ لأنه يكون مالكا للنـاس وغيرهم؛ فالمـالك أبلغ تصرفا وأعظم، إذ إليه إجراء قوانين الشرع، ثم عنده زيادة التملك .

وقال أبو على حكى أبو بكر بن السراج عن بعض من اختار القراءة بملك : أن الله سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كل شيء بقوله : ﴿رب العالمين﴾ فلا فائدة فى قراءة من قرأ مالك لأنها تكرار . قال أبو على : ولا حجة فى هذا لأن فى التنزيل أشياء على هذه الصورة، تقدّم العام ثم ذكر الخاص كقوله : ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ فالخالق يعم، وذكر المصور، لمـا فيه من التنبيه على الصنعة، ووجود الحكمة؛ وكما قال تعالى : ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ بعد قوله : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ والغيب يعم الآخرة وغيرها؛ ولكن ذكرها لعظمها، والتنبيه على وجوب اعتقادها، والرد على الكفرة الجاحدين لها؛ وكما قال : ﴿الرحمن الرحيم﴾ فذكر الرحمن الذى هو عام وذكر الرحيم بعده، لتخصيص المؤمنين به فى قوله : ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ . وقال أبو حاتم : إن مالكا أبلغ فى مدح الخـالق من ملك، وملك أبلغ فى مدح المخلوقين من مالك، والفرق بينهـا أن المـالك من المخلوقين قـد يكون غير ملك وإذا كان الله تعـالى مالكا كان ملكا، واختار هذا القول القاضى أبو بكر بن العربى، وذكر ثلاثة أوجه؛ الأول : أنك تضيفه إلى الخاص والعام فتقول : مالك الدار والأرض والثوب، كما تقول : مالك الملوك . الثانى : أنه يطلق على مالك القليل والكثير؛ وإذا تأملت هـذين القولين وجدتهما واحدا . والثالث : أنك تقول : مالك المُلك، ولا تقول : ملك المُلك . قال ابن الحصار : إنمـا كان

(١) هو لبيد بن ربيعة العامرى .

ذلك، لأن المراد من مالك الدلالة على الملك بكسر الميم وهو لا يتضمن الملك بضم الميم، وملك يتضمن الأمرين جميعا، فهو أولى بالمبالغة، ويتضمن أيضا الكمال، ولذلك استحق الملك على من دونه؛ ألا ترى إلى قوله الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾، ولهذا قال عليه السلام: "الإمامة في قريش" وقريش أفضل قبائل العرب، والعرب أفضل من العجم وأشرف، ويتضمن الاقتدار، والاختيار، وذلك أمر ضروري في الملك إن لم يكن قادرا مختارا نافذا حكمه وأمره، قهره عدوه، وغلبه غيره، وازدرته رعيته، ويتضمن البطش والأمر والنهي والوعد والوعيد؛ ألا ترى إلى قول سليمان عليه السلام: ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَائِبِينَ . لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ إلى غير ذلك من الأمور العجيبة، والمعاني الشريفة، التي لا توجد في المالك.

قلت: وقد احتج بعضهم على أن مالكا أبلغ لأن فيه زيادة حرف؛ فلقارئه عشر حسنات زيادة عمن قرأ ملك. قلت: هذا نظر إلى الصيغة لا إلى المعنى، وقد ثبتت القراءة بملك، وفيه من المعنى ما ليس في مالك، على ما بينا والله أعلم.

السادسة عشرة — لا يجوز أن يتسمى أحد بهذا الاسم ولا يدعى به إلا الله تعالى؛ روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض؟" وعنه أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك" زاد مسلم: «لا مالك إلا الله عز وجل» قال سفيان: مثل: شاهان شاه. وقال أحمد بن حنبل: سألت أبا عمرو الشيباني عن أخنع؟ فقال: أوضع. وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل تسمى ملك الأملاك لا ملك إلا الله سبحانه". قال ابن الحصار: وكذلك ملك يوم الدين، ومالك الملك؛ لا ينبغي أن يختلف في أن هذا محرم على جميع المخلوقين كتحريم ملك الأملاك سواء، وأما الوصف بمالك وملك وهي:

السابعة عشرة — فيجوز أن يوصف بهما من اتصف بمفهومهما؛ قال الله العظيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، وقال صلى الله عليه وسلم: "ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة".

الثامنة عشرة — إن قال قائل : كيف قال « مالك يوم الدين» ويوم الدين لم يوجد بعـد ، فكيف وصف نفسه بملك ما لم يوجده ؟ قيـل له : اعلم أن مالكا اسم فاعل من ملك يملك، واسم الفاعل فى كلام العرب قد يضاف إلى ما بعده وهو بمعنى الفعل المستقبل و يكون ذلك عندهم كلاما سديدا معقولا صحيحا، كقولك : هذا ضارب زيد غدا ؛ أى سيضرب زيدا . وكذلك : هذا حاج بيت الله فى العام المقبل، تأويله سيحج فى العام المقبل؛ أفلا ترى أن الفعل قد ينسب اليـه وهو لم يفعله بعد ، وإنمـا أريد به الاسـتقبال ؛ فكذلك قوله عز وجل : ﴿مالك يوم الدين﴾ على تأويل الاستقبال، أى سيملك يوم الدين أو فى يوم الدين إذا حضر .

ووجه ثان : أن يكون تأويل المـالك راجعا إلى القدرة ؛ أى أنه قادر فى يوم الدين، أو على يوم الدين وأحداثه؛ لأن المـالك للشيء هو المتصرف فى الشيء والقادر عليه؛ والله عز وجل مالك الأشياء كلها ومصرفها على إرادته، لا يمتنع عليه منها شيء .

والوجه الأول أمس بالعربية وأنفذ فى طريقها؛ قاله أبو القاسم الزجاجى .

ووجه ثالث : فيقال لم خصص يوم الدين وهو مالك يوم الدين وغيره ؟ قيل له : لأن فى الدنيا كانوا منازعين فى الملك، مثل : فرعون، ونمروذ، وغيرهما، وفى ذلك اليوم لا ينازعه أحد فى ملكه، وكلهم خضعوا له، كما قال تعالى : ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فأجاب جميع الخلق : ﴿لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ فلذلك قال : مالك يوم الدين؛ أى فى ذلك اليوم لا يكون مالك ولا قاض ولا مجاز غيره؛ سبحانه لا إله إلا هو .

التاسـعة عشرة — إنْ وُصف الله سبحانه بأنه ملك كان ذلك من صفات ذاته، وإنْ وُصف بأنه مالك كان ذلك من صفات فعله .

الموفية العشرين — اليوم : عبارة عن وقت طلوع الفجر إلى وقت غروب الشمس ، فاستعير فيما بين مبتدأ القيامة إلى وقت استقرار أهل الدارين فيهما، وقد يطلق اليوم على الساعة منه؛ قال الله تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وجمع يوم أيام؛ وأصله أيوام فأدغم؛ وربما عبروا عن الشدة باليوم، يقال : يوم أيوم، كما يقال : ليلة ليلاء . قال الراجز[1] :

* نعم أخو الهيجاء فى اليوم اليَمِى *

(١) هو أبو الأخزر الحمانى كما فى اللسان مادة «يوم» .

وهو[1] مقلوب منه، أخر الواو وقدم الميم ثم قلبت الواو ياء حيث صارت طرفا، كما قالوا: دل فى جمع دلو.

الحادية والعشرون — الدين: الجزاء على الأعمال والحساب بها، كذلك قال ابن عباس، وابن مسعود، وابن جريج، وقتادة، وغيرهم. وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾. أى حسابهم. وقال: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وقال: ﴿أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾. أى مجزيون محاسبون. وقال لبيد:

حصادك يوما ما زرعت وإنما * يدان الفتى يوما كما هو دائن

آخر:

إذا ما رمونا رميناهم * ودناهم مثل ما يقرضونا

آخر:

واعلم يقينا[2] أن ملكك زائل * واعلم بأن كما تدين تدان

وحكى أهل اللغة: دنته بفعله دينا بفتح الدال ودينا بكسرها جزيته؛ ومنه الديان فى صفة رب تعالى أى المجازى؛ وفى الحديث: "الكيس من دان نفسه" أى حاسب؛ وقيل: القضاء. وى عن ابن عباس أيضا، ومنه قول طرفة:

لعمرك ما كانت حكومة معبد * على جدها حربا لدينك من مصر

ومعانى هذه الثلاثة متقاربة. والدين أيضا: الطاعة؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم:

وأيام لنا غر طوال * عصينا الملك فيها أن ندينا

فعلى هذا هو لفظ مشترك وهى

---

(١) وهو أى اليمى.

(٢) فى اللسان مادة (دين): « قال خويلد بن نوفل الكلابى، للحارث بن أبى شمر الغسانى وكان قد اغتصبه ابنته:

يا حار أيقن أن ملكك زائل * ... ... الخ

الثانيــة والعشرون — قال ثعلب : دان الرجل إذا أطاع ؛ ودان إذا عصى ، ودان إذا عز ، ودان إذا ذل ، ودان إذا قهر، فهو من الأضداد . ويطلق الدّين على العادة والشأن ، كما قال :

* كدينك من أم الحُوَيْرِث قبلها *

وقال المثقّب :

تقول إذا درأت لها وضيني * أهــذا دينه أبدا وديني

والدين : سيرة الملك . قال زهير :

لئن حللت بجــوّ فى بنى أســد * فى دين عمرو وحالت بيننا فدك

أراد فى موضع طاعة عمرو ، والدين : الداء، عن اللحيانى وأنشد :

* يادين قلبك من سلمى وقد دينا *

الثالثــة والعشرون — قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ . رجع من الغيبة الى الخطاب على التلوين، لأن من أوّل السورة إلى هاهنا خبرا عن الله تعالى وثناء عليه كقوله : ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾. ثم قال : ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾. وعكسه : ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ على ما يأتى . و « نعبد » : معناه نطيع، والعبادة: الطاعة والتذلل، وطريق مُعَبَّد، إذا كان مذللا للسالكين، قاله الهروىّ . ونطق المكلف به إقرار بالربوبية، وتحقيق لعبادة الله تعالى ، إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك : ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ . أى نطلب العون والتأييد والتوفيق .

قال السلمىّ فى حقائقه : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت أبا حفص الفرغانىّ يقول : من أقرّ بإياك نعبد و إياك نستعين، فقد برئ من الجبر والقدَر .

الرابعة والعشرون — إن قيل : لم قدّم المفعول على الفعل؟ قيل له : قدّم اهتماما، وشأن العرب تقــديم الأهم . يذكر أن أعرابيا سب آخر فأعرض المسبوب عنه ، فقال له الساب : إياك أعنى فقال له الآخر : وعنك أعرض ، فقدما الأهم ؛ وأيضا لئلا يتقدّم ذكر العبد والعبادة على المعبود ؛ فلا يجوز نعبدك ونستعينك ، ولا نعبد إياك ونستعين إياك فيقدّم الفعل على كناية المفعول، وإنما يتبع لفظ القرآن . وقال العجاج :

إياك أدعـــو فتقبـل ملق * واغفر خطاياى وكثّر ورق

ويروى وثمر . وأما قول الشاعر :

* اليك حتى بلغت إياكا *

فشـاذ لا يقاس عليـه . والورق بكسر الراء من الدراهم و بفتحها : المـال، وكرر الاسم لئـلا يتوهم إياك نعبد ونستعين غيرك .

الخامسة والعشرون — الجمهور من القراء والعلماء على شد الياء من إياك في الموضعين؛ وقرأ عمرو ابن واقد : إياك بكسر الهمزة وتخفيف الياء وذلك أنه كره تضعيف الياء لثقلها وكون الكسرة قبلها؛ وهذه قراءة مرغوب عنها، فإن المعنى يصير شمسك نعبد أو ضوءك؛ و إياة الشمس بكسر الهمزة : ضوءها وقد تفتح . وقال[1] :

سقته إياةُ الشمس إلا لِثاته * أُسِفَّ فلم تَكْدِمْ عليه بإثمد

فإن أسقطت الهاء مددت . ويقال : الإياة للشمس، كالهالة للقمر، وهي الدارة حولها . وقرأ الفضل الرقاشيّ : أياك بفتح الهمزة وهي لغة مشهورة، وقرأ أبو السوار الغنوى : هياك في الموضعين وهي لغة؛ قال :

فَهِيَّاكَ والأمرَ الذي إن توسعت * موارده ضاقت عليـك مصـادره

السادسة والعشرون — ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عطف جملة على جملة ؛ وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش : نِستعين بكسر النون، وهي لغة تميم، وأسد، وقيس، وربيعة، ليدل على أنه من استعان، فكسرت النون كما تكسر ألف الوصل . وأصل نستعين نستعون، قلبت حركة الواو إلى العين، فصارت ياء، والمصدر استعانة، والأصل استعوان ؛ قلبت حركة الواو إلى العين فانقلبت ألفـا ولا يلتقي ساكنان فحذفت الألف الثانية، لأنها زائدة، وقيل الأولى، لأن الثانية للمعنى، ولزمت الهاء عوضا .

السابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ المستَقِيمَ﴾ . اهدنا دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب ؛ والمعـنى دلنا على الصراط المستقيم، وأرشدنا اليه، وأرنا طريق هدايتك الموصـلة إلى أنسك وقربك . قال بعض العلماء : فجعل الله جل وعز عظم الدعاء وجملته موضوعا في هذه السورة، نصفها فيه مجمع الثناء، ونصفها فيه مجمع الحاجات، وجعل هذا الدعاء الذي في هذه السورة أفضل من

(١) قائله طرفة بن العبد .

الذى يدعو به [الداعى] لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين، فأنت تدعو بدعاء هو كلامه الذى تكلم به؛ وفى الحديث : "ليس شىء أكرم على الله من الدعاء" وقيل المعنى أرشدنا باستعمال السنن فى أداء فرائضك ؛ وقيل الأصل فيه الإمالة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ . أى ملنا، وخرج عليه السلام فى مرضه يتهادى بين آثنين : أى يتمايل ؛ ومنه الهدية لأنها تمال[1] من ملك إلى ملك . ومنه الهدى للحيوان الذى يساق إلى الحرم ؛ فالمعنى مل بقلوبنا الى الحق . وقال الفضيل بن عياض : الصراط المستقيم طريق الحج وهـذا خاص، والعموم أولى ؛ قال محمد بن الحنفية فى قوله عز وجل : إِهْدِنَا الصراط المستقيم : هو دين الله الذى لا يقبل من العباد غيره . وقال عاصم الأحول عن أبى العالية : الصراط المستقيم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصاحباه من بعده ؛ قال عاصم : فقلت للحسن : إن أبا العالية يقول : الصراط المستقيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه ؛ قال : صدق ونصح .

الثامنة والعشرون — أصل الصراط فى كلام العرب : الطريق؛ قال عامر بن الطفيل :

شحنًا أرضهم بالخيل حتى * تركناهم أذل من الصراط

وقال جرير :

أمير المؤمنين على صراط * إذا آعوجّ الموارد مستقيم

وقال آخـر :

* فصدّ عن نهج الصراط الواضح *

وحكى النقاش : الصراط : الطريق بلغة الروم؛ قال ابن عطية : وهذا ضعيف جدًّا ؛ وقرئ : السراط بالسين من الاستراط بمعنى الابتلاع ؛ كأن الطريق يسترط من يسلكه . وقرئ بين الزاى والصاد؛ وقرئ بزاى خالصة والسين الأصل؛ وحكى سلمة[2] عن الفراء قال : الزراط بإخلاص الزاى : لغة لعذرة، وكلب، وبنى القين قال : وهؤلاء يقولون [فى أصدق] : أزدق . وقد قالوا : الأَزْد فى الأسد والأُزْد [فى الأسد]؛ ولزق به فى لصق به . والصراط نصب على المفعول الثانى لأن الفعل من الهداية يتعدّى إلى المفعول الثانى بحرف جر؛ قال الله تعالى : ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ . وبغير حرف كما

(١) فى نسخة : « تهاد » . (٢) فى نسخة . « مسلمة » .

فى هذه الآية . المستقيم صفة للصراط، وهو الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ . وأصله مستقوم، نقلت الحركة إلى القاف وانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها .

التاسعة والعشرون — ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ . صراط بدل من الأوّل بدل الشيء من الشيء، كقولك : جاءنى زيد أبوك ؛ ومعناه[1] : أدم هدايتنا، فإن الإنسان قد يهدى إلى الطريق ثم يقطع به، وقيل : هو صراط آخر ومعناه العلم بالله جلّ وعزّ والفهم عنه ؛ قاله جعفر بن محمد . ولغة القرآن الذين فى الرفع والنصب والجر، وهذيل تقول : اللذون فى الرفع، ومن العرب من يقول : اللذون، ومنهم من يقول : الذى[2] وسيأتى .

وفى عليهم عشر لغات : قرئ بعامتها عليهُمْ بضم الهاء وإسكان الميم، وعليهِمْ بكسر الهاء وإسكان الميم، وعليهِمِى بكسر الهاء والميم وإلحاق ياء بعد الكسرة، وعليهِمُو بكسر الهاء وضم الميم وزيادة واو بعد الضمة، وعليهُمُو بضم الهاء والميم كلتيهما وإدخال واو بعد الميم، وعليهُمُ بضم الهاء والميم من غير زيادة واو، وهذه الأوجه الستة مأثورة عن الأئمة من القراء . وأوجه أربعة منقولة عن العرب، غير محكية عن القراء : عليهُمِى بضم الهاء وكسر الميم وإدخال ياء بعد الميم، حكاها الحسن[3] البصرى عن العرب، وعليهُمِ بضم الهاء وكسر الميم من غير زيادة ياء، وعليهِمُ بكسر الهاء وضم الميم من غير إلحاق واو، وعليهِمِ بكسر الهاء والميم ولا ياء بعد الميم ؛ وكلها صواب قاله ابن الأنبارى .

الموفية الثلاثين — قرأ عمر بن الخطاب، وابن الزبير رضى الله عنهما صراط من أنعمت عليهم، واختلف الناس فى المنعم عليهم ؛ فقال الجمهور من المفسرين : إنه أراد صراط النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ؛ وانتزعوا ذلك من قوله تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ . فالآية تقتضى أن هؤلاء على صراط مستقيم، وهو المطلوب فى آية الحمد ؛ وجميع ما قيل إلى هذا يرجع، فلا معنى لتعديد الأقوال والله المستعان .

الحادية والثلاثون — فى هذه الآية ردّ على القدرية والمعتزلة والإمامية، لأنهم يعتقدون أن إرادة الإنسان كافية فى صدور أفعاله منه، طاعة كانت أو معصية، لأن الإنسان عندهم خالق لأفعاله، فهو غير

(١) أى قوله تعالى اهدنا وما بعده .　(٢) أى افرادا وجمعا فى الرفع والنصب والجر كما يؤخذ من لسان العرب .
(٣) فى نسخة : « الأخفش البصرى » .

محتاج فى صدورها عنه إلى ربه ، وقد أكذبهم الله تعالى فى هذه الآية ، إذ سألوه الهداية الى الصراط المستقيم ، فلو كان الأمر اليهم ، والاختيار بيدهم دون ربهم ، لما سألوه الهداية ، ولا كرروا السؤال فى كل صلاة ، وكذلك تضرعهم اليه فى دفع المكروه ، وهو ما يناقض الهداية حيث قالوا : ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ، فكما سألوه أن يهديهم سألوه ألا يضلهم ، وكذلك يدعون فيقولون : ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ الآية .

الثانيــة والثلاثون — ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ . اختلف فى المغضوب عليهــم والضالين ، من هم ؟ فالجمهور · أن المغضوب عليهم : اليهود ، والضالين : النصارى ، وجاء ذلك مفسرا عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث عدى بن حاتم ، وقصة إسلامه ، أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده ، والترمذى فى جامعه ، وشهد لهذا التفسير أيضا قوله سبحانه فى اليهود : ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ . وقال : ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ . وقال فى النصارى : ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ . وقيل : المغضوب عليهم ، المشركون . والضالين ، المنافقون . وقيل : المغضوب عليهم ، هو من أسقط فرض هذه السورة فى الصلاة ، والضالين عن بركة قراءتها ، حكاه السلمى فى حقائقه ، والماوردى فى تفسيره — وليس بشىء — قال الماوردى : وهذا وجه مردود ، لأن ما تعارضت فيه الأخبار ، وتقابلت فيه الآثار ، وانتشر فيه الخلاف ، لم يجز أن يطلق عليه هذا الحكم . وقيل : المغضوب عليهــم باتباع البدع ، والضالين عن سنن الهدى . قال الشيخ المؤلف رحمه الله : وهذا حسن ، وتفسير النبى صلى الله عليه وسلم أولى وأعلى وأحسن . وعليهم فى موضع رفع ، لأن المعنى غضب عليهم ، والغضب فى اللغة : الشدة ، ورجل غضوب أى شديد الخلق . والغضوب : الحية الخبيثة ، لشدتها والغضبة : الدرقة من جلد البعير يطوى بعضها على بعض ، سميت بذلك لشدتها . ومعنى الغضب فى صفة الله تعالى إرادة ، فهو صفة ذاته ، وإرادة الله تعالى من صفات ذاته ، أو نفس العقوبة ومنه الحديث : "إن الصدقة لتطفئ غضب الرب" فهو صفة فعل .

الثالثة والثلاثون . ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الضلال فى كلام العــرب هو الذهاب عن سنن القصــد وطريق الحق ، ومنه : ضل اللبن فى الماء أى غاب . ومنه : ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ . أى غبنا بالموت وصرنا ترابا ، قال :

ألم تسأل فتخبرك الديار * عن الحيّ المضلل أين ساروا

والضلضلة : حجر أملس يردّده الماء في الوادي ؛ وكذلك الغضبة : صخرة في الجبل مخالفة لونه، قال :

* وغضبة في هضبة ما أمنعا *

الرابعة والثلاثون — قرأ عمر بن الخطاب، وأبيّ بن كعب ﴿غير المغضوب عليهم وغير الضالين﴾ وروى عنهما في الراء النصب والخفض في الحرفين ؛ فالخفض على البدل من الذين أو من الهاء والميم في عليهم ؛ أو صفة للذين والذين معرفة ولا توصف المعارف بالنكرات ولا النكرات بالمعارف، إلا أنّ الذين ليس بمقصود قصدهم فهو عام ؛ فالكلام بمنزلة قولك : إني لأمُرّ بمثلك فأكرمه ؛ أو لأن غير تعرّفت لكونها بين شيئين لا وسط بينهما، كما تقول : الحيّ غير الميت، والساكن غير المتحرك، والقائم غير القاعد، قولان : الأوّل للفارسيّ، والثاني للزمخشريّ . والنصب في الراء على وجهين : على الحال من الذين، أو من الهاء والميم في عليهم، كأنك قلت : أنعمت عليهم لا مغضوبا عليهم أو على الاستثناء، كأنك قلت : إلا المغضوب عليهم . ويجوز النصب بأعني وحكي عن الخليل .

الخامسة والثلاثون — لا ، في قوله ﴿ ولا الضالين ﴾ اختلف فيها ، فقيل هي زائدة قاله الطبريّ . ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ وقيل : هي تأكيد دخلت لئلا يتوهم أن الضالين معطوف على الذين ، حكاه مكيّ ، والمهدويّ . وقال الكوفيون : لا ، بمعنى غير وهي قراءة عمر وأبيّ وقد تقدّم .

السادسة والثلاثون — الأصل في الضالين : الضاللين حذفت حركة اللام الأولى ثم أدغمت اللام في اللام فاجتمع ساكنان مدّة الألف واللام المدغمة . وقرأ أيوب السختيانيّ : ولا الضألين بهمزة غير ممدودة كأنه فرّ من التقاء الساكنين وهي لغة . حكى أبو زيد قال : سمعت عمرو بن عبيد يقرأ : ﴿ فيومئذ لا يُسْئَلُ عن ذنبِه إنسٌ ولا جأنٌّ ﴾ . فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب : دأبة وشأبة ؛ قال أبو الفتح : وعلى هذه اللغة قول كُثيِّر :

* إذا ما الغوالي بالعبيط احمأرّت *

تمّ تفسير سورة الحمد، ولله الحمد والمنة .

تفســـير ســـورة البقـــرة

بحول الله، وكرمه لاربّ سواه .

وأول مبدوء به، الكلام فى نزولها، وفضلها، وما جاء فيها؛ وهكذا كل سورة إن وجدنا لها ذلك؛ فنقول :

سورة البقرة مدنية، نزلت فى مدد شتّى؛ وقيل: هى أوّل سورة نزلت بالمدينة، إلا قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ فإنه آخر آية نزلت من السماء؛ ونزلت يوم النحر فى حجة الوداع بمنى؛ وآيات الربا أيضا من أواخر ما نزل من القرآن .

وهذه السورة فضلها عظيم وثوابها جسيم؛ ويقال لها: فسطاط القرآن؛ قاله خالد بن مَعْدان؛ وذلك لعظمها وبهائها، وكثرة أحكامها ومواعظها؛ وتعلّمها عمر رضى الله عنه بفقهها وما تحتوى عليه فى اثنى عشرة سنة، وابنه عبد الله فى ثمانى سنين كما تقدم .

قال ابن العربى : سمعت بعض أشياخى يقول : فيها ألف أمر، وألف نهى، وألف حكم، وألف خبر؛ وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا وهم ذوو عدد وقدّم عليهم أحدثهم سنا، لحفظه سورة البقرة؛ وقال له : "اذهب فأنت أميرهم" أخرجه الترمذى عن أبى هريرة، وصححه. وروى مسلم عن أبى أمامة الباهلى قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "اقرءوا سورة البقرة فإنّ أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة" قال معاوية : بلغنى أن البطلة : السحرة . وروى أيضا عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر[1] من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة" وروى الدارمىّ عن عبد الله قال : ما من بيت يقرأ فيه سورة البقـرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط . وقال : إن لكل شىء سناما، وإن سنام القـرآن سورة البقرة؛ وإن لكل شىء لُبابا وإن لباب القرآن المفصّـل ؛ قال أبو محمد الدارمىّ : اللُّباب : الخالص. وفى صحيح البستى عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن لكل شىء سناما وإن سنام القرآن سورة البقرة ومن قرأها فى بيته ليلا لم يدخل الشيطان بيته ثلاث

(١) فى رواية : «يفر» .

ليال ومن قرأها نهارا لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام" . قال أبو حاتم البستي : قوله صلى الله عليه وسلم : "لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام" أراد : مردة الشياطين . وروى الدارمي في مسنده عن الشعبي قال : قال عبد الله : من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يصبح، أربعا من أولها وآية الكرسي وآيتين بعدها وثلاثا خواتيمها، أولها : ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ﴾ . وعن الشعبي عنه لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه، ولا يقرأن على مجنون إلا أفاق . وقال : المغيرة بن سبيع : — وكان من أصحاب عبد الله — لم ينس القرآن . وقال إسحاق بن عيسى: لم ينس ما قد حفظ . قال أبو محمد الدارمي : منهم من يقول : المغيرة بن سميع .

وفي كتاب الاستيعاب لابن عبد البر : وكان لبيد بن ربيعة [بن عامر][1] بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من شعراء الجاهلية ، أدرك الإسلام فحسن إسلامه وترك قول الشعر في الإسلام ، وسأله عمر في خلافته عن شعره واستنشده، فقرأ : سورة البقرة، فقال : إنما سألتك عن شعرك، فقال : ما كنت لأقول بيتا من الشعر بعد إذ علمني الله البقرة وآل عمران، فأعجب عمر قوله، وكان عطاؤه ألفين فزاده خمسمائة . وقد قال كثير من أهل الأخبار : إن لبيدا لم يقل شعرا منذ أسلم . وقال بعضهم : لم يقل في الإسلام إلا قوله :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي * حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

قال ابن عبد البر : وقد قيل إن هذا البيت لقَرَدَةَ بن نُفَاثَة السلولي، وهو أصح عندي، وقال غيره : بل البيت الذي قاله في الإسلام :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه * والمرء يصلحه القرين الصالح

وسيأتي ما ورد في آية الكرسي وخواتيم البقرة، ويأتي في أول سورة آل عمران زيادة بيان لفضل هذه السورة إن شاء الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر وأعن .

قوله تعالى : ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ﴾ الآية . اختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور، فقال عامر الشعبي، وسفيان الثوري، وجماعة من المحدثين : هي سر الله في القرآن، ولله في كل كتاب

(١) الزيادة من كتاب الاستيعاب (ج ١ ص ٢٣٥) طبع الهند .

من كتبه سر، فهي من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه، ولا يجوز أن نتكلم فيها، ولكن نؤمن بها ونقرأ كما جاءت، وروى هذا القول عن أبي بكر الصديق، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما. وذكر ابو الليث السَّمَرْقندي عن عمر، وعثمان، وابن مسـعود، أنهم قالوا: الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر. وقال أبو حاتم: لم نجد الحروف المقطعة في القرآن إلا في أوائل السـور، ولا ندري ما أراد الله جل وعز بها.

قلت: ومن هذا المعنى ما ذكره أبو بكر الأنباري: حدثنا الحسن بن الحباب حدثنا أبو بكر بن أبي طالب حدثنا أبو المنذر الواسطي عن مالك بن مِغْول عن سعيد بن مسروق عن الربيع بن خثيم قال: إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فآستأثر منه بعلم ما شاء، وأطلعكم على ما شاء، فأما ما آستأثر به لنفسه فلستم بنائليه، فلا تسألوا عنه، وأما الذي أطلعكم عليه فهو الذي تسألون عنه، وتخبرون به، وما بكل القرآن تعلمون، ولا بكل ما تعلمون تعملون. قال أبو بكر: فهذا يوضح أن حروفا من القرآن سترت معانيها عن جميع العـالم، اختبارا من الله عز وجل وامتحانا، فمن آمن بهـا أثيب وسعد، ومن كفر وشك أثم وبعد. حدثنا أبو يوسف بن يعقوب القاضي حدثنا محمد بن أبي بكر حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن الأعمش عن عمارة عن حريث بن ظُهَيْر عن عبـد الله قال: ما آمن مؤمن أفضـل من إيمان بغيب، ثم قرأ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

قلت: هـذا القول في المتشابه وحكمه، وهو الصحيح على ما يأتي بيانه في آل عمران إن شاء الله تعالى. وقال جمع من العلمـاء كبير: بل يجب أن نتكلم فيها، ونلتمس الفوائد التي تحتها، والمعاني التي تتخرج عليها، واختلفوا في ذلك على أقوال عديدة، فروى عن ابن عباس وعلي أيضا: أن الحروف المقطعـة في القرآن اسم الله الأعظم، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها. وقال قطرب والفراء وغيرهما: هي إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العرب حين تحداهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي منها بناء كلامهم، ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم، إذ لم يخرج عن كلامهم. قال قطرب: كانوا ينفرون عند استماع القرآن، فلمـا سمعوا: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓمٓصٓ﴾، استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم. وقال قوم: روى أن المشركين لمـا أعرضوا عن سماع القرآن بمكة وقالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا

لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ نزلت ليستغربوها فيفتحون لها أسماعهم فيسمعون القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة . وقال جماعة : هي حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيتها، كقول ابن عباس وغيره : الألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : الألف مفتاح اسم الله ، واللام مفتاح اسمه لطيف ، والميم مفتاح اسمه مجيد . وروى أبو الضّحى عن ابن عباس في قوله : ﴿ الٓمٓ ﴾ قال : أنا الله أعلم . ﴿ الٓر ﴾ أنا الله أرى . ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ أنا الله أفصل . فالألف تؤدّى عن معنى أنا ، واللام تؤدّى عن اسم الله ، والميم تؤدّى عن معنى أعلم . واختار هذا القول الزجاج وقال : أذهب الى أن كل حرف منها يؤدّى عن معنى ؛ وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة نظما لها ووضعا بدل الكلمات التي الحروف منها ، كقوله :

* فقلت لها قفى فقالت قاف *

أراد : قالت وقفت . وقال زهير :

بالخير خيرات وإن شرًا فا * ولا أريد الشر إلا أنْ تا

أراد : وإن شرا فشر . وأراد : إلا أن تشاء .

وقال :

نادوهم أَلَا الجموا أَلاتَا * قالوا جميعا كلهم أَلافَا

أراد : ألا تركبون، قالوا : ألا فاركبوا . وفي الحديث : "من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة" قال شقيق : هو أن يقول في اقتل : اق كما قال عليه السلام : "كفى بالسيف شا" معناه : شافيا .

وقال زيد بن أسلم : هي أسماء للسور . وقال الكلبي : هي أقسام أقسم الله تعالى بها لشرفها وفضلها، وهي من أسمائه عن ابن عباس أيضا . وردّ بعض العلماء هذا القول فقال : لا يصح أن يكون قسما لأن القسم معقود على حروف مثل : إن وقد ولقد وما ، ولم يوجد هاهنا حرف من هذه الحروف ، فلا يجوز أن يكون يمينا[١] . والجواب أن يقال : موضع القسم قوله تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ فلو أن إنسانا حلف فقال : والله هذا الكتاب لا ريب فيه ؛ لكان الكلام سديدا ؛ وتكون لا ، جواب القسم : فثبت أن قول الكلبي وما روى عن ابن عباس سديد صحيح .

(١) في نسخة : « قسما » .

فإن قيل : ما الحكمة فى القسم من الله تعالى ؟ وكان القوم فى ذلك الزمان على صنفين : مصدق، ومكذب، فالمصدق يصدق بغير قسم، والمكذب لا يصدق مع القسم .

قيل له : القرآن نزل بلغة العرب، والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه ؛ والله تعالى أراد أن يؤكد عليهم الحجة، فأقسم أن القرآن من عنده . وقال بعضهم : ﴿ الٓمٓ ﴾ أى أنزلت عليك هذا الكتاب من اللوح المحفوظ . وقال قتادة فى قوله : ﴿ الٓمٓ ﴾ قال : اسم من أسماء القرآن . وروى عن محمد بن على الترمذى أنه قال : إن الله تعالى أودع جميع ما فى تلك السورة من الأحكام والقصص فى الحروف التى ذكرها فى أول السورة ؛ ولا يعرف ذلك إلا نبى أو ولى، ثم بين ذلك فى جميع السور ليفقه الناس . وقيل غير هذا من الأقوال، فالله أعلم .

والوقف على هذه الحروف على السكون لنقصانها إلا إذا أخبرت عنها أو عطفتها فإنك تعربها ؛ واختلف : هل لها محل من الإعراب؟ فقيل : لا، لأنها ليست أسماء متمكنة، ولا أفعالا مضارعة، وإنما هى بمنزلة حروف التهجى فهى محكية، هذا مذهب الخليل وسيبويه . ومن قال : إنها أسماء السور فموضعها عنده الرفع على أنها عنده خبر ابتداء مضمر ؛ أى هذه ﴿ الٓمٓ ﴾ كما تقول هذه سورة البقرة، أو تكون رفعا على الابتداء والخبر ذلك ؛ كما تقول : زيد ذلك الرجل . وقال ابن كيسان النحوى : ﴿ الٓمٓ ﴾ فى موضع نصب، كما تقول : اقرأ ﴿ الٓمٓ ﴾ أو عليك ﴿ الٓمٓ ﴾ وقيل : فى موضع خفض بالقسم لقول ابن عباس : إنها أقسام أقسم الله بها .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ قيل : المعنى هذا الكتاب، وذلك قد تستعمل فى الإشارة إلى حاضر، وإن كان موضوعا للإشارة إلى غائب، كما قال تعالى فى الإخبار عن نفسه جل وعز : ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ؛ ومنه قول خفاف بن ندبة :

أقول له والرمح يأطر متنه ✻ تأمل خفافا إننى أنا ذلكا

أى أنا هذا، فذلك إشارة إلى القرآن، موضوع موضع هذا، تلخيصه : الٓمٓ هذا الكتاب لا ريب فيه ؛ وهذا قول أبى عبيدة، وعكرمة، وغيرهما ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أى هذه ؛ لكنها لما انقضت صارت كأنها بعدت ، فقيل

تلك . وفي البخاري" وقال معمر : ذلك الكتاب ، هـذا القرآن هدى للمتقين بيـان ودلالة كقوله : ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ . هذا حكم الله .

قلت : وقد جاء هـذا بمعنى ذلك ؛ ومنه قوله عليه السلام في حديث أم حرام : "يركبون ثبج هذا البحر" أي ذلك البحر ؛ والله أعلم . وقيل هو على بابه إشارة إلى غائب .

واختلف في ذلك الغائب على أقوال عشرة ؛ فقيل : ذلك الكتاب ، أي الكتاب الذي كتبت على الخلائق بالسعادة والشقاوة والأجل والرزق لا ريب فيه أي لا مبدل له . وقيل : ذلك الكتاب ، أي الذي كتبت على نفسي في الأزل ، أن رحمتي سبقت غضبي . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لمـا قضى الله الخلق كتب في كتاب على نفسه فهو موضوع عنده أن رحمتي تغلب غضبي" في رواية : «سبقت» . وقيل : إن الله تعالى قد كان وعد نبيه عليه السلام أن ينزل عليه كتابا لا يمحوه المـاء ؛ فأشار إلى ذلك الوعد كما في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهـل الكتاب وقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك وأنزلت عليـك كتابا لا يغسله المـاء تقرؤه نائما ويقظانا" الحديث . وقيل : الإشارة إلى ما قد نزل من القرآن بمكة . وقيل : إن الله تبارك وتعالى لمـا أنزل على نبيه صلى الله عليـه وسلم بمكة : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ لم يزل رسـول الله صلى الله عليه وسـلم مستشرفا لإنجاز هذا الوعد من ربه عز وجل ؛ فلمـا أنزل عليه بالمدينة : ﴿الٓمٓ . ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ كان فيه معنى ، هذا القرآن الذي أنزلته عليك بالمدينة ، ذلك الكتاب الذي وعدتك أن أوحيه إليك بمكة . وقيل : إن ذلك إشارة إلى ما في التوراة والإنجيل ؛ و﴿الٓمٓ﴾ اسم للقرآن ؛ والتقدير هذا القرآن : ذلك الكتاب المفسر في التوراة والإنجيل ؛ يعني أن التوراة والإنجيل يشهدان بصحته ويستغرق ما فيهما ويزيد عليهما ما ليس فيهما . وقيل : إن ذلك الكتاب إشارة إلى التوراة والإنجيل كليهما ؛ والمعنى : الٓمٓ ذانك الكتابان أو مثـل ذينك الكتابين ؛ أي هذا القرآن جامع لمـا في ذينك الكتابين فعبر بذلك عن الاثنين ، بشاهد من القرآن ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي عوان بين تينك : الفارض ، والبكر ؛ وسيأتي . وقيل : إن ذلك إشارة إلى اللوح المحفوظ ؛ وقال الكسائي : ذلك إشارة إلى القرآن الذي في السماء لم ينزل بعـد .

وقيل : إن الله تعالى قد كان وعد أهل الكتاب أنه ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم كتابا؛ فالإشارة إلى ذلك الوعد . قال المبرد : المعنى هذا القرآن، ذلك الكتاب الذى كنتم تُستفتحون به على الذين كفروا . وقيل : إلى حروف المعجم فى قول من قال : ﴿ آلم ﴾ الحروف التى تحديتكم بالنظم منها .

والكتاب مصدر من كتب يكتب إذا جمع ؛ ومنه قيل : كتيبة لاجتماعها، وتكتّبت الخيل ؛ صارت كتائب ؛ وكتبت البغلة، إذا جمعت بين شفرى رحمها بحلقة أو سير ؛ قال :

لا تأمنن فزاريا حللت به * على قلوصك واكتبها بأسيار

والكُتْبَة (بضم الكاف) : الخُرْزَة، والجمع كُتَبٌ، والكَتْبُ : الخَرْز . قال ذو الرمة :

وفراء غرفية اثاى خوارزها * مشلشل ضيعته بينها الكتب

والكتاب : هو خط الكاتب حروف المعجم مجموعة أو متفرقة ؛ وسمى كتابا وإن كان مكتوبا كما قال الشاعر :

تؤمل رجعة منى وفيها * كتاب مثل ما لصق الغراء

والكتاب : الفرض والحكم والقدر؛ قال الجعدى :

يا ابنة عمى كتاب الله أخرجنى * عنكم وهل أمنعن الله ما فعلا

قوله تعالى : ﴿لا ريب﴾ نفى عام ؛ ولذلك نصب الريب به . وفى الريب ثلاثة معان .

أحدها : الشك ؛ قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

ليس فى الحق يا أميمة ريب * إنما الريب ما يقول الجهول

وثانيها : التُّهَمَة؛ قال جميل :

بثينة قالت يا جميل أربتنى * فقلت كلانا يابثين مُريب

وثالثها : الحاجة؛ قال[1] :

قضينا من تهامة كل ريب * وخيبر ثم أجْمَمْنَا السيوفا

فكتاب الله تعالى لاشك فيه ولا ارتياب، والمعنى أنه فى ذاته حق، وأنه منزل من عند الله، وصفة من صفاته، غير مخلوق ولا محدث، وإن وقع ريب للكفار . وقيل : هو خبر ومعناه النهى،

(١) هو كعب بن مالك الأنصارى؛ كما فى اللسان مادة (ريب) .

أى لا ترتابوا، وتم الكلام؛ كأنه قال ذلك الكتاب حقا؛ وتقول : رابنى هذا الأمر إذا أدخل عليك شكا وخوفا ؛ وأراب : صار ذا ريبة فهو مريب ورابنى أمره؛ وريبُ الدهر : صروفه .

قوله تعالى : ﴿فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ فيه ست مسائل .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فيــه ﴾ الهاء فى فيــه فى موضع خفض بفى . وفيــه خمسة أوجه؛ أجودها : فيــهِ هُدى، ويليه فيه هُدى بضم الهــاء بغير واو وهى قراءة الزهرى وسلام أبى المنذر؛ ويليه فِيهِى هدى باثبات اليــاء[1] وهى قراءة ابن كثير، ويجوز فيهُو هــدى بالواو، ويجوز فيهْ هُدى مدغما؛ وارتفع هدى على الابتداء والخبر فيه ؛ والهدى فى كلام العرب معناه الرشد والبيان، أى فيه كشف لأهل المعرفة ورشد وزيادة بيان وهدى .

الثانية — الهدى هديان : هدى دلالة، وهو الذى تقدر عليه الرسل وأتباعهم، قال الله تعالى : ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ وقال : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فأثبت لهم الهدى الذى معناه الدلالة والدعوة والتنبيه؛ وتفرد هو سبحانه بالهدى الذى معناه التأييد والتوفيق، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ فالهدى على هذا يجىء بمعنى خلق الإيمان فى القلب؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ . والهدى : الاهتداء ومعناه راجع الى معنى الإرشاد كيفما تصرفت ؛ قال أبو المعالى : وقــد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها؛ من ذلك قوله تعالى فى صفة المجاهدين : ﴿ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ ومنه قوله تعالى : ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ معناه فاسلكوهم إليها .

الثالثة — الهدى لفظ مؤنث . قال الفراء : بعض بنى أسد تؤنث الهدى فتقول : هذه هدى حسنة. وقال اللحيانى: هو مذكر، ولم يعرب لأنه مقصور والألف لا تتحرك، ويتعدى بحرف وبغير حرف، وقد مضى فى الفاتحة تقول : هديته الطريق وإلى الطريق، والدار وإلى الدار أى عرفته؛ الاولى لغة أهل الحجاز والثانية حكاها الأخفش . وفى التنزيل : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ و ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ . وقيل: إن الهدى اسم من أسماء النهار،لأن الناس يهتدون فيه لمعايشهم وجميع مآربهم؛ ومنه قول ابن مقبل :

(١) أى بعد الهاء من (فيه) .

[حتى[1] استبلت الهدى والبيد هاجمة * يخشعن في الآل غلفا أو يصلينا]

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ للمتقين ﴾ خص الله تعالى المتقين بهدايته وإن كان هدى للخلق أجمعين تشريفا لهم، لأنهم آمنوا وصدقوا بما فيه . وروى عن أبي رَوْق أنه قال : هدى للمتقين، أي كرامة لهم؛ يعني إنما أضاف إليهم إجلالا لهم وكرامة لهم وبيانا لفضلهم . وأصل للمتقين : للموتقيين بياءين مخففتين حذفت الكسرة من الياء الأولى لثقلها ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين وأبدلت الواو تاء على أصلهم في اجتماع الواو والتاء وأدغمت التاء في التاء فصار للمتقين .

الخامسة — التقوى يقال أصلها في اللغة : قلة الكلام؛ حكاه ابن فارس . قلت : ومنه الحديث : " التقي ملجم والمتقي فوق المؤمن والطائع " وهو الذي يتقي بصالح عمله وخالص دعائه عذاب الله تعالى، مأخوذ من اتقاء المكروه بما تجعله حاجزا بينك وبينه؛ كما قال النابغة :

سقط النَّصيفُ ولم ترد إسقاطه * فتناولتـــه واتقتـــنا باليـــد

وقال آخر :

فألقت قناعا دونه الشمس واتقت * بأحسن موصولين كف ومعصم

وخرج أبو محمد عبد الغني الحافظ من حديث سعيدبن زَرْبي أبي عبيدة عن عاصم بن بَهْدَلة عن زِرِّ بن حُبَيْش عن ابن مسعود قال : قال يوما لابن أخيه : يابن أخي ترى الناس ما أكثرهم؟ قال : نعم؛ قال : لا خير فيهم إلا تائب أو تقي؛ ثم قال : يابن أخي ترى الناس ما أكثرهم؟ قلت : بلى؛ قال : لا خير فيهم إلا عالم أو متعلم . وقال أبو يزيد البسطامي : المتقي من إذا قال قال لله، ومن إذا عمل عمل لله . وقال أبو سليمان الداراني : المتقون الذين نزع الله عن قلوبهم حب الشهوات . وقيل : المتقي الذي اتقى الشرك وبرئ من النفاق . قال ابن عطية : وهذا فاسد لأنه قد يكون كذلك وهو فاسق . وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أُبَيًّا عن التقوى، فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك؟ قال : نعم؛ قال : فما عملت فيه ؟ قال : تشمرت وحذرت؛ قال : فذاك التقوى؛ وأخذ هذا المعنى ابن المعتز فنظمه :

(١) هذا البيت ساقط في جميع الأصول؛ والزيادة عن اللسان مادة هدى .

خلّ الذنوب صغيرها * وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماش فوق أر * ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرنّ صغيرة * إن الجبال من الحصى

السادسة — التقوى، فيها جماع الخير كله، وهي وصية الله في الأولين والآخرين، وهي خير ما يستفيده الإنسان؛ كما قال أبو الدرداء وقد قيل له إن أصحابك يقولون الشعر وأنت ما حفظ عنك شيء؛ فقال :

يريد المرء أن يؤتى مناه * ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتي ومالي * وتقوى الله أفضل ما استفادا

وروى ابن ماجه في سننه عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : "ما استفاد المرء[1] بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله" .

والأصل في التقوى : وقوى على وزن فعلى فقلبت الواو تاء من وقيته أقيه أي منعته ؛ ورجل تقي أي خائف ، أصله وقي ؛ وكذلك تقاة كانت في الأصل وقاة كما قالوا : تجاه وتراث ، والأصل وجاه ووراث .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ فيها ست وعشرون مسئلة .

الأولى — قوله : ﴿ الذين ﴾ في موضع خفض نعت للمتقين ، ويجوز الرفع على القطع أي هم الذين ، ويجوز النصب على المدح . ﴿ يؤمنون ﴾ يصدقون ، والإيمان في اللغة : التصديق ، وفي التنزيل : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴾ أي بمصدق ، ويتعدى بالباء واللام ، كما قال : ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى ﴾ وروى حجاج بن حجاج الأحول — ويلقب بزق العسل — قال سمعت قتادة يقول : يا ابن آدم ، إن كنت لا تريد أن تأتي الخير إلا عن نشاط فإن نفسك مائلة إلى السآمة والفترة والملة ؛ ولكن المؤمن هو المتحامل ، والمؤمن هو المتقوي ، والمؤمن هو المتشدد ، وإن المؤمنين

(١) في الجامع الصغير : « المؤمن » .

هم المتحابون إلى الله الليل والنهار ؛ والله ما يزال المؤمن يقول : ربنا ربنا فى السر والعلانية حتى استجاب لهم فى السر والعلانية .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ الغيب فى كلام العرب : كل ما غاب عنك، وهو من ذوات الياء ؛ يقال منه : غابت الشمس تغيب ؛ والغيبة معروفة ، وأغابت المرأة فهى مغيبة إذا غاب عنها زوجها ؛ ووقعنا فى غيبة وغيابة ، أى هبطة من الأرض ؛ والغيابة : الأجمة ، وهى جماع الشجر يغاب فيها ؛ ويسمى المطمئن من الأرض : الغيب ، لأنه غاب عن البصر .

الثالثة — واختلف المفسرون فى تأويل الغيب هنا ؛ فقالت فرقة : الغيب فى هذه الآية : الله سبحانه . وضعفه ابن العربى . وقال آخرون : القضاء والقدر . وقال آخرون : القرآن وما فيه من الغيوب . وقال آخرون الغيب : كل ما أخبر به الرسول عليه السلام مما لا تهتدى إليه العقول من أشراط الساعة ، وعذاب القبر ، والحشر والنشر ، والصراط والميزان ، والجنة والنار . قال ابن عطية : وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها .

قلت : وهذا هو الإيمان الشرعى المشار إليه فى حديث جبريل عليه السلام حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم : "فأخبرنى عن الإيمان" قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ؛ قال : "صدقت" وذكر الحديث . وقال عبد الله بن مسعود : ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب ، ثم قرأ : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ .

قلت : وفى التنزيل : ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ وقال : ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴾ . فهو سبحانه غائب عن الأبصار ، غير مرئى فى هذه الدار ، غير غائب بالنظر والاستدلال ، فهم يؤمنون أن لهم ربا قادرا يجازى على الأعمال ، فهم يخشونه فى سرائرهم ، وخلواتهم التى يغيبون فيها عن الناس ، لعلمهم باطلاعه عليهم ؛ وعلى هذا تتفق الآى ولا تتعارض ؛ والحمد لله .

وقيل بالغيب ، أى بضمائرهم وقلوبهم ، بخلاف المنافقين ؛ وهذا قول حسن . وقال الشاعر :

وبالغيب آمنا وقد كان قومنا ٭ يصلون للأوثان قبل محمـــد

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ معطوف جملة على جملة ، وإقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيآتها في أوقاتها على ما يأتي بيانه ؛ يقال : قام الشيء أى دام وثبت ، وليس من القيام على الرجل ، وإنما هو من قولك : قام الحق أى ظهر وثبت ؛ قال الشاعر :

* وقامت الحرب بنا على ساق *

وقال آخر :

وإذا يقال أتيتم لم يبرحوا * حتى تقيم الخيل سوق طعان

وقيل : يقيمون : يديمون ، وأقامه : أى أدامه ، وإلى هذا المعنى أشار عمر بقوله : من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع .

الخامسة — إقامة الصلاة معروفة ، وهى سنة عند الجمهور ، ولا إعادة على تاركها ؛ وعند الأوزاعى ، وعطاء ، ومجاهد ، وابن أبى ليلى ، هى واجبة وعلى من تركها الإعادة ؛ وبه قال أهل الظاهر . وروى عن مالك ، واختاره ابن العربى قال : لأن فى حديث الأعرابى : "وأقم" فأمره بالإقامة كما أمره بالتكبير والاستقبال والوضوء .

قال : فأما أنتم الآن وقد وقفتم على الحديث ، فقد تعين عليكم أن تقولوا بإحدى روايتى مالك الموافقة للحديث وهى أن الإقامة فرض . قال ابن عبد البرّ قوله صلى الله عليه وسلم : " وتحريمها التكبير " دليل على أنه لم يدخل فى الصلاة من لم يحرم ، فما كان قبل الإحرام فحكمه ألا تعاد منه الصلاة إلا أن يجمعوا على شىء فيسلم للإجماع كالطهارة والقبلة والوقت ونحو ذلك ؛ وقال بعض علمائنا : من تركها عمدا أعاد الصلاة ، وليس ذلك لوجوبها إذ لو كان ذلك لا ستوى سهوها وعمدها ، وإنما ذلك للاستخفاف بالسنن والله أعلم .

السادسة — واختلف العلماء فيمن سمع الإقامة هل يسرع أو لا ؟ فذهب الأكثر إلى أنه لا يسرع وإن خاف فوت الركعة لقوله عليه السلام : " إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وأتوها تمشون عليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا " رواه أبو هريرة أخرجه مسلم ، وعنه أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا ثُوِّبَ بالصلاة فلا يسعى إليها أحدكم ولكن ليمش وعليه السكينة والوقار ، صَلِّ ما أدركت واقْضِ ما سبقك " وهذا نص ؛ ومن جهة المعنى أنه

إذا أسرع انبهر فشوش عليه دخوله في الصلاة وقراءتها وخشوعها . وذهب جماعة من السلف منهم ابن عمر، وابن مسعود، على اختلاف عنه أنه إذا خاف فواتها أسرع، وقال إسحاق : يسرع إذا خاف فوات الركعة؛ وروى عن مالك نحوه، وقال : لا بأس لمن كان على فرس أن يحرك الفرس؛ وتأوله بعضهم على الفرق بين المـاشي والراكب لأن الراكب، لا يكاد أن ينبهر كما ينبهر المـاشي .

قلت : واستعمال سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل حال أولى، فيمشي كما جاء الحديث وعليه السكينة والوقار، لأنه في صلاة؛ ومحال ان يكون خبره صلى الله عليه وسلم على خلاف ما أخبر؛ فكما أن الداخل في الصلاة يلزم الوقار والسكون، كذلك المـاشي، حتى يحصل له التشبه به فيحصل له ثوابه؛ ومما يدل على صحة هذا ماذكرناه من السنة، وما خرجه الدرامي في مسنده، وقال حدثنا محمد بن يوسف قال حدثنا سفيان عن محمـد بن عجلان عن المقبرى عن كعب بن عُجْرة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا توضأت فعمدت إلى المسجد فلا تشبكن بين أصابعك فإنك في صلاة " لمنع صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث وهو صحيح مما هو أقل من الإسراع، وجعله كالمصلي؛ وهذه السنن تبين معنى قوله تعالى : ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ وأنه ليس المراد به الاشتداد على الأقـدام ؛ وإنما عنى العمل والفعل ؛ هكذا فسره مالك، وهو الصواب في ذلك والله أعلم .

السابعة — واختلف العلماء في تأويل قوله عليه السلام : "وما فاتكم فأتموا" وقوله : "واقض ما سبقك" هل هما بمعنى واحد أولا ؟ فقيل : هما بمعنى واحد وأن القضاء قد يطلق و يراد به التمام، قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ﴾ وقال : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ ﴾. وقيل : معناهما مختلف وهو الصحيح؛ ويترتب على هذا الخلاف خلاف فيما يدركه الداخل، هل هو أول صلاته أو آخرها؟ فذهب الى الأول جماعة من أصحاب مالك؛ منهم ابن القاسم ولكنه يقضي مافاته بالحمد وسورة، فيكون بانيا في الأفعال قاضيا في الأقوال . قال ابن عبد البر : وهو المشهور من المذهب . وقال ابن خواز منداد : وهو الذي عليه أصحابنا، وهو قول الأوزاعي، والشافعي، ومحمد بن الحسن، وأحمد بن حنبل، والطبري، وداود بن علي. وروى أشهب وهو الذي ذكره ابن عبد الحكم عن مالك، ورواه عيسى عن ابن القاسم عن مالك، أن ما أدرك فهـو آخر صلاته، وأنه يكون قاضيا في الأفعـال والأقـوال ؛ وهو قول الكوفيين . قال القاضي أبو محمد عبد الوهاب : وهو مشهور مذهب مالك . قال ابن عبد البر : من

جعل ما أدرك أوّل صلاته فأظنهم راعوا الإحرام لأنهّ لا يكون إلا فى أوّل الصلاة، والتشهد والتسليم لا يكون إلا فى آخرها ؛ فمن هنا قالوا : إن ما أدرك فهو أوّل صلاته، مع ما ورد فى ذلك من السنة من قوله : " فأتموا " والتمـام هو الآخر .

واحتج الآخرون بقوله : " فاقضوا " والذى يقضيه هو الفائت، إلا أن رواية من روى : فأتموا أكثر، وليس يستقيم على قول من قال : إن ما أدرك أوّل صلاته ويطرد، إلا ماقاله عبد العزيز بن أبى سلمة المـاجشون، والمزنى ، وإسحاق ، وداود، من أنه يقرأ مع الإمام بالحمد وسورة إن أدرك ذلك معه؛ وإذا قام للقضاء قرأ بالحمد وحدها؛ فهؤلاء اطرد على أصلهم قولهم وفعلهم؛ رضى الله عنهم .

الثامنة — الإقامة تمنع من ابتداء صلاة نافلة ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة" خرجه مسلم وغيره ؛ فأما إذا شرع فى نافلة فلا يقطعها لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ وخاصـة إذا صلى ركعة منها ؛ وقيل : يقطعها ، لعموم الحديث فى ذلك والله أعلم .

التاسعة — واختلف العلماء فيمن دخل المسجد ولم يكن ركع ركعتى الفجر، ثم أقيمت الصلاة، فقال مالك : يدخل مع الإمام ولا يركعهما ؛ وإن كان لم يدخل المسجد، فإن لم يخف فوات ركعة فليركع خارج المسجد، ولا يركعهما فى شىء من أفنية المسجد — التى تصلى فيها الجمعة — اللاصقة بالمسجد؛ وإن خاف أن تفوته الركعة الأولى فليدخل وليصل معه، ثم يصليهما إذا طلعت الشمس، أحب إلىّ وأفضل من تركهما؛ وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن خشى أن تفوته الركعتان ولا يدرك الإمام قبل رفعه من الركوع فى الثانية دخل معه، وإن رجا أن يدرك ركعة صلى ركعتى الفجر خارج المسجد، ثم يدخل مع الإمام؛ وكذلك قال الأوزاعى؛ إلا أنه يجوز ركوعهما فى المسجد ما لم يخف فوت الركعة الأخيرة؛ وقال الثورى : إن خشى فوت ركعة دخل معهم ولم يصلهما ، وإلا صـلاهما وإن كان قـد دخل المسجد . وقال الحسن بن حى ويقال ابن حيـان : إذا أخذ المقيم فى الإقامة فلا تطوع إلا ركعتى الفجر . وقال الشافعى : من دخل المسجد وقد أقيمت الصلاة دخل مع الإمام ولم يركعهما لا خارج المسجد ولا فى المسجد؛ وكذلك قال الطبرى وبه قال أحمد بن حنبل؛ وحكى عن مالك وهو الصحيح فى ذلك لقوله عليه السلام : "إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة" . وركعتا الفجر

إما سنة، وإما فضيلة، وإما رغيبة، والحجة عند التنازع حجة السنة، ومن حجة قول مالك المشهور وأبي حنيفة، ماروى عن ابن عمر : أنه جاء والإمام يصلي صلاة الصبح فصلاهما في حجرة حفصة، ثم إنه صلى مع الإمام . ومن حجة الثوري والأوزاعي ما روى عن عبد الله بن مسعود : أنه دخل المسجد وقد أقيمت الصلاة فصلى إلى اسطوانة في المسجد ركعتي الفجر، ثم دخل الصلاة بمحضر من حذيفة وأبي موسى رضي الله عنهما . قالوا : وإذا جاز أن يشتغل بالنافلة عن المكتوبة خارج المسجد جاز له ذلك في المسجد، روى مسلم عن عبد الله بن مالك بن بحينة(١) قال : أقيمت صلاة الصبح فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يصلي والمؤذن يقيم، فقال : "أتصلي الصبح أربعا" ! وهذا إنكار منه صلى الله عليه وسلم على الرجل، لصلاته ركعتي الفجر في المسجد والإمام يصلي؛ ويمكن أن يستدل به أيضا على أن ركعتي الفجر إن وقعت في تلك الحال صحت؛ لأنه عليه السلام لم يقطع عليه صلاته، مع تمكنه من ذلك، والله أعلم .

العاشرة — الصلاة أصلها في اللغة : الدعاء، مأخوذة من صلى يصلي إذا دعا، ومنه قوله عليه السلام : "إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب فإن كان مفطرا فليطعم وإن كان صائما فليصل" أي فليدع . وقال بعض العلماء : إن المراد الصلاة المعروفة، فيصلي ركعتين وينصرف؛ والأول أشهر، وعليه من العلماء الأكثر . ولما ولدت أسماء عبد الله بن الزبير أرسلته إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ قالت أسماء : ثم مسحه وصلى عليه، أي دعا له . وقال تعالى : ﴿وصلّ عليهم﴾ أي ادع لهم .

وقال الأعشى :

تقول بنتي وقد قربت مرتحلا ٭ يا رب جنب أبي الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذي صليت فاغتمضي ٭ نوما فإن لجنب المرء مضطجعا

وقال الأعشى أيضا :

وقابلها الريح في دنها ٭ وصلى على دنها وارتسم

ارتسم الرجل : كبّر ودعا، قاله في الصحاح . وقال قوم : هي مأخوذة من الصلا وهو عرق في وسط الظهر ويفترق عند العَجْب فيكتنفه؛ ومنه أخذ المصلي في سبق الخيل، لأنه يأتي في الحلبة

(١) بحينة أمه وهي بنت الحارث بن المطلب . وأبوه مالك بن القشب بن جندلة الأزدي .

ورأسه عند صلوى السابق؛ فاشتقت الصلاة منه؛ إما لأنها جاءت ثانية للإيمان فشبهت بالمصلى من الخيل، وإما لأن الراكع تثنى صلواه . والصلا مغرز الذنب من الفرس، والاثنان صلوان؛ والمصلى، تالى السابق، لأن رأسه عند صلاه . وقال عليّ رضى الله عنه : سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى أبو بكر وثلث عمر . وقيل : هى مأخوذة من اللزوم؛ ومنه صلى بالنار إذا لزمها؛ ومنه : ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ قال الحارث بن عباد :

لم أكن من جناتها علم اللـ * ـه وإنى بحرها اليوم صال

أى ملازم لحرها، وكأنّ المعنى على هذا ملازمة العبادة على الحدّ الذى أمر الله تعالى به . وقيل : هى مأخوذة من صليت العود بالنار إذا قومته وليّنته بالصلاء ؛ والصلاء : صلاء النار بكسر الصاد ممدود ، فإن فتحت الصاد قصرت، فقلت صلا النار، فكأنّ المصلى يقوم نفسه بالمعاناة فيها ويلين ويخشع ؛ قال الخارزنجى[1] :

فلا تعجل بأمرك واستدمه * فما صلى عصاك[2] كمستديم

والصلاة : الدعاء ؛ والصلاة : الرحمة، ومنه : " اللهم صل على محمد " الحديث . والصلاة : العبادة؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ ﴾ الآية، أى عبادتهم . والصلاة : النافلة؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ ﴾ . والصلاة : التسبيح ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ أى من المصلين . ومنه : سبحة الضحى . وقد قيل فى تأويل : ﴿ نسبح بحمدك ﴾ نصلى : والصلاة : القراءة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ فهى لفظ مشترك . والصلاة : بيت يصلى فيه، قاله ابن فارس . وقد قيل : إن الصلاة اسم علم وضع لهذه العبادة فإن الله تعالى لم يخل زمانا من شرع، ولم يخل شرعا من صلاة ؛ حكاه أبو نصر القشيرى .

قلت : فعلى هذا القول لا اشتقاق لها ؛ وعلى قول الجمهور وهى :

الحادية عشرة — اختلف الأصوليون هل هى مبقاة على أصلها اللغوى الوضعى الابتدائى، وكذلك الإيمان والزكاة والصيام والحج، والشرع إنما تصرف بالشروط والأحكام، وعلى تلك الزيادة من الشرع

(١) كذا فى جميع الأصول، وفى اللسان مادة (صلا) : « ... قيس بن زهير » . (٢) كذا فى جميع الأصول؛ وفى اللسان : « عصاه » .

يصيرها موضوعة كالوضع الابتدائي من قبل الشرع ؛ هذا اختلافهم ، والأول أصح ، لأن الشريعـة ثبتت بالعربية ، والقرآن نزل بها بلسان عربي مبين ؛ ولكن للعرب تحكم في الأسماء ، كالدابة وضعت لكل ما يدب ؛ خصصها العرف بالبهائم ، فكذلك لعرف الشرع تحكم في الأسماء والله أعلم .

الثانية عشرة — واختلف في المراد بالصلاة هنا ؛ فقيل : الفرائض ؛ وقيل : الفرائض والنوافل معا ؛ وهو الصحيح لأن اللفظ عام والمتقي يأتي بهما .

الثالثة عشرة — الصلاة سبب للرزق ؛ قال الله تعالى : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ الآية على ما يأتي بيانه في طه إن شاء الله تعالى ، وشفاء من وجع البطن وغيره ؛ روى ابن ماجه عن أبي هريرة قال : هَجَّر النبي صلى الله عليه وسلم فَهَجَّرْتُ فصليت ثم جلست ؛ فالتفت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "اشكيت دَرْدَ" قلت : نعم يارسول الله ؛ قال : "قم فصل فإن في الصلاة شفاء" في رواية : "أشكيت درد" يعني تشتكي بطنك بالفارسية ؛ وكان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .

الرابعة عشرة — الصلاة لا تصح إلا بشروط وفروض ؛ فمن شروطها : الطهارة ، وسيأتي بيان أحكامها في سورة النساء والمائدة ، وستر العورة ، يأتي في الأعراف القول فيها إن شاء الله تعالى .

وأما فروضها : فاستقبال القبلة ، والنية ، وتكبيرة الإحرام ، والقيام لها ، وقراءة أم القرآن ، والقيام لها ، والركوع والطمأنينة فيه ، ورفع الرأس من الركوع والاعتدال فيه ، والسجود والطمأنينة فيه ، ورفع الرأس من السجود ، والجلوس بين السجدتين والطمأنينة فيه ، والسجود الثاني والطمأنينة فيه . والأصل في هذه الجملة حديث أبي هريرة في الرجل الذي علمه النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة لما أخل بها ، فقال له : "إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ، ثم استقبل القبلة ، ثم كبر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئن راكعا ، ثم ارفع حتى تعتدل قائما ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها " خرجه مسلم ، ومثله حديث رفاعة بن رافع ، أخرجه الدارقطني وغيره . قال علماؤنا : فبين قوله صلى الله عليه وسلم أركان الصلاة ، وسكت عن الإقامة ، ورفع اليدين ، وعن حد القراءة ، وعن تكبير الانتقالات ، وعن التسبيح في الركوع والسجود ، وعن الجلسة

الوسطى ، وعن التشهد ، وعن الجلسة الأخيرة ، وعن السلام ؛ أما الإقامة وتعيين الفاتحة فقد مضى الكلام فيهما ؛ وأما رفع اليدين فليس بواجب عند جماعة العلماء ، وعامة الفقهاء ، لحديث أبي هريرة ، وحديث رفاعة ابن رافع ؛ وقال داود وبعض أصحابه بوجوب ذلك عند تكبيرة الإحرام ؛ وقال بعض أصحابه : الرفع عند الإحرام وعند الركوع وعند الرفع من الركوع واجب ، وإن من لم يرفع يديه فصلاته باطلة وهو قول الحميدي ، ورواية عن الأوزاعي ، واحتجوا بقوله عليه السلام : " صلوا كما رأيتموني أصلي " أخرجه البخاري ؛ قالوا : فوجب علينا أن نفعل كما رأيناه يفعل ، لأنه المبلغ عن الله مراده ؛ وأما التكبير ما عدا تكبيرة الإحرام فمسنون عند الجمهور للحديث المذكور ، وكان ابن قاسم صاحب مالك يقول : من أسقط من التكبير في الصلاة ثلاث تكبيرات فما فوقها سجد للسهو قبل السلام ، وإن لم يسجد بطلت صلاته ، وإن نسي تكبيرة واحدة أو اثنتين سجد أيضا للسهو ، فإن لم يفعل فلا شيء عليه ؛ وروى عنه أن التكبيرة الواحدة لا سهو على من سها فيها ، وهذا يدل على أن عظم التكبير وجملته عنده فرض ، وأن اليسير منه متجاوز عنه . وقال أصبغ بن الفرج ، وعبد الله بن عبد الحكم : ليس على من لم يكبر في الصلاة من أولها إلى آخرها شيء إذا كبر تكبيرة الإحرام ، فإن تركه ساهيا سجد للسهو ، فإن لم يسجد فلا شيء عليه ، ولا ينبغي لأحد أن يترك التكبير عامدا ، لأنه سنة من سنن الصلاة ، فإن فعل فقد أساء ، ولا شيء عليه ، وصلاته ماضية .

قلت : هذا هو الصحيح وهو الذي عليه جماعة فقهاء الأمصار من الشافعيين والكوفيين ، وجماعة أهل الحديث ، والمالكيين غير من ذهب مذهب ابن القاسم . وقد ترجم البخاري رحمه الله " باب إتمام التكبير في الركوع والسجود " وساق حديث مُطَرِّف بن عبد الله قال : صليت خلف علي بن أبي طالب أنا وعمران بن حصين ، فكان إذا سجد كبر ، وإذا رفع رأسه كبر ، وإذا نهض من الركعتين كبر ؛ فلما قضى الصلاة أخذ بيدي عمران بن حصين فقال : لقد ذكرني هذا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أو قال : لقد صلى بنا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم . وحديث عكرمة قال : رأيت رجلا عند المقام يكبر في كل خفض ورفع ، وإذا قام وإذا وضع ؛ فأخبرت ابن عباس فقال : أو ليس تلك صلاة النبي صلى الله عليه وسلم لا أم لك ! فدلك البخاري رحمه الله بهذا الباب على أن التكبير لم يكن معمولا به عندهم . روى أبو إسحاق السبيعي عن يزيد بن أبي مريم عن أبي موسى الأشعري قال :

صلى بنا علىّ يوم الجمل صلاة أذكرنا بها صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يكبر فى كل خفض ورفع ، وقيام وقعود، قال أبو موسى : فإما نسيناها و إما تركناها عمدا .

قلت : أتراهم أعادوا الصلاة ! فكيف يقال من ترك التكبير بطلت صلاته ! ولو كان ذلك لم يكن فرق بين السنة والفرض ، والشيء إذا لم يجب أفراده لم يجب جميعه ، و بالله التوفيق .

الخامسة عشرة — وأما التسبيح فى الركوع والسجود فغير واجب عند الجمهور للحديث المذكور، وأوجبه إسحاق بن رَاهَوَيْه ، وأن من تركه أعاد الصلاة ، لقوله عليه السلام : "أما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء ، فقمن أن يستجاب لكم" .

السادسة عشرة — وأما الجلوس والتشهد فاختلف العلماء فى ذلك ، فقال مالك وأصحابه : الجلوس الأوّل والتشهد له سنتان ، وأوجب جماعة من العلماء الجلوس الأول وقالوا : هو مخصوص من بين سائر الفروض بأن ينوب عنه السجود كالعرايا من المزابنة ، والقراض من الإجارات ، وكالوقوف بعد الاحرام لمن وجد الإمام راكعا ، واحتجوا بأنه لو كان سنة ما كان العامد لتركه تبطل صلاته كما لا تبطل بترك سنن الصلاة ، احتج من لم يوجبه بأن قال : لو كان من فرائض الصلاة لرجع الساهى عنه إليه حتى يأتى به ، كما لو ترك سجدة أو ركعة ، و يراعى فيه ما يراعى فى الركوع والسجود من الولاء والرتبة ، ثم يسجد لسهوه كما يصنع من ترك ركعة أو سجدة وأتى بهما . وفى حديث عبد الله ابن بُحَيْنَة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام من ركعتين ونسى أن يتشهد فسبح الناس خلفه كيما يجلس فثبت قائما فقاموا ، فلما فرغ من صلاته سجد سجدتى السهو قبل التسليم ، فلو كان الجلوس فرضا لم يسقطه النسيان والسهو ، لأن الفرائض فى الصلاة يستوى فى تركها السهو والعمد إلا فى المؤتم . واختلفوا فى حكم الجلوس الأخير فى الصلاة وما الفرض من ذلك . وهى

السابعة عشرة — على خمسة أقوال :

أحدها : أن الجلوس فرض ، والتشهد فرض ، والسلام فرض ، وممن قال ذلك الشافعى واحمد ابن حنبل فى رواية ، وحكاه أبو مصعب فى مختصره عن مالك وأهل المدينة ، و به قال داود . قال الشافعى : من ترك التشهد الأوّل والصلاة على النبىّ صلى الله عليه وسلم فلا إعادة عليه ، وعليه سجدتا السهو لتركه ، وإذا ترك التشهد الأخير ساهيا أو عامدا أعاد ، واحتجوا بأن بيان النبىّ صلى الله عليه

وسلم فى الصلاة فرض، لأن أصل فرضها مجمل يفتقر إلى البيان إلا ما خرج بدليل . وقد قال صلى الله عليه وسلم : "صلوا كما رأيتمونى أصلى" .

القول الثانى : أن الجلوس والتشهد والسلام ليس بواجب، وإنما ذلك كله سنة مسنونة؛ هذا قول بعض البصريين، وإليه ذهب ابراهيم بن عُلَيّة، وصرح بقياس الجلسة الاخيرة على الأولى، فخالف الجمهور وشذ، إلا أنه يرى الإعادة على من ترك شيأ من ذلك كله . ومن حجتهم حديث عبد الله بن عمرو بن العاصى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إذا رفع الإمام رأسه من آخر سجدة فى صلاته ثم أحدث فقد تمت صلاته" وهو حديث لا يصح على ما قاله أبو عمر، وقد بيناه فى كتاب المقتبس (1) . وهذا اللفظ إنما يسقط السلام لا الجلوس .

القول الثالث : إن الجلوس مقدار التشهد فرض، وليس التشهد ولا السـلام بواجب فرضا . قاله أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين، واحتجوا بحديث ابن المبارك عن الإفريقى عبد الرحمن ابن زياد، وهو ضعيف؛ وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إذا جلس أحدكم فى آخر صلاته فأحدث قبل أن يسلم فقد تمت صلاته" قال ابن العربى : وكان شـيخنا فخر الإسلام ينشـدنا فى الدرس :

ويرى الخروج من الصلاة بضرطة * أين الضراط من السلام عليكم

قال ابن العربى : وسلك بعض علمائنا من هذه المسئلة فرعين ضعيفين، أما أحدهما : فروى عبد الملك بن عبد الملك : أن من سلم من ركعتين متلاعبا، فخرج البيان أنه كان على أربع، أن يجزئه؛ وهذا مذهب أهل العراق بعينه . وأما الثانى : فوقع فى الكتب المنبوذة أن الإمام إذا أحدث بعد التشهد متعمدا وقبل السلام أنه يجزئ من خلفه؛ وهذا مما لا ينبغى أن يلتفت إليه فى الفتوى؛ وإن عمرت به المجالس للذكرى .

القول الرابع : أن الجلوس والسلام فرض، وليس التشهد بواجب؛ وممن قال هذا مالك ابن أنس، وأصحابه، وأحمد بن حنبل فى رواية؛ واحتجوا بأن قالوا : ليس شيء من الذكر يجب إلا تكبيرة الإحرام، وقراءة أم القرآن .

(1) فى بعض الأصول : «المقتبين» .

القول الخامس : أن التشهد والجلوس واجبان، وليس السلام بواجب ؛ قاله جماعة منهم إسحاق بن رَاهَوَيْه ، واحتج إسحاق بحديث ابن مسعود حين علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم التشهد وقال له : " إذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك وقضيت ما عليك" قال الدارقطني : قوله : " إذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك" أدرجه بعضهم عن زهير في الحديث ، ووصله بكلام النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وفصله شبابة عن زهير ، وجعله من كلام ابن مسعود ؛ وقوله أشبه بالصواب من قول من أدرجه في حديث النبي صلى الله عليه وسلم . وشبابة ثقة وقد تابعه غسان بن الربيع على ذلك . جعل آخر الحديث من كلام ابن مسعود ، ولم يرفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم .

الثامنة عشرة — واختلف العلمـاء في السـلام ؛ فقيل : واجب ؛ وقيـل : ليس بواجب ؛ والصحيح وجوبه لحديث عائشة وحديث عليّ الصحيح خرجه أبو داود والترمذيّ ورواه سفيان الثوريّ عن عبد الله ابن محمد بن عقيل عن محمد بن الحنفية عن عليّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم" وهذا الحديث أصل في إيجاب التكبير والتسليم ، وأنه لا يجزئ عنهما غيرهما كما لا يجزئ عن الطهارة غيرها باتفاق ، قال عبد الرحمن ابن مهدى : لو افتتح رجل صـلاته بسبعين اسما من أسمـاء الله عز وجل ولم يكبر تكبيرة الإحرام لم يجزه ، وإن أحدث قبل أن يسلم لم يجزه ؛ وهذا تصحيح من عبد الرحمن بن مهدى لحديث عليّ ، وهو إمام في علم الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه . وحسبك به !

وقد اختلف العلمـاء في وجوب التكبير عند الافتتاح وهي : —

التاسعة عشرة — فقال ابن شهاب الزهرى ، وسعيد بن المسيب ، والأوزاعى ، وعبد الرحمن ، وطائفة : تكبيرة الإحرام ليست بواجبـة ، وقد روى عن مالك في المأموم ما يدل على هـذا القول ؛ والصحيح من مذهبه إيجاب تكبيرة الإحرام وأنها فرض وركن من أركان الصـلاة ؛ وهو الصواب وعليه الجمهور ، وكل من خالف ذلك فمحجوج بالسنة :

الموفية عشرين — واختلف العلماء في اللفظ الذى يدخل به في الصلاة ؛ فقال مالك وأصحابه وجمهور العلماء : لا يجزئ إلا التكبير ، لا يجزئ منه تهليل ولا تسبيح ولا تعظيم ولا تحميد ؛ هذا قول الحجازيين وأكثر العراقيين ؛ ولا يجزئ عند مالك إلا : " الله أكبر" لا غير ذلك ؛ وكذلك قال الشافعي

وزاد : ويجزئ " الله الأكبر" و"الله الكبير" . والحجة لمالك حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بـ﴿ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ . وحديث علي : وتحريمها التكبير، وحديث الأعرابي : فكبر، وفي سنن ابن ماجه حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وعلي بن محمد الطنافسي قالا : حدثنا أبو أسامة قال : حدثني عبد الحميد بن جعفر قال : حدثنا محمد بن عمرو ابن عطاء قال : سمعت أبا حميد الساعدي يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام الى الصلاة استقبل القبلة ورفع يديه، وقال : "الله أكبر" وهذا نص صريح، وحديث صحيح، في تعيين لفظ التكبير، قال الشاعر :

رأيت الله أكبر كل شيء * محاولة وأعظمه جنودا

ثم أنه يتضمن القدم، وليس يتضمنه كبير ولا عظيم، فكان أبلغ في المعنى والله أعلم .

وقال أبو حنيفة : إن افتتح بلا إله إلا الله يجزيه، وإن قال : اللهم اغفر لي لم يجزه، وبه قال محمد بن الحسن . وقال أبو يوسف : لا يجزئه إذا كان يحسن التكبير . وكان الحكم بن عتيبة يقول : إذا ذكر الله مكان التكبير أجزأه . قال ابن المنذر : ولا أعلمهم يختلفون أن من أحسن القراءة فهلل وكبر ولم يقرأ أن صلاته فاسدة، فمن كان هذا مذهبه فاللازم له أن يقول لا يجزيه مكان التكبير غيره، كما لا يجزئ مكان القراءة غيرها ؛ وقال أبو حنيفة : يجزئه التكبير بالفارسية وإن كان يحسن العربية . قال ابن المنذر : لا يجزيه لأنه خلاف ما عليه جماعات المسلمين، وخلاف ما علم النبي صلى الله عليه وسلم أمته، ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال والله أعلم .

الحادية والعشرون — واتفقت الأمة على وجوب النية عند تكبيرة الإحرام إلا شيأ روى عن بعض أصحابنا يأتي الكلام عليه في آية الطهارة، وحقيقتها قصد التقرب الى الآمر بفعل ما أمر به على الوجه المطلوب منه . قال ابن العربي : والأصل في كل نية أن يكون عقدها مع التلبس بالفعل المنوي بها، أو قبل ذلك بشرط استصحابها، فان تقدمت النية وطرأت غفلة فوقع التلبس بالعبادة في تلك الحالة لم يعتد بها، كما لا يعتد بالنية إذا وقعت بعد التلبس بالفعل ؛ وقد رخص في تقديمها في الصوم لعظم الحرج في اقترانها به . قال ابن العربي : وقال لنا أبو الحسن القروي بثغر عسقلان : سمعت إمام الحرمين يقول : يحضر الإنسان عند التلبس بالصلاة النية، ويجرد النظر

فى الصانع وحدوث العــالم والنبوات حتى ينتهى نظره الى نيــة الصلاة ؛ قال : ولا يحتاج ذلك الى زمان طويل، وإنما يكون ذلك فى أوحى لحظة، لأن تعليم الجمل يفتقر الى الزمان الطويل، وتذكارها يكون فى لحظة ؛ ومن تمام النية أن تكون مستصحبة على الصلاة كلها ، إلا أن ذلك لمــا كان أمرا يتعذر سمح الشرع فى عزوب النية فى أثنائها ؛ سمعت شيخنا أبا بكر الفهرى بالمسجد الأقصى يقول : قال محمد بن سحنون : رأيت أبا سحنون ربما يكمل الصلاة فيعيدها ، فقلت له ما هذا؟ فقال : عزبت نيتى فى أثنائها فلأجل ذلك أعدتها .

قلت : فهذه جملة من أحكام الصلاة، وسائر أحكامها يأتى بيانها فى مواضعها من هذا الكتاب بحول الله تعالى؛ فيأتى ذكر الركوع ، وصلاة الجماعة، والقبلة ، والمبادرة الى الأوقات، وبعض صلاة الخوف ، فى هــذه السورة ، ويأتى ذكر قصر الصلاة ، وصلاة الخوف ، فى "النساء"، والأوقات ، فى "هود وسبحان والروم"، وصــلاة الليل ، فى "المزمل"، وسجود التــلاوة ، فى "الأعراف" ، وسجود الشكر ، فى "ص"، كلٌّ فى موضعه إن شاء الله تعالى .

الثانية والعشرون — قوله تعالى : ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ رزقناهم : أعطيناهم ، والرزق عند أهل السنة ما صح الانتفاع به ، حلالا كان أو حراما ؛ خلافا للمعتزلة فى قولهم : إن الحرام ليس برزق لأنه لا يصح تملكه ، وإن الله لا يرزق الحرام ، وإنما يرزق الحلال ، والرزق لا يكون إلا بمعنى الملك .

قالوا : فلو نشأ صبى مع اللصوص ولم يأكل شــيأ إلا ما أطعمــه اللصوص الى أن بلغ وقوى وصار لصا ، ثم لم يزل يتلصص ويأكل ما تلصصه الى أن مات ، فإن الله لم يرزقه شيئا ، إذ لم يملكه ، وإنه يموت ولم يأكل من رزق الله شيئا .

وهذا فاسد ، والدليل عليه أن الرزق لو كان بمعنى التمليك لوجب ألا يكون الطفل مرزوقا ، ولا البهائم التى ترتع فى الصحراء ، ولا السخال من البهائم ، لأن لبن أمهاتها ملك لصاحبها دون السخال .

ولمّا اجتمعت الأمة على أن الطفل والسخال والبهائم مرزوقون ، وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين علم أن الرزق هو الغذاء لأن الأمة مجمعة على أن العبيد والإماء مرزوقون ، وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين؛ فعلم أن الرزق ما قلناه ، لا ما قالوه ، والذى يدل على أنه لا رازق سواه قــوله الحق : ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ

﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ وقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ وهذا قاطع، فالله تعالى رازق حقيقة، وابن آدم رازق تجوزا، لأنه يملك ملكا منتزعا، كما بيناه فى الفاتحة، مرزوق حقيقة، كالبهائم التى لا ملك لها، إلا أن الشىء إذا كان مأذونا له فى تناوله فهو حلال حكما، وما كان منه غير مأذون له فى تناوله فهو حرام حكما، وجميع ذلك رزق .

وقد خرّج بعض النبلاء من قوله تعالى : ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ فقال : ذكر المغفرة يشير إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ الرزق مصدر رزق يرزق رَزقا، فالرزق بالفتح المصدر، وبالكسر الاسم، وجمعه أرزاق؛ والرزق : العطاء . والرازقية : ثياب كتان [بيض][1]. وارتزق الجند: أخذوا أرزاقهم . والرَّزقة: المرة الواحدة؛ هكذا قال أهل اللغة. وقال ابن السكيت: الرزق بلغة أزد شنوءة: الشكر؛ وهو قوله عز وجل: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أى شكركم التكذيب . ويقول : رزقنى أى شكرنى .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿يُنْفِقُونَ﴾ ينفقون : يُخرجون؛ والإنفاق : إخراج المال من اليد؛ ومنه نفق البيع: أى خرج من يد البائع إلى المشترى . ونفقت الدابة: خرجت روحها؛ ومنه النافقاء لجحر اليربوع الذى يخرج منه إذا أُخذ من جهة أخرى . ومنه المنافق لأنه يخرج من الإيمان أو يخرج الإيمان من قلبه ؛ ونيفق السراويل معروفة وهو مخرج الرجل منها . ونفق الزاد : فنى وأنفقه صاحبه . وأنفق القوم : فنى زادهم؛ ومنه قوله تعالى : ﴿إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ .

الخامسة والعشرون — واختلف العلماء فى المراد بالنفقة ههنا؛ فقيل : الزكاة المفروضة — روى عن ابن عباس — لمقارنتها الصلاة . وقيل: نفقة الرجل على أهله — روى عن ابن مسعود — لأن ذلك أفضل النفقة؛ روى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "دينار أنفقته فى سبيل الله، ودينار أنفقته فى رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك" وروى عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) الزيادة عن اللسان مادة (رزق) .

" أفضــل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقــه على عياله ، ودينار ينفقه الرجل على دابتــه فى سبيل الله عز وجل ، ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله " قال أبو قلابة : وبدأ بالعيال [ثم] قال أبو قلابة : وأى رجل أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار يعفهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم . وقيل : المراد صدقة التطوع — روى عن الضحاك — نظرا إلى أن الزكاة لا تأتى الا بلفظها المختص بهــا ، وهو الزكاة ، فإذا جاءت بلفظ غير الزكاة احتملت الفرض والتطوع ، فإذا جاءت بلفــظ الإنفاق لم تكن إلا التطوع . قال الضحاك : كانت النفقة قربانا يتقربون بهــا الى الله جل وعز على قدر جهدهم حتى نزلت فرائض الصدقات والناسخات[1] فى «براءة» . وقيل : إنه الحقوق الواجبة العارضة فى الأموال ما عدا الزكاة ، لأن الله تعالى لمــا قرنه بالصلاة كان فرضا ، ولمــا عدل عن لفظها كان فرضا سواها . وقيل : هو عام ، وهو الصحيح ، لأنه خرج مخرج المدح فى الإنفاق مما رزقوا ، وذلك لايكون إلا من الحلال : أى يؤتون ما ألزمهم الشرع من زكاة وغيرها مما يعنّ فى بعض الاحوال مع ما ندبهم إليه . وقيل : الإيمان بالغيب : حظ القلب ، وإقام الصلاة : حظ البدن ، ومما رزقناهم ينفقون : حظ المــال ، وهذا ظاهر . وقال بعض المتقدمين فى تأويل قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ أى مما علمناهم يعلمون ، حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيرى .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية ، قيل : المراد مؤمنو أهل الكتاب ، كعبد الله ابن سلام وفيه نزلت ، ونزلت الأولى فى مؤمنى العرب ، وقيل : الآيتان جميعا فى المؤمنين ، وعليه فإعراب الذين خفض على العطف ، ويصــح أن يكون رفعا على الاستئناف أى وهم الذين ؛ ومن جعلها فى صنفين فإعراب الذين رفع بالابتداء وخبره أولئك على هدى ؛ ويحتمل الخفض عطفا .

قوله تعالى : ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعنى القرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعنى الكتب السالفة ، بخلاف ما فعله اليهود والنصارى حسب ما أخبر الله عنهم فى قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴾ الآية . وقال : لمــا نزلت هذه الآية : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ ، قالت اليهود والنصارى : نحن آمنا بالغيب ؛ فلما قال : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ ، قالوا : نحن نقيم الصلاة ،

(١) مثل قوله تعالى : خذ من أموالهم صدقة الآية فقد قال ابن العربى أنها ناسخة لآية (والذين يكنزون الذهب والفضة الآية أنظر صفحة ٣٨١ من الجزء الأول من تفسيره المطبوع بمصر سنة ١٣٣١ ﻫ وكذلك روى الجصاص نسخها بها عن عمر بن عبد العزيز .

فلما قال : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ قالوا : نحن ننفق ونتصدق، فلما قال: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ . نفروا من ذلك . وفي حديث أبي ذر قال : قلت يارسول الله كم كتابا أنزل الله ؟ قال : "مائة كتاب وأربعة كتب أنزل الله على شيث خمسين صحيفة، وعلى أخنوخ (١) ثلاثين صحيفة، وعلى ابراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان" الحديث . أخرجه الحسين الآجري، وأبوحاتم البستي .

وهنا مسئلة، إن قال قائل : كيف يمكن الإيمان بجميعها مع تنافي أحكامها ؟ قيل له فيه جوابان أحدهما : أن الإيمان بأن جميعها نزل من عند الله، وهو قول من أسقط التعبد بما تقدم من الشرائع . الثاني : أن الإيمان بمالم ينسخ منها ، وهذا قول من أوجب التزام الشرائع المتقدمة على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى: ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ . أي وبالبعث والنشر هم عالمون . واليقين : العلم دون الشك، يقال منه : يقنت الأمر بالكسر يقنا، وأيقنت واستيقنت وتيقنت كله بمعنى ، وأنا على يقين منه . وانما صارت الياء واوا في قولك : موقن ، للضمة قبلها واذا صغرته رددته الى الأصل، فقلت ميقن . والتصغير يرد الأشياء الى أصولها وكذلك الجمع، وربما عبروا باليقين عن الظن، ومنه قول علمائنا في اليمين اللغو : هو أن يحلف بالله على أمر يوقنه، ثم يتبين له أنه خلاف ذلك، فلا شيء عليه ؛ قال الشاعر :

تَحَسَّبَ هَوَّاسٌ وَأَيْقَنَ أَنَّنِي * بِهَا مُفْتَدٍ مِنْ وَاحِدٍ لا أُغَامِرُهْ

يقول : تشمم الأسد ناقتي، يظن أنني مفتد بها منه ، واستحمي نفسي فأتركها له ولا أقتحم المهالك بمقاتلته . فأما الظن بمعنى اليقين فورد في التنزيل وهو في الشعر كثير وسيأتي . والآخرة مشتقة من التأخر لتأخرها عنا وتأخرنا عنها، كما أن الدنيا مشتقة من الدنو على ما يأتي .

قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قال النحاس أهل نجد يقولون : أولاك ، وبعضهم يقول : ألاك، والكاف للخطاب . قال الكسائي : من قال أولئك فواحده ذلك، ومن قال ألاك فواحده ذاك، وألالك مثل أولئك؛ وأنشد ابن السكيت :

(١) أخنوخ هو ادريس عليه السلام .

الالك قومى لم يكونوا أشابة * وهل يعظ الضليل الا الالكا

وربما قالوا : أولئك فى غير العقلاء، قال الشاعر :

ذمّ المنازل بعد منزلة اللوى * والعيش بعــد أولئك الأيام

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ وقال علماؤنا إن فى قوله تعالى : ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ ، ردّا على القدرية فى قولهم : يخلقون إيمانهم وهداهم ، تعالى الله عن قولهم ؛ ولو كان كما قالوا لقال : «من أنفسهم» ؛ وقد تقدم الكلام فيه وفى الهدى فلا معنى لإعادة ذلك .

﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ، هم ، يجوز أن يكون مبتدأ ثانيا وخبره المفلحون ، والثانى وخبره خبر الأوّل ؛ ويجوز أن تكون هم زائدة — يسميها البصريون فاصلة والكوفيون عمادا — والمفلحون خبر أولئك .

والفلح أصله فى اللغة الشق والقطع ، قال الشاعر :

* إن الحـــديد بالحـــديد يفلح *

أى يشق ، ومنه فلاحة الأرضين إنما هو شقها للحرث ، قاله أبو عبيد ، ولذلك سمى الأكّار فلاحا ، ويقال للذى شقت شفته السفلى أفلح ، وهو بين الفلحة ، فكأن المفلح قــد قطع المصاعب حتى نال مطلوبه . وقــد يستعمل فى الفوز والبقاء ، وهو أصله أيضا فى اللغة ، ومنه قول الرجل لامرأته : استفلحى بأمرك ، معناه فوزى بأمرك ، وقال الشاعر :

لو كان حىّ مدرك الفلاح * أدركه ملاعب الرماح

وقال الأضبط بن قريع السعدىّ فى الجاهلية الجهلاء :

لكل هم من الهموم سعه * والمُسْىُ والصبح لا فلاح معه

يقول : ليس مع كرّ الليل والنهار بقاء ، وقال آخر :

نحــل بلادا كلها حلّ قبلنـا * ونرجوا الفلاح بعد عاد وحمير

أى البقاء ؛ وقال عبيد :

أفلح بمـا شئت فقد يدرك بالضعـ * ـف وقــد يُخَــدَّع الأريب

أى أبق بما شئت من كيس وحق فقد يرزق الأحمق ويحرم العاقل . لمعنى وأولئك هم المفلحون : أى الفائزون بالجنة والباقون فيها . وقال ابن أبى إسحاق : المفلحون هم الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا ؛ والمعنى واحد . وقد استعمل الفلاح فى السحور ؛ ومنه الحديث : حتى كاد يفوتنا الفلاح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : وما الفلاح؟ قال : السحور، أخرجه أبو داود؛ فكأن معنى الحديث أن السحور به بقاء الصوم فلهذا سماه فلاحا . والفلاح بتشديد اللام : المكارى فى قول القائل[1] .

لها رطل تكيل الزيت فيه * وفلاح يسوق لها حمارا

ثم الفلاح فى العرف : الظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب .

مسئلة — إن قال قائل كيف قرأ حمزة : عليهُم وإليهُم ولديهُم ؛ ولم يقرأ من ربهم ولا فيهم ولا جنتيهم ؟ فالجواب أن عليهم وإليهم ولديهم الياء فيه منقلبة من ألف، والأصل علاهم ولداهم وإلاهم فأقرت الهاء على ضمتها؛ وليس ذلك فى فيهم ولا من ربهم ولا جنتيهم ووافقه الكسائى فى عليهم الذلة وإليهم اثنين على ما هو معروف من القراءة عنهما .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية؛ لما ذكر المؤمنين وأحوالهم، ذكر الكافرين ومآلهم؛ والكفر ضد الإيمان وهو المراد فى الآية ؛ وقد يكون بمعنى جحود النعمة والإحسان ، ومنه قوله عليه السلام فى النساء فى حديث الكسوف : "ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء قيل بم يا رسول الله ؟ قال : "يكفرهن"؛ قيل أيكفرن بالله ؟ قال : "يكفرن العشير ويكفرن الإحسان لو أحسنت الى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئا قالت : ما رأيت منك خيرا قط" أخرجه البخارى وغيره .

وأصل الكفر فى كلام العرب : الستر والتغطية؛ ومنه قول الشاعر :

* فى ليلة كفر النجوم غمامها *

أى سترها، ومنه سمى الليل كافرا لأنه يغطى كل شىء بسواده؛ قال الشاعر[2] :

فَتَذَكَّرَا ثَقَلًا رَثِيدًا بَعْدَمَا * أَلْقَتْ ذُكَاءُ يَمِينَهَا فِى كَافِرِ

(١) هو عمرو بن أحمر الباهلى ؛ كما فى اللسان مادة (فلح) .

(٢) هو ثعلبة بن صعير المازنى ؛ يصف الظليم والنعامة ورواحهما الى بيضهما عند غروب الشمس . اللسان مادة (كفر) .

ذكاء بضم الذال والمد اسم للشمس، ومنه قول الآخر :

فوردت قبل انبلاج الفجر * وابن ذكاء كامن فى كفر

أى فى ليل . والكافر أيضا ، البحر، والنهر المعظم ، والكافر : الزارع والجمع كفار ، قال الله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾، يعنى الزراع لأنهم يغطون الحب، ورماد مكفور : سفت الريح عليه التراب . والكافر من الأرض : ما بعد عن الناس لا يكاد ينزله ولا يمر به أحد ؛ ومن حل بتلك المواضع فهم أهل الكفور، ويقال الكفور : القرى .

قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ﴾ معناه معتدل عندهم الإنذار وتركه ؛ أى سواء عليهم هذا؛ وجيء بالاستفهام من أجل التسوية، ومثله قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ . وقال الشاعر :

وليـــل يقول الناس من ظلماته * سواء صحيحات العيون وعورها

قوله تعالى : ﴿ أَأَنْذَرْتَهُمْ ﴾ الإنذار : الإبلاغ والإعلام، ولا يكاد يكون إلا فى تخويف يسع زمانه الاحتراز، فإن لم يتسع زمانه للاحتراز كان إشعارا ولم يكن إنذارا، قال الشاعر :

أنذرت عمرا وهو فى مهــل * قبل الصباح فقد عصى عمرو

وتناذر بنو فلان هذا الأمر إذا خوفه بعضهم بعضا .

واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ، فقيل : هى عامة ومعناها الخصوص فيمن حقت عليه كلمة العذاب، وسبق فى علم الله أنه يموت على كفره ؛ أراد الله تعالى أن يعلم أن فى الناس من هذه حاله ، دون أن يعين أحدا . وقال ابن عباس والكلبى : نزلت فى رؤساء اليهود، منهم حُيَىّ ابن أخطب ، وكعب بن الأشرف ونظراؤهما . وقال الربيع بن أنس : نزلت فيمن قتـــل يوم بدر من قادة الأحزاب، والأول أصح ، فإن من عين أحدا فإنمــا مثل بمن كشف الغيب عنــه بموته على الكفر، وذلك داخل فى ضمن الآية .

قوله تعالى : ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ، موضعه رفع خبر إن، أى إن الذين كفروا لا يؤمنون، وقيل خبر إن سواء، وما بعده يقوم مقام الصلة؛ قاله ابن كيسان . وقال محمد بن يزيد : سواء رفع بالابتداء،

«أنذرتهم أم لم تنذرهم الخبر، والجملة خبر إنّ . قال النحاس : أى أنهم يتألمون فلم تغن فيهم النذارة شيئا . واختلف القراء فى قراءة «أنذرتهم» فقرأ أهل المدينة ، وأبو عمرو، والأعمش، وعبد الله بن أبى إسحاق : آنذرتهم بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية ، واختارها الخليل وسيبويه ، وهى لغة قريش وسعد بن بكر، وعليها قول الشاعر (١) :

أيا ظبية الوعساء بين جُلَاجِل * وبين النقا آنت أم أُمُّ سالم

هجاءأت ألف واحدة، وقال الآخر :

تطالت فاستشرفته فعرفته * فقلت له آنت زيد الأرانب

وروى عن ابن محيصن أنه قرأ : ﴿أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ بهمزة لا ألف بعدها ، فحذف لالتقاء الهمزتين أو لأن أم تدل على الاستفهام كما قال الشاعر :

تروح من الحىّ أم تبتكر * وماذا يضيرك لو تنتظر

أراد : أتروح فاكتفى بأم من الألف . وروى عن ابن أبى إسحاق أنه قرأ : «اءنذرتهم» فحقق الهمزتين وأدخل بينهما ألفا لئلا يجمع بينهما . قال أبو حاتم : ويجوز أن تدخل بينهما ألفا وتخفف الثانية؛ وأبو عمرو، ونافع، يفعلان ذلك كثيرا، وقرأ حمزة ، وعاصم ، والكسائى بتحقيق الهمزتين : أأنذرتهم وهو اختيار أبى عبيد، وذلك بعيد عند الخليل، وقال سيبويه : يشبه فى الثقل ضننوا ؛ قال الأخفش : ويجوز تخفيف الأولى من الهمزتين وذلك ردىء لأنهم إنما يخففون بعد الاستثقال، وبعد حصول الواحدة . قال أبو حاتم : ويجوز تخفيف الهمزتين جميعا؛ فهذه سبعة أوجه من القراءات ووجه ثامن يجوز فى غير القرآن، لأنه مخالف للسواد ؛ قال الأخفش سعيد : تبدل من الهمزة هاء تقول : ها أنذرتهم ، كما يقال هياك وإياك ؛ وقال الأخفش فى قول الله تعالى : ﴿ هَا أَنْتُمْ ﴾ إنما هو أأنتم .

قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ الآية فيها عشر مسائل .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ ﴾ بين سبحانه فى هذه الآية المانع لهم من الإيمان بقوله : ختم الله ، والختم مصدر ختمت الشىء ختما فهو مختوم ومختّم شدّد للمبالغة ، ومعناه التغطية على الشىء

(١) هو ذو الرمة كما فى معجم البلدان لياقوت .

والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء ، ومنه : ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك ، حتى لا يوصل إلى ما فيه ، ولا يوضع فيه غير ما فيه .

وقال أهل المعاني : وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف : بالختم ، والطبع ، والضيق ، والمرض ، والرين ، والموت ، والقساوة ، والانصراف ، والحمية ، والإنكار ؛ فقال في الإنكار : ﴿ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ . وقال في الحمية : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ ﴾ . وقال في الانصراف : ﴿ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ . وقال في القساوة : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ . وقال : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ . وقال في الموت : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ . وقال : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾ . وقال في الرين : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ . وقال في المرض : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ . وقال في الضيق : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ . وقال في الطبع : ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ . وقال : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ . وقال في الختم : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ . وسيأتي بيانها كلها في مواضعها إن شاء الله تعالى .

الثانية — الختم يكون محسوسا كما بينا ، ومعنى كما في هذه الآية ؛ فالختم على القلوب : عدم الوعي عن الحق سبحانه مفهوم مخاطباته والفكر في آياته ؛ وعلى السمع : عدم فهمهم للقرآن إذا تلى عليهم أودعوا إلى وحدانيته ؛ وعلى الأبصار : عدم هدايتها للنظر في مخلوقاته ، وعجائب مصنوعاته ؛ هذا معنى قول ابن عباس ، وابن مسعود ، وقتادة ، وغيرهم .

الثالثة — في هذه الآية أدل دليل وأوضح سبيل ، على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال ، والكفر والإيمان ؛ فاعتبروا أيها السامعون ، وتعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلق إيمانهم وهداهم ؛ فإن الختم هو الطبع فمن أين لهم الإيمان ولو جهدوا ؛ وقد طبع على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة ، فمتى يهتدون ؟ أو من يهديهم من بعد الله إذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ . وكان فعل الله ذلك عدلا فيمن أضله وخذله ، إذ لم يمنعه حقا وجب له فتزول صفة العدل ، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم ، لا ما وجب لهم .

فإن قالوا ، إن معنى الختم والطبع والغشاوة : التسمية والحكم والإخبار بأنهم لا يؤمنون ، لا الفعل .

قلنا : هذا فاسد، لأن حقيقة الختم والطبع إنما هو فعل ما يصير به القلب مطبوعا مختوما ؛ ولا يجوز أن تكون حقيقته التسمية والحكم ؛ ألا ترى أنه إذا قيل فلان طبع الكتاب وختمه ، كان حقيقته أنه فعل ما صار به الكتاب مطبوعا ومختوما ، لا التسمية والحكم ؛ هذا ما لا خلاف فيه بين أهل اللغة ؛ ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين ، مجازاة لكفرهم ؛ كما قال تعالى : ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ وأجمعت الأمة على أن الطبع والختم على قلوبهم من جهة النبي عليه السلام ، والملائكة ، والمؤمنين ، ممتنع ، فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لما امتنع من ذلك الأنبياء والمؤمنون، لأنهم كلهم يسمون الكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم ، وأنهم مختوم عليها ، وأنهم في ضلال لا يؤمنون ، ويحكمون عليهم بذلك ؛ فثبت أن الختم والطبع هو معنى غير التسمية والحكم ؛ وإنما هو معنى يخلقه الله في القلب يمنع من الإيمان به ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ . أي لئلا يفقهوه ، وما كان مثله .

الرابعة — قوله : ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ ، فيه دليل على فضل القلب على جميع الجوارح ؛ والقلب للإنسان وغيره . وخالص كل شيء وأشرفه قلبه ؛ فالقلب موضع الفكر ؛ وهو في الأصل مصدر قلبت الشيء أقلبه قلبا ، إذا رددته على بداءته ؛ وقلبت الإناء : رددته على وجهه ؛ ثم نقل هذا اللفظ فسمي به هذا العضو ، الذي هو أشرف الحيوان ، لسرعة الخواطر إليه ، ولترددها عليه ؛ كما قيل :

ما سمي القلب إلا من تقلبه ... فاحذر على القلب من قلب وتحويل

ثم لما نقلت العرب هذا المصدر لهذا العضو الشريف ، التزمت فيه تفخيم قافه ، تفريقا بينه وبين أصله ؛ روى ابن ماجه عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مثل القلب ريشة تقلبها الرياح بفلاة" ولهذا المعنى كان عليه الصلاة والسلام يقول : "اللهم يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك" فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول مع عظيم قدره ، وجلال منصبه ، فنحن أولى بذلك ، اقتداء به ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ . وسيأتي .

الخامسة — الجوارح وإن كانت تابعة للقلب فقد يتأثر القلب — وإن كان رئيسها وملكها — بأعمالها للارتباط الذى بين الظاهر والباطن ، قال صلى الله عليه وسلم : "إن الرجل ليصدق فتنكت فى قلبه نكتة بيضاء وإن الرجل ليكذب الكذبة فيسود قلبه" وروى الترمذى وصححه عن أبى هريرة : " أن الرجل ليصيب الذنب فيسود قلبه فان هو تاب صقل قلبه " قال : وهو الرين الذى ذكره الله فى القرآن فى قوله : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ . وقال مجاهد : القلب كالكف يقبض منه بكل ذنب إصبع ، ثم يطبع .

قلت : وفى قول مجاهد هـذا ، وقوله عليـه السلام : "إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسـدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب" دليل على أن الختم يكون حقيقيا والله أعلم . وقد قيل : إن القلب يشبه الصنوبرة ؛ وهو يعضـد قول مجاهد . والله أعلم .

وقد روى مسلم عن حذيفة قال حدثنا رسول الله صلى الله عليـه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ؛ حدثنا : "أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة" ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال : "ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثـل الوكت ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثـل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط ، فتراه منتبرا وليس فيه شىء ، ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال إن فى بنى فلان رجلا أمينا حتى يقال للرجل ما أجلده ما أظرفه ما أعقله وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمـان ولقد أتى على زمان وما أبالى أيكم بايعت لئن كان مسلما ليردنه على دينه ولئن كان نصرانيا أو يهوديا ليردنه على ساعيه وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلانا وفلانا " .

ففى قوله : الوكت وهو الأثر اليسير ؛ ويقال للبسر إذا وقعت فيه نكتة من الأرطاب قد وكت ، فهـو موكت . وقوله : المجل ، وهو أن يكون بين الجلد واللحم ماء ؛ وقد فسره النبى صـلى الله عليه وسلم بقوله : " كجمر دحرجته " أى دورته على رجلك فنفط ، فتراه منتبرا أى مرتفعا ؛ مايدل على أن ذلك كله محسوس فى القلب يفعل فيه ؛ وكذلك الختم والطبع والله أعلم . وفى حديث حذيفة قال سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقول : "تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا

فأىّ قلب أُشربهـا نكت نكتة سوداء وأىّ قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنـة ما دامت السموات والأرض والآخر أسـود مرباد كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا إلا ما أُشرب من هواه" وذكر الحديث . مجخيا : يعنى مائلا .

السادسة — القلب قد يعبر عنه بالفؤاد والصدر، قال الله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾. وقال : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يعنى فى الموضعين قلبك ، وقد يعبر به عن العقل قال الله تعـالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أى عقل ؛ لأن القلب محل العقل فى قول الأكثرين ، والفؤاد محل القلب، والصدر محل الفؤاد . والله أعلم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ استدل بها من فَضّل السمع على البصر لتقدمه عليه ، وقال تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ . وقال : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ . قال : والسمع يدرك به الجهات الست، وفى النور والظلمة، ولا يدرك بالبصر إلا من الجهة المقابلة ، وبواسطـة من ضياء وشعاع . وقال أكثر المتكلمين بتفضيل البصر على السمع لأن السمع لا يدرك به إلا الأصوات والكلام، والبصر يدرك به الأجسام والألوان والهيئات كلهـا . قالوا : فلما كانت تعلقاته أكثر كان أفضل، وأجازوا الإدراك بالبصر من الجهات الست .

الثامنة — إن قال قائل : لم جمع الأبصار ووحد السمع؟ قيل له : إنما وحده لأنه مصدر يقع للقليل والكثير، يقال : سمعت الشيء أسمعه سمعا وسماعا ، فالسمع مصـدر سمعت ، والسمع أيضا اسم للجارحة المسموع بها سميت بالمصدر . وقيل : إنه لمـا أضاف السمع إلى الجمـاعة دل على أنه يراد به أسماع الجماعة، كما قال الشاعر :

بها جيف الحسرى فأما عظامها * فبيـض وأما جلدها فصليب

إنما يريد جلودها ، فوحد لأنه قد علم أنه لا يكون للجماعة جلد واحد .

وقال آخر فى مثله :

لا تنكر القتل وقـد سبينا * فى حلقكم عظم وقد شجينا

يريد فى حلوقكم؛ ومثله قول الآخر :

كأنه وجه تركيين قـد غضبا * مستهدف لطعان غير تذبيب

وإنما يريد وجهين، فقال وجه تركيين لأنه قد علم أنه لا يكون للاثنين وجه واحد ؛ ومثله كثير جدا . وقرئ : وعلى أسمـاعهم؛ ويحتمل أن يكون المعنى وعلى مواضع سمعهم؛ لأن السمع لا يختم وإنما يختم موضع السمع ،فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وقد يكون السمع بمعنى الاستماع ؛ يقال : سمعك حديثى – أى استماعك إلى حديثى – يعجبنى ، ومنـه قول ذى الرمة ، يصف ثورا تسمّع الى صوت صائد وكلاب :

وقد توجس ركزا مصفر ندس * بنبأة الصوت ما فى سمعه كذب

أى ما فى استماعه كذب ، أى هو صادق الاستماع ، والنـدس : الحاذق . والنبأة : الصوت الخفى ، وكذلك الركز . والسمع بكسر السين وإسكان الميم : ذِكْر الإنسان بالجميل ، يقال : ذهب سمعه فى الناس أى ذكره . والسِّمْع أيضا : ولد الذئب من الضبع . والوقف هنا : وعلى سمعهم . وغشاوة رفع على الابتداء وما قبله خبره . والضمائر فى قلوبهم وما عطف عليه لمن سبق فى علم الله أنه لا يؤمن من كفار قريش، وقيل من المنافقين، وقيل من اليهود ، وقيل من الجميع، وهو أصوب، لأنه يعم . فالختم على القلوب والأسماع . والغشاوة على الأبصار . والغشاء : الغطاء . وهى :

التاسعة — ومنه غاشية السرج؛ وغشيت الشىء أغشيه قال النابغة :

هـلّا سألت بنى ذبيان ما حسبى * إذا الدخان تغشى الأشمط البرما

وقال آخر[1] :

صحبتك إذ عينـى عليها غشـاوة * فلما انجلت قطعت نفسى ألومها

قال ابن كيسان : فإن جمعت غشاوة قلت : غشاء بحذف الهـاء . وحكى الفراء : غشاوى مثـل أداوى وقرئ : غشاوة بالنصب على معنى وجعل ، فيكون من باب قوله : علفتها تبنـا وماء باردا، وقول الآخر :

ياليت زوجك فى الوغا * متقـلدا سيفا ورمحـا

(١) هو الحارث بن خالد المخزومى ، كما فى اللسان مادة (عشا) .

المعنى وأسقيتها ماء ، وحاملا رمحا ؛ لأن الرمح لا يتقلد . قال الفارسي : ولا تكاد تجد هذا الاستعمال في حال سعة واختيار؛ فقراءة الرفع أحسن ، وتكون الواو عاطفة جملة على جملة . قال : ولم أسمع من الغشاوة فعلا متصرفا بالواو . وقال بعض المفسرين : الغشاوة على الأسماع والأبصار ؛ والوقف على قلوبهم . وقال آخرون : الختم في الجميع ، والغشاوة هي الختم فالوقف على هذا على غشاوة؛ وقرأ الحسن غشاوة بضم الغين، وقرأ أبو حيوة : بفتحها؛ وروى عن أبي عمرو : غشوة رده إلى أصل المصدر؛ قال ابن كيسان : ويجوز غَشوة وغُشوة وأجودها غشاوة ؛ كذلك تستعمل العرب في كل ما كان مشتملا على الشيء ، نحو عمامة وكنانة وقلادة وعصابة وغير ذلك .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ ﴾ أي للكافرين المكذبين ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ نعته ؛ والعذاب مثل الضرب بالسوط والحرق بالنار والقطع بالحديد؛ إلى غير ذلك مما يؤلم الإنسان . وفي التنزيل : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهو مشتق من الحبس والمنع؛ يقال في اللغة : اعذبه عن كذا أي احبسه وامنعه ، ومنه سمي عذوبة الماء لأنها قد أعذبت ، واستعذب بالحبس في الوعاء ليصفو ويفارقه ما خالطه ، ومنه قول علي رضي الله عنه : أعذبوا نساءكم عن الخروج ، أي احبسوهن . وعنه رضي الله عنه وقد شيع سرية فقال : أعذبوا عن ذكر النساء فإن ذلك يكسركم عن الغزو؛ وكل من منعته شيئا فقد أعذبته؛ وفي المثل : « لألجمنك لجاما معذبا » أي مانعا عن ركوب الناس ؛ ويقال : أعذب أي امتنع . وأعذب غيره فهو لازم ومتعد ؛ فسمي العذاب عذابا لأن صاحبه يحبس ويمنع عنه جميع ما يلائم الجسد من الخير ويهال عليه أضدادها .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا ﴾ . فيه سبع مسائل :

الأولى — روى ابن جريج عن مجاهد قال : نزلت أربع آيات من سورة البقرة في المؤمنين ، واثنتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة في المنافقين . وروى أسباط عن السدي في قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ قال : هم المنافقون . وقال علماء الصوفية : الناس اسم جنس، واسم الجنس لا يخاطب به الأولياء .

الثانية — واختلف النحاة في لفظ الناس ، فقيل : هو اسم من أسماء الجموع جمع إنسان وإنسانة، على غير اللفظ، وتصغيره نويس ، فالناس من النوس وهو الحركة يقال : ناس ينوس أي

تحرك ، ومنه حديث أم زرع : « أناس من حلى أذنى » ، وقيل : أصله من نسى فأصل ناس نسى قلب فصار نيس تحركت الياء فانفتح ما قبلها فانقلبت ألفا ، ثم دخلت الألف واللام فقيل : الناس . قال ابن عباس : نسى آدم عهد الله فسمى إنسانا . وقال عليه السلام : " نسى آدم فنسيت ذريته " وفى التنزيل : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾ . وسيأتى ، وعلى هذا فالهمزة زائدة ، قال الشاعر :

لا تنسين تلك العهود وإنما * سميت إنسانا لأنك ناسى

وقال آخـــر :

فإن نسيت عهودا منك سالفة * فاغفر فأول ناس أول الناس

وقيل : سمى إنسانا لأنسه بحواء . وقيل : لأنسه بربه ، فالهمزة أصلية ، قال الشاعر :

وما سمى الانسان إلا لأنسه * ولا القلب إلا أنه يتقلب

الثالثة — لما ذكر الله جل وتعالى المؤمنين أولا ، وبدأ بهم لشرفهم وفضلهم ، ذكر الكافرين فى مقابلتهم ، إذ الكفر والإيمان طرفان ، ثم ذكر المنافقين بعدهم وألحقهم بالكافرين قبلهم ، لنفى الايمان عنهـم بقوله الحق : ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ . ففى هذا رد على الكرّامية حيث قالوا : إن الايمان قول باللسان وإن لم يعتقد بالقلب ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا ﴾ . ولم يقل : بما قالوا وأضمروا ، وبقوله عليـه السلام : " أمرت أن أقاتل النـاس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم " وهذا منهم قصور وجمود ، وترك نظر لما نطق به القرآن والسـنة من العمل مع القول والاعتقاد ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان " أخرجه ابن ماجه فى سننه ، فما ذهب إليه محمد بن كرّام السجستانى وأصحابه هو النفاق وعين الشقاق ، ونعوذ بالله من الخذلان وسوء الاعتقاد .

الرابعة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : المؤمن ضربان : مؤمن يحبه الله ويواليه ، ومؤمن لا يحبه الله ولا يواليه ، بل يبغضه ويعاديه ؛ فكل من علم الله أنه يوافى بالإيمـان ، فالله محب له ، موالٍ له ، راضٍ عنه ، وكل من علم الله أنه يوافى بالكفر ، فالله مبغض له ، ساخط عليه ، معاد له ، لا لأجل إيمانه ، ولكن لكفره وضلاله الذى يوافى به ؛ والكافر ضربان : كافر يعاقب لا محالة ، وكافر لا يعاقب ؛

فالذى يعاقب هو الذى يوافى بالكفر، فالله ساخط عليــه معاد له ؛ والذى لا يعاقب هو المــوافى بالإيمان، فالله غير ساخط على هــذا، ولا باغض له، بل محب له، موال، لا لكفره لكن لإيمــانه الموافى به؛ فلا يجوز أن يطلق القول وهى :

الخامسة — بأن المؤمن يستحق الثواب، والكافر يستحق العقاب، بل يجب تقييده بالموافاة؛ ولأجل هــذا قلنا إن الله راض عن عمر فى الوقت الذى كان يعبد الأصنام ، ومريد لثوابه ودخوله الجنة ، لا لعبادته الصنم ، لكن لإيمانه الموافى به ؛ وإن الله تعالى ساخط على إبليس فى حال عبادته لكفره الموافى به .

وخالفت القدرية فى هذا وقالت : إن الله لم يكن ساخطا على إبليس وقت عبادته، ولا راضيا عن عمر وقت عبادته للصنم، وهذا فاسد لمــا ثبت أن الله سبحانه عالم بما يوافى به إبليس لعنه الله ، وبما يوافى به عمر رضى الله عنه فيما لم يزل ؛ فثبت أنه كان ساخطا على إبليس محبا لعمر؛ ويدل عليه إجماع الأمة على أن الله سبحانه وتعالى غير محب لمن علم أنه من أهل النار، بل هو ساخط عليه؛وأنه محب لمن علم أنه من أهل الجنة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وإنما الأعمال بالخواتيم" ولهذا قال علمــاء الصوفية : ليس الإيمان ما يزين به العبد قولا وفعلا؛ لكن الإيمان جَرْىُ السعادة فى سوابق الأزل؛ وأما ظهوره على الهياكل فربما يكون عاريًّا، وربما يكون حقيقة .

قلت : هذا كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره، عن عبد الله بن مسعود قال حدثنا رسول الله صلى الله عليــه وسلم وهو الصادق المصدوق : "إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرســل الله الملك فينفخ فيــه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهــل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها" فإن قيل وهى :

السادســة — فقد خرّج الإمام الحافظ أبو محمــد عبد الغنى بن سعيد المصرى من حديث محمد سعيد الشامى المصلوب فى الزندقة ، وهو محمد بن أبى قيس ، عن سليمان بن موسى وهو الأشدق ،

عن مجاهد بن جبر عن ابن عباس أخبرنا أبو رزين العقيلي قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لأشربن أنا وأنت يا أبا رزين من لبن لم يتغير طعمه" قال: قلت: "كيف يحيي الله الموتى؟ قال: "أما مررت بأرض لك مجدبة ثم مررت بها مخصبة، ثم مررت بها مجدبة ثم مررت بها مخصبة" قلت: بلى، قال: "كذلك النشور" قال قلت: كيف لي أن أعلم أني مؤمن؟ قال: "ليس أحد من هذه الأمة — قال ابن أبي قيس أو قال من أمتي — عمل حسنة وعلم أنها حسنة وأن الله جازيه بها خيرا أو عمل سيئة وعلم أنها سيئة وأن الله جازيه بها شرا أو يغفرها إلا مؤمن".

قلت: وهــذا الحديث وإن كان ســنده ليس بالقوى فإن معناه صحيح وليس بمعارض لحديث ابن مسعود؛ فان ذلك موقوف على الخاتمة؛ كما قال عليه السلام: "وإنمــا الأعمال بالخواتيم" وهذا إنمــا يدل على أنه مؤمن في الحال والله أعلم.

السابعة — قال علماء اللغــة: إنمــا سمي المنافق منافقا لإظهاره غير ما يضمــر تشبيها باليربوع له جحر يقال له: النافقاء، وآخر يقال له: القاصــعاء، وذلك أنه يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهر الأرض أرق التراب؛ فإذا رابه ريب دفع ذلك التراب برأســه فخرج؛ فظاهر جحره تراب، وباطنه حفر؛ وكذلك المنافق ظاهره إيمان، وباطنه كفر؛ وقد تقدّم هذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. قال علماؤنا: معنى يخادعون الله أي يخادعونه عند أنفسهم وعلى ظنهم. وقيل: قال ذلك لعملهم عمل المخادع. وقيل: في الكلام حذف، تقديره: يخادعون رسول الله صــلى الله عليه وسلم، عن الحسن وغيره؛ وجعل خداعهم لرسوله خداعا لهم؛ لأنه دعاهم برسالتــه؛ وكذلك إذا خادعوا المؤمنين فقــد خادعوا الله، ومخادعتهم: ما أظهروه من الإيمان خلاف ما أبطنوه من الكفر، ليحقنوا دماءهم وأموالهم، ويظنون أنهم قد نجوا وخدعوا؛ قاله جماعة من المتأولين. وقال أهل اللغة: أصل الخدع في كلام العرب: الفساد، حكاه ثعلب عن ابن الأعرابي وأنشد:

أبيض اللونــــ لذيذ طعمه * طيب الريق إذا الريق خدع (1)

(1) قاله سويد بن أبي كاهل ـ يصف ثغر امرأة، كما في اللسان مادة (خدع).

قلت : فيخادعون الله على هذا، أى يفسدون إيمانهم وأعمالهم فيما بينهم وبين الله تعالى بالرياء . وكذا جاء مفسرا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم على ما يأتى؛ وفى التنزيل : ﴿ يُرَآءُونَ النَّاسَ ﴾ . وقيل : أصله الإخفاء ؛ ومنه مخدع البيت الذى يُحْرَزُ فيه الشيء؛ حكاه ابن فارس وغيره ؛ وتقول العرب : انخدع الضب فى جحره .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ﴾ نفى وإيجاب أى ما تحل عاقبة الخدع إلا بهم؛ ومن كلامهم : من خدع من لا يخدع فانما يخدع نفسه . وهـذا صحيح لان الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن ؛ وأما من عرف البواطن فمن دخل معه فى الخداع فإنما يخدع نفسه، ودل هذا على أن المنافقين لم يعرفوا الله إذلوعرفوه لعرفوا أنه لا يخدع ؛ وقد تقدّم من قوله عليـه السلام أنه قال : "لا تخادع الله، فإنه من يخادع الله يخدعه الله، ونفسه يخدع لو يشعر" قالوا : يا رسول الله، وكيف يخادع الله ؟ قال : " تعمل بمـا أمرك الله به وتطلب به غيره" . وسيأتى بيان الخدع من الله تعالى كيف هو عنـد قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ وقرأ نافع ، وابن كثـير، وأبو عمرو : ﴿ يُخَادِعُونَ ﴾ فى الموضعين ليتجانس اللفظان . وقرأ عاصم ، وحمزة، والكسائى، وابن عامر : ﴿ يَخْدَعُونَ ﴾ الثانى ؛ والمصدر خدع بكسر الخاء وخديعة حكى ذلك أبو زيد . وقرأ مورق العجلى : ﴿ يُخَدِّعُونَ اللهَ ﴾ بضم الياء وفتح الخاء وتشديد الدال على التكثير . وقرأ أبو طالوت عبدالسلام بن شدّاد والجارود بضم الياء وإسكان الخاء وفتح الدال على معنى وما يخدعون إلا عن أنفسهم؛ فحذف حرف الجر كما قال تعالى : ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ ﴾ . أى من قومه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ . أى يفطنون أن وبال خدعهم راجع عليهم؛ فيظنون أنهم قد نجوا بخدعهم وفازوا؛ وإنما ذلك فى الدنيا، وفى الآخرة يقال لهم : ﴿ ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا ﴾ على ما يأتى . قال أهل اللغة : شعرت بالشيء أى فطنت له ، ومنه الشاعر لفطنته لأنه يفطن لمـا لا يفطن له غيره من غريب المعانى .

ومنه قولهم : ليت شعرى أى ليتنى علمت .

قوله تعالى : ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ . ابتـداء وخبر ؛ والمرض عبارة مسـتعارة للفساد الذى فى عقائدهم؛ وذلك إما أن يكون شـكا ونفاقا ، وإما جحدا وتكذيبا ؛ والمعنى قلوبهم مرضى لخلوها

عن العصمة والتوفيق ، والرعاية والتأييد ؛ قال ابن فارس اللغوى : المرض كل ما خرج به الإنسان عن حد الصحة ، من علة ، أو نفاق ، أو تقصير فى أمر . والقراء مجمعون على فتح الراء من مرض إلا ما روى الأصمعى عن أبى عمرو أنه سكن الراء .

قوله تعالى: ﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ . قيل: هو دعاء عليهم ، ويكون معنى الكلام زادهم الله شكا ونفاقا ، جزاء على كفرهم وضعفا عن الانتصار ، وعجزا عن القدرة ؛ كما قال الشاعر :

يامرسل الريح جنوبا وصبا * إذ غضبت زيد فزدها غضبا

أى لا تهدها على الانتصار فيما غضبت منه ؛ وعلى هذا يكون فى الآية دليل على جواز الدعاء على المنافقين والطرد لهم ، لأنهم شر خلق الله ، وقيل : هو إخبار من الله تعالى عن زيادة مرضهم أى فزادهم الله مرضا الى مرضهم ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ . وقال أرباب المعانى : فى قلوبهم مرض أى بسكونهم الى الدنيا ، وحبهم لها ، وغفلتهم عن الآخرة ، وإعراضهم عنها . وقوله : ﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ أى وكلهم الى أنفسهم ، وجمع عليهم هموم الدنيا فلم يتفرغوا من ذلك الى اهتمام بالدين ولهم عذاب أليم بما يفنى عما يبقى . وقال الجنيد : علل القلوب من اتباع الهوى ، كما أن علل الجوارح من مرض البدن .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . أليم فى كلام العرب معناه مؤلم أى موجع ، مثل السميع بمعنى المسمع ؛ قال ذو الرمة يصف إبلا :

ونرفع من صدور شمردلات * يصك وجوهها وهج أليم

وآلم اذا أوجع ، والإيلام : الإيجاع ، والألم : الوجع ، وقد ألم يألم ألما ، والتألم : التوجع ، ويجمع أليم على ألاما وألماء مثل : كريم وكرماء ، وآلام مثل أشراف .

قوله تعالى : ﴿ بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ ، ما مصدرية أى بتكذيبهم الرسل ، وردهم على الله جل وعز ، وتكذيبهم بآياته ، قاله أبو حاتم . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائى بالتخفيف ، ومعناه بكذبهم وقولهم آمنا وليسوا بمؤمنين .

مسألة — واختلف العلماء في إمساك النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم على أربعة أقوال :

القول الأول — قال بعض العلماء : إنما لم يقتلهم لأنه لم يعلم حالهم أحد سواه . وقد اتفق العلماء على بكرة أبيهم على أن القاضي لا يقتل بعلمه، وإن اختلفوا في سائر الأحكام؛ قال ابن العربي : وهذا منتقض، فقد قتل بالمجذر بن زياد، الحارث بن سويد بن الصامت لأن المجذر قتل أباه سويدا يوم بعاث؛ فأسلم الحارث وأغفله يوم أحد فقتله؛ فأخبر به جبريل النبيّ صلى الله عليه وسلم فقتله به لأن قتله كان غيلة[1]؛ وقتل الغيلة حد من حدود الله .

قلت : وهذه غفلة من هذا الإمام، لأنه إن ثبت الإجماع المذكور فليس بمنتقض بما ذكر؛ لأن الإجماع لا ينعقد ولا يثبت إلا بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم وانقطاع الوحي؛ وعلى هذا فتكون تلك قضية في عين، بوحي، فلا يحتج بها أو منسوخة بالاجماع والله أعلم .

القول الثاني — قال أصحاب الشافعي : إنما لم يقتلهم لأن الزنديق وهو الذي يسر الكفر ويظهر الإيمان يستتاب ولا يقتل . قال ابن العربي : وهذا وهم ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يستتبهم ولا نقل ذلك أحد، ولا يقول أحد إن استتابة الزنديق واجبة ؛ وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم معرضا عنهم مع علمه بهم . فهذا المتأخر من أصحاب الشافعي الذي قال : إن استتابة الزنديق جائزة قال قولا لم يصح لأحد .

القول الثالث — إنما لم يقتلهم مصلحة، لتأليف القلوب عليه، لئلا تنفر عنه ؛ وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى بقوله لعمر : "معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي" أخرجه البخاري ومسلم . وقد كان يعطي للمؤلفة قلوبهم مع علمه بسوء اعتقادهم تألفا؛ وهذا هو قول علمائنا وغيرهم . قال ابن عطية : وهي طريقة أصحاب مالك رحمه الله في كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين؛ نص على هذا محمد بن الجهم، والقاضي اسماعيل، والأبهري، وابن الماجشون، واحتج بقوله تعالى : ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ إلى قوله . ﴿وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ . قال قتادة : معناه إذا هم أعلنوا النفاق . قال مالك رحمه الله : النفاق في عهد رسول الله صلى الله

(١) راجع هذه القصة في سيرة ابن هشام (ص ٣٥٦، ٥٩٧) طبع أوربا . وكتاب الاستيعاب ، في اسم المجذر .

عليه وسلم هو الزندقة فينا اليوم، فيقتل الزنديق إذا شهد عليه بها دون استتابة؛ وهو أحد قولى الشافعى. قال مالك : وإنما كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليبين لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه إذ لم يشهد على المنافقين . قال القاضى اسماعيل : لم يشهد على عبد الله بن أبيّ إلا زيد بن أرقم وحده، ولا على الجلاس بن سويد الا عمير بن سعد ربيبه؛ ولو شهد على أحد منهم رجلان بكفره ونفاقه لقتل . وقال الشافعى رحمه الله محتجا للقول الآخر : السنة فيمن شهد عليه بالزندقة فجحد وأعلن بالإيمان وتبرأ من كل دين سوى الإسلام إن ذلك يمنع من إراقة دمه؛ وبه قال أصحاب الرأى وأحمد والطبرى وغيرهم . قال الشافعى وأصحابه : وإنما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم، لأن ما يظهرونه يجُبّ ما قبله . وقال الطبرى : جعل الله تعالى الأحكام بين عباده على الظاهر، وتولى الحكم فى سرائرهم دون أحد من خلقه، فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر، لأنه حكم بالظنون ، ولو كان ذلك لأحد كان أولى الناس به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا، ووكل سرائرهم الى الله؛ وقد كذب الله ظاهرهم بقوله : ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ . قال ابن عطية : ينفصل المالكيون عما لزمهم من هذه الآية بأنها لم تعين أشخاصهم فيها وإنما جاء فيها توبيخ لكل مغموص عليه بالنفاق؛ وبقى لكل واحد منهم أن يقول : لم أرد بها وما أنا إلا مؤمن، ولو عين أحد لما جب كذبه شيئا .

قلت : هذا الانفصال فيه نظر، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم أو كثيرا منهم بأسمائهم وأعيانهم بإعلام الله تعالى إياه، وكان حذيفة يعلم ذلك بإخبار النبيّ عليه السلام إياه حتى كان عمر رضى الله عنه يقول له : يا حذيفة هل أنا منهم ؟ فيقول له : لا .

القول الرابع — وهو أن الله تعالى كان قد حفظ أصحاب نبيه عليه السلام بكونه ثبتهم أن يفسدهم المنافقون أو يفسدوا دينهم فلم يكن فى تبقيتهم ضرر، وليس كذلك اليوم ؛ لأنا لا نأمن من الزنادقة أن يفسدوا عامتنا وجهالنا .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية ، إذا فى موضع نصب على الظرف والعامل فيها قالوا ، وهى تؤذن بوقوع الفعل المنتظر . قال الجوهرى : إذا اسم يدل على زمان

مستقبل ولم تستعمل إلا مضافة إلى جملة، تقول : أجيئك إذا احمر البسر و إذا قدم فلان؛ والذى يدل على أنهـا اسم وقوعها موقع قولك : آتيك يوم يقدم فلان ؛ فهى ظرف وفيهـا معنى المجازاة . وجزاء الشرط ثلاثة : الفعل والفاء و إذا؛ فالفعل قولك : إن تأتنى آتك،والفاء إن تأتنى فأنا أحسن إليـك، وإذا كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَـا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ . ومما جاء من المجازاة بإذا فى الشعر قول قيس بن الخطيم :

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها * خطانا إلى أعدائنا فنضـارب

فعطف فنضارب بالجزم على موضـع كان لأنه مجزوم، ولو لم يكن مجزوما لقال فنضارب بالنصب . وقد تزاد على إذا « ما » تأكيدا فيجزم بها أيضا؛ ومنه قول الفرزدق :

فقام أبو ليـلى إليه ابن ظالم * وكان إذا ما يسلل السيف يضرب

قال سيبويه : والجيد ما قال كعب بن زهير :

وإذا ما تشـاء تبعث منهـا * مغرب الشمس ناشطا مذعورا

يعنى أن الجيـد ألا يجزم بإذا كما لم يجزم فى هـذا البيت . وحكى عن المبرد : أنهـا فى قولك فى المفاجأة خرجت فإذا زيد ظرف مكان لأنهـا تضمنت جثة، وهـذا مردود لأن المعنى خرجت فإذا حضور زيد، فإنما تضمنت المصدر كما يقتضيه سائر ظروف الزمان؛ ومنه قوله : «اليوم خمر وغدا أمر» فمعناه وجود خمر ووقوع أمر .

قوله : ﴿ قِيلَ ﴾ من القول وأصله قول نقلت كسرة الواو إلى القاف فانقلبت الواو ياء؛ ويجوز: قيل لهم، بإدغام اللام فى اللام، وجاز الجمع بين ساكنين لأن الياء حرف مدّ ولين؛ قال الأخفش : ويجوز قيل بضم القاف والياء ؛ وقال الكسائى : ويجوز إشمام القاف الضم ليدل على أنه لمـا لم يسم فاعله ، وهى لغة قيس، وكذلك جىء وغيض وحيل وسيق وسىء وسيئت ، وكذلك روى هشام عن ابن عباس[1] ، ورويس[2] عن يعقوب ، وأشم منها نافع سىء وسيئت خاصة، وزاد ابن ذكوان : حيل وسيق وكسر الباقون فى الجميع . فأما هذيل وبنو دبير من أسد وبنى فقعس فيقولون : قول بواو ساكنة .

(١) فى نسخة : «ابن عامر» .

(٢) رويس (كزبير) لقب محمد بن المتوكل القارئ، راوى يعقوب بن إسحاق . القاموس المحيط .

قوله : ﴿ لَا تُفْسِدُوا ﴾ لا نهى، والفساد ضدّ الصلاح، وحقيقته العدول عن الاستقامة إلى ضدها . فسد الشيء يفسد فسادا وفسودا وهو فاسد وفسيد . والمعنى فى الآية لا تفسدوا فى الارض بالكفر وموالاة أهله ، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن . وقيل : كانت الارض قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم فيها الفساد، ويفعل فيها بالمعاصى، فلما بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم ارتفع الفساد وصلحت الأرض، فاذا عملوا بالمعاصى فقد أفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ .

قوله : ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ الأرض مؤنثة وهى اسم جنس ، وكان حق الواحدة منها أن يقال أرضة، ولكنهم لم يقولوا، والجمع أرضات لأنهم قد يجمعون المؤنث الذى ليست فيه هاء التأنيث بالتاء كقولهم : عُرُسات، ثم قالوا أرضون فجمعوا بالواو والنون ، والمؤنث لا يجمع بالواو والنون إلا أن يكون منقوصا كثُبَة وظُبَة، ولكنهم جعلوا الواو والنون، عوضا من حذفهم الألف والتاء وتركوا فتحة الراء على حالها، وربما سكنت، وقد تجمع على أروض، وزعم أبو الخطاب أنهم يقولون: أرض وآراض، كما قالوا : أهل وآهال ، والأراضى أيضا على غير قياس كأنهم جمعوا أرضا ، وكل ما سفل فهو أرض ، وأرض أرضة أى زكية بينة الأراضة، وقد أرُضت بالضم أى زكت . قال أبو عمرو : نزلنا أرضا أريضة أى معجبة للعين، ويقال : لاأرض لك، كما يقال : لا أم لك . والأرض أسفل قوائم الدابة، قال حميد يصف فرسا :

ولم يقلب أرضها البيطار * ولا لحبليه بها حبار

أى أثر، والارض: النفضة والرعدة . روى حماد بن سلمة عن قتادة عن عبدالله بن الحارث قال : زلزلت الأرض بالبصرة، فقال ابن عباس : والله ما أدرى؟ أزلزلت الأرض بى أم بى ارض؟ أى أم بى رعدة، وقال ذو الرمة يصف صائدا :

إذا توجس ركزا من سنابكها * أوكان صاحب أرض أو به الموم

والأرض : الزكام، وقد آرضه الله إيراضا ، أى أزكمه فهو مأروض، وفسيل مستأرِض، وودية مستأرضة بكسر الراء وهو أن تكون له عرق فى الأرض، فأما إذا نبت على جذع النخل فهو الراكب . والإراض بالكسر : بساط ضخم من صوف أو وبر، ورجل أريض، أى متواضع خليق للخير، قال

الأصمعي يقال : هو آرضهم أن يفعل ذلك أى أخلقهم ؛ وشئ عريض أريض اتباع له ؛ وبعضهم يفرده ويقول : جدى أريض أى سمين .

قوله : ﴿ نَحْنُ ﴾ أصل نحن نَحُنْ قلبت حركة الحاء على النون وأسكنت الحاء ؛ قاله هشام ابن معاوية النحوى . وقال الزجاج : نحن لجماعة ، ومن علامة الجماعة الواو ، والضمة من جنس الواو ؛ فلما اضطروا إلى حركة نحن لالتقاء الساكنين حركوها بما يكون للجماعة . قال ولهذا ضموا واو الجمع في قوله عز وجل : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ ﴾ . وقال محمد بن يزيد : نحن مثل قبلُ وبعدُ لأنها متعلقة بالإخبار عن اثنين وأكثر، فأنا للواحد، ونحن للتثنية والجمع، وقد يخبر به المتكلم عن نفسه في قوله : نحن قمنا، قال الله تعالى : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ . والمؤنث في هذا إذا كانت متكلمة بمنزلة المذكر؛ تقول المرأة . قمت وذهبت، وقمنا وذهبنا، وأنا فعلت ذاك، ونحن فعلنا . هذا كلام العرب فاعلم .

قوله تعالى : ﴿مُصْلِحُونَ﴾ اسم فاعل من أصلح ؛ والصلاح: ضد الفساد، وصلح الشيء بضم اللام وفتحها لغتان قاله ابن السكيت . والصلوح بضم الصاد مصدر صلح بضم اللام ؛ قال الشاعر :

فكيف بإطراقى إذا ما شتمتنى * وما بعد شتم الوالدين صلوح

وصلاح من أسماء مكة ؛ والصلح بكسر الصاد : نهر .

وإنما قالوا ذلك على ظنهم ، لأن إفسادهم عندهم إصلاح ، أى إن ممالأتنا للكفار إنما نريد بها الإصلاح بينهم وبين المؤمنين . قاله ابن عباس وغيره .

قوله عز وجل : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ ردًا عليهم وتكذيبا لقولهم ؛ قال أرباب المعانى : من أظهر الدعوى كذب ، ألا ترى أن الله عز وجل يقول : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ . وهذا صحيح . وكسرت إنّ لأنها مبتدأة ، قاله النحاس . وقال علىّ بن سليمان : يجوز فتحها كما أجاز سيبويه : حقا أنك منطلق (١)، بمعنى ألا . وهم يجوز أن يكون مبتدأ والمفسدون خبره والمبتدأ وخبره خبر إنّ ؛ ويجوز أن تكون هم توكيدا للهاء والميم فى إنهم ، ويجوز أن تكون فاصلة — والكوفيون يقولون عمادا — والمفسدون خبر إنّ ؛ والتقدير : ألا إنهم المفسدون ، كما تقدّم فى قوله : ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

---

(١) فى العبارة غموض . ولعل الصواب : « ... يجوز فتحها كما أجاز سيبويه أمَا أنك منطلق على معنى حقا أنك منطلق . وأمَا بمعنى ألا » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ . قال ابن كيسان يقال : ما على من لم يعلم أنه مفسد من الذم، إنمـا يذم إذا علم أنه مفسد، ثم أفسد على علم ؛ قال : ففيــه جوابان ؛ أحدهما : أنهم كانوا يعملون الفساد سرا ويظهرون الصلاح وهم لا يشــعرون أن أمرهم يظهر عنــد النبي صلى الله عليه وسلم ؛ والوجه الآخر : أن يكون فسادهم عندهم صلاحا، وهم لا يشعرون أن ذلك فساد، وقد عصوا الله ورسوله في تركهم تبين الحق واتباعه . ولكن حرف تأكيد واستدراك، ولا بد فيه من نفي وإثبات ؛ إن كان قبله نفي، كان بعده إيجاب ، وإن كان قبله إيجاب، كان بعده نفي ؛ ولا يجوز الاقتصار بعــده على اسم واحد إذا تقدّم الإيجاب، ولكنك تذكر جملة مضادة لمـا قبلها كما في هذه الآية ؛ وقولك : جاءني زيد لكن عمرو لم يجئ، ولا يجوز جاءني زيد لكن عمرو ثم تسكت، لأنهــم قد استغنوا ببل في مثل هذا الموضع عن لكن، وإنما يجوز ذلك إذا تقدّم النفي كقولك : ما جاءني زيد لكن عمرو .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ يعني المنافقين، في قول مقاتل وغيره، ﴿ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ ﴾ أي صدقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وشرعه، كما صدق المهاجرون والمحققون من أهل يثرب . وألف آمنوا ألف قطع لإنك تقول : يؤمن، والكاف في موضع نصب لأنها نعت لمصدر محذوف أي إيمانا كإيمـان الناس .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ . يعني أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، عن ابن عباس ؛ وعنه أيضـا : مؤمنو أهل الكتاب ؛ وهذا القول من المنافقين إنما كانوا يقولونه في خفاء واستهزاء ؛ فأطلع الله نبيه والمؤمنين على ذلك، وقرر أن السفه، ورقة الحلوم، وفساد البصائر، إنما هي في حيزهم، وصفة لهم، وأخبر أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون للرين الذي على قلوبهم . وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس : أنها نزلت في شأن اليهود أي وإذا قيل لهم يعني اليهود آمنوا كما آمن الناس عبد الله بن سلام وأصحابه، قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ! يعني الجهال والخرقاء . وأصل السفه في كلام العرب : الخفة والرقة ؛ يقال : ثوب سفيه إذا كان رديء النسج خفيفه ، أو كان باليا رقيقا . وتسفهت الريح الشجر : مالت به ؛ قال ذو الرمة :

مشين[(1)] كما اهتزت رماح تسفهت ⁂ أعاليهـا مرّ الرياح النواســم

(١) كذا في الأصول، واللسان مادة (سفه) . وفي ديوانه : «رويدا» .

وتسفهت الشيء : استحقرته . والسفه : ضد الحلم ، ويقال : إن السفه أن يكثر الرجل شرب الماء فلا يروى . ويجوز في همزتي السفهاء[1] أربعة أوجه ، أجودها أن تحقق الأولى وتقلب الثانية واوا خالصة ، وهي قراءة أهل المدينة ، والمعروف من قراءة أبي عمرو ؛ وإن شئت خففتهما جميعا فجعلت الأولى بين الهمزة والواو وجعلت الثانية واوا خالصة ؛ وإن شئت خففت الأولى وحققت الثانية ؛ وإن شئت حققتهما جميعا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ . مثل ولكن لا يشعرون ؛ وقد تقدم . والعلم معرفة المعلوم على ما هو به ، تقول : علمت الشيء أعلمه علما عرفته ، وعالمت الرجل فعلمته أعلُمه بالضمة في المستقبل غلبته بالعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ . أنزلت هذه الآية في ذكر المنافقين . أصل لقوا : لقيوا نقلت الضمة إلى القاف وحذفت الياء لالتقاء الساكنين ، وقرأ محمد بن السميقع اليماني : لاقوا الذين آمنوا . والأصل لاقيوا تحركت الياء وقبلها فتحة انقلبت ألفا ، اجتمع ساكنان الألف والواو فحذفت الألف لالتقاء الساكنين ثم حركت الواو بالضم .

وإن قيل : لم ضمت الواو في لاقوا في الإدراج ، وحذفت من لقوا ؟ فالجواب : أن قبل الواو التي في لقوا ضمة فلو حركت الواو بالضم لثقل على اللسان النطق بها فحذفت لثقلها ، وحركت في لاقوا لأن قبلها فتحة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ ﴾ . إن قيل : لم وصلت خلوا بإلى وعرفها أن توصل بالباء؟ قيل له : خلوا هنا بمعنى ذهبوا وانصرفوا ؛ ومنه قول الفرزدق :

كيف تراني قالبا مجني . قد قتل الله زيادا عني

لما أنزله منزلة صرف ؛ وقال قوم : إلى بمعنى مع وفيه ضعف . وقال قوم : الى بمعنى الباء ، وهذا يأباه الخليل وسيبويه . وقيل : المعنى وإذا خلوا من المؤمنين إلى شياطينهم ، فإلى على بابها . والشياطين جمع شيطان على التكسير وقد تقدم القول في اشتقاقه ومعناه في الاستعاذة . واختلف المفسرون في المراد بالشياطين هنا ، فقال ابن عباس والسدي : هم رؤساء الكفر . وقال الكلبي :

(١) أي مع كلمة ألا التي بعدها .

هم شياطين الجن . وقال جمع من المفسرين : هم الكهان . ولفظ الشيطنة الذى معناه البعد عن الإيمان والخير يعم جميع من ذكر . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ . أى مكذبون بما ندعى إليه ؛ وقيل : ساخرون . والهزء : السخرية واللعب ؛ يقال : هزئ به واستهزأ ؛ قال الراجز :

قد هزئت منى أم طيسله * قالت أراه معدما لا مال له

وقيل : أصل الاستهزاء : الانتقام ؛ كما قال الآخر :

قد استهزءوا منهم بألفى مدجج * سراتهم وسط الصحاصح جثم

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ . أى ينتقم منهم ويعاقبهم ، ويسخر بهم ويجازيهم على استهزائهم ؛ فسمى العقوبة باسم الذنب ، هذا قول الجمهور من العلماء ؛ والعرب تستعمل ذلك كثيرا فى كلامهم ، من ذلك قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحـــد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فسمى انتصاره جهلا ؛ والجهل لا يفتخر به ذو عقل ؛ وإنما قاله ليزدوج الكلام فيكون ذلك أخف على اللسان من المخالفة بينهما ، وكانت العرب إذا وضعوا لفظا بإزاء لفظ جوابا له وجزاء ذكروه بمثل لفظه وإن كان مخالفا له فى معناه ؛ وعلى ذلك جاء القرآن والسنة ، وقال الله عز وجل : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ . وقال : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ . والجزاء لا يكون سيئة ، والقصاص لا يكون اعتداء لأنه حق وجب ؛ ومثله : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ . و﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ . و﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ . وليس منه سبحانه مكر ولا هزء ولا كيد ، إنما هو جزاء لمكرهم واستهزائهم وجزاء كيدهم ؛ وكذلك ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ . ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله لا يمل حتى تملوا ولا يسأم حتى تسأموا" قيل حتى بمعنى الواو أى وتملوا ، وقيل : المعنى وأنتم تملون ؛ وقيل : المعنى لا يقطع عنكم ثواب أعمالكم حتى تقطعوا العمل ؛ وقال قوم : إن الله تعالى يفعل بهم أفعالا

هي في تأمل البشر هزء وخدع ومكر، حسب ما روى : " إن النار[1] تجمد كما تجمد الإهالة فيمشون عليها ويظنونها منجاة فتنخسف بهم" وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ هم منافقو أهل الكتاب، فذكرهم وذكر استهزاءهم، وأنهم إذا خلوا إلى شياطينهم يعني رؤساءهم في الكفر — على ما تقدّم — قالوا : إنا معكم على دينكم إنما نحن مستهزئون بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، الله يستهزئ بهم في الآخرة، يفتح لهم باب جهنم من الجنة، ثم يقال لهم : تعالوا فيقبلون يسبحون في النار، والمؤمنون على الأرائك وهي السرر في الحجال ينظرون إليهم، فإذا انتهوا إلى الباب سدّ عنهم، فيضحك المؤمنون منهم، فذلك قول الله عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ أي في الآخرة، ويضحك المؤمنون منهم حين غلقت دونهم الأبواب، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ . إلى أهل النار : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ . وقال قوم : الخداع من الله والاستهزاء هو استدراجهم بدرور النعم الدنيوية عليهم، فالله سبحانه وتعالى يظهر لهم من الإحسان في الدنيا، خلاف ما يغيب عنهم، ويستر عنهم من عذاب الآخرة، فيظنون أنه راضٍ عنهم، وهو تعالى قد حتم عذابهم، فهذا على تأمل البشر كأنه استهزاء ومكر وخداع، ودل على هذا التأويل قوله صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيتم[2] الله عز وجل يعطي العبد ما يحب وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه استدراج" ثم نزع بهذه الآية : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ . فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . قال بعض العلماء في قوله تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . كلما أحدثوا ذنبا أحدث لهم نعمة .

قوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ ﴾ . أي يطيل لهم المدة ويمهلهم ويملي لهم، كما قال : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ وأصله الزيادة، قال يونس بن حبيب : يقال مدّ في الشر، وأمد في الخير، قال الله تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ . وقال : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ . وحكى

(١) في نسخة «تجمد» بالحاء .

(٢) في الجامع الصغير : « إذا رأيت » .

عن الأخفش : مددت له إذا تركته ، وأمددته إذا أعطيتــه . وعن الفراء واللحيانى : مددت فيما كانت زيادته من مثله ، يقال : مدّ النهر [النهر][1]، وفى التنزيل : ﴿ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾، وأمددت فيما كانت زيادته من غيره كقولك : أمددت الجيش بمــدد ، ومنه : ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ وأمدّ الجرح لأن المدّة من غيره أى صارت فيه مدة .

قوله تعالى : ﴿ فِى طُغْيَٰنِهِمْ ﴾ كفرهم وضلالهم، وأصل الطغيان مجاوزة الحدّ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ ﴾ . أى ارتفع وعلا وتجاوز المقــدار الذى قدرته الخزان، وقوله فى فرعون : ﴿ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ . أى أسرف فى الدعوى حيث قال : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ . والمعنى فى الآية يمدهم بطول العمر حتى يزيدوا فى الطغيان فيزيدهم فى عذابهم .

قوله تعالى : ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يعمون، وقال مجاهد : أى يترددون متحيرين فى الكفر، وحكى أهل اللغــة : عمه الرجل يعمه عموها وعمها فهو عمــه وعامه إذا حار، ويقال : رجل عامه وعمه : حائر متردد ، وجمعه عُمّه ، وذهبت إبله العمهى إذا لم يدر أيــن ذهبت . والعمى فى العين ، والعمه فى القلب، وفى التنزيل : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾. قال سيبويه : ضمت الواو فى اشتروا فرقا بينها وبين الواو الأصلية، نحو : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ ﴾ . وقال ابن كيسان : الضمة فى الواو أخف من غيرها لأنها من جنسها . وقال الزجاج : حركت بالضم كما فعل فى نحن . وقرأ ابن أبى إسحاق ويحيى بن يعمر بكسر الواو على أصــل التقاء الساكنين . وروى أبو زيد الأنصارى عن قعنب أبى السمال العدوى : أنه قرأ بفتح الواو لخفة الفتحة وأنّ ما قبلهــا مفتوحا، وأجاز الكسائى همز الواو وضمها كأدؤر . واشتروا من الشراء، والشراء هنا مستعار، والمعنى استحبوا الكفر على الإيمان كما قال : ﴿ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ . فعبر عنه بالشراء لأن الشراء إنما يكون فيما يحبه مشتريه، فأما أن يكون معنى شراء المعاوضة فلا، لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فيبيعون إيمانهم . وقال ابن عباس : أخذوا الضلالة وتركوا الهــدى، ومعناه استبدلوا واختاروا الكفر على الإيمان، وإنمـا

---

(١) الزيادة عن اللسان مادة (مد) .

أخرجه بلفظ الشراء توسعا لأن الشراء والتجارة راجعان إلى الاستبدال ؛ والعرب تستعمل ذلك في كل من استبدل شيئا بشيء ؛ قال أبو ذؤيب :

وإن تزعميني كنت أجهل فيكم * فإني اشتريت الحلم بعدك بالجهل

وأصل الضلالة : الحيرة ؛ ويسمى النسيان ضلالة لما فيه من الحيرة ؛ قال جل وعز : ﴿ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ . أي الناسين ؛ ويسمى الهلاك ضلالة ؛ كما قال عز وجل : ﴿ وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ﴾ . أسند تعالى الربح إلى التجارة على عادة العرب في قولهم : ربح بيعك ، وخسرت صفقتك ؛ وقولهم : ليل قائم ، ونهار صائم ؛ والمعنى ربحت وخسرت في بيعك ، وقمت في ليلك وصمت في نهارك ؛ أي فما ربحوا في تجارتهم ؛ وقال الشاعر :

نهارك هائم وليلك نائم * كذلك في الدنيا تعيش البهائم

ابن كيسان : ويجوز تجارة وتجائر ، وضلالة وضلائل .

﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ في اشترائهم الضلالة ؛ وقيل : في سابق علم الله . والاهتداء ضد الرشاد ، وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ . فمثلهم رفع بالابتداء والخبر في الكاف ، فهي اسم كما هي في قول الأعشى :

أتنتهون ولن ينهى ذوى شطط * كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل

وقول امرئ القيس :

ورحنا بكابن الماء يجنب وسطنا * تصوب فيه العين طورا وترتقى

أراد مثل الطعن ، وبمثل ابن الماء ؛ ويجوز أن يكون الخبر محذوفا تقديره مثلهم مستقر كمثل فالكاف على هذا حرف . والمثل والمِثل والمثيل واحد ومعناه الشبه ، والمتماثلان : المتشابهان هكذا قال أهل اللغة .

قوله : ﴿ الَّذِي ﴾ يقع للواحد والجمع ؛ قال ابن الشجري هبة الله بن علي : ومن العرب من يأتي بالجمع بلفظ الواحد كما قال :

وإن الذى حانت بفلج دماؤهم * هم القوم كل القوم يا أم خـالد

وقيل فى قول الله تعالى : ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ . إنه بهذه اللغة ، وكذلك قوله : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي﴾ . قيل : المعنى كمثل الذين استوقدوا ، ولذلك قال : ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ . فحمل أول الكلام على الواحد ، وآخره على الجمع ؛ فأما قوله تعالى : ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ . فإن الذى ها هنا وصف لمصدر محذوف تقديره وخضتم كالخوض الذى خاضوا . وقيل : إنمـا وحد الذى واسـتوقد لأن المستوقد كان واحدا من جماعة تولى الإيقاد لهم ، فلما ذهب الضوء رجع عليهم جميعا فقال بنورهم ؛ واستوقد بمعنى أوقد ؛ مثل استجاب بمعنى أجاب ؛ فالسين والتاء زائدتان قاله الأخفش ؛ ومنه قول الشاعر :

وداع دعا يامن يجيب إلى الندا * فلم يستجبه عنـــد ذاك مجيب

أى يجبه ؛ واختلف النحاة فى جواب لمـا ، وفى عود الضمير من نورهم ؛ فقيل : جواب لمـا محذوف وهو طفئت ، والضمير فى نورهم على هذا للمنافقين ، والإخبار بهذا عن حال تكون فى الآخرة كما قال تعالى : ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ﴾ وقيل : جوابه ذهب ، والضمير فى نورهم عائد على الذى ؛ وعلى هذا القول يتم تمثيل المنافق بالمستوقد لأن بقاء المستوقد فى ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق فى حيرته وتردده ؛ والمعنى المراد بالآية ضرب مثل للمنافقين ، وذلك أن ما يظهرونه من الإيمان الذى تثبت لهم به أحكام المسلمين من المناكح والتوارث والغنائم ، والأمن على أنفسهم وأولادهم وأموالهم بمثابة من أوقد نارا فى ليلة مظلمة فاستضاء بهـا ، ورأى ما ينبغى أن يتقيه وأمن منه ؛ فإذا طفئت عنـه أو ذهبت وصل إليه الأذى وبقى متحيرا ؛ فكذلك المنافقون لمـا آمنوا اعتروا بكلمة الإسلام ، ثم يصيرون بعد الموت إلى العذاب الأليم ؛ كما أخبر التنزيل : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ ويذهب نورهم ؛ ولهذا يقولون : ﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ . وقيل : إن إقبال المنافقين إلى المسلمين وكلامهم معهم كالنار ؛ وانصرافهم عن مودتهم وارتكاسهم عندهم كذهابها . وقيل غير هذا .

قوله : ﴿نَارًا﴾ النـار مؤنثة وهى من النور وهو أيضا الإشراق ، وهى من الواو لأنك تقول فى التصغير : نويرة ، وفى الجمع نور وأنور ، ونيران انقلبت الواو ياء لكسر ما قبلهـا ؛ وضاءت

وأضاءت لغتان، يقال : ضاء القمر يضوء ضوءاً وأضاء يضيء، ويكون لازما ومتعديا ؛ وقرأ محمد بن السميقع : ضاءت بغير ألف والعامة بالألف؛ قال الشاعر :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم * دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

﴿ مَا حَوْلَهُ ﴾ ما زائدة مؤكدة، وقيل : مفعولة بأضاءت ؛ وحوله ظرف مكان والهاء فى موضع خفض بإضافته اليها . و﴿ ذَهَبَ ﴾ وأذهب لغتان من الذهاب، وهو زوال الشيء . ﴿ وَتَرَكَهُمْ ﴾ . أى أبقاهم . ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ﴾ جمع ظلمة، وقرأ الأعمش : ظلمات باسكان اللام على الأصل ؛ ومن قرأها بالضم فللفرق بين الاسم والنعت ؛ وقرأ أشهب العقيلى : ظلمات بفتح اللام ؛ قال البصريون أبدل من الضمة فتحة لأنها أخف . وقال الكسائى: ظلمات، جمع الجمع، جمع ظُلَم. ﴿ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ فعل مستقبل فى موضع الحال، كأنه قال : غير مبصرين ، فلا يجوز الوقف على هذا، على ظلمات .

قوله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ صم أى هم صم ، فهو خبر ابتداء مضمر ، وفى قراءة عبد الله بن مسعود وحفصة : صما بكما عميا، فيجوز النصب على الذم، كما قال تعالى : ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾ . وكما قال : ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ . وكما قال الشاعر :

سقونى الخمر ثم تكنفونى * عداةَ الله من كذب وزور

فنصب عداة الله على الذم، فالوقف على يبصرون على هذا المذهب صواب حسن ؛ ويجوز أن ينصب صما بتركهم، كأنه قال . وتركهم صما بكما عميا ؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على يبصرون . والصمم فى كلام العرب: الإنسداد، يقال: قناة صماء إذا لم تكن مجوفة، وصممت القارورة إذا سددتها، فالأصم: من انسدت خروق مسامعه، والأبكم: الذى لاينطق ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس ، وقيل : الأخرس والأبكم واحد ، ويقال رجل أبكم وبكيم أى أخرس بين الخرس والبكم قال :

فلت لسانى كان نصفين منهما * بكيم ونصف عند مجرى الكواكب

والعمى : ذهاب البصر وقد عمى فهو أعمى، وقوم عمى، وأعماه الله، وتعامى الرجل أرى ذلك من نفسه، وعمى عليه الأمر إذا التبس، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ .

وليس الغرض مما ذكرناه نفي الإدراكات من حواسهم جملة، وإنمـا الغرض نفيها في جهة ما؛ تقول : فلان أصم عن الخنا ؛ ولقد أحسن الشاعر حيث قال :

* أصم عما ساءه سميع *

وقال آخـــر :

وعوراء الكلام صممت عنها * ولو أنى أشاء بهـا سميـع

وقال الدارمىّ :

أعمى إذا ما جارتى خرجت * حتى يوارى جارتى الجـدر

وقال بعضهم فى وصاته لرجل يكثر الدخول على الملوك :

أدخـل إذا ما دخلت أعمى * وأخرج إذا ما خرجت أخرس

وقال قتادة : صم عن استماع الحق، بكم عن التكلم به، عمى عن الإبصار له .

قلت : وهـذا المعنى هو المراد فى وصف النبىّ صلى الله عليـه وسلم ولاة آخر الزمان فى حديث جبريل " وإذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض فذاك من أشراطها " والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أى إلى الحق لسابق علم الله تعالى فيهم ؛ يقال : رجع بنفسه رجوعا، ورجعه غيره؛ وهذيل تقـول : أرجعه غيره ؛ وقوله تعالى : ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴾ . أى يتلاومون فيما بينهم حسب ما بينه التنزيل فى سورة سبأ .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ . قال الطبرى : أو بمعنى الواو؛ وقاله الفراء وأنشد :

وقد زعمت ليـلى بأنى فاجر * لنفسى تقاها أو عليها فجورها

وقال آخـــر :

نال الخلافة أو كانت له قدرا * كما أتى ربه موسى على قدر

أى وكانت ؛ وقيل : أو للتخيير أى مثلوهم بهذا أو بهذا، لا على الاقتصار على أحد الأمرين ؛ والمعنى أو كأصحاب صيب ؛ والصيب : المطر، واشتقاقه من صاب يصوب إذا نزل؛ قال علقمة :

فلا تعـدلى بينى وبيـن معمر * سقتك روايا المزن حيث تصـوب

وأصله : صَيْوِب اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت ؛ كما فعلوا فى ميت وسيد وهين ولين ؛ وقال بعض الكوفيين : أصله صويب على مثـال فعيل ؛ قال

النحاس: لو كان كما قالوا لما جاز إدغامه، كما لا يجوز إدغام طويل؛ وجمع صيب صيايب، والتقدير في العربية مثلهم كمثل الذي استوقد نارا أو كصيب .

قوله تعالى: ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ السماء تذكر وتؤنث، وتجمع على أسمية وسموات وسمى، على فعول؛ قال العجاج :

* تلفه الرياح والسمى *

والسماء : كل ما علاك فأظلك، ومنه قيل لسقف البيت : سماء؛ والسماء: المطر سمي به لنزوله من السماء؛ قال حسان بن ثابت :

ديار من بني الحسحاس قفر * تعفيها الروامس والسماء

وقال آخر[1] :

إذا سقط السماء بأرض قوم * رعيناه وإن كانوا غضابا

ويسمى الطين والكلأ أيضا سماء، يقال : ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناكم، يريدون الكلأ والطين؛ ويقال لظهر الفرس أيضا سماء لعلوه؛ قال[2] :

وأحمر كالديباج أما سماؤه * فريا وأما أرضه فمحول

والسماء : ما علا، والأرض : ما سفل، على ما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِ ظُلُمَاتٌ ﴾ ابتداء وخبر؛ ورعد وبرق معطوف عليه؛ وقال ظلمات بالجمع إشارة الى ظلمة الليل وظلمة الدجن : وهو الغيم؛ ومن حيث تتراكب وتتزايد جمعت؛ وقد مضى ما فيه من اللغات فلا معنى للإعادة، وكذا كل ما تقدم ان شاء الله تعالى .

واختلف العلماء في الرعد؛ ففي الترمذي عن ابن عباس قال : سألت اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن الرعد ما هو ؟ قال : " ملك من الملائكة بيده مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله" قالوا : فما هذا الصوت الذي يسمع ؟ قال : "زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي الى حيث أمر الله" قالوا : صدقت، الحديث بطوله . وعلى هذا التفسير أكثر العلماء؛ فالرعد : اسم الصوت المسموع، وقاله علي رضي الله عنه، وهو المعلوم في لغة العرب؛ وقد قال لبيد في جاهليته :

فجعني الرعد والصواعق بالـ * ـفارس يوم الكريهة النجد

(١) هو معاوية بن مالك . (٢) القائل هو طفيل الغنوي، كما في اللسان مادة (سما) .

وروى عن ابن عباس أنه قال : الرعد : ريح تختنق بين السحاب : فتصوت ذلك الصوت واختلفوا فى البرق ، فروى عن على ، وابن مسعود ، وابن عباس رضوان الله عليهم : البرق : مخراق حديد بيد الملك يسوق به السحاب .

قلت : وهو الظاهر من حديث الترمذى ، وعن ابن عباس أيضا هو سوط من نور بيد الملك ، يزجر به السحاب ، وعنــه أيضا البرق : ملك يتراءى . وقالت الفلاسفة : الرعد صوت اصطكاك أجرام السحاب ، والبرق مما ينقدح من اصطكاكها ؛ وهــذا مردود لا يصح به نقل والله أعلم . ويقال : أصل الرعد من الحركة ، ومنه الرعديد الجبان ، وارتعد : اضطرب ؛ ومنــه الحديث : "فجىء بهما ترعد فرائصهما" الحديث أخرجه أبو داود . والبرق أصله من البريق والضوء ؛ ومنــه البراق دابة ركبها رسول الله صلى الله عليــه وسلم ليلة أسرى به وركبها الأنبياء عليهم السلام قبــله ؛ ورعدت السماء من الرعد ، وبرقت من البرق ؛ ورعدت المرأة وبرقت تحسنت وتزينت ؛ ورعــد الرجل وبرق تهدد وأوعد ؛ قال ابن أحمر :

يا جل ما بعــدت عليك بلادنا * وطلابنا فأبرق بأرضك وأرعد

وأرعد القــوم وأبرقوا : أصابهم رعد وبرق ؛ وحكى أبو عبيدة ، وأبو عمرو : أرعدت السماء وأبرقت ، وأرعد الرجل وأبرق إذا تهدد وأوعد ؛ وأنكره الأصمعى . وآحْتُجّ عليه بقول الكميت :

أبرق وأرعـــد يا يزيـ * ـد فما وعيدك لى بضائر

فقال : ليس الكميت بحجة .

فائدة : روى ابن عباس قال : كنا مع عمر بن الخطاب فى سفرة بين المدينة والشام ، ومعنا كعب الأحبار ، قال : فأصابتنا ريح وأصابنا رعد ومطر شديد وبرد ، وفَرِق الناس ، قال : فقال لى كعب : إنه من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ؛ عوفى ممــا يكون فى ذلك السحاب والبرد والصواعق ؛ قال : فقلتها أنا وكعب ، فلمــا أصبحنا واجتمع الناس ؛ قلت لعمر : يا أمير المؤمنين ، كأنا كنا فى غير ما كان فيــه الناس ، قال : وما ذاك ؟ قال : فحدثته حديث كعب ؛ قال : سبحان الله ! أفلا قلتم لنــا فنقول كما قلتم ! فى رواية فإذا بردة قد أصابت أنف عمر

فأثرت به ، وستأتى هـذه الرواية فى سورة الرعد إن شاء الله ، ذكر الروايتين أبو بكر أحمد بن على بن ثابت الخطيب فى روايات الصحابة عن التابعين رحمة الله عليهم أجمعين . وعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع الرعد والصواعق قال : " اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك " .

قوله تعالى : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ . جعلهم أصابعهم فى آذانهم لئلا يسمعوا القرآن فيؤمنوا به وبمحمد عليه السلام ، وذلك عندهم كفر والكفر موت . وفى واحد الأصابع خمس لغات : إصبع بكسر الهمزة وفتح الباء ، وأصبع بفتح الهمزة وكسر الباء ، ويقال بفتحهما جميعا ، وضمهما جميعا ، وبكسرهما جميعا ، وهى مؤنثة ، وكذلك الأذن وتخفف وتثقل وتصغر ، فيقال : أذينة ولو سميت بها رجلا ثم صغرته قلت : أذين ، فلم تؤنث لزوال التأنيث عنه بالنقل إلى المذكر ، فأما قولهم : أذينة فى الاسم العلم فإنما سمى به مصغرا . والجمع آذان ، وتقول : أذنته إذا ضربت أذنه ، ورجل أذن إذا كان يسمع مقال كل أحد ، يستوى فيه الواحد والجمع ، وأذانى : عظيم الأذنين ، ونعجة أذناء ، وكبش آذن ، وأذنت النعل وغيرها تأذينا ، إذا جعلت لها أذنا ، وأذنت الصبى عركت أذنه .

قوله تعالى : ﴿مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ أى من أجل الصواعق ، والصواعق جمع صاعقة ، قال ابن عباس ومجاهد ، وغيرهما : إذا اشتد غضب الرعد الذى هو الملك طار النار من فيه وهى الصواعق ، وكذا قال الخليل قال : هى الواقعة الشديدة من صوت الرعد ، يكون معها أحيانا قطعة نار تحرق ما أتت عليه . وقال أبو زيد : الصاعقة : نار تسقط من السماء فى رعد شديد . وحكى الخليل عن قوم : الساعقة بالسين ، وقال أبو بكر النقاش يقال : صاعقة وصعقة وصاقعة بمعنى واحد ، وقرأ الحسن : من الصواقع بتقديم القاف ، ومنه قول أبى النجم :

يحكون بالمصقولة القواطع * تشقق البرق عن الصواقع

قال النحاس : وهى لغة تميم و بعض بنى ربيعة ، ويقال : صعقتهم السماء إذا ألقت عليهم الصاعقة ، والصاعقة أيضا صيحة العذاب ، قال الله عز وجل : ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ . ويقال : صعق صعقة وتصعاقا أى غشى عليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ فأصعقه غيره ، قال ابن مقبل :

ترى النعرات الزُّرْقَ[1] تحت لبانه * أحادى ومثنى أصعقتها صواهله

وقوله تعالى : ﴿ فَصَعِقَ مَنْ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ . أى مات ، وشبه الله تعالى فى هذه الآية أحوال المنافقين بما فى الصيب من الظلمات والرعد والبرق والصواعق ؛ فالظلمات مثل لما يعتقدونه من الكفر، والرعد والبرق مثل لما يخوفون به ؛ وقيل : مثل الله تعالى القرآن بالصيب لما فيه من الإشكال عليهم . والعمى : هو الظلمات ، وما فيه من الوعيد، والزجر: هو الرعد، وما فيه من النور والحجج الباهرة التى تكاد أحيانا أن تبهرهم : هو كالبرق . والصواعق مثل لما فى القرآن من الدعاء إلى القتال فى العاجل، والوعيد فى الأجل . وقيل : الصواعق : تكاليف الشرع التى يكرهونها من الجهاد والزكاة وغيرهما .

قوله : ﴿ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ . حذر وحِذارِ بمعنى ؛ وقرئ بهما ؛ قال سيبويه : هو منصوب لأنه مفعول له أى مفعول من أجله ، وحقيقته أنه مصدر ؛ وأنشد سيبويه :

وأغفر عوراء الكريم ادخاره * وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

وقال الفراء : هو منصوب على التمييز . والموت : ضدّ الحياة ، وقد مات يموت ويمات أيضا قال الراجز :

بنيتي سيدة البنات * عيشى ولا يؤمن أن تماتي

فهو ميّتٌ وميْتٌ وقوم موتى وأموات وميّتون وميْتون؛ والموات بالضم : الموت؛ والموات بالفتح : مالا روح فيه ، والموات أيضا الأرض التى لا مالك لها من الآدميين ولا ينتفع بها أحد؛ والموتان بالتحريك خلاف الحيوان؛ يقال : اشتر المَوَتان، ولا تشتر الحيوان؛ أى اشتر الأرضين والدور، ولا تشتر الرقيق والدواب، والموتان بالضم : موت تقع فى الماشية؛ يقال : وقع فى المال موتان؛ وأماته الله وموته شدّد للمبالغة، وقال :

فعروة مات موتا مستريحا * فهاأنذا أُمَوَّتُ كلّ يوم

وأماتت الناقة إذا مات ولدها فهى مميت ومميتة؛ قال أبو عبيد : وكذلك المرأة وجمعها مماويتُ؛ قال ابن السكيت : أمات فلان إذا مات له ابن أو بنون؛ والمتماوت من صفة الناسك المرائى؛

(١) فى اللسان مادة (صعق) : «الخضر» .

وموت مائت، كقولك : ليل لائل، يؤخذ من لفظه ما يؤكد به، والمستميت للأمر المسترسل له ؛ قال رؤبة :

وزبد البحـــر له كتيت * والليل فوق المـاء مستميت

والمستميت أيضا : المستقتل الذى لا يبالى فى الحرب من الموت؛ وفى الحديث : "أرى القوم مستميتين" وهم الذين يقاتلون على الموت؛ والموتة بالضم : جنس من الجنون والصرع يعترى الإنسان؛ فإذا أفاق عاد إليه كمال عقله كالنائم والسكران ؛ ومؤتة بضم الميم وهمز الواو : اسم أرض قتل بها جعفر بن أبى طالب عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ . ابتـداء وخبر، أى لا يفوتونه، يقـال : أحاط السلطان بفلان إذا أخذه أخذا حاصرا من كل جهة، قال الشاعر :

أحطنا بهـم حتى إذا ما تيقنوا * بما قد رأوا مالوا جميعا إلى السلم

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ . وأصله محيط نقلت حركة الياء إلى الحاء فسكنت، فالله سبحانه محيـط بجميع المخلوقات، أى هى فى قبضته وتحت قهره، كما قال : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ . وقيل : محيط بالكافرين، أى عالم بهم، دليله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَـدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ . وقيل : مهلكهم وجامعهم، دليله قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ . أى إلا أن تهلكوا جميعا ؛ وخص الكافرين بالذكر لتقدّم ذكرهم فى الآية . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ . الآية يكاد معناه يقارب، يقال : كاد يفعل كذا إذا قارب ولم يفعل ؛ ويجوز فى غير القرآن يكاد أن يفعل، كما قال رؤبة :

قد كاد من طول البلى أن يمصحا .

مشتق من المصح وهو الدرس؛ والأجود أن تكون بغير أن لأنها لمقاربة الحـال، وأن تصرف الكلام إلى الاستقبال وهذا متناف؛ قال الله عز وجل : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ . ومن كلام العرب : كاد النعام يطير، وكاد العروس يكون أميرا ، لقربهما من تلك الحـال ؛ وكاد فعل متصرف على فعل يفعَل ؛ وقد جاء خبره بالاسم وهو قليل ، قال : وما كدت آئبا . ويجرى مجرى

كاد : كرب وجعل وقارب وطفق، فى كون خبرها بغير أن، قال الله عز وجل : ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ لأنها كلها بمعنى الحال والمقاربة، والحال لا يكون معها أن فاعلم .

قوله تعالى : ﴿يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ الخطف : الأخذ بسرعة، ومنه سمى الطير خطافا لسرعته، فمن جعل القرآن مثلا للتخويف فالمعنى أن خوفهم مما ينزل بهم يكاد يذهب أبصارهم ، ومن جعله مثلا للبيان الذى فى القرآن فالمعنى أنهم جاءهم من البيان ما بهرهم ؛ ويخطَف ويخطِف لغتان قرئ بهما ؛ وقد خطِفه بالكسر يخطَفهُ خطفا ، وهى اللغة الجيدة ؛ واللغة الأخرى حكاها الأخفش : خطَف يخطِف ؛ الجوهرى : وهى قليلة رديئة لا تكاد تعرف، وقد قرأ بها يونس فى قوله تعالى : ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ . وقال النحاس : فى يخطف سبعة أوجه، القراءة الفصيحة : يخطَف ؛ وقرأ علىّ بن الحسين، ويحيى بن وثاب : يخطِف بكسر الطاء . قال سعيد الأخفش : هى لغة؛ وقرأ الحسن وقتادة ، وعاصم الجحدرىّ ، وأبو رجاء العطاردىّ : بفتح الياء وكسر الخاء والطاء ؛ وروى عن الحسن أيضا : أنه قرأ بفتح الخاء، قال الفرّاء : وقرأ بعض أهل المدينة بإسكان الخاء وتشديد الطاء، قال الكسائى والأخفش والفراء : يجوز يخطف بكسر الياء والخاء والطاء، فهذه ستة أوجه موافقة للخط، والسابعة حكاها عبد الوارث قال : رأيت فى مصحف أبىّ بن كعب يتخطف، وزعم سيبويه والكسائى : أن من قرأ يخطف بكسر الخاء والطاء فالأصل عنده يختطف ثم أدغم التاء فى الطاء فالتقى ساكنان فكسرت الخاء لالتقاء الساكنين ؛ قال سيبويه : ومن فتح الخاء ألقى حركة التاء عليها؛ وقال الكسائىّ : ومن كسر الياء فلأن الألف فى اختطف مكسورة؛ فأما ما حكاه الفراء عن أهل المدينة من إسكان الخاء والإدغام فلا يعرف ولا يجوز لأنه جمع بين ساكنين قاله النحاس وغيره .

قلت : وروى عن الحسن أيضا وأبى رجاء يَخِطِّف . قال ابن مجاهد : وأظنه غلطا، واستدل على ذلك بأن خطف الخطفة لم يقرأه أحد بالفتح .

﴿أَبْصَارَهُمْ﴾ جمع بصر وهى حاسة الرؤية، والمعنى : تكاد حجج القرآن وبراهينه الساطعة تبهرهم ومن جعل البرق مثلا للتخويف فالمعنى أن خوفهم مما ينزل بهم يكاد يذهب أبصارهم .

وقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ﴾ . كلما منصوب لأنه ظرف ، وإذا كان كلما بمعنى إذا فهي موصولة والعامل فيه مشوا وهو جوابه ، ولا يعمل فيه أضاء لأنه في صلة ما ، والمفعول في قول المبرد محذوف ، التقدير عنده : كلما أضاء لهم البرق الطريق ، وقيل : يجوز أن يكون فعل وأفعل بمعنى ، كسكت وأسكت ، فيكون أضاء وضاء سواء فلا يحتاج إلى تقدير حذف مفعول ، قال الفراء : يقال ضاء وأضاء وقد تقدم ، والمعنى : أنهم كلما سمعوا القرآن وظهرت لهم الحجج أنسوا ومشوا معه ، فإذا نزل من القرآن ما يعمون فيه ويضلون به أو يكلفونه قاموا ، أي ثبتوا على نفاقهم ، عن ابن عباس ، وقيل : المعنى كلما صلحت أحوالهم في زروعهم ومواشيهم وتوالت عليهم النعم قالوا : دين محمد دين مبارك ، وإذا نزلت بهم مصيبة وأصابتهم شدة ، سخطوه وثبتوا في نفاقهم ، عن ابن مسعود ، وقتادة ، قال النحاس : وهذا قول حسن ويدل على صحته : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ . وقال علماء الصوفية : هذا مثل ضربه الله تعالى لمن لم تصح له أحوال الارادة بدءاً ، فارتقى من تلك الأحوال بالدعاوى إلى أحوال الأكابر كان تضيء عليه أحوال الإرادة لو صححها بملازمة آدابها ، فلما مزجها بالدعاوى أذهب الله عنه تلك الأنوار وبقي في ظلمات دعاويه لا يبصر طريق الخروج منها . وروى عن ابن عباس أن المراد اليهود لما نُصر النبي صلى الله عليه وسلم ببدر طمعوا ، وقالوا : هذا والله النبي الذي بشرنا به موسى لا ترد له راية ، فلما نُكب بأحد ارتدوا وشكوا ، وهذا ضعيف . والآية في المنافقين ، وهذا أصح عن ابن عباس ، والمعنى يتناول الجميع .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ . لو حرف تمنٍ وفيه معنى الجزاء ، وجوابه اللام . والمعنى . ولو شاء الله لأطلع المؤمنين عليهم فذهب منهم عز الاسلام بالاستيلاء عليهم وقتلهم وإخراجهم من بينهم ، وخص السمع والبصر لتقدم ذكرهما في الآية أولا ، أو لأنهما أشرف ما في الانسان . وقرئ بأسماعهم على الجمع ، وقد تقدم الكلام في هذا .

قوله تعالى . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ عموم ، ومعناه عند المتكلمين فيما يجوز وصفه تعالى بالقدرة عليه ، وأجمعت الأمة على تسمية الله تعالى بالقدير ، فهو سبحانه قدير قادر مقتدر ، والقدير أبلغ في الوصف من القادر ، قاله الزجاجي . وقال الهروي : والقدير والقادر بمعنى واحد ، يقال :

قدرت على الشيء أقدر قدرا وقدرا ومقدرة ومقدرة وقدرانا أي قدرة؛ والاقتدار على الشيء : القدرة عليه ؛ فالله جل وعز قادر مقتدر قدير على كل ممكن يقبل الوجود والعدم ؛ فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله تعالى قادر ، له قدرة بها فعل ويفعل ما يشاء على وفق علمه واختياره؛ ويجب عليـه أيضا أن يعلم أن للعبد قدرة يكتسب بها ما أقدره الله تعالى عليه على مجرى العادة ، وأنه غير مستبد بقدرته؛ وإنما خص هنا تعالى صفته التي هي القدرة بالذكر دون غيرها؛ لأنه تقدم ذكر فعل مضمنه الوعيد والإخافة ؛ فكان ذكر القدرة مناسبا لذلك والله أعلم .

فهـذه عشرون آية على عدد الكوفيين ؛ أربع آيات في وصـف المؤمنين ، ثم تليها آيتان في ذكر الكافرين، وبقيتها في المنافقين، وقد تقدمت الرواية فيها عن ابن جريج، وقاله مجاهد أيضا .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ . قال علقمة ومجاهد : كل آية أولها : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاس ﴾ . فإنما نزلت بمكة، وكل آية أولها : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فإنما نزلت بالمدينة .

قلت : وهـذا يرده أن هذه السورة ، والنسـاء مدنيتان وفيهما (يايها النـاس) وأما قولهما في ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا ﴾ فصحيح . وقال عروه بن الزبير : ما كان من حد أو فريضـة فإنه نزل بالمدينة، وما كان من ذكر الأمم والعذاب فإنه نزل بمكة؛ وهذا واضح . ويا ــ في قوله : (يأيها) حرف نداء؛ (أيّ) منادى مفرد مبنيّ على الضم لأنه منادى في اللفظ، وها، للتنبيه . الناس مرفوع صفة لأيّ عند جماعة النحويين ماعدا المـازني فإنه أجاز النصب قياسا على جوازه في : يا هذا الرجل؛ وقيل : ضمت أي كما ضم المقصود المفرد ، وجاءوا (بها) عوضا عن ياء أخرى، وإنما لم يأتوا بياء لئلا ينقطع الكلام ، فجاءوا (بها) حتى يبقى الكلام متصلا . قال سيبويه : كأنك كررت يا مرتين وصار الاسم بينهما، كما قالوا : ها هو ذا ؛ وقيـل : لمـا تعذر عليهم الجمع بين حرفي تعريف؛ أتوا في الضرورة بمنادى مجرد عن حرف تعريف، وأجروا عليه المعرّف باللام المقصود بالنداء، والتزموا رفعه لأنه المقصود بالنداء، فجعلوا إعرابه بالحركة التي كان يستحقها لو باشرها النداء تنبيها على أنه المنادى فاعلمه .

واختلف من المراد بالناس هنا على قولين؛ أحدهما : الكفار الذين لم يعبدوه؛ يدل عليه قوله : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ . الثاني أنه عام في جميع النـاس فيكون خطابه للمؤمنين باسـتدامة العبادة، وللكافرين بابتدائها، وهذا حسن .

قوله تعالى : ﴿ ٱعْبُدُوا ﴾ أمر بالعبادة له ؛ والعبادة هنا عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه . وأصل العبادة : الخضوع والتذلل، يقال : طريق معبّدة إذا كانت موطوءة بالأقدام ؛ قال طرفة :

* وظيفا وظيفا فوق مور معبد *

والعبادة : الطاعة، والتعبد : التنسك، وعبّدت فلانا : اتخذته عبدا .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ . خص تعالى خلقه لهم من بين سائر صفاته ، إذ كانت العرب مقرّة بأن الله خلقها، فذكر ذلك حجــة عليهم وتقريعا [لهم]، وقيل : ليذكرهم بذلك نعمته عليهم . وفي أصل الخلق وجهان، أحدهما : التقدير، يقال : خلقت الأديم للسقاء إذا قدرته قبل القطع ؛ قال الشاعر :

ولا أنت تفرى ما خلقت وبعـ * ـض القــوم يخلق ثم لا يفرى

وقال الحجاج : ما خلقت إلا فريت، ولا وعدت إلا وفيت . الثاني : الإنشاء والاختراع والإبداع؛ قال الله تعالى : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ .

قوله تعــالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ . فيقال إذا ثبت عندهم خلقهم ، ثبت عنــدهم خلق غيرهم ، فالجواب : أنه إنمــا يجرى الكلام على التنبيه والتذكير ليكون أبلغ في العظة، فذكرهم من قبلهم ليعلموا أن الذى أمات من قبلهم وهو خلقهم يميتهم، وليفكروا فيمن مضى قبلهم كيف كانوا، وعلى أي الأمور مضوا من إهلاك من أهلك؛ وليعلموا أنهم يبتلون كما ابتلوا . والله أعلم .

قوله تعالى :﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾. لعل متصلة باعبدوا، لا بخلقكم؛ لأن من ذرأه الله لجهنم لم يخلق ليتق، وهذا وما كان مثله فيما ورد في كلام الله تعالى من قوله ، ﴿ لعلكم تعملون، لعلكم تشكرون ، لعلكم تذكرون، لعلكم تهتدون ﴾ . فيه ثلاث تأويلات :

الأول ـــ أن لعل على بابها من الترجى والتوقع ، والترجى والتوقع إنما هو في حيز البشر، فكأنه : قيل لهم : افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تعقلوا وأن تذكروا وأن تتقوا ؛ هــذا قول سيبويه ورؤساء اللسان؛ قال سيبويه : في قوله عز وجل : ﴿ ٱذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُــولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ . قال معناه : اذهبا على طمعكما ورجائكما أن يتــذكر أو يخشى؛ واختار هذا القول أبو المعالي .

الثـانى — أن العرب استعملت لعل مجردة من الشك بمعنى لام كى ؛ فالمعنى لتعقلوا ولتذكروا ولتتقوا؛ وعلى ذلك يدل قول الشاعر :

وقلتم لنـا كفوا الحروب لعلنا * نكف ووثقتم لنا كل موثق

فلما كففنا الحرب كانت عهودكم * كلمع سراب فى الملا متألق

المعنى : كفوا الحروب لنكف : ولو كانت لعل هنا شكا لم يوثقوا لهم كل موثق ؛ وهذا القول عن قطرب والطبرى .

الثالث — أن تكون لعل بمعنى التعرض للشيء؛ كأنه قيل : افعلوا ذلك متعرضين لأن تعقلوا؛ أو لأن تذكروا أو لأن تتقــوا؛ والمعنى فى قوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ . أى لعلكم أن تجعلوا بقبــول ما أمركم الله به وقاية بينكم وبين النار؛ وهذا من قول العــرب : اتقاه بحقه إذا استقبله به؛ فكأنه جعل دفعه حقه إليه وقاية له من المطالبة، ومنه قول علىّ رضى الله عنه : كنا إذا احمر البأس اتقينا بالنبى صلى الله عليه وسلم، أى جعلناه وقاية لنا من العدو، وقال عنترة :

ولقد كررت المهر يدمى نحره * حتى اتقتنى الخيل بابنى حذيم

قوله تعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ . فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿الذى جعل﴾ معناه هنا صير لتعديه إلى مفعولين ؛ و يأتى بمعنى خلق ومنه قوله تعالى : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ﴾ . وقوله . ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ . و يأتى بمعنى سمى، ومنه قوله تعالى : ﴿حم . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ . وقوله : ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ . ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ أى سموهم، و يأتى بمعنى أخذ كما قال الشاعر :

وقد جعلَتْ نفسى تطيب لضَغمةٍ * لضغمِهِمَا ها يَقْـــرع العظمَ نابُهــا

وقد تأتى زائدة كما قال الآخر:

وقد جعلت أرى الاثنين أربعة * والأربع اثنين لـما هدّنى الكبر

وقد قيل فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ إنها زائدة، وجعل واجتعل بمعنى واحد؛ قال الشاعر :

ناط أمر الضعاف واجعل الليـ * ـل كحبل العادية الممدود

﴿ فِرَاشًا ﴾، أى وطاء يفترشونها ويستقرون عليها؛ وماليس بفراش كالجبال والأوعار والبحار فهي من مصالح ما يفترش منها؛ لأن الجبال كالأوتاد كما قال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا . وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ . والبحار تركب إلى سائر منافعها؛ كما قال : ﴿ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ .

الثانية — قال أصحاب الشافعي : لو حلف رجل ألا يبيت على فراش أولا يستسرج بسراج فبات على الأرض، وجلس فى الشمس لم يحنث؛ لأن اللفظ لا يرجع إليهما عرفا . وأما المالكية فبنوه على أصلهم فى الأيمان أنها محمولة على النية أو السبب أو البساط الذى جرت عليه اليمين؛ فإن عدم ذلك فالعرف .

الثالثة — قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ السماء للأرض كالسقف للبيت؛ ولهذا قال وقوله الحق: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾ . وكل ما علا فأظل؛ قيل له: سماء؛ وقد تقدم القول فيه. والوقف على «بناء» أحسن منه على «تتقون»؛ لأن قوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا ﴾ نعت للرب؛ ويقال : بنى فلان بيتا، وبنى على أهله بناء فيهما أى زفها؛ والعامة تقول : بنى بأهله، وهو خطأ؛ وكأن الأصل فيه : أن الداخل بأهله كان يضرب عليها قبة ليلة دخوله بها؛ فقيل لكل داخل بأهله: بان، وبنى مقصورا، شدد للكثرة، وابتنى دارا وبنى بمعنى؛ ومنه بنيان الحائط؛ وأصله : وضع لبنة على أخرى حتى تثبت .

وأصل الماء : موه؛ قلبت الواو ألفا لتحركها وتحرك ما قبلها فقلت ماه، فالتقى حرفان خفيفان فأبدلت من الهاء همزة، لأنها أجلد، وهى بالألف أشبه فقلت : ماء؛ الألف الأولى عين الفعل، وبعدها الهمزة التى هى بدل من الهاء، وبعد الهمزة ألف بدل من التنوين. قال أبو الحسن : لا يجوز أن يكتب إلا بألفين عند البصريين، وإن شئت بثلاث، فإذا جمعوا أو صغروا ردوا إلى الأصل؛ فقالوا : مويه وأمواه ومياه، مثل : جمال وأجمال .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ . الثمرات جمع ثمرة؛ ويقال : ثمر مثل شجر؛ ويقال : ثُمُر مثل خُشُب، ويقال : ثُمْر مثل بُدْن، وثمار مثل إكام جمع ثمرة . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى الأنعام إن شاء الله؛ وثمار السياط : عقد أطرافها .

والمعنى فى الآية أخرجنا لكم ألوانا من الثمرات ، وأنواعا من النبات ؛ رزقا، طعاما لكم ، وعلفا لدوابكم ؛ وقد بين هذا قوله تعالى : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ . وقد مضى الكلام فى الرزق مستوفى والحمد لله .

فإن قيل : كيف أطلق اسم الرزق على ما يخرج من الثمرات قبل التملك ؟ قيل له : لأنها معدّة لأن تملك، ويصح بها الانتفاع، فهى رزق .

الخامسة — قلت : ودلت هذه الآية على أن الله تعالى أغنى الإنسان عن كل مخلوق؛ ولهذا قال عليه السلام مشيرا إلى هذا المعنى : "والله لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل أحدا أعطاه أو منعه" أخرجه مسلم ؛ ويدخل فى معنى الاحتطاب جميع الأشغال من الصنائع وغيرها ؛ فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة فى زخرف الدنيا ؛ فقد أخذ بطرف من جعل لله ندا . وقال علماء الصوفية : أعلم الله عز وجل فى هذه الآية سبيل الفقر؛ وهو أن تجعل الأرض وطاء، والسماء غطاء، والماء طيبا والكلأ طعاما؛ ولا تعبد أحدا فى الدنيا من الخلق بسبب الدنيا؛ فان الله عز وجل قد أباح لك ما لا بد لك منه، من غير منة فيه لأحد عليك. وقال نوف البكالى : رأيت على بن أبى طالب خرج فنظر إلى النجوم فقال : يا نوف، أراقد أنت أم رامق؟ قلت : بل رامق يا أمير المؤمنين؛ قال : طوبى للزاهدين فى الدنيا، الراغبين فى الآخرة؛ أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطا، وترابها فراشا، وماءها طيبا، والقرآن والدعاء دثارا وشعارا ؛ فرفضوا الدنيا على منهاج المسيح عليه السلام . وذكر باقى الخبر وسيأتى تمامه فى هذه السورة عند قوله تعالى: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ ﴾ إن شاء الله تعالى .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا ﴾ نهى . ﴿ لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أى أكفاء وأمثالا ونظراء ؛ واحدها ند؛ وكذلك قرأ محمد بن السميفع : ندا؛ قال الشاعر :

نحمد الله ولا ند له * عنده الخير وما شاء فعل

وقال حسان :

أتهجوه ولست له بند * فشركما لخيركما الفداء

ويقال ندو نديد ونديدة على المبالغة؛ قال لبيد :

لكيلا يكون السندرىّ نديدتى * وأجعل أقواما عموما عماعما

وقال أبو عبيدة : أندادا : أضدادا . النحاس : أندادا مفعول أول، ولله فى موضع الثانى . الجوهرى : والند بفتح النون : التل المرتفع فى السماء، والند من الطيب ليس بعربى، وند البعير يند ندا وندادا وندودا : نفر وذهب على وجهه، ومنه قرأ بعضهم : ﴿ يَوْمَ التَّنَادِّ ﴾ . وندّد به أى شهّره وسمّع به .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ابتداء وخبر، والجملة فى موضع الحال، والخطاب للكافرين والمنافقين؛ عن ابن عباس .

فان قيل : كيف وصفهم بالعلم وقد نعتهم بخلاف ذلك من الختم والطبع والصمم والعمى ؟

فالجواب من وجهين، أحدهما : وأنتم تعلمون ، يريد العلم الخاص بأن الله تعالى خلق الخلق وأنزل الماء وأنبت الرزق ، فيعلمون أنه المنعم عليهم دون الأنداد . الثانى : أن يكون المعنى وأنتم تعلمون وحدانيته بالقوة والإمكان لو تدبرتم ونظرتم ؛ والله أعلم . وفى هذا دليل على الأمر باستعمال حجج العقول، وإبطال التقليد، وقال ابن فورك : يحتمل أن تتناول الاية المؤمنين ؛ فالمعنى لا ترتدوا أيها المؤمنون وتجعلوا لله أندادا بعد علمكم الذى هو نفى الجهل بأن الله واحد .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ . أى فى شك ﴿ مِمَّا نَزَّلْنَا ﴾ يعنى القرآن، والمراد المشركون الذين تحدّوا ، فانهم لما سمعوا القرآن قالوا ما يشبه هذا كلام الله، وإنا لفى شك منه، فنزلت الآية . ووجه اتصالها بما قبلها أن الله سبحانه لما ذكر فى الاية الأولى الدلالة على وحدانيته وقدرته ، ذكر بعدها الدلالة على نبوة نبيه ، وأن ما جاء به ليس مفترى من عنده .

قوله : ﴿ عَلَى عَبْدِنَا ﴾ . يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ، والعبد مأخوذ من التعبد وهو التذلل ، فسمى المملوك من جنس ما يفعله عبدا، لتذلله لمولاه ، قال طرفة :

الى أن تحامتنى العشيرة كلها * وأفردت إفراد البعير المعبّد

أى المذلل، قال بعضهم : لما كانت العبادة أشرف الخصال، والتسمى بها أشرف الخطط، سمى نبيه عبداً، وأنشدوا :

ياقوم قلبي عند زهراء * يعرفه السامع والرائى

لاتدعنى إلا بيا عبدها * فانه أشرف أسمـائى

﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ ﴾ الفاء جواب الشرط، أتوا مقصور لأنه من باب المجىء قاله ابن كيسان، وهو أمر معناه التعجيز لأنه تعالى علم عجزهم عنه. والسورة واحدة السور وقد تقدم الكلام فيها وفى إعجاز القرآن، فلا معنى للإعادة. ومن ــ فى قوله : ﴿ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ ــ زائدة كما قال : ﴿ فَأْتُو بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾. والضمير فى مثله عائد على القرآن عند الجمهور من العلماء، كقتادة، ومجاهد، وغيرهما، وقيل : يعود على التوراة والإنجيل. فالمعنى فأتو بسورة من كتاب مثله فانها تصدق ما فيه؛ وقيل : يعود على النبى صلى الله عليه وسلم. المعنى من بشر أمىّ مثله لا يكتب ولا يقرأ. فمن على هذين التأويلين للتبعيض. والوقف على مثله ليس بتام، لأنّ وادعوا نسق عليه

قوله تعالى : ﴿ وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ ﴾ معناه أعوانكم ونصراءكم. الفراء : آلهتكم. وقال ابن كيسان : فان قيل كيف ذكر الشهداء هاهنا، وإنمـا يكون الشهداء ليشهدوا أمراً، أو ليخبروا بأمر شهدوه، وإنما قيل لهم : فأتوا بســورة من مثله ؟ فالجواب أن المعنى استعينوا بمن وجدتموه من علمـائكم، وأحضروهم ليشاهدوا ما تأتون به، فيكون الرد على الجميع أوكد فى الحجة عليهم.

قلت : هذا هو معنى قول مجاهد، قال مجاهد : معنى وادعوا شهداءكم، أى ادعوا ناسا يشهدون لكم أى يشهدون أنكم عارضتموه. النحاس : شهداءكم نصب بالفعل جمع شهيد، يقال : شاهـد وشهيد مثل، قادر وقدير.

وقوله : ﴿ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ ﴾. أى من غيره، ودون نقيض فوق، وهو تقصير عن الغاية، ويكون ظرفا. والدون : الحقير الخسيس، قال :

إذا ماعلا المـــرء رام العـــلاء * ويقنع بالدون من كان دونا

ولا يشتق منه فعل، وبعضهم يقول منه : دان يدون دونا، ويقال : هذا دون ذاك، أى أقرب منـه، ويقال فى الإغراء بالشىء : دونكه، قال تميم للحجاج : أقبرْنا صالحا ــ وكان قد صلبه ــ فقال : دونكموه.

قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . فيما قلتم من أنكم تقدرون على المعارضة، لقولهم في آية أخرى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ . والصدق: خلاف الكذب، وقد صدق في الحديث، والصدق : الصلب من الرماح، ويقال : صدقوهم القتال. والصدّيق : الملازم للصدق، ويقال : رجل صدق، كما يقال : نعم الرجل، والصداقة مشتقة من الصدق في النصح والود .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ يعني فيما مضى . ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ أي تطيقوا ذلك فيما يأتي . والوقف على هذا على «صادقين» تام. وقال جماعة من المفسرين: معنى الآية وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ولن تفعلوا، فإن لم تفعلوا فاتقوا النار. فعلى هذا التفسير لا يتم الوقف على «صادقين».

فإن قيل : كيف دخلت إن على لم ، ولا يدخل عامل على عامل ؟ فالجواب أنَّ إنْ هاهنا غير عاملة في اللفظ، فدخلت على لم كما تدخل على الماضي، لأنها لا تعمل في لم كما لا تعمل في الماضي، فمعنى إن لم تفعلوا إن تركتم الفعل .

قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ نصب بلن ، ومن العرب من يجزم بها، ذكره أبو عبيدة، ومنه بيت النابغة .

* فلن أُعَرِّضْ[1] أبيت اللعن بالصفد *

وفي حديث ابن عمر حين ذهب به إلى النار في منامه فقيل لي : لن ترع، هذا على تلك اللغة وفي قوله : ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ إثارة لهممهم، وتحريك لنفوسهم، ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها . وقال ابن كيسان : ولن تفعلوا، توقيفا لهم على أنه الحق، وأنهم ليسوا صادقين فيما زعموا من أنه كذب، وأنه مفترى، وأنه سحر، وأنه شعر، وأنه أساطير الأولين، وهم يدعون العلم ولا يأتون بسورة من مثله .

وقوله : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ جواب فإن لم تفعلوا، أي اتقوا النار بتصديق النبي صلى الله عليه وسلم، وطاعة الله تعالى . وقد تقدم معنى التقوى فلا معنى لإعادتها . ويقال : إن لغة تميم وأسد، فتقوا النار . وحكى سيبويه : تَقَى يَتْقِي، مثل : قضى يقضي . النار مفعوله، التي، من نعتها، وفيها ثلاث

(١) في اللسان مادة (صفد)، وشعراء النصرانية (ص ٦٦٨) طبع بيروت : « فلم » . وفي ديوانه المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم (٦١٧ أدب) : « فما عرضت » .

لغات ؛ التي واللتِ بكسر التاء واللتْ بإسكانها؛ وهي اسم مبهم للمؤنث ، وهي معرفة؛ ولا يجوز نزع الألف واللام منهـا للتنكير، ولا تتم إلا بصلة . وفي تثنيتها ثلاث لغات أيضا ؛ اللتان واللتا بحذف النون واللتانّ بتشديد النون . وفي جمعها خمس لغات؛ اللاتي وهي لغـة القرآن؛ واللاتِ بكسر التاء بلا ياء؛ وأنشد أبو عبيدة :

من اللواتي والتي واللاتِي ٭ زعمن أنْ قد كبِرت لداتي

واللوا بإسقاط التاء، هذا ما حكاه الجوهري . وزاد ابن الشـجري : اللائي بالهمز وإثبات الياء ، واللاءِ بكسر الهمزة وحذف اليـاء، واللا بحـذف الهمزة؛ فإن جمعت الجمع قلت في اللاتي : اللواتي، وفي اللائي : اللوائي . قال الجوهري : وتصغير التي اللتيا بالفتح والتشديد، قال الراجز :

بعد اللّتيا واللّتيا والتي ٭ إذا علتها أنفس تردّت

و بعض الشعراء أدخل على التي حرف النداء، وحروف النداء لا تدخل على ما فيه الألف واللام إلا في قولنا : يا الله، وحده؛ فكأنه شبهها به من حيث كانت الألف واللام غير مفارقتين لها، وقال :

من اجلك يا التي تيمت قلبي ٭ وأنت بخيـــلة بالــودّ عنّي

ويقال : وقع فلان في اللتيا والتي ؛ وهما اسمان من أسماء الداهية . والوقود بالفتح : الحطب ، وبالضم : التوقد . والناس ، عموم ، ومعناه الخصوص فيمن سبق عليه القضاء أنه يكون حطبا لها ، أجارنا الله منها . والحجارة ، هي حجارة الكبريت الأسود — عن ابن مسعود والفـراء — وخصت بذلك لأنها تزيد على جميع الأحجار بخمسة أنواع من العـذاب ؛ سرعة الانقاد ، نتن الرائحة ، كثرة الدخان ، شدّة الالتصاق بالأبدان ، قوة حرها إذا حميت ، وليس في قوله تعالى : ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ دليل على أن ليس فيها غير النـاس والحجارة بدليل ما ذكره في غير موضع من كون الجن والشـياطين فيها . وقيل . المراد بالحجارة الأصنام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي حطب جهنم ؛ وعليه فتكون الحجارة والناس وقودا للنار ؛ وذكر ذلك تعظيما للنار أنها تحرق الحجارة مع إحراقها للناس . وعلى التأويل الأوّل يكونون معذبين بالنـار والحجارة ، وقد جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " كل مؤذ في النار" . وفي تأويله وجهان ، أحدهما : أن كل من آذى الناس في الدنيا عذبه الله في الآخرة بالنار . الثاني : أن كل ما يؤذي الناس في الدنيا من

السباع والهوام وغيرها في النار، معد لعقوبة أهل النار . وذهب بعض أهل التأويل إلى أن هذه النار المخصوصة بالحجارة هي نار الكافرين خاصة . والله أعلم .

وروى مسلم عن العباس بن عبد المطلب قال : قلت يا رسول الله إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك، فهل نفعه ذلك؟ قال : "نعم وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح" في رواية "ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار" . وقودها مبتدأ، الناس خبره، والحجارة عطف عليهم . وقرأ الحسن، ومجاهد، وطلحة بن مصرف : وقودها بضم الواو، وقرأ عبيد[1] بن عمير : وقيدها الناس . قال الكسائي والأخفش : والوقود بفتح الواو : الحطب، وبالضم الفعل، يقال : وقدت النار تقد وقودا بالضم ووقدا ووقدة ووقدانا أي توقدت، وأقدتها أنا واستوقدتها أيضا، والاتقاد مثل التوقد، والموضع موقد، مثل مجلس، والنار موقدة، والوقدة : شدة الحر، وهي عشرة أيام أو نصف شهر . قال النحاس : يجب على هذا ألا يقرأ إلا وقودها لأن المعنى حطبها، إلا أن الأخفش قال : وحكى أن بعض العرب يجعل الوقود والوقود بمعنى الحطب والمصدر . قال النحاس : وذهب إلى أن الأول أكثر، قال : كما أن الوضوء الماء، والوضوء المصدر .

قوله تعالى : ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ . ظاهره أن غير الكافرين لا يدخلها وليس كذلك، بدليل ما ذكره في غير موضع من الوعيد للمذنبين وبالأحاديث الثابتة في الشفاعة على ما يأتي ، وفيه دليل على ما يقوله أهل الحق من أن النار موجودة مخلوقة ، خلافا للمبتدعة في قولهم : إنها لم تخلق حتى الآن ، وهو القول الذي سقط فيه القاضي منذر بن سعيد البلوطي الأندلسي . روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سمع وجبة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "تدرون ما هذا" قال قلنا : الله ورسوله أعلم، قال : "هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفا فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها" وروى البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "احتجت النار والجنة فقالت هذه يدخلني الجبارون والمتكبرون وقالت هذه يدخلني الضعفاء والمساكين فقال الله لهذه أنت عذابي أعذب بك من أشاء وقال لهذه أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها" وأخرجه مسلم بمعناه . يقال : احتجت

(١) في نسخة : «أبو عبيد» .

بمعنى تحتج، للحديث المتقدّم حديث ابن مسعود؛ ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أريهما في صلاة الكسوف، ورآهما أيضا في إسرائه ودخل الجنـة؛ فلا معنى لمـا خالف ذلك . وبالله التوفيق .

و﴿ أُعِدَّتْ ﴾ . يجوز أن يكون حالا للنار على معنى معدّة، وأضمرت معه قد؛ كما قال : ﴿ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ . فمعنـاه : قد حصرت صدورهم ، فمع حصرت قـد مضمرة لأن المـاضي لا يكون حالا إلا مع قد؛ فعلى هـذا لا يتم الوقف على الحجارة . ويجوز أن يكون كلاما منقطعا عما قبله ؛ كما قال: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ﴾ . وقال السجستاني: أعدّت للكافرين من صلة التي ؛ كما قال في آل عمران : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ . ابن الأنبـاري : وهذا غلط لأن التي في سورة البقرة قد وصلت بقوله : ﴿ وَقُودُهَا النَّـاسُ ﴾ . فلا يجوز أن توصل بصلة ثانية ؛ وفي آل عمران ليس لها صلة غير أعدت .

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ . فيه ثلاث مسائل :

الأولى — لمـا ذكر الله عن وجل جزاء الكافرين ذكر جزاء المؤمنين أيضا ، والتبشير: الإخبار بمـا يظهر أثره على البشرة وهي ظاهر الجلد لتغيرها بأوّل خبر يرد عليها ؛ ثم الغالب أن يستعمل في السرور مقيدا بالخير المبشر به ، وغير مقيد أيضا؛ ولا يستعمل في الغم والشر إلا مقيدا منصوصا على الشر المبشر به ؛ قال الله تعـالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ . ويقال : بشرته وبشّرته مخفف ومشدد بشارة بكسر الباء فأبشر واستبشر، وبشر يبشر إذا فرح، ووجه بشير إذا كان حسنا بيّن البشارة بفتح الباء، والبُشرى : ما يعطاه المبشر، وتباشير الشيء : أوله .

الثانيـة — أجمع العلماء على أن المكلف إذا قال من بشرني من عبيدي بكذا فهو حرّ، فبشره واحد من عبيده فأكثر فان أولهم يكون حرا دون الثاني واختلفوا إذا قال : من أخبرني من عبيدي بكذا فهو حر فهل يكون الثاني مثل الأوّل ؟ فقال أصحاب الشافعي : نعم ، لأن كل واحد منهم مخبر وقال علماؤنا : لا، لأن المكلف إنما قصد خبرا يكون بشارة؛ وذلك يختص بالأوّل ، وهذا معلوم عرفا فوجب صرف القول إليه . وفرق محمد بن الحسن بين قوله : أخبرني ، وحدثني؛ فقال : إذا قال الرجل أيّ غلام لي أخبرني بكذا، أو أعلمني بكذا وكذا ، فهـو حر — ولا نيـة له — فأخبره غلام له بذلك بكتاب ، أو كلام، أو رسول؛ فإن الغلام يعتق لأن هذا خبر ، وإن أخبره بعد ذلك

غلام له عتق؛ لأنه قال: أي غلام أخبرني فهو حر، ولو أخبروه كلهم عتقوا؛ وإن كان عنى بالخبر، كلام مشافهة لم يعتق واحد منهم إلا أن يخبره بكلام مشافهة بذلك الخبر. قال: وإذا قال أي غلام لي حدثني، فهذا على المشافهة، لا يعتق واحد منهم.

الثالثة — قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. ردّ على من يقول: إن الإيمان بمجرده يقتضي الطاعات، لأنه لو كان ذلك ما أعادها؛ فالجنة تنال بالإيمان والعمل الصالح، وقيل: الجنة تنال بالإيمان، والدرجات تستحق بالأعمال الصالحات. والله أعلم.

﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ في موضع نصب ببشر، والمعنى وبشر الذين آمنو بأن لهم، أو لأن لهم؛ فلما سقط الخافض عمل الفعل؛ وقال الكسائي وجماعة من البصريين: أنّ في موضع خفض بإضمار الباء.

﴿جَنَّاتٍ﴾ في موضع نصب اسم أن، وأن وما عملت فيه في موضع المفعول الثاني. والجنات: البساتين، وإنما سميت جنات لأنها تجن من فيها أي تستره بشجرها، ومنه: المجن والجنين والجنة.

﴿تَجْرِي﴾ في موضع النعت لجنات، وهو مرفوع لأنه فعل مستقبل فحذفت الضمة من الياء لثقلها معها.

﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي من تحت أشجارها، ولم يجر لها ذكر لأن الجنات دالة عليها.

﴿الْأَنْهَارُ﴾ أي ماء الأنهار، فنسب الجري إلى الأنهار توسعا، وإنما يجري الماء وحده فحذف اختصارا، كما قال تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾. أي أهلها، وقال الشاعر:

نبئت أن النار بعدك أوقدت * واستب بعدك يا كليب المجلس

أراد: أهل المجلس فحذف. والنهر: مأخوذ من أنهرت أي وسعت؛ ومنه قول قيس بن الخطيم:

ملكت بها كفي فأنهرت فتقها * يرى قائم من دونها ما وراءها

أي وسعتها، يصف طعنة؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ما أنهر الدمَ وذكر اسم الله عليه فكلوه" معناه: ما وسع الذبح حتى يجري الدم كالنهر؛ وجمع النهر: نهر وأنهار؛ ونَهرٌ نَهِرٌ: كثير الماء؛ قال أبو ذؤيب:

أقامت به فابتنت خيمة * على قصب وفرات نهر

وروى : أن أنهار الجنة ليست فى أخاديد، إنما تجرى على سطح الجنة منضبطة بالقدرة حيث شاء أهلها . والوقف على الأنهار حسن وليس بتام ؛ لأن قوله : ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ﴾ من وصف الجنات .

﴿رِزْقًا﴾ مصدر، وقد تقدم القول فى الرزق . ومعنى ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يعنى فى الدنيا ، وفيه وجهان ، أحدهما : أنهم قالوا : هـذا الذى وعدنا به فى الدنيا . الثانى : هـذا الذى رزقنا فى الدنيا؛ لأن لونها يشبه لون ثمار الدنيا؛ فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك . وقيل : «من قبل» يعنى فى الجنة لأنهم يرزقون ثم يرزقون ؛ فإذا أتوا بطعام وثمـار فى أول النهار فأكلوا منها ، ثم أتوا منها فى آخر النهار ؛ قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل، يعنى أطعمنا فى أول النهار لأن لونه يشبه ذلك ؛ فإذا أكلوا منها وجدوا لها طعما غير طعم الأول .

﴿وَأُتُوا﴾ فعلوا مـن أتيت ، وقرأه الجماعة بضم الهمزة والتاء، وقرأ هارون الأعور : وأَتَوا ، بفتح الهمزة والتاء فالضمير فى القراءة الأولى لأهل الجنة ، وفى الثانية للخدام .

﴿بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ حال من الضمير فى به، أى يشبه بعضه بعضا فى المنظر ويختلف فى الطعم . قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغيرهم. وقال عكرمة : يشبه ثمر الدنيا ويباينه فى جلّ الصفات . ابن عباس : هذا على وجه التعجب، وليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة سوى الأسماء، فكأنهم تعجبوا لمـا رأوه مـن حسن الثمرة، وعظم خلقها . وقال قتادة : خيارا لارذل فيـه، كقوله تعـالى : ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ . وليس كثمار الدنيا التى لا تتشابه ؛ لأن فيها خيارا وغير خيار .

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ﴾ . ابتداء وخبر، وأزواج : جمع زوج، والمرأة : زوج الرجل، والرجل، زوج المرأة . قال الأصمعى : ولا تكاد العرب تقول زوجة . وحكى الفراء أنه يقـال : زوجة ، وأنشد الفرزدق :

وإن الذى يسعى ليفسد زوجتى[1] * كساع إلى أسد الشرى يستبيلها

وقال عمّار بن ياسر فى شأن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنهـا : والله إنى لأعلم أنهـا زوجته فى الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم . ذكره البخارى، واختاره الكسائى .

(١) فى اللسان مادة (زوج) : «يحرش» .

﴿ مُطَهَّرَةٌ ﴾ . نعت للأزواج، ومطهرة في اللغة : أجمع من طاهرة وأبلغ، ومعنى هذه الطهارة من الحيض والبصاق وسائر أقذار الآدميات . ذكر عبد الرازق قال أخبرني الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد : مطهرة ، قال : لايبلن ولا يتغوطن ولا يلدن ولا يحضن ولا يمنين ولا يبصقن . وقد أتينا على هذا كله في وصف أهل الجنة ونعيمها من كتاب التذكرة . والحمد لله .

﴿ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . هم مبتدأ؛ خالدون خبره، والظرف ملغى، ويجوز في غير القرآن نصب خالدين على الحال . والخلود : البقاء؛ ومنه جنة الخلد؛ وقد تستعمل مجازا فيما يطول ، ومنه قولهم في الدعاء : خلّد الله ملكه، أي طوّله . قال زهير :

ألا لا أرى على الحوادث باقيا * ولا خالدا إلا الجبال الرواسيا

وأما الذي في الآية فهو أبديّ حقيقة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ﴾ . قال ابن عباس في رواية أبي صالح : لما ضرب الله سبحانه هذين المثلين للمنافقين : يعني : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾، وقوله : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾، قالوا : الله أجل وأعلى من أن يضرب الأمثال، فأنزل الله هذه الآية . وفي رواية عطاء عن ابن عباس قال : لما ذكر الله آلهة المشركين، فقال : ﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ . وذكر كيد الآلهة بجعله كبيت العنكبوت ، قالوا : أرأيت حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمد، أيّ شيء يصنع ؟ فأنزل الله الآية . وقال الحسن وقتادة : لما ذكر الله الذباب والعنكبوت في كتابه، وضرب للمشركين به المثل؛ ضحكت اليهود وقالوا : ما يشبه هذا كلام الله؛ فأنزل الله الآية . ﴿ ويَسْتَحْيِي ﴾ . أصله يستحْيِيُ عينه ولامه حرفا علة ؛ أعلت اللام منه بأن استثقلت الضمة على الياء فسكنت ؛ واسم الفاعل على هذا : مستحيي ، والجمع مستحيون ومستحيين ؛ وقرأ ابن مُحَيْصِن يستحي بكسر الحاء وياء واحدة ساكنة . وروى عن أبي كثير[(1)] وهي لغة تميم، وبكر بن وائل ، نقلت فيها حركة الياء الأولى إلى الحاء فسكنت؛ ثم استثقلت الضمة على الثانية فسكنت ؛ فحذفت إحداهما للالتقاء ؛ واسم الفاعل مستحٍ ، والجمع مستحون

(1) في نسخة « وروى ابن كثير » .

ومستحيين . قاله الجوهرى : واختلف المتأولون فى معنى يستحى فى هــذه الآية ؛ فقيل : لا يخشى ورجحه الطبرى ؛ وفى التنزيل : ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ بمعنى تستحى ؛ وقال غيره : لا يترك ؛ وقيــل : لا يمتنع . وأصل الاســتحياء : الانقباض عن الشيء والامتناع منه خوفا من مواقعة القبيح ؛ وهــذا محال على الله تعالى . وفى صحيح مسلم عن أم ســلمة رضى الله عنها قالت : جاءت أم سليم الى النبى صلى الله عليه وســلم فقالت : يارسول الله ، إن الله لا يستحى من الحق ؛ المعنى لا يؤمر بالحياء فيه ، ولا يمتنع من ذكره .

قوله تعــالى : ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ . معناه يبين ، وأن مع الفعــل فى موضع نصب بتقدير حذف من . ﴿مَثَلًا﴾ . منصوب بيضرب : ﴿بَعُوضَةً﴾ . فى نصبها أربعة أوجه :

الأول — تكون ما زائدة و بعوضة بدلا من مثلا .

الثانى — تكون ما نكرة فى موضع نصب على البدل من قوله : مثلا ، و بعوضة نعت لمــا فوصفت ما بالجنس المنكر لإبهامها ، لأنها بمعنى قليل ؛ قاله الفراء ، والزجاج ، وثعلب .

الثالث — نصبت على تقدير إسقاط الجاز ، المعنى أن يضرب مثلا ما بين بعوضة ؛ فحذفت بين وأعربت بعوضة بإعرابها ؛ والفاء بمعنى إلى ، أى إلى ما فوقها وهذا قول الكسائى والفراء أيضا ؛ وأنشد أبو العباس :

يا أحسن النــاس قرنا إلى قدم * ولا حبــال محب واصل تصل

أراد ما بين قرن فلما أسقط بين ، نصب .

الرابع — أن يكون يضرب بمعنى يجعل ، فتكون بعوضة المفعول الثانى . وقرأ الضحاك ، وابراهيم ابن أبى علية ، ورؤبة بن العجاج : بعوضة بالرفع وهى لغة تميم ؛ قال أبو الفتح : ووجه ذلك ، أن ما اسم بمنزلة الذى ، و بعوضة رفع على إضمــار المبتدأ ؛ التقــدير : لا يستحى أن يضرب الذى هو بعوضة مثــلا ؛ فحذف العــائد على الموصول وهو مبتدأ ومثله قــراءة بعضهم : ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِى أَحْسَنُ﴾ . أى على الذى هو أحسن ، وحكى سيبويه : ما أنا بالذى قائل لك شيئا ؛ أى هو قائل . قال النحاس : والحذف فى ما أقبح منه فى الذى ، لأن الذى ، إنماله وجه واحد والاسم معه أطول . ويقال : إن معنى ضربت له مثــلا ، مثلت له مثلا ؛ وهــذه الأبنية على ضرب واحد ، وعلى مثال

واحد، ونوع واحد، والضرب للنوع . والبعوضة : فعولة، من بعض إذا قطع اللحم، يقال : بضع وبعض بمعنى، وقد بعّضته تبعيضا أى جزأته فتبعض، والبعوض : البق، الواحدة بعوضة، سميت بذلك لصغرها . قاله الجوهرى، وغيره .

قوله تعالى : ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾. قد تقدّم أن الفاء بمعنى إلى ، ومن جعل ما الأولى صلة زائدة ، فما الثانية عطف عليها، وقال الكسائى، وأبوعبيدة، وغيرهما : معنى فما فوقها — والله أعلم — : ما دونها، أى أنها فوقها فى الصغر . قال الكسائى : وهذا كقولك فى الكلام : أتراه قصيرا ؟ فيقول القائل : أوفوق ذلك، أى هو أقصر مما ترى . وقال قتادة، وابن جريج : المعنى فى الكبر، والضمير فى (أنه) عائد على المثل، أى أن المثل حق، والحق خلاف الباطل ؛ والحق : واحد الحقوق ؛ والحقة بفتح الحاء أخص منه يقال : وهذه حقتى، أى حقى .

قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ . لغة بنى تميم وبنى عامر فى أمّا : أيما، يبدلون من إحدى الميمين ياء كراهية التضعيف، وعلى هذا ينشد بيت عمر بن أبى ربيعة :

رأت رجلا أيما إذا الشمس عارضت * فيضحى وأيما بالعشىّ فيخصر

قوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ . اختلف النحويون فى « ماذا »، فقيل : هى بمنزلة اسم واحد بمعنى أى شىء أراد الله ؛ فيكون فى موضع نصب بأراد . قال ابن كيسان : وهو الجيد . وقيل : ما، اسم تام فى موضع رفع بالابتداء، وذا، بمعنى الذى وهو خبر الابتداء، ويكون التقدير : ما الذى أراده الله بهذا مثلا، ومعنى كلامهم هذا ، الانكار بلفظ الاستفهام . ومثلا منصوب على القطع، التقدير : أراد مثلا، قاله ثعلب . وقال ابن كيسان : هو منصوب على التمييز الذى وقع موقع الحال .

قوله تعالى : ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ قيل : هو من قول الكافرين ، أى ما مراد الله بهذا المثل الذى يفرق به الناس إلى ضلالة وإلى هدى؟ وقيل : بل هو خبر من الله عزّ وجل، وهو أشبه، لأنهم يُقرّون بالهدى أنه من عنده، فالمعنى : قل يضل الله به كثيرا ويهدى به كثيرا، أى يوفق ويخذل، وعليه فيكون فيه رد على من تقدّم ذكرهم من المعتزلة وغيرهم، فى قولهم : إن الله لا يخلق الضلال ولا الهدى . قالوا : ومعنى ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ . التسمية هنا، أى يسميه ضالا،

كما يقال : فسّقت فلانا ، يعني سميته فاسقا ، لأن الله تعالى لا يضل أحدا ؛ هذا طريقهم في الإضلال ، وهو خلاف أقاويل المفسرين ، وهو غير محتمل في اللغة ؛ لأنه يقال : ضلّله إذا سماه ضالاّ ؛ ولا يقال : أضله إذا سماه ضالا ؛ ولكن معناه ما ذكره المفسرون أهل التأويل من الحق أنه يخذل به كثيرا من الناس مجازاة لكفرهم . ولا خلاف أن قوله :

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ . أنه من قول الله تعالى ؛ والفاسقين نصب بوقوع الفعل عليهم ؛ والتقدير : وما يضل به أحدا إلا الفاسقين الذي سبق في علمه أنّه لا يهديهم ؛ ولا يجوز أن تنصبهم على الاستثناء لأن الاستثناء لا يكون إلا بعد تمام الكلام . وقال نَوْفٌ البِكَالِيّ : قال قال عزير فيما يناجى ربّه عزّ وجل : إلهي تخلق خلقا فتضل من تشاء ، وتهدى من تشاء ؛ قال فقيل : يا عزير أعرض عن هـذا ! وإلا محوتك من النبـوة ، إني لا أسأل عمـا أفعل وهم يسألون . والضـلال أصله : الهلاك يقال منـه : ضل المـاء في اللبن ، إذا استهلك ؛ ومنـه قوله تعالى : ﴿ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾ . وقد تقـدّم في الفاتحة . والفسق أصله في كلام العرب : الخروج عن الشيء ؛ يقال : فسقت الرطبـة : إذا خرجت عن قشرها ؛ والفأرة من جحـرها ؛ والفُوَيْسِقَة : الفأرة ؛ وفي الحديث : " خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم الحية والغراب الأبقع والفأرة والكلب العقور والحُدَيّا " روته عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أخرجه مسلم . وفي رواية "العقرب" مكان الحية ؛ فأطلق صلى الله عليه وسلم عليها اسم الفسق لأذيتها ؛ على ما يأتي بيانه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى . وفَسَق الرجل يفسِق ويفسُق أيضـا عن الأخفش فِسـقا وفُسوقا أي فجـر . فأما قوله تعـالى : ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ (1) . فمعناه خرج ؛ وزعم ابن الأعرابي أنه لم يسمع قط في كلام الجاهليـة ولا في شعرهم فاسق . قال : وهذا عجب ، هو كلام عربي حكاه عنه ابن فارس ، والجوهري .

قلت : قد ذكر أبو بكر بن الأنباري في كتاب الزاهر له ، لمـا تكلم عن معنى الفسق ، قول الشاعر (2) :

يذهبن في نجـد وغورا غائرا * فواسقا عن قصدهم جوائرا

والفِسِّيق : الدائم الفسق ؛ ويقال في النداء : يافسق وياخبث ، يريد : يأيها الفاسق ، ويأيها الخبيث . والفسق في عرف الاستعمال الشرعي : الخروج من طاعة الله عز وجل ، فقد يقع على من خرج بكفر ، وعلى من خرج بعصيان .

---

(1) أي بمعنى الخارج من طاعة الله وهو بهذا المعنى حقيقة شرعية . (2) هو رؤبة .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ إلى قوله : ﴿ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ . فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ الذين، فى موضع نصب على النعت للفاسقين، وإن شئت جعلته فى موضع رفع على أنه خبر ابتداء محذوف أى هم الذين، وقد تقدّم .

الثانية — قوله تعالى : ﴿يَنقُضُونَ﴾ النقض : إفساد ما أبرمته من بناء أو حبل أو عهد . والنقاضة : ما نقض من حبل الشعر ؛ والمناقضة فى القول : أن تتكلم بما تناقض معناه ؛ النقيضة فى الشعر : ما ينقض به ؛ والنقض : المنقوض . واختلف الناس فى تعيين هذا العهد ؛ فقيل : هو الذى أخذه الله على بنى آدم حين استخرجهم من ظهره . وقيل : هو وصية الله تعالى إلى خلقه، وأمره إياهم بمـا أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه عن معصيته فى كتبه على ألسنة رسله ؛ ونقضهم ذلك، ترك العمل به . وقيل : بل نصب الأدلة على وحدانيته بالسموات والأرض، وسائر الصنعة، هو بمنزلة العهد ؛ ونقضهم ترك النظر فى ذلك . وقيل : هو ما عهـده إلى من أوتى الكتاب أن يبينوا نبوّة محمد عليه السلام، ولا يكتموا أمره . فالآية على هذا فى أهل الكتاب . قال أبو إسحاق الزجاج : عهده جل وعز، ما أخذه على النبيين ومن اتبعهم ألا يكفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم، ودليل ذلك : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ أى عهدى .

قلت : وظاهر ما قبل وما بعـد يدل على أنها فى الكفار ؛ فهذه خمسة أقوال ؛ والقول الثانى يجمعها .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ . الميثاق : العهد المؤكد باليمين، مفعال من الوثاقة والمعاهـدة ، وهى الشدّة فى العقد والربط ونحوه ، والجمع المواثيق على الأصـل لأن أصل ميثاق موثاق، صارت الواو ياء لانكسار ما قبلها، والمياثق والمياثيق أيضا، وأنشد ابن الأعرابى :

حِمًى لا يحل الدهر إلا بإذننا ۞ ولا نسـأل الأقوام عهـد المياثق[1]

والموثق : الميثاق . والمواثقة . المعاهدة، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦ ﴾ .

---

(١) فى اللسان مادة (وثق) : « عقد » .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَيَقْطَعُونَ ﴾ . القطع معروف، والمصدر — في الرحم — القطيعة؛ يقال : قطع رحمه قطيعة فهو رجل قطع، وقُطعة مثال همزة، وقطعت الحبل قطعا، وقطعت النهر قطوعا، وقطعت الطير قُطوعا وقُطاعا وقِطاعا إذا خرجت من بلد إلى بلد، وأصاب الناس قطعة إذا قلت مياههم، ورجل به قطع أي انبهار .

الخامسة — قوله : ﴿ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ . «ما» في موضع نصب بيقطعون، «وأن» إن شئت كانت بدلا من ما، وإن شئت من الهاء في به وهو أحسن، ويجوز أن يكون لئلا يوصل، أي كراهة أن يوصل . واختلف، ما الشيء الذي أمر بوصله؟ فقيل : صلة الأرحام، وقيل : أمر أن يوصل القول بالعمل، فقطعوا بينهما بأن قالوا ولم يعملوا، وقيل : أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه، فقطعوه بتصديق بعضهم وتكذيب بعضهم، وقيل : الإشارة إلى دين الله وعبادته في الأرض، وإقامة شرائعه وحفظ حدوده[1]، فهي عامة في كل ما أمر الله تعالى به أن يوصل؛ هذا قول الجمهور . والرحم جزء من هذا .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ . أي يعبدون غير الله تعالى، ويجورون في الأفعال، إذ هي بحسب شهواتهم، وهذا غاية الفساد .

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ . ابتداء وخبر، وهم زائدة، ويجوز أن تكون هم ابتداء ثان، الخاسرون خبره، والثاني وخبره خبر الأول كما تقدم . والخاسر : الذي نقص نفسه حظها من الفلاح والفوز؛ والخسران : النقصان كان في ميزان أو غيره، قال جرير :

إن سَليطا في الخسار إنّهْ ✽ أولاد قوم خلقوا أقِنّهْ

يعني بالخسار ما ينقص من حظوظهم وشرفهم، قال الجوهري : وخسرت الشيء بالفتح وأخسرته نقصته، والخسار والخسارة والخيسرى : الضلال والهلاك، فقيل للهالك : خاسر، لأنه خسر نفسه وأهله يوم القيامة ومنع منزله من الجنة .

السابعة — في هذه الآية دليل على أن الوفاء بالعهد والتزامه وكل عهد جائز ألزمه المرء نفسه، فلا يحل له نقضه، سواء أكان بين مسلم أم غيره لذم الله تعالى من نقض عهده، وقد قال :

(١) في نسخة : « عهوده » .

﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ وقد قال لنبيه عليه السلام : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ فنهاه عن الغدر ، وذلك لا يكون إلا بنقص العهد على ما يأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ الآية . كيف ، سؤال عن الحال وهى اسم فى موضع نصب بتكفرون ، وهى مبنية على الفتح ، وكان سبيلها أن تكون ساكنة ، لأن فيها معنى الاستفهام الذى معناه التعجب فأشبهت الحروف ، أو اختير لها الفتح لخفته ؛ أى هؤلاء ممن يجب أن يتعجب منهم حين كفروا وقد ثبتت عليهم الحجة .

فإن قيل : كيف يجوز أن يكون هذا الخطاب لأهل الكتاب وهم لم يكفروا بالله ؟ فالجواب ما سبق من أنهم لما لم يثبتوا أمر محمد عليه السلام ولم يصدقوه فيما جاء به ؛ فقد أشركوا لأنهم لم يقروا بأن القرآن من عند الله ؛ ومن زعم أن القرآن كلام البشر فقد أشرك بالله وصار ناقضا للعهد . وقيل : كيف ، لفظه لفظ الاستفهام وليس به ، بل هو تقرير وتوبيخ ، أى كيف تكفرون نعمه عليكم وقدرته هذه ! قال الواسطى : وبخهم بهذا غاية التوبيخ ، لأن الموات والجماد لا ينازع صانعه فى شىء ، وإنما المنازعة من الهياكل الروحانية .

قوله تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ . هذه الواو واو الحال ، وقد مضمرة ؛ قال الزجاج : التقدير وقد كنتم ، ثم حذفت قد ؛ وقال الفراء : أمواتا خبر كنتم .

﴿ فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ . هذا وقف التمام ، كذا قال أبو حاتم . ثم قال : ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ . واختلف أهل التأويل فى ترتيب هاتين الموتتين والحياتين ، وكم من موتة وحياة للإنسان؟ فقال ابن عباس وابن مسعود : أى كنتم أمواتا معدومين قبل أن تخلقوا فأحياكم أى خلقكم ، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم ، ثم يحييكم يوم القيامة . قال ابن عطية : وهذا القول هو المراد بالآية ، وهو الذى لا محيد للكفار عنه لإقرارهم بهما ؛ وإذا أذعنت نفوس الكفار لكونهم أمواتا معدومين ، ثم للإحياء فى الدنيا ، ثم للإماتة فيها قوى عليهم لزوم الإحياء الآخر وجاء جحدهم له دعوى لا حجة عليها . قال غيره : والحياة التى تكون فى القبر على هذا التأويل فى حكم حياة الدنيا ؛ وقيل : لم يعتد بها كما لم يعتد بموت من أماته فى الدنيا ثم أحياه فى الدنيا . وقيل : كنتم أمواتا أى نطفا فى ظهر آدم ، ثم أخرجكم من ظهره كالذر ، ثم يميتكم موت الدنيا ، ثم يبعثكم . وقيل : كنتم أمواتا أى نطفا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ،

ثم نقلكم من الأرحام فأحياكم، ثم يميتكم بعد هذه الحياة، ثم يحييكم في القبر للمسئلة، ثم يميتكم في القبر، ثم يحييكم حياة النشر إلى الحشر، وهي الحياة التي ليس بعدها موت .

قلت : فعلى هـذا التأويل هي ثلاث موتات، وثلاث إحياءات؛ وكونهم موتى في ظهر آدم، وإخراجهم من ظهره والشهادة عليهم، غير كونهم نطفا في أصلاب الرجال وأرحام النساء ؛ فعلى هذا يجيء أربع موتات، وأربع إحياءات . وقـد قيل : إن الله تعالى أوجدهم قبل خلق آدم عليه السلام كالهباء، ثم أماتهم، فيكون على هذا خمس موتات، وخمس إحياءات، وموتة سادسـة للعصاة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إذا دخلوا النار، لحديث أبي سـعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم — أو قال — بخطاياهم فأماتهم الله إماتة حتى إذا كانوا فحما أذن في الشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهـار الجنة ثم قيـل يأهل الجنـة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحِبّـة تكون في حَمِيل السـيل " فقال رجل من القوم كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان يرعى بالبادية . أخرجه مسلم .

قلت — فقوله : " فأماتهم الله " حقيقة في الموت لأنه أكده بالمصدر وذلك تكريما لهم . وقيل : يجوز أن يكون أماتهم، عبارة عن تغييبهم عن آلامها بالنوم، ولا يكون ذلك موتا على الحقيقة، والأول أصح . وقد أجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازا، وإنما هو على الحقيقة؛ ومثله : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ . على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى . وقيل : المعنى وكنتم أمواتا بالخمـول فأحياكم، بأن ذكرتم وشرفتم بهـذا الدين والنبي الذي جاءكم ، ثم يميتـكم فيموت ذكركم ، ثم يحييكم للبعث .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . أي إلى عذابه مرجعكم لكفركم . وقيل : إلى الحياة وإلى المسألة كما قال تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ . فإعادتهم كابتدائهم، فهو رجوع . و﴿ تُرْجَعُونَ ﴾، قراءة الجماعة . ويحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق ومجاهد وابن محيصن وسلام بن يعقوب، يفتحون حرف المضارعة ويكسرون الجيم حيث وقعت .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ . فيه عشر مسائل :

الأولى — خلق، معناه اخترع وأوجد بعــد العدم، وقد يقال فى الإنسان : خلق عند إنشائه شيئا؛ ومنه قول الشاعر :

من كان يخلق ما يقــو * ل فحيلتى فيـــه قليــله

وقد تقدّم هــذا المعنى . وقال ابن كيسان : خلق لكم، أى من أجلكم . وقيــل : المعنى أن جميع ما فى الأرض منعم به عليكم فهو لكم . وقيل : إنه دليل على التوحيد والاعتبار .

قلت : وهذا هو الصحيح على ما نبينه ؛ ويجوز أن يكون عنى به ما هم إليه محتاجون من جميع الأشياء .

الثانية — استدل من قال : إن أصل الأشياء التى ينتفع بها الإباحة بهذه الآية وما كان مثلها ؛ كقوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ . الآية، حتى يقوم الدليــل على الحظر؛ وعضّــد هذا بأن قال : إن المآكل الشهية خلقت مع إمكان ألا تخــلق فلم تخــلق عبثا ؛ فلا بد لهذا من منفعة، وتلك المنفعة لا يصــح رجوعها إلى الله تعالى لاستغنائه بذاته ، فهى راجعة إلينا ، ومنفعتنا إما فى نيل لذتها أو فى اجتنابها لنختبر بذلك ، أو فى اعتبارنا بها ؛ ولا يحصل شىء من تلك الأمور إلا بذوقها ؛ فلزم أن تكون مباحة وهذا فاسد ، لانا لانســلم لزوم العبث من خلقها إلا لمنفعة، بل خلقها كذلك لأنه لا يجب عليــه أصل المنفعة ، بل هو الموجب، ولا نســلم حصر المنفعــة فيما ذكروه ، ولا حصول بعض تلك المنافع إلا بالذوق، بل قد يســتدل على الطعوم بأمور أخر، كما هو معروف عند الطبائعيين، ثم هو معارض بمــا يخاف أن تكــون سموما مهلكة ، ومعارضون بشــبهات أصحاب الحظر . وتوقف آخرون وقالوا : ما من فعــل لا ندرك منه حســنا ولا قبحا إلا و يمكن أن يكون حسنا فى نفســه، ولا معين قبــل ورود الشرع؛ فتعين الوقف إلى ورود الشرع . وهــذه الأقاويل الثلاثة للمعــتزلة . وقد أطلق الشيخ أبو الحسن وأصحــابه وأكثر المــالكية والصيرفى فى هذه المسئلة القول بالوقف ؛ ومعناه عندهم أن لا حكم فيها فى تلك الحــال ، وأن للشرع إذا جاء أن يحكم بمــا شاء، وأن العقل لا يحكم بوجوب ولا غيره ، وإنمــا حظه تعرف الأمور على ما هى عليه . قال ابن عطية : وحكى ابن فورك عن ابن الصائغ أنه قال : لم يخل العقل قط من السمع ، ولا نازلة إلا وفيها سمع، أولها تعلق به ، أولها حال تستصحب؛ قال : فينبغى أن يعتمد على هذا ، ويغنى عن النظر فى حظر وإباحة ووقف .

الثالثة — الصحيح في معنى قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ الاعتبار. يدل عليه ماقبله وما بعده من نصب العبر : الإحياء، والإماتة، والخلق، والاستواء الى السماء وتسويتها، أى الذى قدر على إحيائكم وخلقكم وخلق السموات والأرض، لا تبعد منه القدرة على الإعادة .

فإن قيل : إن معنى لكم الانتفاع ، أى لتنتفعوا بجميع ذلك، قلنا : المراد بالانتفاع الاعتبار لما ذكرنا؛ فإن قيل : وأى اعتبار فى العقارب والحيات؛ قلنا : قد يتذكر الإنسان ببعض ما يرى من المؤذيات ما أعد الله للكفار فى النار من العقوبات، فيكون سببا للإيمان وترك المعاصى؛ وذلك أعظم الاعتبار . قال ابن العربى : وليس فى الإخبار بهذه القدرة عن هذه الجملة ما يقتضى حظرا ولا إباحة ولا وقفا؛ وإنما جاء ذكر هذه الاية فى معرض الدلالة والتنبيه ليستدل بها على وحدانيته . وقال أرباب المعانى فى قوله : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ لتبقوا على طاعته، لا لتصرفوه فى وجوه معصيته . وقال أبو عثمان : وهب لك الكل وسخره لك لتستدل به على سعة جوده، وتسكن الى ما ضمن لك من جزيل عطائه فى المعاد، ولا تستكثر كثير بره على قليل عملك، فقد ابتدأك بعظيم النعم قبل العمل وهو التوحيد .

الرابعة — روى زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما عندى شىء ولكن ابتع علىّ فإذا جاء شىء قضينا » فقال له عمر : هذا أعطيت اذا كان عندك فما كلفك الله ما لا تقدر؛ فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قول عمر، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله :

* أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا *

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعرف السرور فى وجهه لقول الأنصارى؛ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بذلك أمرت » قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فخوف الإقلال من سوء الظن بالله، لأن الله تعالى خلق الأرض بما فيها لولد آدم، وقال فى تنزيله : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ . فهذه الأشياء مسخرة للآدمى قطعا لعذره وحجة عليه، ليكون له عبدا كما خلقه عبدا؛ فاذا كان العبد حسن الظن بالله لم يخف الإقلال لأنه يخلف عليه، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ .

وقال : ﴿ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى : « سبقت رحمتي غضبي يابن آدم أنفق أنفق عليك يمين الله ملأى سحًا لا يَغيضها شيءٌ الليل والنهار » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا » وكذا في المساء عند الغروب يناديان أيضا؛ وهذا كله صحيح رواه الأئمة والحمد لله . فمن استنار صدره، وعلم غنى ربه وكرمه، أنفق ولم يخف الإقلال؛ وكذلك من ماتت شهواته عن الدنيا، واجتزأ باليسير من القوت المقيم لمهجته، وانقطعت مشيئته لنفسه؛ فهذا يعطى من يسره وعسره، ولا يخاف إقلالا ، وإنما يخاف الإقلال من له مشيئة في الأشياء؛ فاذا أعطى اليوم وله غدا مشيئة في شيء خاف ألا يصيب غدا، فيضيق عليه الأمر في نفقة اليوم لمخافة إقلاله . روى مسلم عن أسماء بنت أبي بكر قالت قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آنفَحِي أو آنضَحي أو أنفقي ولا تحصي فيحصيَ الله عليك ولا تُوعي فيوعيَ الله عليك» . وروى النسائي عن عائشة قالت : دخل عليّ سائل مرة، وعندي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمرت له بشيء ثم دعوت به فنظرت اليه؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما تريدين ألا يدخل بيتك شيء ولا يخرج إلا بعلمك » قلت : نعم؛ قال : « مهلا يا عائشة لا تحصي فيحصي الله عليك » .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى ﴾ . ثم لترتيب الإخبار لا لترتيب الأمر في نفسه . والاستواء في اللغة : الارتفاع والعلو على الشيء؛ قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ ﴾ وقال : ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴾ ؛ وقال الشاعر :

فأوردتهم ماء بفيفاء قفرة * وقد حلق النجم اليمانيّ فاستوى

أي ارتفع وعلا، واستوت الشمس على رأسي، واستوت الطير على قمة رأسي، بمعنى علا .

وهذه الآية من المشكلات، والناس فيها وفيما شاكلها على ثلاثة أوجه، قال بعضهم : نقرؤها ونؤمن بها ولا نفسرها؛ وذهب إليه كثير من الأئمة ، وهذا كما روى عن مالك رحمه الله : أن رجلا سأله عن قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَى ﴾ . قال مالك : الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأراك رجل سوء ! أخرجوه . وقال بعضهم : نقرؤها

ونفسرها على ما يحتمله ظاهر اللغة؛ وهــذا قول المشبهة . وقال بعضهم : نقرؤها ونتأوّلها ونحيــل حملها على ظاهرها . وقال الفرّاء في قوله عزّ وجلّ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ ﴾ قال : الاستواء في كلام العرب على وجهين، أحدهما : أن يستوى الرجل وينتهى شبابه وقوّته؛ أو يستوى من اعوجاج؛ فهذان وجهان . ووجه ثالث أن تقول : كان مقبــلا علىّ يشاتمنى، وإلىّ سواء؛ على معنى أقبــل الىّ وعلىّ . فهذا معنى قوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ ﴾ والله أعلم . قال وقد قال ابن عباس : ثم استوى الى السماء : صعد؛ وهذا كقولك : كان قاعدا فاستوى قائمــا، وكان قائمــا فاستوى قاعدا؛ وكلّ ذلك في كلام العرب جائز . وقال البيهقي أبو بكر أحمــد بن علي بن الحسين : قوله : ﴿ ٱسْتَوَىٰ ﴾ بمعنى أقبل صحيح لأن الإقبال هو القصد الى خلق السماء؛ والقصد هو الإرادة، وذلك جائز في صفات الله تعالى . ولفظة «ثم» تتعلق بالخلق لا بالإرادة . وأما ما حكى عن ابن عباس فإنمــا أخذه عن تفسير الكلبي، والكلبي ضعيف . وقال ســفيان بن عيينة وابن كيسان في قوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ ﴾ قصد إليها أي بخلقه واختراعه؛ فهذا قول؛ وقيل : على دون تكييف ولا تحديد واختاره الطبري . ويذكر عن أبي العالية الرياحي في هذه الآية أنه يقال : استوى بمعنى أنه ارتفع . قال البيهقي : ومراده من ذلك — والله أعلم — : ارتفاع أمره وهو بخار المــاء الذي وقع منه خلق السماء . وقيل : إن المستوى الدخان . وقال ابن عطية : وهذا يأباه وصف الكلام . وقيل : المعنى استولى، كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق ٭ من غير سيف ودم مُهْراق

قال ابن عطية : وهذا إنمــا يجيء في قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ .

قلت : قد تقدّم في قول الفرّاء علىّ وإلىّ بمعنى؛ وسيأتي لهــذا الباب مزيد بيــان في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى . والقاعدة في هذه الآية ونحوها منع الحركة والنقلة .

السادسة — يظهر من هذه الآية أنه سبحانه خلق الأرض قبل السماء، وكذلك في حم السجدة . وقال في النازعات : ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ فوصف خلقها، ثم قال : ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴾ . فكأن السماء على هذا خلقت قبل الأرض؛ وقال تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ . وهــذا قول قتادة : إن السماء خلقت أولا؛ حكاه عنه الطبري . وقال مجاهد وغيره

من المفسرين : إنه تعالى أيبس الماء الذى كان عرشه عليه ، فجعله أرضا وثار منه دخان فارتفع ، فجعله سماء فصار خلق الأرض قبل خلق السماء ، ثم قصد أمره الى السماء فسواهن سبع سموات ، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وكانت إذ خلقها غير مدحوة .

قلت : وقول قتادة يخرج على وجه صحيح إن شاء الله تعالى، وهو أن الله تعالى خلق أولا دخان السماء، ثم خلق الأرض، ثم استوى الى السماء وهى دخان فسواها، ثم دحا الأرض بعد ذلك .

ومما يدل على أن الدخان خلق أولا قبل الأرض، ما رواه السدى عن أبى مالك ، وعن أبى صالح عن ابن عباس، وعن مُرّة الهمدانى عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فى قوله عز وجل : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ قال : إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا قبل الماء؛ فلما أراد أن يخلق الخلق، أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق الماء، فسما عليه، فسماه سماء ؛ ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين فى يومين، فى الأحد والاثنين ؛ فجعل الأرض على حوت ، والحوت هو النون الذى ذكر الله تبارك وتعالى فى القرآن بقوله : ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ ﴾ والحوت فى الماء على صفاة، والصفاه على ظهر ملك، والملك على الصخرة، والصخرة فى الريح، وهى الصخره التى ذكر لقمان : ليست فى السماء ولا فى الأرض، فتحرك الحوت فاضطرب، فتزلزلت الأرض، فأرسل عليها الجبال فقرت، فالجبال تفخر على الأرض وذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ وخلق الجبال فيها، وأقوات أهلها وشجرها ، وما ينبغى لها فى يومين ، فى الثلثاء والأربعاء ، وذلك حين يقول : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ . يقول : من سأل فهكذا الأمر، ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس ؛ فجعلها سماء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع سموات فى يومين ، فى الخميس والجمعة ؛ وإنما سمى يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض ، ﴿ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ قال : خلق فى كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البرد وما لا يعلم ، ثم زيّن السماء الدنيا بالكواكب ، فجعلها زينة وحفظا تحفظ من

الشياطين، فلما فرغ من خلق ما أحبّ ، استوى على العرش، قال : فذلك حين يقول : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ يقول : ﴿ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ وذكر القصّة فى خلق آدم عليه السلام، على ما يأتى بيانه فى هذه السورة إن شاء الله تعالى .

وروى وكيع عن الأعمش عن أبى ظبيان عن ابن عباس قال : إن أوّل ما خلق الله عز وجل من شيء القلم فقال له : اكتب فقال : يارب وما أكتب قال : اكتب القدر فجرى بما هو كائن من ذلك اليوم إلى قيام الساعة، قال : ثم خلق النون فدحا الأرض عليها فارتفع بخار المـاء ففتق منه السموات واضطرب النون فمادت الأرض فأثبتت بالجبال فان الجبال تفخر على الأرض الى يوم القيامة . ففى هذه الرواية، خلق الأرض قبل ارتفاع بخار المـاء الذى هو الدخان، خلاف الرواية الأولى. والرواية الأولى عنه وعن غيره أولى، لقوله تعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴾ والله أعلم بمـا فعل ، فقد اختلفت فيه الأقاويل وليس للاجتهاد فيه مدخل .

وذكر أبو نعيم عن كعب الأحبار : أن إبليس تغلغل الى الحوت الذى على ظهره الأرض كلها، فألقى فى قلبه، فقال : هل تدرى ما على ظهرك يالوثيا(١) من الأمم والشجر والدواب والناس والجبال؟ لو نفضتهم ألقيتهم عن ظهرك أجمع، قال : فهم لوثيا بفعل ذلك، فبعث الله دابة فدخلت فى منخره، فعج الى الله منها فخرجت، قال كعب : والذى نفسى بيده إنه لينظر اليها بين يديه وتنظر اليه إن همّ بشيء من ذلك عادت حيث كانت .

السابعة — أصل خلق الأشياء كلها من المـاء لمـا رواه ابن ماجة فى سننه ، وأبو حاتم البستى فى صحيح مسنده عن أبى هريرة، قال قلت : يارســول الله إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عينى ، أنبئنى عن كل شيء، قال : « كل شيء خلق من المـاء » فقلت : أخبرنى عن شيء إذا عملت به دخلت الجنة ؛ قال : « أطعم الطعام وأفش السلام وصــل الأرحام وقم الليل والناس نيام تدخل الجنة بسلام » قال أبو حاتم قول أبى هريرة : أنبئنى عن كل شيء، أراد به عن كل شيء خلق من المـاء ، والدليل على صحة هذا جواب المصطفى عليه السلام إياه حيث قال : « كل شيء خلق من المـاء » وإن لم يكن مخلوقا . وروى سـعيد بن جبير عن ابن عباس أنه كان يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أوّل شيء خلقه الله القلم وأمره فكتب كلّ شيء يكون » . ويروى

(١) فى نسخة : « لويثا » .

ذلك أيضا عن عبادة بن الصامت مرفوعا . قال البيهقي : وإنما أراد — والله أعلم — أوّل شيء خلقه بعد خلق الماء والريح والعرش، القلم؛ وذلك بيّن في حديث عمران بن حصين ؛ ثم خلق السموات والأرض . وذكر عبد الرزاق بن عمر بن حبيب المكي عن حميد بن قيس الأعرج عن طاوس قال : جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله، مم خلق الخلق ؟ قال : من الماء والنور والظلمة والريح والتراب؛ قال الرجل : فمم خلق هؤلاء ؟ قال : لا أدرى؛ قال : ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير فسأله ، فقال مثل قول عبد الله بن عمرو ، قال : فأتى الرجل عبد الله بن عباس فسأله فقال : مم خلق الخلق ؟ قال : من الماء والنور والظلمة والريح والتراب؛ قال الرجل : فمم خلق هؤلاء؟ فتلا عبد الله بن عباس : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ فقال الرجل : ما كان ليأتى بهذا إلا رجل من أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال البيهقي : أراد أن مصدر الجميع منه، أي من خلقه وإبداعه واختراعه . خلق الماء أوّلا، أو الماء وما شاء من خلقه ، لا عن أصل ولا على مثال سبق، ثم جعله أصلا لما خلق بعد؛ فهو المبدع وهو البارئ لا إله غيره ولا خالق سواه، سبحانه جل وعز .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ . ذكر تعالى أن السموات سبع، ولم يأت للأرض في التنزيل عدد صريح لا يحتمل التأويل إلا قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ وقد اختلف فيه؛ فقيل : ومن الأرض مثلهن أي في العدد لأن الكيفية والصفة مختلفة بالمشاهدة والأخبار؛ فتعين العدد . وقيل : ومن الأرض مثلهن أي في غلظهن وما بينهن . وقيل : هي سبع إلا أنه لم يفتق بعضها من بعض؛ قاله الداودى . والصحيح الأول؛ وأنها سبع كالسموات سبع . روى مسلم عن سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «من أخذ شبرا من الأرض ظلما طُوِّقه إلى سبع أرضين» وعن عائشة رضى الله عنها مثله إلا أن فيه «من» بدل «إلى» . ومن حديث أبي هريرة : «لا يأخذ أحد شبرا من الأرض بغير حقه إلا طوّقه الله إلى سبع أرضين [يوم القيامة][1]» . وروى النسائى عن أبي سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "قال موسى عليه السلام يا رب علمنى شيئا أذكرك به وأدعوك به قال يا موسى قل لا إله إلا الله

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

قال موسى يارب كل عبادك يقول هـذا قال قل لا إله إلا الله قال لا إله إلا أنت إنما أريد شيئا تخصني به قال يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيرى والأرضين السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة مالت بهن لا إله إلا الله » وروى الترمذى عن أبى هريرة قال : بينما نبى الله صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب ، فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم : « هـل تدرون ما هـذا » قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : « هـذا العنان هذه روايا الأرض يسوقها الله الى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه » ثم قال : « هـل تدرون ما فوقكم » قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : « فإنها الرقيع سقف محفوظ وموج مكفوف » ثم قال : « هـل تدرون ما بينكم وبينها » قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : « بينكم وبينها خمسمائة عام » ثم قال : « هل تدرون ما فوق ذلك » قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : « سماءين بعد ما بينهما خمسمائة سنة » ثم قال كذلك حتى عدّ سبع سموات مابين كل سماءين ما بين السماء والأرض ؛ ثم قال : « هل تدرون مافوق ذلك » قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : « إن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء بعد مابين السماءين » ثم قال : « هل تدرون ما الذى تحتكم » قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : « إنها الأرض » ثم قال : «هل تدرون ما تحت ذلك » قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : « إن تحتها أرضا أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة » حتى عدّ سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة ؛ ثم قال : « والذى نفس محمد بيده لو أنكم دليتم بحبل الى الأرض السفلى لهبط على الله » ثم قرأ : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ؛ قال أبو عيسى : قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية تدل على أنه أراد لهبط على علم الله وقدرته وسلطانه فى كل مكان وهو على عرشه كما وصف نفسه فى كتابه ؛ قال هـذا حديث غريب ، والحسن لم يسمع من أبى هريرة ؛ والآثار بأن الأرضين سبع كثيرة ؛ وفيما ذكرنا كفاية . وقد روى أبو الضحى — واسمه مسلم — عن ابن عباس أنه قال : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ قال : سبع أرضين فى كل أرض نبى كنبيكم ، وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، وإبراهيم كإبراهيم ، وعيسى كعيسى . قال البيهقى : إسناد هذا عن ابن عباس صحيح ، وهو شاذ بمرة لا أعلم لأبى الضحى عليه دليلا ؛ والله أعلم .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ، ابتداء وخبر، ما، فى موضع نصب، ﴿جَمِيعًا﴾ ، عند سيبويه نصب على الحال . ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ . أهل نجد يميلون ليدلوا على أنه من ذوات الياء، وأهل الحجاز يفخمون . ﴿سَبْعَ﴾ ، منصوب على البدل من الهاء والنون . أى فسوّى سبع سموات ، ويجوز أن يكون مفعولا على تقدير يسوى بينهن سبع سموات ؛ كما قال الله جل وعز: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ أى من قومه؛ قاله النحاس . وقال الأخفش : انتصب على الحال . ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ، ابتداء وخبر، والأصل فى هو تحريك الهاء، والإسكان استخفاف .

والسماء تكون واحدة مؤنثة ؛ مثل : عنان، وتذكيرها شاذ، وتكون جمعا لسماوة فى قول الأخفش ، وسماءة فى قول الزجاج، وجمع الجمع سماوات وسماءات ؛ فجاء سواهن إما على أن السماء جمع وإما على أنها مفرد اسم جنس . ومعنى سواهن سوّى سطوحهن بالإملاس ؛ وقيل : جعلهن سواء .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ . أى بما خلق، وهو خالق كل شىء، فوجب أن يكون عالما بكل شىء، وقد قال : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ فهو العالم والعليم بجميع المعلومات بعلم قديم أزلى واحد قائم بذاته ؛ ووافقنا المعتزلة على العالمية دون العلمية . وقالت الجهمية : عالم بعلم قائم لا فى محل تعالى الله عن قول أهل الزيغ والضلالات ؛ والرّد على هؤلاء فى كتب الديانات . وقد وصف نفسه سبحانه بالعلم فقال : ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾، وقال : ﴿فَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾، وقال : ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾، وقال : ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾، وقال : ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ الآية؛ واستدل على ثبوت علمه وسائر صفاته فى هذه السورة عند قوله : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ إن شاء الله تعالى . وقرأ الكسائى وقالون عن نافع بإسكان الهاء من هو، وهى، إذا كان قبلها فاء أو واو أو لام أو ثم؛ وكذلك فعل أبو عمرو إلا مع ثم ؛ وزاد أبو عون عن الحلوانى عن قالون إسكان الهاء من ﴿أَن يُمِلَّ هُوَ﴾، والباقون بالتحريك .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ . فيه سبع عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ، إذ وإذا حرفا توقيت؛ فإذ للماضى، وإذا للستقبل ؛ وقد توضع إحداهما موضع الأخرى ؛ وقال المبرّد : إذا جاء إذ مع مستقبل كان

معناه ماضيا ؛ نحو قوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ﴾ ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ معناه إذ مكروا ، وإذ قلت ؛ وإذا جاء إذا مع الماضى كان معناه مستقبلا كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ ٱلطَّامَّةُ ﴾ ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ ٱلصَّاخَّةُ ﴾ و ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ أى يجيء . وقال معمر بن المثنى أبو عبيدة : إذ زائدة والتقدير : وقال ربك ؛ واستشهد بقول الأسود بن يعفر :

فإذ وذلك لا مهاه لذكره * والدهر يعقب صالحا لفساد

وأنكر هـذا القول الزجاج والنحاس وجميع المفسرين . قال النحاس : وهذا خطأ لأن إذ اسم وهى ظرف زمان ليس مما تزاد . وقال الزجاج : هذا اجترام من أبى عبيدة . ذكر الله عز وجل خلق النـاس وغيرهم ؛ فالتقدير وابتـداء خلقكم إذ قال فكان هـذا من المحذوف الذى دل عليه الكلام ؛ كما قال :

فان المنيـة من يخشها * فسوف تصادفه أينما

يريد أينمـا ذهب ؛ ويحتمل أن تكون متعلقة بفعل مقدّر تقديره واذكر إذ قال ، وقيـل : هو مردود الى قوله تعـالى : ﴿ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ فالمعنى الذى خلقكم إذ قال ربك للملائكة ؛ وقول الله تعالى وخطابه للملائكة متقرر قديم فى الأزل بشرط وجودهم وفهمهم ؛ وهكذا البـاب كله فى أوامر الله تعالى ونواهيـه ومخاطباته ؛ وهـذا مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى ؛ وهو الذى ارتضاه أبو المعالى . وقد أتينا عليه فى كتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى وصفات الله العلى .

والرب : المـالك والسيد والمصلح والجابر؛ وقد تقدّم بيانه .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ . الملائكة واحدها ملك ؛ قال ابن كيسان وغيره : وزن ملك فعـل من الملك ؛ وقال أبو عبيـدة : هو مفعل من لاك إذا أرسل ، والألوكة والمألكة والمألكة : الرسالة ؛ قال لبيد :

وغلام أرسـلته أمه * بألوك فبذلنا ما سأل

وقال آخر [1] :

أبلـغ النعمان عنى مألكا * إنه قد طال حبسى وانتظارى

(١) هو عدىّ بن زيد ؛ كما فى اللسان مادة (ألك) .

ويقال : ألكني أي أرسلني، فأصله على هذا مألك ، الهمزة فاء الفعل فإنهم قلبوها إلى عينه فقالوا : ملأك : ثم سهلوه فقالوا : ملك . وقيل : أصله ملأك من ملك يملك ، نحو شمأل من شمل، فالهمزة زائدة عن ابن كيسان أيضا؛ وقد تأتي في الشعر على الأصل؛ قال الشاعر :

فلستَ لإنسيّ ولكن لمَـلْأكٍ * تنزّل من جوّ السماء يصوب

وقال النضر بن شميل : لا اشتقاق للملك عند العرب . والهاء في الملائكة تأكيد لتأنيث الجمع ؛ ومثله الصلادمة والصلادم : الخيل الشداد ، واحدها صلدم . وقيل : هي للمبالغة ، كعلّامة ونسّابة . وقال أرباب المعاني : خاطب الله الملائكة لا للمشورة ولكن لاستخراج ما فيهم من رؤية الحركات والعبادة والتسبيح والتقديس، ثم ردهم إلى قيمتهم؛ فقال عز وجل : ﴿ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ . جاعل هنا بمعنى خالق ، ذكره الطبري عن أبي روق، ويقضي ذلك تعديها إلى مفعول واحد وقد تقدّم . والأرض، قيل : إنها مكة . روى ابن سابط عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "دحيت الأرض من مكة" ولذلك سميت أم القرى ؛ قال : وقبر نوح وهود وصالح وشعيب بين زمزم والركن والمقام . وخليفة ، يكون بمعنى فاعل أي يخلف من كان قبله من الملائكة في الأرض ، أو من كان قبله من غير الملائكة على ما روى؛ ويجوز أن يكون خليفة بمعنى مفعول أي مخلف ، كما يقال : ذبيحة بمعنى مفعولة؛ والخلف بالتحريك من الصالحين، وبتسكينها من الطالحين، هذا هو المعروف وسيأتي له مزيد بيان في الأعراف إن شاء الله . وخليفة بالفاء ، قراءة الجماعة إلا ما روى عن زيد بن عليّ فإنه قرأ خليقة بالقاف؛ والمعنى بالخليفة هنا في قول ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل آدم عليه السلام ،وهو خليفة الله في إمضاء أحكامه وأوامره لأنه أول رسول إلى الأرض؛ كما في حديث أبي ذرّ قال : قلت يا رسول الله أنبيا كان مرسلا ؟ قال : "نعم" الحديث . ويقال : لمن كان رسولا ولم يكن في الأرض أحد ؟ فيقال : كان رسولا إلى ولده وكانوا أربعين ولدا في عشرين بطنا في كل بطن ذكر وأنثى، وتوالدوا حتى كثروا؛ كما قال الله تعالى : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ . وأنزل عليه تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير؛ وعاش تسعمائة وثلاثين سنة؛ هكذا ذكر أهل التوراة ،وروى عن وهب بن منبه أنه عاش ألف سنة والله أعلم .

الرابعة — هذه الآية أصل فى نصب إمام وخليفة يسمع له ويطاع لتجتمع به الكلمة ، وتنفذ به أحكام الخليفة، ولا خلاف فى وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة إلا ما روى عن الأصم حيث كان عن الشريعة أصم، وكذلك كل من قال بقوله واتبعه على رأيه ومذهبه، قال : إنها غير واجبة فى الدين بل يسوغ ذلك، وإن الأمة متى أقاموا حجهم وجهادهم، وتناصفوا فيما بينهم، وبذلوا الحق من أنفسهم، وقسموا الغنائم والفيء والصدقات على أهلها، وأقاموا الحدود على من وجبت عليه، أجزأهم ذلك، ولا يجب عليهم أن ينصبوا إماما يتولى ذلك. ودليلنا قول الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ . وقوله تعالى : ﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ . وقال : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى يجعل منهم خلفاء . الى غير ذلك من الآى . وأجمعت الصحابة على تقديم الصدّيق بعد اختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار فى سقيفة بنى ساعدة فى التعيين حتى قالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ؛ فدفعهم أبو بكر وعمر والمهاجرون عن ذلك، وقالوا لهم : إن العرب لا تدين إلا لهذا الحى من قريش، ورووا لهم الخبر فى ذلك، فرجعوا وأطاعوا لقريش . فلو كان فرض الإمامة غير واجب لا فى قريش ولا فى غيرهم لما ساغت هذه المناظرة والمحاورة عليها ولقال قائل : إنها ليست بواجبة لافى قريش ولا فى غيرهم فما لتنازعكم وجه ولا فائدة فى أمر ليس بواجب . ثم إن الصديق رضى الله عنه لما حضرته الوفاة عهد الى عمر فى الإمامة ، ولم يقل له أحد : هذا أمر غير واجب علينا ولا عليك؛ فدلّ على وجوبها وأنها ركن من أركان الدين الذى به قوام المسلمين والحمد لله رب العالمين .

وقالت الرافضة : يجب نصبه عقلا وإن السمع إنما ورد على جهة التأكيد لقضية العقل؛ فأما معرفة الإمام فإن ذلك مدرك من جهة السمع دون العقل . وهذا فاسد، لأن العقل لا يوجب ولا يحظر ولا يقبح ولا يحسن : وإذا كان كذلك ثبت أنها واجبة من جهة الشرع لا من جهة العقل، وهذا واضح .

فإن قيل وهى الخامسة : إذا سلم أن طريق وجوب الإمامة السمع ، فخبرونا هل يجب من جهة السمع بالنص على الإمام من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أم من جهة اختيار أهل الحل والعقد له ، أم بكمال خصال الأئمة فيه ودعاؤه مع ذلك الى نفسه كاف فيه ؟ .

فالجواب أن يقال : اختلف الناس فى هذا الباب ، فذهبت الإمامية وغيرها إلى أن الطريق الذى يعرف به الإمام هو النص من الرسول عليه السلام ولا مدخل للاختيار فيه . وعندنا النظر طريق إلى معرفة الإمام ، وإجماع أهل الاجتهاد طريق أيضا إليه ؛ وهؤلاء الذين قالوا لا طريق إليه إلا النص بنوه على أصلهم ، أن القياس والرأى والاجتهاد باطل لا يعرف به شىء أصلا ، وأبطلوا القياس أصلا وفرعا ؛ ثم اختلفوا على ثلاث فرق ، فرقة تدعى النص على أبى بكر ، وفرقة تدعى النص على العباس ، وفرقة تدعى النص على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم ؛ والدليل على فقد النص وعدمه على إمام بعينه ، هو أنه صلى الله عليه وسلم لو فرض على الأمة طاعة إمام بعينه بحيث لا يجوز العدول عنه إلى غيره لعلم ذلك لاستحالة تكليف الأمة بأسرها طاعة الله فى غير معين ، ولا سبيل لهم إلى العلم بذلك التكليف ، وإذا وجب العلم به لم يخل ذلك العلم من أن يكون طريقه أدلة العقول أو الخبر ، وليس فى العقل ما يدل على ثبوت الإمامة لشخص معين ، وكذلك ليس فى الخبر ما يوجب العلم بثبوت إمام معين ؛ لأن ذلك الخبر ، اما أن يكون تواترا أوجب العلم ضرورة أو استدلالا ، أو يكون من أخبار الآحاد ؛ ولا يجوز أن يكون طريقه التواتر الموجب للعلم ضرورة أو دلالة ، إذ لو كان كذلك لكان كل مكلف يجد من نفسه العلم بوجوب الطاعة لذلك المعين وأن ذلك من دين الله عليه ، كما أن كل مكلف علم أن من دين الله الواجب عليه خمس صلوات ، وصوم رمضان ، وحج البيت ونحوها ؛ ولا أحد يعلم ذلك من نفسه ضرورة ؛ فبطلت هذه الدعوى ، وبطل أن يكون معلوما بأخبار الآحاد لاستحالة وقوع العلم به ؛ وأيضا فإنه لو وجب المصير إلى نقل النص على الإمام بأى وجه كان وجب إثبات إمامة أبى بكر والعباس ، لأن لكل واحد منهما قوما ينقلون النص صريحا فى إمامته ؛ وإذا بطل إثبات الثلاثة بالنص فى وقت واحد على ما يأتى بيانه ، كذلك الواحد إذ ليس أحد الفرق أولى بالنص من الآخر ؛ وإذا بطل ثبوت النص لعدم الطريق الموصل إليه ثبت الاختيار والاجتهاد ؛ فإن تعسف متعسف ، وادعى التواتر والعلم الضرورى بالنص فينبغى أن يقابلوا على الفور بنقيض دعواهم فى النص على أبى بكر وبأخبار فى ذلك كثيرة تقوم أيضا من جملتها مقام النص ؛ ثم لا شك فى تصميم من عدا الإمامية على نفى النص ؛ وهم الخلق الكثير والجم الغفير ، والعلم الضرورى

لا يجتمع على نفيه من يحط عن معشار أعداد مخالفى الإمامية ؛ ولو جاز ردّ الضرورى فى ذلك لجاز أن ينكر طائفة بغداد والصين الأقصى وغيرهما .

السادسة — فى ردّ الأحاديث التى احتج به الإمامية فى النص على علىّ رضى الله عنه،وأن الأمة كفرت بهذا النص وارتدت، وخالفت أمر الرسول عنادا ؛ منها : قوله عليه السلام : "من كنت مولاه فعلىّ مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه" قالوا : والمولى فى اللغة بمعنى أولى؛ فلما قال : "فعلىّ مولاه" بفاء التعقيب علم أن المراد بقوله مولى أنه أحق وأولى؛ فوجب أن يكون أراد بذلك الإمامة وأنه مفترض الطاعة؛ وقوله عليــه السلام لعلىّ : "أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبىّ بعــدى" قالوا : ومنزلة هارون معروفة ، وهو أنه كان مشاركا له فى النبوّة ولم يكن ذلك لعلىّ وكان أخاله ولم يكن ذلك لعلىّ، وكان خليفة؛ فعلم أن المراد به الخلافة إلى غير ذلك ممــا احتجوا به على ما يأتى ذكره فى هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

والجواب عن الحديث الأوّل : أنه ليس بمتواتر، وقد اختلف فى صحته ، وقد طعن فيه أبو داود السجستانى وأبو حاتم الرازى واستدلا على بطلانه بأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "مزينة وجهينة وغفار وأسلم موالىّ دون الناس كلهم ليس لهم مولًى دون الله ورسوله" قالوا : فلو كانـــ قد قال : "من كنت مولاه فعلىّ مولاه" لكان أحد الخبرين كذبا .

جواب ثان — وهو أن الخبر وإن كان صحيحا رواه ثقة عن ثقة فليس فيه ما يدل على إمامته، وإنمــا يدل على فضيلته ،وذلك أن المولى بمعنى الولى، فيكون معنى الخبر من كنت وليه فعلىّ وليه، قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ ﴾ أى وليه . وكان المقصود من الخبر أن يعلم الناس أن ظاهر علىّ كباطنه، وذلك فضيلة عظيمة لعلىّ .

جواب ثالث — وهو أن هــذا الخبر ورد على سبب ، وذلك أن أسامة وعليّا آختصما ، فقال علىّ لأسامة : أنت مولاى، فقال : لست مولاك ، بل أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وســلم ، فذكر للنبىّ صلى الله عليه وسلم؛ فقال : « من كنت مولاه فعلىّ مولاه » .

جواب رابع — وهو أن عليّا عليه الســـلام لمــا قال للنبىّ صلى الله عليه وســلم فى قصة الإفك فى عائشــة رضى الله عنهــا : النساء سواها كثير، شق ذلك عليها ، فوجد أهل النفاق مجالا فطعنوا

عليه وأظهروا البراءة منه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم هذا المقال ردًا لقولهم، وتكذيبا لهم فيما قدموا عليه من البراءة منه والطعن فيه ؛ ولهذا ماروى عن جماعة من الصحابة أنهم قالوا : ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ببغضهم لعليّ عليه السلام . وأما الحديث الثاني فلا خلاف أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد بمنزلة هارون من موسى الخلافة بعده، ولا خلاف أن هارون مات قبل موسى عليهما السلام على ما يأتي من بيان وفاتيهما في سورة المائدة ؛ وما كان خليفة بعده وإنما كان خليفة يوشع بن نون؛ فلو أراد بقوله : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى » الخلافة؛ لقال : أنت مني بمنزلة يوشع من موسى، فلما لم يقل هذا دل على أنه لم يرد هذا ؛ وإنما أراد أني استخلفتك على أهلي في حياتي وغيبوبتي عن أهلي ؛ كما كان هارون خليفة موسى على قومه لما خرج إلى مناجاة ربه . وقد قيل إن هذا الحديث خرج على سبب، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى غزوة تبوك استخلف عليًا عليه السلام في المدينة على أهله وقومه ؛ فأرجف أهل النفاق وقالوا : إنما خلفه بغضا وقلًى له ؛ فخرج عليّ فلحق بالنبي صلى الله عليه وسلم وقال له : إن المنافقين قالوا كذا وكذا، فقال : « كذبوا بل خلفتك كما خلف موسى هارون » وقال : « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى » وإذا ثبت أنه أراد الاستخلاف على زعمهم فقد شارك عليًا في هذه الفضيلة غيره لأن النبي صلى الله عليه وسلم استخلف في كل غزاة غزاها رجلا من أصحابه، منهم : ابن أم مكتوم ، ومحمد بن مسلمة وغيرهما من أصحابه، على أن مدار هذا الخبر على سعد بن أبي وقاص وهو خبر واحد . وروى في مقابلته لأبي بكر وعمر ما هو أولى منه ؛ وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما أنفذ معاذ بن جبل الى اليمن قيل له : ألا تنفذ أبا بكر وعمر؛ فقال : « إنهما لا غنى بي عنهما إن منزلتهما من الرأس بمنزلة السمع والبصر » وقال : « هما وزيراى في أهل الأرض » . وروى عنه عليه السلام أنه قال : « أبو بكر وعمر بمنزلة هارون من موسى » وهذا الخبر ورد ابتداء، وخبر عليّ ورد على سبب ، فوجب أن يكون أبو بكر أولى منه بالإمامة والله أعلم .

السابعة — واختلف فيما يكون به الإمام إماما وذلك ثلاث طرق، أحدها : النص وقد تقدّم الخلاف فيه؛ وقال به أيضا الحنابلة، وجماعة من أصحاب الحديث ، والحسن البصري ، وبكر ابن

أخت عبـد الواحد وأصحابه، وطائفة من الخوارج ؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسـلم نص على أبي بكر بالإشارة، وأبو بكر على عمر، فاذا نص المستخلف على واحد معين كما فعل الصدّيق ، أو على جماعة كما فعل عمر،وهو الطريق الثانى ويكون التخيير اليهم فى تعيين واحد منهم كما فعل الصحابة رضى الله عنهم . الطريق الثالث : إجماع أهل الحل والعقد، وذلك أن الجماعة فى مصر من أمصار المسلمين إذا مات إمامهــم ولم يكن لهم إمام ولا استخلف ، فأقام أهــل ذلك المصر الذى هو حضرة الإمام وموضعه إماما لأنفسهم اجتمعوا عليه ورضــوه فان كل من خلفهم وأمامهم من المسلمين فى الآفاق يلزمهم الدخول فى طاعة ذلك الإمام، إذا لم يكن معلنا بالفسق والفساد، لأنها دعوة محيطة بهم تجب إجابتها ولا يسع أحدا التخلف عنها لمـا فى إقامة إمامين من اختلاف الكلمة وفساد ذات البين، قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : « ثلاث لا يُغِل عليهن قلب مؤمن إخلاص العمل لله ولزوم الجماعة ومناصحة ولاة الأمر فإن دعوة المسلمين من ورائهم محيطة» .

الثامنــة ــ فإن عقدها واحد من أهل الحل والعقد فذلك ثابت ويلزم الغير فعله خلافا لبعض الناس حيث قال : لا تنعقد إلا بجماعة من أهل الحل والعقد ؛ ودليلنا أن عمر رضى الله عنــه عقد البيعة لأبى بكر ولم ينكر أحد من الصحابة ذلك، ولأنه عقد فوجب ألا يفتقر إلى عدد يعقدونه كسائر العقود، قال الإمام أبو المعـالى : من انعقدت له الإمامة بعقد واحد فقد لزمت ولا يجوز خلعه من غير حدث وتغير أمر، قال : وهذا مجمع عليه .

التاسعة ــ فإن تغلب من له أهلية الإمامة وأخذها بالقهر والغلبة فقد قيل إن ذلك يكون طريقا رابعا، وقد سئل سهل بن عبد الله التسترى : ما يجب علينا لمن غلب على بلادنا وهو إمام ؟ قال : تجيبه وتؤدّى اليه ما يطالبك من حقه، ولا تنكر فعاله ولا تفر منه، وإذا ائتمنك على سر من أمر الدين لم تفشه . وقال ابن خُوَيْزمَنْدَاد : ولو ثبت على الأمر من يصلح له من غير مشورة ولا اختيار وبايع له الناس تمت له البيعة، والله أعلم .

العـاشرة ــ واختلف فى الشهادة على عقد الإمامة ؛ فقال بعض أصحابنا : إنه لا يفتقر إلى الشهود لأن الشهادة لا تثبت إلا بسمع قاطع، وليس هاهنا سمع قاطع يدل على إثبـات الشهادة .

ومنهم من قال : يفتقر إلى شهود؛ فمن قال بهذا احتج بأن قال : لو لم تعقد فيـه الشهادة أدى الى أن يدعى كل مدع أنه عقد له سرا ، ويؤدى الى الهرج والفتنة ، فوجب أن تكون الشهادة معتبرة ويكفى فيها شاهدان خلافا للجبائى حيث قال باعتبار أربعة شهود وعاقد ومعقود له؛ لأن عمر حيث جعلها شـورى فى ستة دل على ذلك . ودليلنا أنه لا خلاف بيننا وبينـه أن شهادة الاثنين معتبرة وما زاد مختلف فيه ولم يدل عليه الدليل فيجب ألّا يعتبر .

الحادية عشرة — فى شرائط الإمام وهى أحد عشر :

الأوّل — أن يكون من صميم قريش لقوله صلى الله عليه وسـلم : « الأئمة من قريش » وقد اختلف فى هذا .

الثـانى — أن يكون ممن يصلح أن يكون قاضـيا من قضاة المسلمين مجتهدا لا يحتاج إلى غيره فى الاستفتاء فى الحوادث، وهذا متفق عليه .

الثـالث — أن يكون ذا خبرة ورأى حصيف بأمر الحرب وتدبير الجيوش وسد الثغور وحماية البيضة وردع الأمة والانتقام من الظالم والأخذ للمظلوم .

الرابـع — أن يكون ممن لا تلحقـه رقة فى إقامة الحدود ولا فزع من ضرب الرقاب ولا قطع الأبشار ؛ والدليل على هذا كله إجماع الصحابة رضى الله عنهـم لأنه لا خلاف بينهم أنه لا بدّ من أن يكون ذلك كله مجتمعا فيه، ولأنه هو الذى يولى القضاة والحكام، وله أن يباشر الفصل والحكم، ويتفحص أمور خلفائه وقضاته ؛ ولن يصـلح لذلك كله إلا من كان عالمـا بذلك كله قيما به . والله أعلم .

الخامس — أن يكون حرا، ولا خفاء باشتراط حرية الإمام وإسلامه وهو السادس .

السابع — أن يكون ذكرا، سليم الأعضاء وهو الثامن . وأجمعوا على أن المرأة لا يجوز أن تكون إماما وإن اختلفوا فى جواز كونها قاضية فيما يجوز شهادتها فيه .

التاسع والعاشر — أن يكون بالغا عاقلا؛ ولا خلاف فى ذلك .

الحادى عشر — أن يكون عدلا لأنه لاخلاف بين الأمة أنه لا يجوز أن تعقد الإمامة لفاسق؛ ويجب أن يكون من أفضلهم فى العلم، لقوله عليه السلام : «أئمتكم شفعاؤكم فانظروا بمن تستشفعون»

وفى التنزيل فى وصف طالوت : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ . فبدأ بالعلم ثم ذكر ما يدل على القوة وسلامة الأعضاء؛ وقوله : ﴿ٱصْطَفَاهُ﴾ . معناه اختاره وهذا يدل على شرط النسب ؛ وليس من شرطه أن يكون معصوما من الزلل والخطأ ، ولا عالما بالغيب ، ولا أفرس الأمة ولا أشجعهم،ولا أن يكون من بنى هاشم فقط دون غيرهم من قريش؛فإن الإجماع قد انعقد على إمامة أبى بكر وعمر وعثمان وليسوا من بنى هاشم .

الثانية عشرة — يجوز نصب المفضول مع وجود الفاضل خوف الفتنة وألا يستقيم أمر الأمة ؛ وذلك أن الإمام إنما نصب لدفع العدو وحماية البيضة وسدّ الخلل واستخراج الحقوق وإقامة الحدود وجباية الأموال لبيت المال وقسمتها على أهلها؛ فإذا خيف بإقامة الأفضل الهرج والفساد وتعطيل الأمور التى لأجلها ينصب الإمام كان ذلك عذرا ظاهرا فى العدول عن الفاضل إلى المفضول ؛ ويدل على ذلك أيضا علم عمر وسائر الأمة وقت الشورى بأن الستة فيهم فاضل ومفضول وقد أجاز العقد لكل واحد منهم اذا أدّى المصلحة الى ذلك واجتمعت كلمتهم عليه من غير إنكار أحد عليهم؛ والله أعلم .

الثالثة عشرة — الإمام اذا نصب ثم فسق بعد انبرام العقد فقال الجمهور : إنه تنفسخ إمامته ويخلع بالفسق الظاهر المعلوم لأنه قد ثبت أن الإمام إنما يقام لإقامة الحدود واستيفاء الحقوق وحفظ أموال الأيتام والمجانين والنظر فى أمورهم إلى غير ذلك مما تقدّم ذكره ؛ وما فيه من الفسق يقعده عن القيام بهذه الأمور والنهوض فيها ؛ فلو جوزنا أن يكون فاسقا أدّى إلى إبطال ما أقيم لأجله ، ألا ترى فى الابتداء إنما لم يجز أن يعقد للفاسق لأجل أنه يؤدّى الى إبطال ما أقيم له وكذلك هذا مثله . وقال آخرون : لا ينخلع الا بالكفر أو بترك إقامة الصلاة أو الترك الى دعائها أو شىء من الشريعة؛ لقوله عليه السلام فى حديث عبادة : «وألا ننازع الأمر أهله [قال][1] إلا أن تروا كفرا بَوَاحًا عندكم من الله فيه برهان» وفى حديث عوف بن مالك : «لا ما أقاموا فيكم الصلاة» الحديث أخرجهما مسلم . وعن أم سلمة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنه يستعمل عليكم

(١) الزيادة عن صحيح مسلم (ج ٦ ص ١٧) طبع الآستانة .

أمراء فتعرفون وتنكرون فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم ولكن من رضى وتابع » قالوا : يارسول الله ألا نقاتلهم؟ قال : «لا ما صلّوا» أى من كره بقلبه وأنكر بقلبه؛ أخرجه أيضا مسلم .

الرابعة عشرة — ويجب عليه أن يخلع نفسه إذا وجد فى نفسه نقصا يؤثر فى الإمامة ، فأما اذا لم يجد نقصا فهل له أن يعزل نفسه ويعقد لغيره؟ اختلف الناس فيه ؛ فمنهم من قال : ليس له أن يفعل ذلك وان فعل لم تنخلع إمامته؛ ومنهم من قال : له أن يفعل ذلك ؛ والدليل على أن الإمام اذا عزل نفسه انعزل قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه : أقيلونى أقيلونى ؛ وقول الصحابة : لا نقيلك ولا نستقيلك، قدمك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا فمن ذا يؤخرك ! رضيك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاك ! فلو لم يكن له أن يفعل ذلك لأنكرت الصحابة ذلك عليه ولقالت له : ليس لك أن تقول هذا ، وليس لك أن تفعله ؛ فلما أقرته الصحابة على ذلك علم أن للامام أن يفعل ذلك ولأن الإمام ناظر للغيب[1] فيجب أن يكون حكمه حكم الحاكم ؛ والوكيل اذا عزل نفسه فان الإمام هو وكيل الأمة ونائب عنها ولما اتفق على أن الوكيل والحاكم وجميع من ناب عن غيره فى شىء له أن يعزل نفسه، كذلك الإمام يجب أن يكون مثله والله أعلم .

الخامسة عشرة — إذا انعقدت الإمامة باتفاق أهل الحل والعقد أو بواحد على ما تقدم وجب على الناس كافة مبايعته على السمع والطاعة وإقامة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ ومن تأبى عن البيعة لعذر عذر، ومن تأبى بغير عذر جبر وقهر لئلا تفترق كلمة المسلمين؛ وإذا بويع لخليفتين فالخليفة الأول وقتل الآخر؛ واختلف فى قتله هل هو محسوس، أو معنى فيكون عزله قتله وموته؟ والأول أظهر؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما » رواه أبو سعيد الخدرى أخرجه مسلم . وفى حديث عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سمعه يقول : « ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر » رواه مسلم أيضا؛ ومن حديث عرفجة : « فاضربوه بالسيف كائنا من كان » وهذا أدل دليل على منع إقامة إمامين؛ ولأن ذلك يؤدى إلى النفاق والمخالفة والشقاق وحدوث

(١) فى بعض الأصول : « للغير » .

الفتن وزوال النعم ، لكن إن تباعدت الأقطار وتباينت كالأندلس وخراسان جاز ذلك على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

السادسة عشرة — لو خرج خارجىّ على إمام معروف العـدالة وجب على الناس جهاده؛ فإن كان الإمام فاسقا والخارجىّ مظهر للعـدل لم ينبغ للناس أن يسرعوا إلى نصرة الخارجىّ حتى يتبين أمره فيما يظهر من العدل، أو تتفق كلمة الجماعة على خلع الأول وذلك أن كل من طلب مثل هـذا الأمر أظهر من نفسه الصلاح حتى إذا تمكن رجع إلى عادته من خلاف ما أظهر .

السابعة عشرة — فأما إقامة إمامين أو ثلاثة فى عصر واحد و بلد واحد فلا يجوز إجماعا لـما ذكرنا . قال الامام أبو المعـالى : ذهب أصحابنا إلى منع عقد الإمامة لشخصين فى طرق العـالم ؛ ثم قالوا : لو اتفق عقـد الإمامة لشخصين نزل ذلك منزلة تزويج وليين امرأة واحدة من زوجين من غير أن يشـعر أحدهما بعقد الآخر، قال : والذى عندى فيه أن عقد الإمامة لشخصين فى صـقع واحد متضايق الخطط والمخاليف غير جائز وقد حصل الإجماع عليه ، فأما إذا بعد المدى وتخلل بين الإمامين شسوع النوى فللاحتمال فى ذلك مجال وهو خارج عن القواطع . وكان الأستاذ أبو إسحاق يجوز ذلك فى إقليمين متباعدين غاية التباعد لئلا تتعطل حقوق الناس وأحكامهم . وذهبت الكرامية إلى جواز نصب إمامين من غير تفصيل ويلزمهـم إجازة ذلك فى بلد واحد وصاروا إلى أن عليا ومعاوية كانا إمامين ؛ قالوا : وإذا كانا اثنين فى بلدين أو ناحيتين كان كل واحد منهما أقوم بما فى يديه وأضبط لـما يليه ولأنه لـما جاز بعثة نبيين فى عصر واحد ولم يؤدّ ذلك إلى إبطال النبوّة كانت الإمامة أولى، ولا يؤدى ذلك إلى إبطال الإمامة ، والجواب أن ذلك جائز لولا منع الشرع منه ، لقوله : « فاقتلوا الآخر منهما » ولأن الأمة عليـه ، وأما معاوية فلم يدّع الإمامة لنفسه وإنما ادّعى ولاية الشام بتولية من قبله من الأئمة ، ومـما يدل على هذا إجماع الأمة فى عصرهما على أن الإمام أحدهمـا ، ولا قال أحدهما : إنى إمام ومخالفى إمام ، فإن قالوا : العقل لا يحيل ذلك وليس فى السـمع ما يمنع منه ، قلنا : أقوى السمع الإجماع وقد وجد على المنع .

قوله تعالى : ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ . قد علمنا قطعا أن الملائكة لا تعلم إلا ما أعلمت ولا تسبق بالقول وذلك عام فى جميع الملائكة لأن قوله : ﴿لَا يَسْـبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ خرج على جهة

المدح لهم، فكيف قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ فقيل : المعنى أنهم لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن فى بنى آدم من يفسد، إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد، لكن عمموا الحكم على الجميع بالمعصية ، فبين الرب تعالى أن فيهم من يفسد ومن لا يفسد فقال تطييبا لقلوبهم : ﴿ إِنِّى أَعْلَمُ ﴾ وحقق ذلك بأن علم آدم الأسماء، وكشف لهم عن مكنون علمه . وقيل : إن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء، وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة فقتلهم وألحقهم بالبحار ورءوس الجبال ، فمن حينئذ دخلته العزة فجاء قولهم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا ﴾ على جهة الاستفهام المحض، هل هذا الخليفة على طريقة من تقدّم من الجن أم لا ؟ قاله أحمد بن يحيى ثعلب . وقال ابن زيد وغيره : إن الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذريته قوم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء، فقالوا لذلك هذه المقالة إما على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه أو من عصيان الله من يستخلفه فى أرضه وينعم عليه بذلك ، وإما على طريق الاستعظام والإكبار للفصلين جميعا ، الاستخلاف والعصيان . وقال قتادة : كان الله أعلمهم أنه إذا جعل فى الأرض خلقا أفسدوا وسفكوا الدماء فسألوا حين قال : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ أهو الذى أعلمهم أم غيره؟ وهذا قول حسن، رواه عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ قال : كان الله أعلمهم أنه إذا كان فى الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء فلذلك قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ وفى الكلام حذف على مذهبه ؛ والمعنى إنى جاعل فى الأرض خليفة يفعل كذا ويفعل كذا، فقالوا : أتجعل فيها الذى أعلمتنا أم غيره ؟ والقول الأول أيضا حسن جدا لأن فيه استخراج العلم واستنباطه من مقتضى الألفاظ وذلك لا يكون إلا من العلماء، وما بين القولين حسن فتأمله . وقد قيل : إن سؤاله تعالى للملائكة بقوله : "كيف تركتم عبادى" على ما ثبت فى صحيح مسلم وغيره إنما هو على جهة التوبيخ لمن قال : أتجعل فيها ، وإظهار لما سبق فى معلومه إذ قال لهم : ﴿ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

قوله : ﴿ مَنْ يُفْسِـدُ فِيهَا ﴾ ، من ، فى موضع نصب على المفعول بجعل والمفعول الثانى يقوم مقامه فيها ، يفسد على اللفظ ، ويجوز فى غير القرآن يفسدون على المعنى ، وفى التنزيل : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ على اللفظ ، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ ﴾ على المعنى . ويسفك عطف عليه ويجوز فيـه الوجهان ، وروى أسيد عن الأعرج أنه قرأ : ﴿ وَيَسْفِكَ الدِّمَاءَ ﴾ بالنصب يجعله جواب الاستفهام بالواو كما قال :

ألم أك جاركم وتكون بينى * وبينــكم المـودّة والإخاء

والســفك : الصب ، سفكت الدم أسفكه سـفكا : صببته ، وكذلك الدمع حكاه ابن فارس والجوهرى ، والسفاك : السفاح وهو القادر على الكلام قال المهدوى : ولا يستعمل السفك إلا فى الدم ، وقد يستعمل فى نثر الكلام ، يقال : سفك الكلام إذا نثره . وواحد الدماء دم ، محذوف اللام ، وقيل : أصله دَمْىٌ ، وقيل : دَمَىٌ ، ولا يكون اسم على حرفين إلا وقد حذف منه والمحذوف منه ياء وقد نطق به على الأصل قال الشاعر :

فـلو أنا على حجـــر ذبحنا * جرى الدميان بالخـبر اليقين

قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ ، أى ننزهك عما لا يليق بصفاتك ، والتسبيح فى كلامهم التنزيه من السوء على وجه التعظيم ، ومنه قول أعشى بنى ثعلبة :

أقـول لمـا جاءنى فخره * سبحان من علقمة الفاخرِ

أى براءة من علقمة . وروى طلحة بن عبيــد الله قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسـلم عن تفسير سبحان الله فقال : «هو تنزيه الله عز وجل عن كل سوء» . وهو مشتق من السبح وهو الجرى والذهاب ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ فِى النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ فالمسبح جار فى تنزيه الله تعالى وتبرئته من السوء ، وقد تقدّم الكلام فى نحن ، ولا يجوز ادغام النون فى النون لئلا يلتقى ساكنان .

مسئلة : واختلف أهل التأويل فى تسبيح الملائكة ، فقال ابن مسعود وابن عباس : تسبيحهم : صلاتهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ أى المصلين ، وقيل : تسبيحهم رفع الصوت بالذكر قاله المفضل ، واستشهد بقول جرير :

قبح الإله وجوه تغلب كلما * سبح[1] الحجيج وكبروا إهلالا

(1) فى ديوان جرير : «شبح» وعلق عليها الشيخ الشنقيطى بأن الشبح : رفع الأيدى بالدعاء ، وعلى هذا فيكون الاستشهاد بهذا البيت فى غير محله .

وقال قتادة : تسبيحهم سبحان الله، على عرفه فى اللغة وهو الصحيح لما رواه أبو ذرّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : أىّ الكلام أفضل ؟ قال : « ما اصطفى الله لملائكته [أو لعباده][1] سبحان الله وبحمده » أخرجه مسلم ؛ وعن عبد الرحمن بن قرظ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به سمع تسبيحا فى السموات العلا ، سبحان العلىّ الأعلى سبحانه وتعالى، ذكره البيهقى .

قوله تعالى : ﴿ بِحَمْدِكَ ﴾ . أى وبحمدك نخلط التسبيح بالحمد ونصله به ؛ والحمد : الثناء وقد تقدّم ؛ ويحتمل أن يكون قولهم : بحمدك اعتراضا بين الكلامين كأنهم قالوا : ونحن نسبح ونقدس ثم اعترضوا على جهة التسليم أى وأنت المحمود فى الهداية إلى ذلك والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ أى نعظمك ونمجدك ونطهر ذكرك عما لا يليق بك مما نسبك إليه الملحدون ؛ قاله مجاهد وأبو صالح وغيرهما . وقال الضحاك وغيره : المعنى نطهر أنفسنا لك ابتغاء مرضاتك . وقال قوم منهم قتادة : نقدس لك معناه نصلى، والتقديس : الصلاة، قال ابن عطية : وهذا ضعيف .

قلت : بل معناه صحيح فإن الصلاة تشتمل على التعظيم والتقديس والتسبيح، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى ركوعه وسجوده : « سبوح قدوس رب الملائكة والروح » روته عائشة أخرجه مسلم، وبناء قدس كيفما تصرف فإن معناه التطهير، ومنه قوله تعالى : ﴿ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ﴾ أى المطهرة، وقال : ﴿ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ﴾ يعنى الطاهر ، ومثله : ﴿ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾، وبيت المقدس سمى به لأنه المكان الذى يتقدس فيه من الذنوب أى يتطهر، ومنه قيل للسطل : قدس لأنه يتوضأ فيه ويتطهر، ومنه القادوس وفى الحديث : « لاقدست أمة لا يؤخذ من ضعيفها لقويها » يريد لاطهرها الله أخرجه ابن ماجه فى سننه، فالقدس : الطهر من غير خلاف ؛ وقال الشاعر[2] :

فأدركنه يأخذن بالساق والنّسا * كما شَبْرَق الوِلدانُ ثوبَ المُقَدَّسِ

أى المطهر، فالصلاة طهرة للعبد من الذنوب، والمصلى يدخلها على أكمل الأحوال لكونها أفضل الأعمال والله أعلم .

(١) زيادة عن صحيح مسلم (ح ٨ ص ٨٦ طبع الآستانة) . (٢) هو امرؤ القيس كما فى اللسان مادة (قدس) .

قوله تعالى : ﴿ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . أعلم فيه تأويلان قيل : إنه فعل مستقبل، وقيل : إنه اسم بمعنى فاعل، كما يقال : الله أكبر بمعنى كبير، وكما قال :

لعمرك ما أدرى وإنى لأوجل * على أينا تعـــدو المنيـــة أوّل

فعلى أنه فعل تكون ما فى موضع نصب بأعلم ويجوز إدغام الميم فى الميم ، وإن جعلته اسما بمعنى عالم تكون ما فى موضع خفض بالإضافة، قال ابن عطية : ولا يصح فيه الصرف بإجماع من النحاة، وإنمـا الخلاف فى أفعل إذا سمى به وكان نكرة، فسيبويه والخليل لا يصرفانه، والأخفش يصرفه، قال المهدوى : يجوز أن تقدّر التنوين فى أعلم إذا قدرته بمعنى عالم، وتنصب ما به فيكون مثل حواجّ بيت الله، قال الجوهرى : ونسوة حواجّ بيت الله بالإضافة إذا كن قد حججن، وإن لم يكن حججن قلت : حواج بيت الله فتنصب البيت لأنك تريد التنوين فى حواج .

قوله : ﴿ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . اختلف علماء التأويل فى المراد بقوله تعالى : ﴿ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . فقال ابن عباس : كان إبليس — لعنه الله — قد أعجب ودخله الكبر لمـا جعله خازن السماء وشرفه فاعتقد أن ذلك لمزية له، فاستخف الكفر والمعصية فى جانب آدم عليه السلام، وقالت الملائكة : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ وهى لا تعلم أن فى نفس إبليس خلاف ذلك، فقال الله تعـالى لهم : ﴿ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وقال قتادة : لمـا قالت الملائكة أتجعل فيها وقد علم الله أن فيمن يستـــخلف فى الأرض أنبياء وفضـــلاء وأهل طاعة قال لهم : ﴿ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . قلت : ويحتمل أن يكون المعنى إنى أعلم ما لا تعلمون مما كان ومما يكون ومما هو كائن، فهو عام .

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ صَادِقِينَ ﴾ . فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ . علم معناه عرف، وتعليمه هنا إلهام علمه ضرورة، ويحتمل أن يكون بواسطة ملك وهو جبريل عليه السلام على ما يأتى، وقرئ : ﴿ وَعُلِّمَ ﴾ غير مسمى الفاعل والأول أظهر على ما يأتى، قال علماء الصوفية : علمها بتعليم الحق إياه وحفظها بحفظه عليه ونسى ما عهد إليه لأنه وكله فيه إلى نفسه فقال : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ . وقال ابن عطاء : لو لم يكشف لآدم علم تلك الأسماء لكان أعجز من الملائكة فى الإخبار عنها وهـــذا واضح . وآدم عليه السلام يكنى أبا البشر، وقيل : أبا محمد، كنى بمحمد خاتم

الأنبياء صلوات الله عليهم قاله السهيلي، وقيل : كنيته في الجنة أبو محمد، وفي الأرض أبو البشر؛ وأصله بهمزتين لأنه أفعل إلا أنهم لينوا الثانية فإذا احتجت إلى تحريكها جعلتها واوا فقلت :أوادم في الجمع لأنه ليس لها أصل في البناء معروف، فجعلت الغالب عليها الواو عن الأخفش .

واختلف في اشتقاقه فقيل هو مشتق من أدمة الأرض وأديمها وهو وجهها فسمي بما خلق منه، قاله ابن عباس، وقيل : إنه مشتق من الأدمة وهي السمرة ؛ واختلفوا في الأدمة فزعم الضحاك أنها السمرة ،وزعم النضر أنها البياض ،وأن آدم عليه السلام كان أبيض، مأخوذ من قولهم : ناقة أدماء اذا كانت بيضاء،وعلى هذا الاشتقاق جمعه أدم وأوادم كحمر وأحامر ولا ينصرف بوجه؛ وعلى أنه مشتق من الأدمة جمعه آدمون ويلزم قائلو هذه المقالة صرفه .

قلت : الصحيح أنه مشتق من أديم الأرض؛ قال سعيد بن جبير : إنما سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض، وإنما سمي إنسانا لأنه نسي، ذكره ابن سعد في الطبقات . وروى السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود في قصة خلق آدم عليه السلام قال : فبعث الله جبريل عليه السلام الى الأرض ليأتيه بطين منها ؛ فقالت الأرض : أعوذ بالله منك أن تنقص مني أو تشيني(1)؛ فرجع ولم يأخذ وقال : يارب إنها عاذت بك فأعذتها؛ فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها ، فرجع فقال كما قال جبريل؛ فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره فأخذ من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين ـــ ولذلك سمي آدم لأنه أخذ من أديم الأرض ـــ فصعد به، فقال الله تعالى له :" أما رحمت الأرض حين تضرعت إليك" فقال : رأيت أمرك أوجب من قولها، فقال:"أنت تصلح لقبض أرواح ولده" فبلّ التراب حتى عاد طينا لازبا، اللازب : هو الذي يلتصق بعضه ببعض ثم ترك حتى أنتن فذلك حيث يقول : ﴿ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ قال : منتن ،ثم قال للملائكة : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ . فخلقه الله بيده لكيلا يتكبر إبليس عنه يقول: أتتكبر عما عملت بيدي ولم أتكبر أنا عنه !

(1) في نسخة : « أن تقبض مني أو تشينني » . وفي تاريخ الطبري (ص ٨٧ ج ١ قسم أول طبع أوربا : « ... مني شيئا وتشيني » .

فخلقه بشرا فكان جسدا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه وكان أشدهم منه فزعا إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار تكون له صلصلة فذلك حين يقـول : ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ ويقول : لأمرٍ مّا خلقت ! . ودخل من فمه وخرج من دبره؛ فقال إبليس للملائكة : لا ترهبوا من هذا فإنه أجوف ولئن سلطت عليه لأهلكنّه؛ ويقال: إنه كان إذا مرّ عليه مع الملائكة يقول : أرأيتم هذا الذى لم تروا من الخلائق يشبهه أن فضل عليكم وأمرتم بطاعته ماأنتم فاعلون؟ قالوا: نطيع أمر ربنا ؛ فأسرّ إبليس فى نفسه لئن فضّل علىّ فلا أطيعه، ولئن فضّلت عليه لأهلكنّه ؛ فلما بلغ الحين الذى أريد أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة : إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له ؛ فلما نفخ فيــه الروح فدخل الروح فى رأسه عطس ؛ فقالت له الملائكة : قل الحمد لله؛ فقال : الحمد لله، فقال الله له : رحمك ربك؛ فلما دخل الروح فى عينيــه نظر الى ثمار الجنة فلما دخل فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن يبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة فذلك حين يقول : ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ وذكر القصة . و روى الترمذى عن أبى موسى الأشعرى قال سمعت رسول الله صلى الله عليــه وسلم يقول : « إن الله عز وجل خلق آدم من قبضــة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قــدر الأرض جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود و بين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب» قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح . أَدِيم : جمعه أُدُم؛ قال الشاعر :

الناس أخياف وشتّى فى الشِّيَمْ * وكلهم يجمعهـم وجــه الأَدَمْ

فآدم مشتق من الأديم والأدم لامن الأدمة — والله أعلم — ويحتمل أن يكون منهما جميعا . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى خلق آدم فى الأنعام وغيرها إن شاء الله تعالى . وآدم لا ينصرف؛ قال أبو جعفر النحاس : آدم لا ينصرف فى المعرفة بإجمـاع النحويين لانه على أفعـل وهو معرفة ولا يمتنع شىء من الصرف عند البصريين إلا لعلتين، فان نكرته ولم يكن نعتا لم يصرفه الخليل وسيبويه، وصرفه الأخفش سعيد لأنه إنما منعه من الصرف لأنه كان نعتا وهو على وزن الفعل، فاذا لم يكن نعتا صرفه؛ قال أبو إسحاق الزجاج : القول قول سيبويه لا يفرق بين النعت وغيره لأنه هو ذاك بعينه .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ . الأسماء هنا بمعنى العبارات فإن الاسم قد يطلق ويراد به المسمى كقولك: زيد قائم، والأسد شجاع ، وقد يراد به التسمية ذاتها كقولك : أسد ثلاثة أحرف، ففى الأول يقال : الاسم هو المسمى بمعنى يراد به المسمى ؛ وفى الثانى لا يراد به المسمى؛ وقد يجرى اسم فى اللغة مجرى ذات العبارة وهو الأكثر من استعمالها، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ على أشهر التأويلات ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : "إن لله تسعة وتسعين اسما" ويجرى مجرى الذات يقال : ذات ونفس وعين واسم بمعنى، وعلى هذا حمل أكثر أهل العلم قوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ ﴿ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ﴾ ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ .

الثالثة — واختلف أهل التأويل فى معنى الأسماء التى علمها لآدم عليه السلام، فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير : علمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها . وروى عاصم بن كليب عن سعد مولى الحسن بن علىّ قال : كنت جالسا عند ابن عباس فذكروا اسم الآنية واسم السوط، قال ابن عباس : وعلم آدم الأسماء كلها .

قلت : وقد روى هذا المعنى مرفوعا على ما يأتى وهو الذى يقتضيه لفظ "كلها" إذ هو اسم موضوع للاحاطة والعموم ؛ وفى البخارى من حديث أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " ويجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا الى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجدلك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء" . الحديث . قال ابن منداد : فى هذه الآية دليل على أن اللغة مأخوذة توقيفا وأن الله تعالى علمها آدم عليه السلام جملة وتفصيلا ؛ كذلك قال ابن عباس : علمه أسماء كل شيء حتى الجفنة والمحلب ؛ وروى شيبان عن قتادة قال : علم آدم من الأسماء أسماء خلقه مالم يعلم الملائكة، وسمى كل شيء باسمه وأنحى منفعة كل شيء الى جنسه ؛ قال النحاس : وهذا أحسن ما روى فى هذا، والمعنى علمه أسماء الأجناس وعرفه منافعها، هذا كذا وهو يصلح لكذا . وقال الطبرى : علمه أسماء الملائكة وذريته واختار هذا ورجحه بقوله : ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ ﴾ . وقال ابن زيد : علمه أسماء ذريته كلهم . الربيع بن خثيم (١) : أسماء الملائكة خاصة . القتبىّ : أسماء ما خلق فى الأرض . وقيل : أسماء الأجناس والأنواع .

(١) فى نسخة : « خثيم » .

قلت : القول الأوّل أصح لما ذكرناه ولما نبينه آنفا إن شاء الله تعالى .

الرابعة — واختلف المتأولون أيضا هـل عرض على الملائكة أشخاص الأسماء أو الأسماء دون الأشخاص ؟ فقال ابن مسعود وغيره : عرض الأشخاص لقوله تعالى : ﴿ عَرَضَهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ ﴾ . وتقول العرب : عرضت الشيء فأعرض أي أظهرته فظهر ؛ ومنه : عرضت الشيء للبيع ؛ وفي الحديث : « إنه عرضهم أمثال الذر» وقال ابن عباس وغيره : عرض الأسماء . وفي حرف ابن مسعود : عرضهن؛ فأعاد على الأسماء دون الأشخاص لأن الهاء والنون أخص بالمؤنث . وفي حرف أبيّ : عرضها . مجاهد : أصحاب الاسماء؛ فمن قال في الأسماء إنها المسميات فاستقام على قراءة أبيّ " عرضها " وتقول في قراءة من قرأ " عرضهم " إن لفظ الأسماء يدل على أشخاص فلذلك ساغ أن يقول : الأسماء عرضهم؛ وقال في "هؤلاء" المراد بالاشارة الى أشخاص الأسماء لكن وإن كانت غائبة فقد حصر ما هو منها بسبب وذلك أسماؤها . قال ابن عطية : والذي يظهر أن الله تعالى علم آدم الاسماء وعرضهن عليه مع تلك الأجناس بأشخاصها ثم عرض تلك على الملائكة وسألهم عن مسمياتها التي قد تعلمها؛ ثم إن آدم قال لهم : هـذا اسمه كذا وهذا اسمه كذا؛ وقال الماوردي : وكان الأصح توجه العرض الى المسمين؛ ثم في زمن عرضهم قولان : أحدهما — أنه عرضهم بعد أن خلقهم . الثاني — أنه صورهم لقلوب الملائكة ثم عرضهم .

الخامسة — واختلف في أول من تكلم باللسان العربيّ؛ فروي عن كعب الأحبار: أن أول من وضع الكتاب العربيّ والسريانيّ والكتب كلها وتكلم بالألسنة كلها آدم عليه السلام؛ وقاله غير كعب الأحبار.

فإن قيل : قد روي عن كعب الأحبار من وجه حسن قال : أول من تكلم بالعربية جبريل عليه السلام وهو الذي ألقاها على لسان نوح عليه السلام وألقاها نوح على لسان ابنه سام؛ رواه ثور ابن يزيد عن خالد بن معدان عن كعب . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل وهو ابن عشر سنين » وقد روي أيضا : أن أول من تكلم بالعربية يعرب بن قحطان، وقد روي غير ذلك .

قلنا : الصحيح أن أول من تكلم باللغات كلها من البشر آدم عليه السلام والقرآن يشهد له ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ واللغات كلها أسماء فهي داخلة تحته وبهذا جاءت السنة؛

قال صلى الله عليه وسلم : « وعلم آدم الأسماء كلها حتى القصعة والقصيعة » وما ذكروه يحتمل أن يكون المراد به أوّل من تكلم بالعربية من ولد إبراهيم عليه السلام إسماعيل عليه السلام، وكذلك إن صح ما سواه فإنه يكون محمولا على أن المذكور أوّل من تكلم من قبيلته بالعربيـــة بدليل ما ذكرنا والله أعلم . وكذلك جبريل أوّل من تكلم بها من الملائكة وألقاها على لسان نوح بعــد أن علمها الله آدم أو جبريل على ما تقدّم والله أعلم .

قوله : ﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ . لفظ مبني على الكسر، ولغــة تميم و بعض قيس وأسـد فيه القصر؛ قال الأعشى :

هؤلا ثم هؤلا كلا أعطيـ ـت نعالا محذوة بمثـال

ومن العرب من يقول : هَوُلَاءِ، فيحذف الألف والهمزة .

السادسة — قوله تعــالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . شرط والجواب محذوف تقـديره إن كنتم صادقين أن بني آدم يفسدون في الارض فأنبئوني؛ قاله المبرد . ومعنى صادقين عالمين ولذلك لم يسع للملائكة الاجتهاد وقالوا : سبحانك ! حكاه النقاش قال : ولو لم يشترط عليهم إلا الصدق في الإنباء لجاز لهم الاجتهاد كما جاز للذى أماته الله مائة عام حين قال له : ﴿ كَمْ لَبِثْتَ ﴾ فلم يشترط عليه الإصابة فقال ولم يصب ولم يعنف، وهذا بيّن لا خفاء فيه . وحكى الطبري وأبو عبيد : أن بعض المفسرين قال : إن معنى ﴿ إِنْ كُنْتُمْ ﴾ إذ كنتم وقالا : هذا خطأ . و ﴿ أَنْبِئُونِي ﴾ معناه أخبروني، والنبأ : الخبر؛ ومنه النبيء بالهمز وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

السابعة — قال بعض العلماء يخرج من هــذا الأمر بالإنباء تكليف مالا يطاق لأنه علم أنهــم لا يعلمون؛ وقال المحققون من أهل التأويل : ليس هذا على جهة التكليف وإنما هو على جهة التقرير والتوقيف؛ وسيأتي القول في تكليف ما لا يطاق — هل وقع التكليف به أم لا؟ — في آخر السورة إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ . فيه ثلاث مسائل .

الأولى — قوله تعــالى : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أى تنزيها لك عن أن يعلم الغيب أحد سواك ، وهذا جوابهم عن قوله : ﴿ أَنْبِئُونِي ﴾ فأجابوا أنهم لا يعلمون إلا ما أعلمهم به ولم يتعاطوا ما لا علم لهم به

كما يعلمه الجهال منا؛ وما، في ما علمتنا بمعنى الذي أي إلا الذي علمتنا، ويجوز أن تكون مصدرية بمعنى إلا تعليمك إيانا .

الثانيـــة — الواجب على من ســئل عن علم أن يقول إن لم يعلم : الله أعلم ولا أدري، اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء ؛ لكن قد أخبر الصادق أن بموت العلماء يقبض العــلم فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون ؛ وأما ما ورد من الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين بعدهم في معنى الآية فروى البستي(١) في المسند الصحيح له عن ابن عمر أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي البقاع شر؟ قال : « لا أدري حتى أسأل جبريل» فسأل جبريل ؛ فقال : لا أدري حتى أسأل ميكائيل، فجــاء فقال : خير البقاع المســاجد، وشرها الأسواق . وقال الصديق للجدة : ارجعي حتى أسأل الناس . وكان علي يقول : وابردها على الكبد ثلاث مرات، قالوا : وما ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال : أن يسئل الرجل عما لا يعلم فيقول : الله أعلم . وسأل ابن عمر رجل عن مسئلة فقال : لا علم لي بها ، فلما أدبر الرجل قال ابن عمر : نعم ما قال ابن عمر ، ســئل عما لا يعلم فقال لا علم لي به ! وذكره الدارمي في مســنده . وفي صحيح مســلم عن أبي عقيل يحيى بن المتوكل صاحب بهية قال : كنت جالسا عند القاسم بن عبيد الله ويحيى بن سعيد فقال يحيى للقاسم : يا أبا محمد إنه قبيح على مثلك عظيم أن يسأل عن شيء من أمر هــذا الدين فلا يوجد عنــدك منه علم ولا فرج ، أو علم ولا مخرج ! فقال له القاسم : وعم ذاك ؟ قال : لأنك ابن إمامي هــدى؛ ابن أبي بكر وعمر؛ قال : يقول له القاسم أقبح من ذلك عنــد من عقل(٢) عن الله أن أقول بغير علم أو آخذ عن غير ثقــة؛ فسكت فمــا أجابه . وقال مالك بن أنس : سمعت ابن هرمز(٣) يقول : ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده لا أدري حتى يكون أصلا في أيديهم؛ فإذا ســئل أحدهم عما لا يدري قال : لا أدري . وذكر الهيثم بن جميــل قال : شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمــان وأربعين مسئلة فقال في اثنين وثلاثين منها : لا أدري .

---

(١) في نسخة : «النسائي» .

(٢) في نسخة : «عقل» .

(٣) في نسخة : «أبا هريرة» .

قلت : ومثله كثير من الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين ، وإنما يحمل على ترك ذلك الرياسة وعدم الإنصاف فى العلم . قال ابن عبد البر : من بركة العلم وآدابه الانصاف فيه ، ومن لم ينصف لم يفهم ولم يتفهم . روى يونس بن عبد الأعلى قال سمعت ابن وهب يقول سمعت مالك بن أنس يقول : ما فى زماننا شيء أقل من الإنصاف . قلت : هذا فى زمن مالك فكيف فى زماننا اليوم الذى عم فينا الفساد وكثر فيه الطغام! وطلب فيه العلم للرياسة لا للدراية بل للظهور فى الدنيا وغلبة الأقران بالمراء والجدال الذى يقسى القلب ويورث الضغن؛ وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى . أين هذا مما روى عن عمر رضى الله عنه وقد قال : لاتزيدوا فى مهور النساء على أربعين أوقية ولو كانت بنت ذى العصبة — يعنى يزيد بن الحصين الحارثى — فمن زاد ألقيت زيادته فى بيت المال؛ فقامت امرأة من صوب النساء طويلة فيها فطس فقالت : ماذلك لك ! قال : ولم ؟ قالت : لأن الله عز وجل يقول : ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾ فقال عمر : امرأة أصابت ورجل أخطأ ! وروى وكيع عن أبى معشر عن محمد بن كعب القرظى قال : سأل رجل عليا رضى الله عنه عن مسئلة فقال فيها ؛ فقال الرجل : ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كذا وكذا ؛ فقال على : أصبت وأخطأت وفوق كل ذى علم عليم . وذكر أبو محمد قاسم بن أصبغ قال : لما رحلت الى المشرق نزلت القيروان فأخذت على بكر بن حماد حديث مسدد، ثم رحلت الى بغداد ولقيت الناس، فلما انصرفت عدت اليه لتمام حديث مسدد فقرأت عليه فيه يوما حديث النبى صلى الله عليه وسلم : «أنه قدم عليه قوم من مضر مجتابى النمار» فقال : إنما هو مجتابى الثمار؛ فقلت : إنما هو مجتابى النمار؛ هكذا قرأته على كل من قرأته عليه بالأندلس والعراق؛ فقال لى : بدخولك العراق تعارضنا وتفخر علينا أو نحو هذا! ثم قال لى : قم بنا الى ذلك الشيخ — لشيخ كان فى المسجد — فأن لنا بمثل هذا علما! فقمنا اليه فسألناه عن ذلك فقال : إنما هو مجتابى النمار كما قلت ؛ وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة جيوبهم أمامهم . والنمار جمع نمرة؛ فقال بكر بن حماد : وأخذ بأنفه رغم أنفى للحق وانصرف . وقال يزيد بن الوليد بن عبد الملك فأحسن :

إذا ما تحدثت فى مجلس * تناهى حديثى الى ما علمت
ولم أعد علمى الى غيره * وكان اذا ماتناهى سكت

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ . سبحان منصوب على المصدر عند الخليل وسيبويه، يؤدّى عن معنى نسبحك تسبيحا، وقال الكسائى : هو منصوب على أنه نداء مضاف . والعليم فعيل للبالغة والتكثير فى المعلومات فى خلق الله تعالى . والحكيم معناه الحاكم وبينهما مزيد المبالغة ؛ وقيل : معناه المحكم، ويجىء الحاكم[(1)] على هذا من صفات الفعل صرف عن مفعل الى فعيل كما صرف عن مسمع الى سميع ومؤلم الى أليم قاله ابن الأنبارى ؛ وقال قوم : الحكيم المانع من الفساد، ومنه سميت حكمة اللجام لأنها تمنع الفرس من الجرى والذهاب فى غير قصد، قال جرير :

أبنى حنيفة أحكموا سفهاءكم * إنى أخاف عليكم أن أغضبا

أى امنعوهم من الفساد، وقال زهير :

القائد الخيل منكوبا دوابرها * قد أُحكمت حَكَمات القِدّ والأَبَقا

القدّ : الجلد . والأبق : القنب ؛ والعرب تقول : أحكم اليتيم عن كذا وكذا يريدون منعه ؛ والسورة المحكمة : الممنوعة من التغيير وكل التبديل وأن يلحق بها ما يخرج عنها، ويزاد عليها ما ليس منها؛ والحكمة من هذا ، لأنها تمنع صاحبها من الجهل؛ ويقال : أحكم الشىء إذا أتقنه ومنعه من الخروج عما يريد فهو محكم وحكيم على التكثير .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ . فيه خمس مسائل .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ أمره أن يعلمهم بأسمائهم بعد أن عرضهم على الملائكة ليعلموا أنه أعلم بما سألهم عنه تنبيها على فضله وعلو شأنه ، فكان أفضل منهم بأن قدّمه عليهم وأسجدهم له وجعلهم تلامذته وأمرهم بأن يتعلموا منه فحصلت له رتبة الجلال والعظمة بأن حصل مسجودا[(2)] له مختصا بالعلم .

الثانية — فى هذه الآية دليل على فضل العلم وأهله، وفى الحديث: «وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم» ؛ أى تخضع وتتواضع ؛ وإنما تفعل ذلك لأهل العلم خاصة من بين سائر عمّال[(3)] الله

(1) فى نسخة : « الحكيم » .
(2) فى نسخة : « معبودا » .
(3) فى نسخة : «عياله» .

لأن الله تعالى ألزمها ذلك في آدم عليه السلام فتأدّبت بذلك الأدب ، فكلما ظهر لها علم في بشر خضعت له وتواضعت وتذللت إعظاما للعلم وأهله رضي منهم بالطلب له والشغل به . هذا في الطلاب منهم فكيف بالأحبار فيهم والربانيين منهم ! جعلنا الله منهم وفيهم إنه ذو فضل عظيم .

الثالثة — اختلف العلماء في هذا الباب، أيما أفضل الملائكة أو بنو آدم؟ على قولين، فذهب قوم الى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة ؛ وذهب آخرون الى أن الملأ الأعلى أفضل . احتج من فضل الملائكة بأنهم ﴿ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ وقوله : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ وقوله : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ . وفي البخاري يقول الله عز وجل : «من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم» وهذا نص . واحتج من فضل بني آدم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيئَةِ ﴾ بالهمز من برأ الله الخلق ، وقوله عليه السلام : « إن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم » الحديث أخرجه أبو داود، وبما جاء في أحاديث من أن الله تعالى يباهي بأهل عرفات الملائكة، ولا يباهي إلا بالأفضل، والله أعلم. وقال بعض العلماء: ولا طريق الى القطع بأن الأنبياء أفضل من الملائكة، ولا القطع بأن الملائكة خير منهم، لأن طريق ذلك خبر الله تعالى وخبر رسوله أو إجماع الأمة ؛ وليس هاهنا شيء من ذلك، خلافا للقدرية والقاضي أبي بكر رحمه الله حيث قالوا: الملائكة أفضل . قال : وأما من قال من أصحابنا والشيعة : إن الأنبياء أفضل لأن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، فيقال لهم : المسجود له لا يكون أفضل من الساجد، ألا ترى أن الكعبة مسجود لها والانبياء والخلق يسجدون نحوها، ثم إن الانبياء خير من الكعبة باتفاق الأمة ؛ ولا خلاف أن السجود لا يكون إلا لله تعالى لان السجود عبادة، والعبادة لا تكون الا لله، فإذا كان كذلك فكون السجود الى جهة لا يدل على أن الجهة خير من الساجد العابد، وهذا واضح وسيأتي له مزيد بيان في الآية بعد هذا .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ دليل على أن أحدا لا يعلم من الغيب الا ما أعلمه الله كالانبياء أو من أعلمه الله تعـالى؛ فالمنجمون والكهان وغيرهم كذبة وسيأتى بيان هذا فى الأنعام إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ أى من قولهم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ حكاه مكى والمـاوردى، وقال الزهراوى : ما أبدوه هو بدارهم بالسجود لآدم .

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ . قال ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبير : المراد ما كتمه إبليس فى نفسه من الكبر والمعصية ؛ قال ابن عطية : وجاء تكتمون للجماعة؛ والكاتم واحد فى هذا القول، على تجوز العرب واتساعها ، كما يقال لقوم قد جنى سفيه منهم : أنتم فعلتم كذا، أى منكم فاعله، وهذا مع قصد تعنيف ؛ ومنه قوله تعالى . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ وانمـا ناداه منهم عُيَيْنَة، وقيل الأقرع . وقالت طائفة : الإبداء والمكتوم، ذلك على معنى العموم فى معرفة أسرارهم وظواهرهم أجمع . وقال مهدى بن ميمون : كنا عند الحسن فسأله الحسن بن دينار ما الذى كتمت الملائكة؟ قال : ان الله جل وعز لما خلق آدم رأت الملائكة خلقا عجبا وكأنهم دخلهم من ذلك شىء قال : ثم أقبل بعضهم على بعض وأسرّوا ذلك بينهم، ما يهمكم من هذا المخلوق! ان الله لم يخلق خلقا الا كنا أكرم عليه منه . وما، فى قوله ﴿مَا تُبْدُونَ﴾ يجوز أن ينتصب بأعلم على أنه فعل، ويجوز أن يكون بمعنى عالم وتنتصب به ما، فيكون مثل حواج بيت الله، وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ الى قوله : ﴿ الْكَافِرِينَ ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ أى واذكر، وأما قول أبى عبيـدة : إن إذ زائدة فليس بجائز لأن إذ ظرف وقد تقدم؛ وقال : ﴿ قلنا ﴾ ولم يقل قلت لان الجبار العظيم يخبر عن نفسه بفعل الجماعة تفخيما وإشادة بذكره؛ والملائكة جمع ملك؛ وقد تقدّم القول أيضا فى آدم واشتقاقه فلا معنى لإعادته ؛ وروى عن أبى جعفر بن القعقاع أنه ضم تاء التأنيث من الملائكة اتباعا لضم الجيم فى اسجدوا ونظيره الحمد لله .

الثـانية — قوله تعالى : ﴿ اسْجُدُوا ﴾ . السجود معناه فى كلام العرب التـذلل والخضوع ؛ قال الشاعر :

بجمع تضـل البلق فى حجراته * ترى الاكم فيها سجدا للحوافر

الأكم : الجبال الصغار جعلها سجدا للحوافر لقهر الحوافر إياها وأنها لا تمتنع عليها؛ وعين ساجدة أى فاترة عن النظر؛ وغايتــه وضع الوجه بالارض؛ قال ابن فارس : سجد اذا تطامن وكل ما سجد فقد ذل؛ والإسجاد : إدامة النظر؛ قال أبو عمرو : وسجد اذا طأطأ رأسه ؛ قال(١) :

فضـــول أزمتها أسجــدت * سجود النصارى لأحبارها

قال أبو عبيد : وأنشدنى أعرابى من بنى أسد :

* فقلن له أسجد لليلى فأسجدا *

يعنى البعير إذا طأطأ رأسه؛ ودراهم الإسجاد: دراهم كانت عليها صور كانوا يسجدون لها؛ قال :

* وافى بها كدراهم الإسجاد *

الثالثة — استدل من فضل آدم و بنيه بقوله تعالى للملائكة : ﴿ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ . قالوا: وذلك يدل على أنه كان أفضل منهـم ؛ والجواب أن معنى اسجدوا لآدم اسجدوا لى مستقبلين وجه آدم . وهو كقوله تعالى : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾ أى عند دلوك الشمس؛ وكقوله : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيــهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ . أى فقعوا لى عند إتمـام خلقه ومواجهتكم إياه ساجدين ؛ وقد بينا أن المسجود له لا يكون أفضل من الساجد بدليل القبلة .

فإن قيل : فإذا لم يكن أفضل منهم فما الحكمة فى الأمر بالسجود له ؟ قيل له : إن الملائكة لمـا استعظموا بتسبيحهم وتقـديسهم أمرهم بالسجود لغيره ليريهم استغناءه عنهم وعن عبادتهم . وقال بعضهم : عيّروا آدم واستصغروه ولم يعرفوا خصائص الصنع به فأمروا بالسجود له تكريما؛ و يحتمل أن يكون الله تعالى أمرهم بالسجود له معاقبة لهم على قولهم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ لمـا قال لهم : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ وكان علم منهم أنه إن خاطبهم أنهم قائلون هذا، فقال لهم : ﴿ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾ . وجاعله خليفة فإذا نفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، والمعنى ليكون ذلك عقوبة لكم فى ذلك الوقت على ما أنتم قائلون لى الآن .

فإن قيل : فقد استدل ابن عباس على فضل البشر بأن الله تعالى أقسم بحياة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ . وأمنه من العذاب بقوله : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ

(١) هو حميد بن ثور يصف نساء؛ اللسان مادة (سجد) .

الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر﴾. وقال للملائكة : ﴿ومن يقل منهم إنّى إله من دونه فذلك نجزيه جهنّم﴾ . قيل له : إنما لم يقسم بحياة الملائكة كما لم يقسم بحياة نفسه سبحانه فلم يقل : لعمرى ؛ وأقسم بالسماء والأرض ولم يدل على أنهما أرفع قدرا من العرش والجنان السبع ، وأقسم بالتين والزيتون؛ وأما قوله سبحانه : ﴿ ومن يقل منهم إنّى إله من دونه ﴾ . فهو نظير قوله لنبيه عليه السلام : ﴿ لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكوننّ من الخاسرين ﴾ . فليس فيه إذا دلالة ،والله أعلم .

الرابعة — واختلف الناس فى كيفية سجود الملائكة لادم بعد اتفاقهم على أنه لم يكن السجود عبادة ؛ فقال الجمهور: كأن هذا أمرا للملائكة بوضع الجباه على الأرض ،كالسجود المعتاد فى الصلاة لأنه الظاهر من السجود فى العرف والشرع ، وعلى هذا قيل :كان ذلك السجود تكريما لآدم وإظهارا لفضله ، وطاعة لله تعالى ،وكان آدم كالقبلة لنا ومعنى لادم : إلى آدم ، كما يقال : صلى للقبلة : أى إلى القبلة . وقال قوم: لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم : الذى هو وضع الجبهة على الأرض ولكنه مبقى على أصل اللغة فهو من التذلل والانقياد أى اخضعوا لآدم وأقروا له بالفضل فسجدوا : أى امتثلوا ما أمروا به .

واختلف أيضا هل كان ذلك السجود خاصا بآدم عليه السلام فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا لله تعالى ، أو كان جائزا بعده إلى زمان يعقوب عليه السلام لقوله تعالى : ﴿ ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجّدا ﴾ فكان آخر ما أبيح من السجود للمخلوقين ؟ والذى عليه الأكثر أنه كان مباحا الى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن أصحابه قالوا له حين سجدت له الشجرة والجمل : نحن أولى بالسجود لك من الشجرة والجمل الشارد ؛ فقال لهم : " لا ينبغى أن يسجد لأحد إلا لله رب العالمين " روى ابن ماجه فى سننه والبستىّ فى صحيحه عن واقد قال : لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما هذا " فقال : يا رسول الله قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم ، فأردت أن أفعل ذلك بك؛ قال : "فلا تفعل فإنى لو أمرت شيئا أن يسجد لشىء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لا تؤدّى المرأة حق ربها حتى تؤدّى حق زوجها حتى لو سألها نفسها وهى على قتب لم تمنعه " لفظ البستى ، ومعنى القتب أن العرب يعز عندهم وجود كرسى للولادة فيحملون نساءهم على القتب عند الولادة . وفى بعض طرق معاذ ونهى عن السجود للبشر وأمر بالمصافحة .

قلت : وهـذا السجود المنهى عنه قد اتخذه جهال المتصوفة عادة فى سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم؛ فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحـال بزعمه يسجد للأقدام لجهله سواء أكان للقبلة أم غيرها جهالة منه؛ ضل سعيهم وخاب عملهم .

الخامسة — قوله : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾. نصب على الاستثناء المتصل لأنه كان من الملائكة على قول الجمهور. ابن عباس وابن مسعود وابن جريج وابن المسيب وقتادة وغيرهم؛ وهو اختيار الشيخ أبى الحسن، ورجحه الطبرى وهو ظاهر الآية . قال ابن عباس : وكان اسمه عزازيل وكان من أشراف الملائكة وكان من أولى الأجنحة الأربعة ثم ابلس بعد؛ روى سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان إبليس من الملائكة فلمـا عصى الله غضب عليـه فلعنه فصار شيطانا . وحكى المـاوردى عن قتادة : أنه كان من أفضل صنف من الملائكة يقال لهم الجِنَّــة . وقال سعيد بن جبير : إن الجن سبط من الملائكة خلقوا من نار و إبليس منهـم ، وخلق سائر الملائكة من نور . وقال ابن زيد والحسن وقتادة أيضا : إبليس أبو الجن كما أن آدم أبو البشر ولم يكن ملكا ؛ وروى نحوه عن ابن عبـاس وقال : اسمــه الحارث . وقال شهر بن حوشب و بعض الأصوليين : كان من الجن الذين كانوا فى الأرض وقاتلتهم الملائكة فسبوه صغيرا وتعبـد مع الملائكة وخوطب؛ وحكاه الطبرى عن ابن مسعود . والاستثناء على هـذا منقطع مثل قوله تعالى : ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ . وقوله : ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ فى أحد القولين؛ وقال الشاعر :

ليس عليك عطش ولا جوع * إلا الرقاد والرقاد ممنـــوع

واحتج بعض أصحاب هـذا القول بأن الله جل وعز وصف الملائكة فقال : ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وقوله تعالى : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ والجن غير الملائكة؛ أجاب أهـل المقالة الأولى بأنه لا يمتنع أن يخرج إبليس من جملة الملائكة لمـا سبق فى علم الله بشقائه عدلا منـه، لا يسئل عما يفعل ، وليس فى خلقه من نار ولا فى تركيب الشهوة حين غضب عليـه ما يدفع أنه من الملائكة ، وقول من قال : إنه كان من جن الأرض فسبى ، فقـد روى فى مقابلته أن إبليس هو الذى قاتل الجن فى الأرض مع جند من الملائكة؛ حكاه المهدوى وغيره . وحكى الثعلبى عن ابن عباس : أن إبليس كان من حى من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من

نار السموم ، وخلقت الملائكة من نور، وكان اسمــه بالسريانية عزازيل، وبالعــربية الحارث ، وكان من خزان الجنة وكان رئيس ملائكة السماء الدنيا وكان له سلطانها وسلطان الارض، وكان من أشدّ الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما ، وكان يسوس مابين السماء والأرض ؛ فرأى لنفسه بذلك شرفا وعظمة ، فذلك الذى دعاه الى الكفر فعصى الله فمسخه شـيطانا رجيما ؛ فاذا كانت خطيئة الرجل فى كبر فلا ترجه ، وإن كانت خطيئته فى معصية فارجه ؛ وكانت خطيئة آدم عليــه السلام معصية ، وخطيئة إبليس كبرا . والملائكة قد تسمى جنا لاستتارها ؛ وفى التنزيل : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ ؛ وقال الشاعر فى ذكر سليمان عليه السلام :

وسخر من جن الملائك تسعة * قيــاما لديه يعملون بلا أجر

وأيضا لمــا كان من خزان الجنــة نسب اليها فاشتق اسمه من اسمها والله أعلم . وإبليس وزنه افعيل مشتق من الإبلاس وهو اليأس من رحمة الله تعالى ؛ ولم ينصرف لانه معرفة ولا نظير له فى الاسماء فشبه بالأعجمية قاله أبو عبيد وغيره ؛ وقيل : هو أعجمى لا اشتقاق له فلم ينصرف للعجمة والتعريف ، قاله الزجاج وغيره .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ أَبَىٰ ﴾ معناه امتنع من فعل ما أمر به ؛ ومنه الحديث الصحيح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا قرأ ابن آدم السجدة [فسجد[1]] اعتزل الشيطان يبكى يقول يا ويله — وفى رواية يا ويلى[2] — أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار » خرّجه مسلم . يقال : أبى يأبى إباء ، وهو حرف نادر جاء على فعل يفعل ليس فيه حرف من حروف الحلق ؛ وقد قيــل : إن الألف مضارعة لحروف الحلق ؛ قال الزجاج : سمعت إسماعيل بن إسحاق القاضى يقول : القول عندى أن الألف مضارعة لحروف الحلق ؛ قال النحاس : ولا أعلم أن أبا إسحاق روى عن إسماعيل نحوا غير هذا الحرف .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ الاستكبار : الاستعظام فكأنه كره السجود فى حقه ، واستعظمه فى حق آدم ، فكان ترك السجود لآدم تسفيها لامر الله وحكمته ، وعن هــذا الكبر عبر

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

(٢) فى مسلم : « ياويله » .

عليه السلام بقوله : « لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » فى رواية؛ فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة، قال : «إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس » أخرجه مسلم؛ ومعنى بطر الحق تسفيهه وإبطاله ، وغمط الناس الاحتقار لهم والازدراء بهم ؛ ويروى : « وغمص » بالصاد المهملة والمعنى واحد ، يقال : غمصه يغمصه غمصا واغتمصه أى استصغره ولم يره شيئا ؛ وغمص فلان النعمة اذا لم يشكرها ؛ وغمصت عليه قولا قاله أى عبته عليه، وقد صرح اللعين بهذا المعنى فقال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ ﴿ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ فكفره الله بذلك؛ فكل من سفه شيئا من أوامر الله تعالى أو أمر رسوله عليه السلام كان حكمه حكمه ، وهذا ما لا خلاف فيه؛ و روى ابن القاسم عن مالك أنه قال : بلغنى أن أوّل معصية كانت الحسد والكبر، حسد إبليس آدم، وشح آدم فى أكله من شجرة؛ وقال قتادة : حسد إبليس آدم على ما أعطاه الله من الكرامة فقال : أنا نارى وهذا طينى؛ وكان بدء الذنوب الكبر، ثم الحرص، حتى أكل آدم من الشجرة، ثم الحسد إذ حسد ابن آدم أخاه .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ . قيل : كان هنا بمعنى صار، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾، وقال الشاعر :

بتيهاء قفر والمطى كأنها * قطا الحزن قد كانت فراخا بيوضها

أى صارت؛ وقال ابن فُورَك : كان هنا بمعنى صار خطأ ترده الأصول، وقال جمهور المتأولين : المعنى أى كان فى علم الله تعالى أنه سيكفر لأن الكافر حقيقة والمؤمن حقيقة هو الذى قد علم الله منه الموافاة .

قلت : وهذا صحيح لقوله صلى الله عليه وسلم فى صحيح البخارى : « وإنما الأعمال بالخواتيم » وقيل : إن إبليس عبد الله تعالى ثمانين ألف سنة، وأعطى الرياسة والخزانة فى الجنة على الاستدراج، كما أعطى المنافقون شهادة أن لا إله إلا الله على أطراف ألسنتهم، أوكما أعطى بلعام الاسم الأعظم على على طرف لسانه . فكان فى رياسته والكبر فى نفسه متمكن . قال ابن عباس : كان يرى لنفسه أن له فضيلة على الملائكة بما عنده، فلذلك قال : أنا خير منه؛ ولذلك قال الله عز وجل : ﴿ ما منعك أن

تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ أى استكبرت ولا كبر لك، ولم أتكبر أنا حين خلقته بيدى والكبر لى! فلذلك قال : ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. وكان أصل خلقته من نار العزة ولذلك حلف بالعزة فقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فالعزة أورثته الكبر حتى رأى الفضل له على آدم عليه السلام . وعن أبى صالح قال : خلقت الملائكة من نور العزة، وخلق إبليس من نار العزة .

التاسعة — قال علماؤنا — رحمة الله عليهم — : ومن أظهر الله على يديه ممن ليس بنبي كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالا على ولايته خلافا لبعض الصوفية والرافضة حيث قالوا : إن ذلك يدل على أنه ولىّ إذ لو لم يكن وليا ما أظهر الله على يديه ما أظهر؛ ودليلنا أن العلم بأن الواحد منا ولىّ لله تعالى لا يصح إلا بعد العلم بأنه يموت مؤمنا ، وإذا لم يعلم أنه يموت مؤمنا لم يمكنا أن نقطع على أنه ولىّ لله تعالى لأن الولىّ لله تعالى من علم الله تعالى أنه لا يوافى إلا بالإيمان، ولما اتفقنا على أننا لا يمكننا أن نقطع على أن ذلك الرجل يوافى بالإيمان، ولا الرجل نفسه يقطع على أنه يوافى بالإيمان، علم أن ذلك ليس يدل على ولايته لله؛ قالوا : ولا نمنع أن يطلع الله بعض أوليائه على حسن عاقبته وخاتمة عمله وغيره معه؛ قاله الشيخ أبو الحسن الأشعرى وغيره . وذهب الطبرى إلى ان الله تعالى أراد بقصة إبليس تقريع أشباهه من بنى آدم وهم اليهود الذى كفروا بمحمد عليه السلام، مع علمهم بنبوته، ومع قدم نعم الله عليهم وعلى أسلافهم .

العاشرة — واختلف هل كان قبل إبليس كافر أو لا ؟ فقيل : لا، وإن إبليس أول من كفر . وقيل : كان قبله قوم كفار وهم الجن وهم الذين كانوا فى الأرض . واختلف أيضا هل كفر إبليس جهلا أو عنادا على قولين بين أهل السنة، ولا خلاف أنه كان عالما بالله تعالى قبل كفره؛ فمن قال إنه كفر جهلا قال : إنه سلب العلم عند كفره، ومن قال كفر عنادا قال : كفر ومعه علمه . قال ابن عطية : والكفر مع بقاء العلم مستبعد، إلا أنه عندى جائز لا يستحيل مع خذل الله لمن يشاء .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ إلى قوله : ﴿ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فيه ثلاث عشرة مسئلة .

الاولى — قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ ﴾ لاخلاف أن الله تعالى أخرج إبليس عند كفره وأبعده عن الجنة، وبعد إخراجه قال لآدم اسكن أى لازم الإقامة واتخذها مسكنا وهو محل السكون؛ وسكن إليه يسكن سكونا؛ والسكن : النار؛ قال الشاعر :

* قد قومت بسكن وأدهان *

والسكن : كل ما سكن إليــه ؛ والسكين معروفة سمى به لانه يسكن حركة المذبوح ؛ ومنــه المسكين لقلة تصرفه وحركته ؛ وسكان السفينة عربى لانه يسكنها عن الاضطراب .

الثانية — فى قوله تعالى : ﴿ اسْكُنْ ﴾ تنبيه على الخروج لأن السكنى لا تكون ملكا ولهذا قال بعض العارفين : السكنى تكون إلى مدة ثم تنقطع ، فدخولهما فى الجنة كان دخول سكنى لا دخول ثواء .

قلت : وإذا كان هــذا فيكون فيه دلالة على ما يقوله الجمهور من العلماء : إن من أسكن رجلا مسكنا له أنه لا يملكه بالسكنى ، وأن له أن يخرجه منــه اذا انقضت مدة الإسكان؛ وكان الشعبى يقول : اذا قال الرجل دارى لك سكنى حتى تموت فهى له حياته وموته ، واذا قال : دارى هذه اســكنها حتى تموت فإنها ترجع الى صاحبهــا اذا مات . ونحو من السكنى العمرى إلا أن الخلاف فى العمرى أقوى منه فى السكنى ، وسيأتى الكلام فى العمرى فى هود إن شاء الله تعالى . قال الحربى : سمعت ابن الأعرابى يقول : لم يختلف العرب فى أن هــذه الأشياء على ملك أربابهــا ومنافعها لمن جعلت له العمرى والرقبى والإفقار والإخبال والمنحة والعرية والسكنى والاطراق؛ وهذا حجة مالك وأصحابه فى أنه لا يملك شىء من العطايا إلا المنافع دون الرقاب؛ وهو قول الليث بن سعد والقاسم بن محمد، ويزيد بن قسيط .

العمرى هو اسكانك الرجل فى دار لك مدة عمرك أو عمره ومثله الرقبى وهو أن يقول : إن مت قبلى رجعت إلىّ، وان مت قبلك فهى لك؛ وهى من المراقبة . والمراقبة : أن يرقب كل واحد منهما موت صاحبه ، ولذلك اختلفوا فى إجازتهــا ومنعها ؛ فأجازها أبو يوسف والشافعى وكأنها وصــية عــدهم ؛ ومنعها مالك والكوفيون لأن كل واحد منهم يقصد إلى عوض لا يدرى هل يحصل له ، ويتمنى كل واحد منهما موت صاحبه ، وفى البــاب حديثان أيضا بالإجازة والمنع ذكرهما ابن ماجه فى سننه؛ الأول رواه جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «العمرى جائزة لمن

أعمرها والرقبى جائزة لمن أرقبها» ففى هذا الحديث التسوية بين العمرى والرقبى فى الحكم . الثانى رواه آبن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا رقبى لمن أرقب شيئا فهو له حياته ومماته » . قال : والرقبى أن يقــول هو للآخر منى ومنك موتا، فقوله : لا رقبى، نهى يدل على المنع ؛ وقوله : «من أرقب شيئا فهو له» يدل على الجواز؛ وأخرجهما أيضا النسائى . وذكر عن آبن عباس قال : العمرى والرقبى سواء . وقال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وســلم قال : « العمرى جائزة لمن أعمرها والرقبى جائزة لمن أرقبها » فقــد صحح الحديث آبن المنذر، وهو حجة لمن قال : بأن العمرى والرقبى سواء . وروى عن علىّ، وبه قال الثورى وأحمد، وأنها لا ترجع الى الأول أبدا؛ وبه قال إسحــاق . وقال طاوس : من أرقب شيئا فهو سبيل الميراث . والإفقار مأخوذ من فقار الظهر ؛ أفقرتك ناقتى : أعرتك فقارها لتركبها ؛ وأفقرك الصيد اذا أمكنك من فقاره حتى ترميه. ومثله الإخبال، يقال : أخبلت فلانا اذا أعرته ناقة يركبها أو فرسا يغزو عليه، قال زهير :

هنــالك إن يُسْتَخْبَلُوا المــالَ يُخْبِلوا * وإن يُسئلوا يُعْطوا وإن يَيْسروا يَغْلُوا

والمنحة : العطيــة ؛ والمنحة : منحة اللبن؛ والمنيحة : الناقة أو الشاة يعطيها الرجل آخر يحتلبها ثم يردّها؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «العارية مؤدّاة والمنحة مردودة والدين مقضى والزعيم غارم»رواه أبو أمامة،أخرجه الترمذى،والدارقطنى، وغيرهماوهو صحيح. والإطراق: إعارة الفحل، استطرق فلان فلانا فحله،اذا طلبه ليضرب فى إبله ؛ وأطرق الفحل الناقة يطرق طروقا أى قعا عليها؛ وطروقة الفحل : أنثاه؛ يقال : ناقة طروقة الفحل للتى بلغت أن يطرقها الفحل .

الثــالثة — قوله تعالى : ﴿ أَنْتَ وَزَوْجُكَ ﴾ . أنت، تأكيد للضمر الذى فى الفعل ؛ ومثــله فاذهب أنت وربك ؛ ولا يجوز اسكن وزوجك، ولا اذهب وربك الا فى ضرورة الشعر، كما قال :

قلت اذ أقبلت وزهر تهادى * كنعاج الملا تعسفن رملا

فزهر معطوف على المضمر فى أقبلت ولم يؤكد ذلك المضمر ؛ ويجوز فى غير القرآن على بعــد قم وزيد .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿وَزَوْجُكَ﴾ . لغة القرآن زوج بغير هاء وقد تقدّم القول فيه، وقد جاء فى صحيح مسلم زوجة، حدّثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب قال حدّثنا حماد بن سلمة عن ثابت البنانى

عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مع إحدى نسائه، فمر به رجل فدعاه فجاء فقال: « يا فلان هذه زوجتي فلانة» فقال: يا رسول الله من كنت أظن به فلم أكن أظن بك؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم » . وزوج آدم عليه السلام هي حواء عليها السلام، وهو أول من سماها بذلك حين خلقت من ضلعه من غير أن يحس آدم عليه السلام بذلك؛ ولو ألم بذلك لم يعطف رجل على امرأته؛ فلما انتبه قيل: له من هذه؟ قال: امرأة؛ قيل: وما اسمها؟ قال: حواء؛ قيل: ولم سميت امرأة؟ قال: لأنها من المرء أخذت؛ قيل: ولم سميت حواء؟ قال: لأنها خلقت من حي . روى أن الملائكة سألت عن ذلك لتجرب علمه، وأنهم قالوا له: أتحبها يا آدم؟ قال: نعم؛ قالوا لحواء: أتحبينه يا حواء؟ قالت: لا؛ وفى قلبها أضعاف ما فى قلبه من حبه؛ قالوا: فلو صدقت امرأة فى حبها لزوجها لصدقت حواء. وقال ابن مسعود، وابن عباس: لما أسكن آدم الجنة مشى فيها مستوحشا فلما نام خلقت حواء من ضلعه القصرى من شقه الأيسر ليسكن إليها ويأنس بها؛ فلما انتبه رآها فقال: من أنت؟ قالت: امرأة خلقت من ضلعك لتسكن إلى؛ وهو معنى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ قال العلماء: ولهذا كانت المرأة عوجاء لأنها خلقت من أعوج وهو الضلع. وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن المرأة خلقت من ضلع — فى رواية — وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه لن تستقيم لك على طريقة واحدة فإن استمتعت بها استمتعت [بها](1) وبها عوج وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها» وقال الشاعر:

هى الضلع العوجاء لست تقيمها ⁕ ألا أن تقويم الضلوع انكسارها

أتجمع ضعفا واقتدارا على الفتى ⁕ أليس عجيبا ضعفها واقتدارها

ومن هذا الباب استدل العلماء على ميراث الخنثى المشكل اذا تساوت فيه علامات النساء والرجال من اللحية والثدى والمبال ببعض الأعضاء، فإن نقصت أضلاعه عن أضلاع المرأة أعطى نصيب رجل؛ روى ذلك عن علي رضى الله عنه لخلق حواء من أحد أضلاعه، وسيأتى فى المواريث بيان هذا ان شاء الله تعالى.

(1) الزيادة عن كتاب الجامع الصغير.

الخامسة ــ قوله تعالى : ﴿ ٱلْجَنَّـةَ ﴾ . الجنة : البستان وقد تقدّم القول فيها ولا التفات لمـا ذهبت اليه المعتزلة، والقدرية، من أنه لم يكن فى جنة الخلد وإنما كان فى جنة بأرض عدن، واستدلوا على بدعتهم بأنها لو كانت جنة الخلد لمـا وصل اليه ابليس، فإن الله يقول: ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ . وقال : ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴾ . وقال : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ . ولا يخرج منها أهلها لقوله : ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ . وأيضا فإن جنة الخلد هى دار القدس قدست عن الخطايا والمعاصى تطهيرا لهـا، وقد لغى فيها ابليس وكذب وأخرج منها آدم وحواء بمعصيتهما .

قالوا : وكيف يجـوز على آدم مع مكانه من الله وكمال عقله أن يطلب شجـرة الخلد وهو فى دار الخلد والملك الذى لا يبلى ؟

فالجواب : أن الله تعالى عرف الجنـة بالألف واللام ، ومن قال : أسأل الله الجنـة لم يفهم منه فى تعارف الخلق إلا طلب جنة الخلد ، ولا يستحيل فى العقل دخول إبليس الجنة لتغرير آدم، وقد لقى موسى آدم عليهما السـلام فقال له موسى : أنت أشقيت ذريتك وأخرجتهم من الجنـة ، فأدخل الألف واللام ليـدل على أنهـا جنة الخلد المعروفه، فلم ينكر ذلك آدم ولو كانت غيرها لرد على موسى فلما سكت آدم على ما قرره موسى صح أن الدار التى أخرجهم الله عز وجل منها بخلاف الدار التى أخرجوا إليها . وأما ما احتجوا به من الآى فذلك إنما جعله الله فيها بعد دخول أهلها فيها يوم القيامة، ولا يمتنع أن تكون دار خلد لمن أراد الله تخليده فيها وقد يخرج منها من قضى عليه بالفناء ، وقد أجمع أهـل التأويل على أن الملائكة يدخلون الجنـة على أهل الجنة ويخرجون منها، وقد كان مفاتيحها بيد إبليس ثم انتزعت منه بعد المعصية ، وقـد دخلها النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ثم خرج منها وأخبر بمـا فيها وأنها هى جنة الخلد حقا ؛ وأما قولهم : إن الجنة دار القدس وقد طهرها الله تعـالى من الخطايا فجهل منهـم ، وذلك أن الله تعالى أمر بنى إسرائيـل أن يدخلوا الأرض المقدّسـة وهى الشام ، وأجمع أهل الشرائع على أن الله تعالى قدّسها وقـد شوهد فيها المعاصى والكفر والكذب ولم يكن تقديسها ممـا يمنع فيها المعـاصى فكذلك دار القدس . قال أبو الحسن ابن بطال : وقد حكى بعض المشايخ أن أهـل السنة مجمعون على أن جنة الخلد هى التى أهبط منهـا

آدم عليه السلام فلا معنى لقول من خالفهم ؛ وقولهم : كيف يجوز على آدم في كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد وهو في دار الخلد ! فيعكس عليهم، ويقال : كيف يجوز على آدم في كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد في دار الفناء ! هـذا ما لا يجوز على من له أدنى مسكة من عقـل ، فكيف بآدم الذي هو أرجح الخلق عقلا على ما قال أبو أمامة على ما يأتي .

السادسة — قوله تعالى : ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ . قراءة الجمهور رغدا بفتح الغين، وقرأ النخعيّ وابن وثاب بسكونها؛ والرغد : العيش الدارّ الهنيّ الذي لا عناء فيه؛ قال :

بينما المـــرء تراه ناعمـا * يأمن الأحداث في عيش رغد

ويقال : رغد عيشهم ورغد بضم الغين وكسرها؛ وأرغد القوم : أخصبوا وصاروا في رغد من العيش ؛ وهو منصوب على الصفة لمصـدر محذوف . وحيثُ وحيثَ وحيثِ ، وحَوْثُ وحَوْثَ وحَوْثِ وحَاثَ، كلها لغات ذكرها النحاس، وغيره .

السابعـة — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ . أي لا تقرباها بأكل[(1)] لأن الإباحة فيه وقعت ؛ قال ابن العـربي : سمعت الشاشيّ في مجلس النظر يقول : إذا قيل لا تقرب بفتح الراء كان معناه لا تَلَبَّسْ بالفعل، وإذا كان بضم الراء فإن معناه لا تدن منه؛ وفي الصحاح : قرب الشيء يقرب قربا أي دنا؛ وقربتـه بالكسر أقربه قربانا أي دنوت منـه؛ وقربت أقرب قرابة — مثل كتبت أكتب كتابة — إذا سرت إلى المـاء وبينك وبينه ليلة؛ والاسم القرب . قال الأصمعي : قلت لأعرابيّ ما القرب ؟ فقال : سير الليـل لورد الغـد . وقال ابن عطية قال بعض الحذاق : إن الله تعالى لمـا أراد النهي عن أكل الشجرة نهى عنـه بلفظ يقتضي الأكل وما يدعو إليـه وهو القـرب ؛ قال ابن عطيه : وهـذا مثال بين في سـدّ الذرائع؛ وقال بعض أرباب المعـاني قوله : ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ إشعار بالوقوع في الخطيئة والخروج من الجنة ، وأن سكناه فيهـا لا يدوم لأن المخلد لا يحظر عليـه شيء ولا يؤمر ولا ينهى ، والدليـل على هذا قوله تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فدل على خروجه منها .

(١) أي من غير تلك الشجرة .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ . الاسم المبهم ينعت بمـا فيه الألف واللام لا غير، كقولك : مررت بهذا الرجل وبهذه المرأة وهذه الشجرة ؛ وقرأ ابن محيصن : « هذى الشجرة » بالياء وهو الأصل لأن الهاء في هـذه بدل من ياء ولذلك انكسر ما قبلها ، وليس في الكلام هاء تأنيث قبلها كسرة سواها وذلك لأن أصلها الياء .

والشجرة والشِّجرة والشيرة ثلاث لغات وقرئ الشِّجرة بكسر الشين ؛ والشجر والشجرة ما كان على ساق من نبـات الأرض ؛ وأرض شجيرة وشجراء أى كثيرة الأشجار، وواد شجير ولا يقال : واد أشجر ؛ وواحد الشجراء شجرة ولم يأت من الجمع على هـذا المثال إلا أحرف يسيرة ، شجرة وشجراء ، وقصبة وقصباء ، وطرفة وطرفاء ، وحلفة وحلفاء ؛ وكان الأصمعى يقول : فى واحد الحلفاء حلفة بكسر اللام مخالفة لأخواتها . وقال سيبويه : الشجراء واحد وجمع وكذلك القصباء والطرفاء والحلفاء . والمشجر موضع الأشجار؛ وأرض مشجرة، وهذه الأرض أشجر من هذه أى أكثر شجرا؛ قاله الجوهرى .

التاسعة — واختلف أهل التأويل فى تعيين هذه الشجرة التى نهى عنها فأكل منها ؛ فقال ابن مسعود، وابن عباس ،وسعيد بن جبير، وجعدة بن هبيرة : هى الكرم ولذلك حرمت علينا الخمر؛ وقال ابن عباس أيضا ، وأبو مالك ، وقتادة : هى السنبلة ، والحبة منها ككلى البقر أحلى من العسل وألين من الزبد؛ قاله وهب ابن منبه؛ ولمـا تاب الله على آدم جعلها غذاء لبنيه ؛ وقال ابن جريج عن بعض الصحابة : هى شجرة التين كذا روى سـعيد (1) عن قتادة ولذلك تعبر فى الرؤيا بالندامة لآكلها من أجل ندم آدم عليه السـلام على أكلها ذكره السهيلى؛ قال ابن عطية : وليس فى شىء من هـذا التعيين ما يعضده خبر وإنمـا الصواب أن يعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجـرة فخالف هو إليهـا وعصى فى الأكل منها؛ وقال القشيرى أبو نصر . وكان الإمام والدى رحمه الله يقول : يعلم على الجملة أنهـا كانت شجرة المحنة .

العـاشرة — واختلفوا كيف أكل منها مع الوعيد المقترن بالقرب وهو قوله تعالى : ﴿ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾؟ فقال قوم : أكلا من غير التى أشـير إليها فلم يتأولا النهى واقعا على جميع جنسها ، فإن إبليس غره بالظاهر؛ قال ابن العربى : وهى أول معصية عصى الله بها على هذا القول؛ قال :

(1) فى نسخة : «شعبة» .

وفيـه دليل على أن من حلف ألا يأكل من هذا الخبز فأكل من جنسه حنث . وتحقيق المذاهب فيه أن أكثر العلماء قالوا : لا حنث فيه؛ وقال مالك وأصحابه : إن اقتضى بساط اليمين تعيين المشار اليـه لم يحنث بأكل جنسـه، وان اقتضى بساط اليمين أو سببها أو نيتها الجنس حمل عليـه وحنث بأكل غيره؛ وعليه حملت قصة آدم عليه السلام فإنه نهى عن شجرة عينت له وأريد به جنسها فحمل القول على اللفـظ دون المعنى . وقد اختلف علماؤنا في فرع من هذا وهو أنه إذا حلف ألا يأكل هذه الحنطة فأكل خبزا منها على قولين؛ قال في الكتاب يحنث لأنها هكذا تؤكل؛ وقال ابن المَوّاز : لا شيء عليه لأنه لم يأكل حنطة إنمـا أكل خبزا فراعى الاسم والصفة، ولو قال في يمينه : لا آكل من هذه الحنطة لحنث بأكل الخبز المعمول منها، وفيما اشترى بثمنها من طعام؛ وفيما أنبتت خلاف . وقال آخرون : تأولا النهى على النـدب؛ قال ابن العربي : وهـذا وإن كان مسـئلة من أصول الفقه فقد سقط ذلك هاهنا لقوله : ﴿ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ فقرن النهى بالوعيـد، وكذلك قوله سبحانه : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ . وقال ابن المسيب : إنمـا أكل آدم بعـد أن سقته حواء الخمر فسكر وكان في غير عقله؛ وكذلك قال يزيد بن قسيط وكانا يحلفان بالله أنه ما أكل من هذه الشجرة وهو يعقل؛ قال ابن العربي : وهـذا فاسد نقلا وعقلا، أما النقل فلم يصح بحال وقد وصف الله عز وجل خمر الجنـة فقـال : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ وأما العقـل فلأن الأنبيـاء بعد النبوة معصومون عما يؤدى إلى الإخلال بالفرائض واقتحام الجرائم .

قلت : قد استنبط بعض العلماء نبوة آدم عليـه السلام قبل إسكانه الجنـة من قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ فامره الله تعالى أن ينبئ الملائكة بمـا ليس عندهم من علم الله جل وعز . وقيل : أكلها ناسيا ومن الممكن أنهما نسيا الوعيد؛ قلت : وهو الصحيح لإخبار الله تعالى في كتابه بذلك حتما وجزما فقال : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ . لكن لمـا كان الأنبياء عليهم السـلام يلزمهم من التحفظ والتيقظ لكثرة معارفهم وعلو منازلهم ما لا يلزم غيرهم كان تشـاغله عن تذكر النهى تضيعا صار به عاصـيا أى مخالفا . قال أبو أمامة . لو أن أحلام بنى آدم منذ خلق الله الخلق الى يوم القيامة وضعت في كفة ميزان ووضع حلم آدم في كفة أخرى لرجحهم ؛ وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ .

قلت : قول أبي أمامة هذا عموم في جميع بني آدم . وقد يحتمل أن يخص من ذلك نبينـا محمد صلى الله عليه وسـلم فإنه كان أوفر الناس حلما وعقلا . وقد يحتمل أن يكون المعنى لو أن أحلام بني آدم من غير الأنبياء . والله أعلم .

قلت : والقــول الأول أيضا حسن ؛ فظنّا أن المراد العـين وكان المراد الجنس ؛ كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم حين أخذ ذهبا وحريرا فقال : « هذان حرامان على ذكور أمتي » . وقال في خبر آخر : « هذان مهلكان أمتي » وإنما أراد الجنس لا العين .

الحادية عشرة — يقال : إن أوّل من أكل من الشجرة حواء بإغواء إبليس إياها ، على ما يأتي بيانه ، وإن أوّل كلامه كان معها لأنها وسواس المخدة ، وهي أوّل فتنة دخلت على الرجال من النساء ، فقال : ما منعتما هذه الشجرة إلا أنها شجرة الخلد ، لأنه علم منهما أنهما كانا يحبان الخـلد ، فأتاهما من حيث أحبا . «حبك الشيء يعمي ويصم» . فلما قالت حواء لآدم أنكر عليها وذكر العهد ، فألح على حواء وألحت حواء على آدم الى أن قالت : أنا آكل قبلك حتى إن أصابني شيء سـلمت أنت ، فأكلت فلم يضرها ، فأتت آدم فقالت : كل فإني قـد أكلت فلم يضرني ، فأكل فبـدت لهما سوآتهما وحصلا في حكم الذنب لقول الله تعـالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ فجمعهما في النهي ، فلذلك لم تنزل بها العقوبة حتى وجد المنهي عنه منهما جميعا ، وخفيت على آدم هذه المسئلة . ولهذا قال بعض العلماء : إن من قال لزوجتيه أو أمتيه : إن دخلتما الدار فأنتما طالقتان أو حرتان ، إن الطلاق والعتق لا يقع بدخول إحداهما . وقد اختلف علماؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال ؛ قال ابن القاسم : لا تطلقان ولا تعتقان إلا باجتماعهما في الدخول حملاً على هذا الأصل وأخذًا بمقتضى مطلق اللفظ . وقاله سحنون . وقال ابن القاسم مرة أخرى : تطلقان جميعا وتعتقان جميعا بوجود الدخول من إحداهما لأن بعض الحنث حنث ؛ كما لو حلف ألا يأكل هـذين الرغيفين فإنه يحنث بأكل أحدهمـا بل بأكل لقمة منهما . وقال أشهب : تعتق وتطلق التي دخلت وحدها ، لأن دخول كل واحدة منهما شرط في طلاقها أو عتقها . قال ابن العربي : وهـذا بعيد لأن بعض الشرط لا يكون شرطا إجماعا .

قلت : الصحيح الأول ، وإن النهى إذا كان معلقا على فعلين لا تتحقق المخالفة إلا بهما ؛ لأنك إذا قلت : لا تدخلا الدار فدخل أحدهما ما وُجدت المخالفة منهما ؛ لأن قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ نهى لهما ﴿ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ جوابه ، فلا يكونا من الظالمين حتى يفعلا ؛ فلما أكلت لم يصبها شيء لأن المنهى عنه ما وجد كاملا . وخفى هذا المعنى على آدم فطمع ونسى هذا الحكم وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾ . وقيل : نسى قوله : ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ . والله أعلم .

الثانية عشرة — واختلف العلماء في هذا الباب هل وقع من الأنبياء ، صلوات الله عليهم أجمعين ، صغائر من الذنوب يؤاخذون بها و يعاتبون عليها أم لا ، بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر ومن كل رذيلة فيها شين ونقص إجماعا : عند القاضي أبي بكر وعند الأستاذ أبي بكر أن ذلك مقتضى دليل المعجزة ، وعند المعتزلة أن ذلك مقتضى دليل العقل على أصولهم ؟ فقال الطبرى وغيره من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين : تقع الصغائر منهم ، خلافا للرافضة حيث قالوا : إنهم معصومون من جميع ذلك ، واحتجوا بما وقع من ذلك في التنزيل وثبت من تنصلهم من ذلك في الحديث ، وهذا ظاهر لاخفاء فيه . وقال جمهور من الفقهاء من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي : إنهم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها ؛ لأنا أمرنا باتباعهم في أفعالهم وآثارهم وسيرهم أمرا مطلقا من غير التزام قرينة ؛ فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم ؛ إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصده من القربة والإباحة أو الحظر أو المعصية ، ولا يصح أن يؤمر المرء بامتثال أمر لعله معصية لا سيما على من يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضا من الأصوليين . قال الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني : واختلفوا في الصغائر ، والذى عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم ، وصار بعضهم إلى تجويزها . ولا أصل لهذه المقالة . وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأول : الذى ينبغى أن يقال : إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونسبها إليهم وعاتبهم عليها ، وأخبروا بها عن نفوسهم وتنصلوا منها وأشفقوا منها وتابوا ، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها وإن قبل ذلك آحادها ؛ وكل ذلك مما لا يزرى بمناصبهم ؛ و إنما تلك الأمور التى وقعت منهم على جهة الندور وعلى جهة الخطأ والنسيان أو تأويل دعا إلى ذلك فهى

بالنسبة إلى غيرهم حسنات وفي حقهم سيئات [بالنسبة] إلى مناصبهم وعلو أقدارهم، إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس؛ فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة. قال: وهذا هو الحق. ولقد أحسن الجنيد حيث قال: حسنات الأبرار سيئات المقربين. فهم — صلوات الله وسلامه عليهم — وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم فلم يخل ذلك بمناصبهم ولا قدح في رتبهم، بل قد تلافاهم واجتباهم وهداهم ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم صلوات الله عليهم وسلامه.

الثالثة عشرة — قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. الظلم أصله وضع الشيء في غير موضعه؛ والأرض المظلومة: التي لم تحفر قط ثم حفرت. قال النابغة:

وقفت فيها أُصيلالًا أسائلها ❊ عيّت جوابًا وما بالربع من أحدِ
إلا الأوارِيَ لأْيًا ما أُبيّنها ❊ والنُّؤى كالحوض بالمظلومة الجلَدِ

ويسمى ذلك التراب الظليم. قال الشاعر:

فأصبح في غبراء بعد إشاحة ❊ على العيش مردود عليها ظليمها

وإذا نحر البعير من غير داء به فقد ظلم؛ ومنه: "ظلامون للجزر". ويقال: سقانا ظليمة طيبة إذا سقاهم اللبن قبل إدراكه. وقد ظلم وَطْبه إذا سقى منه قبل أن يروب ويخرج زبده. واللبن مظلوم وظليم. قال:

وقائلة ظلمتُ لكم سقائي ❊ وهل يخفى على العَكِدِ الظليمُ

ورجل ظليم: شديد الظلم. والظلم: الشرك. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾. حذفت النون من كلا لأنه أمر، وحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال، وحذفها شاذ. قال سيبويه: من العرب من يقول أُؤْكل فيتم. يقال منه: أكلت الطعام أكلا ومأكلا؛ والأكلة بالفتح: المرة الواحدة حتى تشبع؛ والأُكلة بالضم: اللقمة، تقول: أكلت أُكلة واحدة أي لقمة، وهي القرصة أيضا؛ وهذا الشيء أُكلة لك أي طعمة لك. والأُكل أيضا ما أُكل. ويقال: فلان ذو أُكل إذا كان ذا حظٍّ من الدنيا ورزق واسع. ﴿رَغَدًا﴾ نعت لمصدر محذوف أي أكلا رغدا؛ قال ابن كيسان: ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال. وقال مجاهد: رغدا أي لا حساب

عليهم . والرغد في اللغة : الكثير الذي لا يعنّيك ، ويقال : أرغد القوم إذا وقعوا في خصب وسعة. وقد تقدّم هذا المعنى . و ﴿حَيْثُ﴾ مبنية على الضم لأنها خالفت أخواتها الظروف في أنها لا تضاف فأشبهت قبل وبعد إذا أفردتا فضمت؛ قال الكسائي : لغة قيس وكنانة الضم ، ولغة تميم الفتح؛ قال الكسائي : وبنو أسد يخفضونها في موضع الخفض وينصبونها في موضع النصب؛ قال الله تعالى : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وتضم وتفتح . ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ الهاء من هذه بدل من ياء الأصل لأن الأصل هذي . قال النحاس : ولا أعلم في العربية هاء تأنيث مكسورا ما قبلها إلا هاء هذه . ومن العرب من يقول : هاتا هند، ومنهم من يقول : هاتي هند؛ وحكى سيبويه : هذه هند بإسكان الهاء . وحكى الكسائي عن العرب : ولا تقربا هذي الشجرة: وعن شبل بن عباد قال : كان ابن كثير وابن محيصن لا يثبتان الهاء في هذه في جميع القرآن. وقراءة الجماعة رغدا بفتح الغين ؛ وروى عن ابن وثاب والنخعي أنهما سكنا الغين ؛ وحكى سلمة عن الفراء قال يقال : هذه فعلت، وهذي فعلت بإثبات ياء بعد الذال، وهذ فعلت بكسر الذال من غير إلحاق ياء ولا هاء، وهاتا فعلت . قال هشام ويقال : تا فعلت . وأنشد :

خليلَيّ لولا ساكن الدار لم أُقم * بتا الدار إلا عابر ابن سبيل

قال ابن الأنباري : وتا بإسقاط ها بمنزلة ذي بإسقاط ها من هذي ، وبمنزلة ذه بإسقاط ها من هذه . وقد قال الفراء : من قال هذ قامت لا يسقط ها لأن الاسم لا يكون على ذال واحدة . ﴿فَتَكُونَا﴾ . عطف على تقربا فلذلك حذفت النون؛ وزعم الجرمي أن الفاء هي الناصبة . وكلاهما جائز.

قوله تعالى : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ . فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ قرأ الجماعة فأزلهما بغير ألف، من الزلة وهي الخطيئة أي استزلهما وأوقعهما فيها؛ وقرأ حمزة: فأزالهما بألف، من التنحية أي نحاهما. يقال : أزلته فزال . قال ابن كيسان : فأزالهما من الزوال أي صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية .

قلت : وعلى هذا تكون القراءتان بمعنى، إلا أن قراءة الجماعة أمكن في المعنى. يقال منه : أزللته فزل. ودل على هذا قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ ، وقوله : ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ . والوسوسة إنما هي إدخالهما في الزلل بالمعصية ؛ وليست للشيطان قدرة على زوال

أحد من مكان إلى مكان، إنما قدرته [على] إدخاله فى الزلل، فيكون ذلك سببا إلى زواله من مكان الى مكان بذنبه . وقيل : إن معنى أزلها من زل عن المكان إذا تنحى، فيكون فى المعنى كقراءة حمزة من الزوال . قال امرؤ القيس :

يَزِلّ الغــلامُ الخِفُّ عن صَهَواتِه * ويُلْوِى بأثواب العَنِيفِ المثقَّل

وقال أيضا :

كُمَيْتٌ يَزِلّ اللِّبْـد عن حال متنه * كما زلّت الصَّـــفْواء بالمتنزَّل

الثانية — قوله تعالى : ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّـا كَانَا فِيهِ﴾ . إذا جعل أزال من زال عن المكان فقوله : ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾ تأكيد وبيان للزوال، إذ قد يمكن أن يزولا عن مكان كانا فيــه إلى مكان آخر من الجنة، وليس كذلك، وإنما كان إخراجهما من الجنة إلى الأرض، لأنهما خلقا منها، وليكون آدم خليفة فى الأرض . ولم يقصد إبليس — لعنه الله — إخراجه منها وإنما قصد إسقاطه من مرتبته وإبعاده كما أبعد هو، فلم يبلغ مقصده ولا أدرك مراده، بل ازداد سخنة عين وغيظ نفس وخيبة ظن . قال الله جل ثناؤه : ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ فصار عليه السلام خليفة الله فى أرضه بعد أن كان جارا له فى داره، فكم بين الخليفــة والجار ! صلى الله عليه وسلم . ونسب ذلك إلى إبليس لأنه كان بسببه وإغوائه . ولا خلاف بين أهل التأويل وغيرهم أن إبليس كان متولى إغواء آدم، واختلف فى الكيفية، فقال ابن مسعود وابن عباس وجمهور العلماء : أغواهما مشافهة، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾، والمقاسمة ظاهرها المشافهة . وقال بعضهم، وذكره عبد الرزاق عن وهب بن منبه : دخل الجنة فى فم الحية وهى ذات أربع كالبختية من أحسن دابة خلقها الله تعالى بعد أن عرض نفسه على كثير من الحيوان فلم يدخله إلا الحية ؛ فلما دخلت به الجنة خرج من جوفها إبليس فأخذ من الشــجرة التى نهى الله آدم وزوجه عنهــا فجاء بها إلى حوّاء فقال : انظرى إلى هذه الشجرة، ما أطيب ريحها ! وأطيب طعمها ! وأحسن لونها ! فلم يزل يغويها حتى أخذتهــا حوّاء فأكلتهــا، ثم أغوى آدم، وقالت له حوّاء : كل فإنى قد أكلت فلم يضرنى ؛ فأكل منها فبدت لهما سوآتهما وحصلا فى حكم الذنب ؛ فدخل آدم فى جوف الشجرة فناداه ربه : أين أنت ؟ فقال : أنا هــذا يا رب ؛ قال : ألا تخرج ؟ قال : أستحى منــك يا رب ؛ قال : اهبــط إلى الأرض

التي خلقت منها ؛ ولُعنت الحية و ردّت قوائمها في جوفها وجعلت العداوة بينها و بين بني آدم ؛ ولذلك أمرنا بقتلها ، على ما يأتي بيانه . وقيل لحوّاء : كما أدميت الشجرة فكذلك يصيبك الدم كل شهر وتحملين وتضعين كرها تشرفين به على الموت مرارا . زاد الطبري والنقاش : وتكوني سفيهة وقد كنت حليمة . وقالت طائفة : إن إبليس لم يدخل الجنة إلى آدم بعدما أخرج منها و إنما أغوى بشيطانه وسلطانه ووسواسه التي أعطاه الله تعالى ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » . والله أعلم . وسيأتي في الأعراف أنه لما أكل بقي عريانا وطلب ما يستتر به فتباعدت عنه الأشجار و بكّتوه بالمعصية ، فرحمته شجرة التين ، فأخذ من ورقه فاستتر به ، فبلي بالعري دون الشجر . والله أعلم . وقيل : إن الحكمة في إخراج آدم من الجنة عمارة الدنيا .

الثالثة — يذكر أن الحية كانت خادم آدم عليه السلام في الجنة فخانته بأن مكنت عدوّ الله من نفسها وأظهرت العداوة له هناك ؛ فلما أهبطوا تأكدت العداوة وجعل رزقها التراب ، وقيل لها : أنت عدوّ بني آدم وهم أعداؤك وحيث لقيك منهم أحد شدخ رأسك . روى ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خمس يقتلهنّ المحرم » فذكر الحية فيهنّ . وروي أن إبليس قال لها : أدخليني الجنة وأنت في ذمّتي ؛ فكان ابن عباس يقول : اخفروا ذمة إبليس . وروت ساكنة بنت الجعد عن سرية بنت نبهان الغنوية قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اقتلوا الحيات صغيرها وكبيرها وأسودها وأبيضها فإن من قتلها كانت له فداء من النار ومن قتلته كان شهيدا » . قال علماؤنا : و إنما كانت له فداء من النار لمشاركتها إبليس و إعانته على ضرر آدم وولده ؛ فلذلك كان من قتل حية فكأنما قتل كافرا . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يجتمع كافر وقاتله في النار أبدا » . أخرجه مسلم وغيره .

الرابعة — روى ابن جريج عن عمرو بن دينار عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم بمنى فمرّت حية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اقتلوها" فسبقتنا إلى جحر فدخلته ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هاتوا بسعفة ونار فأضرموها عليها نارا » . قال علماؤنا : وهذا الحديث يخص نهيه عليه السلام عن المثلة وعن أن يعذب أحد بعذاب الله تعالى ؛ قالوا : فلم يبق لهذا العدوّ حرمة حيث فاته حتى أوصل إليه الهلاك من حيث قدر .

فإن قيـل : قد روى عن إبراهيم النخعى أنه كره أن تحرق العقرب بالنار، وقال : هو مثـلة . قيل له : يحتمل أن يكون لم يبلغه هذا الأثر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وعمل على الأثر الذى جاء ألّا تعذبوا بعذاب الله؛ فكان على هذا سبيل العمل عنده .

فإن قيل : فقد روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى غار وقد أنزلت عليه : ﴿وَٱلْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ فنحن نأخذها من فيه رطبة إذ خرجت علينا حية، فقال : " اقتلوها " ؛ فابتدرناها لنقتلها فسبقتنا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وقاها الله شركم كما وقاكم شرها"؛ فلم يضرم نارا ولا احتال فى قتلها، قيل له : يحتمل أن يكون لم يجد نارا فتركه أو لم يكن الجحر بهيئة ينتفع بالنـار هناك مع ضرر الدخان وعدم وصوله إلى الحيوان . والله أعلم . وقوله : " وقاها الله شركم " أى قتلكم إياها "كما وقاكم شرها" أى لسعها .

الخامسة — الأمر بقتل الحيات من باب الإرشاد إلى دفع المضرة المخوفة من الحيات، فما كان منها متحقق الضرر وجبت المبادرة إلى قتله؛ لقوله : "اقتلوا الحيات واقتلوا ذا الطُّفيتين (١) والأبتر فإنهما يخطفان البصر ويسقطان الحبل "؛ فخصهما بالذكر مع أنهما دخلا فى العموم ونبـه على ذلك بسبب عظم ضررهما . وما لم يتحقق ضرره، فما كان منها فى غير البيوت قتل أيضا لظاهر الأمر العام ولأن نوع الحيات غالبه الضرر، فيستصحب ذلك فيه، ولأنه كله مروع بصورته و بما فى النفوس من النفرة عنه؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : "إن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية "؛ فشجّع على قتلها . وقال فيما خرجه أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعا : "اقتلوا الحيات [كلهن] (٢) فمن خاف ثأرهن فليس منى " . والله أعلم .

السادسة — ما كان من الحيات فى البيوت فلا يقتل حتى يؤذن ثلاثة أيام لقوله عليه السلام : " إن بالمدينة جنًّا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئا فآذنوه ثلاثة أيام " . وقد حمل بعض العلماء هـذا الحديث على المدينة وحدها لإسلام الجن بها؛ قالوا : ولا نعلم هل أسلم من جن غير المدينة أحد أو لا .

---

(١) ذو الطفيتين : الذى له خطان أسودان على ظهره قال الأصمعى : أراه شـبه الخطين اللذين على ظهره بخوصتين من خوص المقل وهما الطفيتان . (٢) الزيادة من الجامع الكبير .

قاله ابن نافع . وقال مالك : نهى عن قتل جِنّان[1] البيوت في جميع البلاد ؛ وهو الصحيح ؛ لأن الله عز وجل قال : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ الآية . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أتاني داعي الجن فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن" وفيه : وسألوه الزاد وكانوا من جن الجزيرة ، الحديث ؛ وسيأتي بكماله في سورة الجن إن شاء الله تعالى . وإذا ثبت هذا فلا يقتل شيء منها حتى يحرّج عليه وينذر على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

السابعة — روى الأئمة عن أبي السائب مولى هشام بن زهرة أنه دخل على أبي سعيد الخدري في بيته ، قال : فوجدته يصلي ، فجلست أنتظر حتى يقضي صلاته ، فسمعت تحريكا في عراجين في ناحية البيت ، فالتفت فإذا حية ، فوثبت لقتلها ، فأشار إليّ أن اجلس فجلست ؛ فلما انصرف أشار إلى بيت في الدار فقال : أترى هذا البيت ؟ فقلت نعم ؛ قال : كان فيه فتى منا حديث عهد بعرس ، قال : فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق ؛ فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنصاف النهار فيرجع إلى أهله ؛ فاستأذنه يوما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خذ عليك سلاحك فإني أخشى عليك قُرَيظة" ؛ فأخذ الرجل سلاحه ثم رجع ؛ فإذا امرأته بين البابين قائمة ، فأهوى إليها بالرمح ليطعنها به وأصابته غيرة ؛ فقالت له : اكفف عليك رمحك وادخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني ! فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به ، ثم خرج فركزه في الدار فاضطربت عليه ، فما يدرى أيهما كان أسرع موتا ، الحية أم الفتى ! قال : فجئنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له ، وقلنا له : ادع الله يحييه [لنا][2] ؛ فقال . "استغفروا لأخيكم[3]" ثم قال : "إن بالمدينة جنا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئا فآذنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان" . وفي طريق أخرى : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن لهذه البيوت عوامر فإذا رأيتم شيئا منها فحرّجوا عليها ثلاثا فإن ذهب وإلا فاقتلوه فإنه كافر" . وقال لهم : "اذهبوا

---

(١) جنان جمع جان ضرب من الحيات أكحل العينين يضرب إلى الصفرة لا يؤذي يكثر في البيوت .

(٢) الزيادة عن صحيح مسلم .

(٣) في صحيح مسلم : «لصاحبكم» .

فادفنوا صاحبكم" . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لا يفهم من هذا الحديث أن هذا الجانّ الذى قتله هذا الفتى كان مسلما وأن الجن قتلته به قصاصاً؛ لأنه لو سلّم أن القصاص مشروع بيننا وبين الجن لكان إنما يكون فى العمد المحض؛ وهذا الفتى لم يقصد ولم يتعمد قتل نفس مسلمة؛ إذ لم يكن عنده علم من ذلك، وإنما قصد إلى قتل ما سوّغ قتل نوعه شرعا؛ فهذا قتل خطأ ولا قصاص فيه . فالأولى أن يقال : إن كفار الجن أو فسقتهم قتلوا الفتى بصاحبهم عدواً وانتقاما . وقد قتلت سعد بن عبادة رضى الله عنه؛ وذلك أنه وجد ميتا فى مغتسله وقد اخضر جسده، ولم يشعروا بموته حتى سمعوا قائلا يقول ولا يرون أحدا :

قد قتلنا ســـيد الخز * رج سعد بن عبـادة
ورميـــناه بسهمين * ن فلم نُخطِ فـؤاده

وإنما قال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : "إن بالمدينة جنا قد أسلموا" ليبين طريقا يحصـل به التحرز من قتل المسلم منهم ويتسلط به على قتل الكافر منهم . روى من وجوه أن عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وسـلم قتلت جاناً فأُريتْ فى المنام أن قائلاً يقول لها : لقد قتلت مسلما؛ فقالت : لو كان مسلما لم يدخل على أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ قال : ما دخل عليك إلا وعليك ثيابك؛ فأصبحت فأمرت باثنى عشر ألف درهم فجعلت فى سبيل الله . وفى رواية : ما دخل عليك إلا وأنت مستترة فتصدقت وأعتقت رقابا . وقال الربيع بن بدر : الجانّ من الحيات التى نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قتلها هى التى تمشى ولا تلتوى؛ وعن علقمة نحوه .

الثامنة — فى صفة الإنذار؛ قال مالك : أحبّ إلىّ أن يُنذَروا ثلاثة أيام . وقال عيسى بن دينار : وإن ظهر فى اليوم مرارا، ولا يقتصر على إنذاره ثلاث مرار فى يوم واحد حتى يكون فى ثلاثة أيام . وقيل : يكفى ثلاث مرار؛ لقوله عليه السلام : "فليؤذنه ثلاثا"، وقوله : "حرّجوا عليه ثلاثا" ولأن ثلاثا للعدد المؤنث؛ فظهر أن المراد ثلاث مرات . وقول مالك أولى؛ لقوله عليه السلام : "ثلاثة أيام"؛ وهو نص صحيح مقيد لتلك المطلقات، ويحمل ثلاثا على إرادة ليالى الأيام الثلاث، فغلّبت الليلة على عادة العرب فى باب التاريخ فإنهـا تغلب فيها التأنيث . قال مالك : ويكفى فى الإنذار أن يقول : أحرّج عليك بالله واليوم الآخر ألا تبدو لنا ولا تؤذينا . وذكر ثابت البُنَانىّ عن عبد الرحمن بن أبى ليلى

أنه ذكر عنده حيّات البيوت فقال : إذا رأيتم منها شيئا في مساكنكم فقولوا : أنشدكم بالعهد الذي أخذ عليكم نوح عليــه السلام، وأنشدكم بالعهد الذي أخذ عليكم سليمان عليه السلام، فإذا رأيتم منهن شيئا بعدُ فاقتلوه .

قلت : وهــذا يدل بظاهره أنه يكفي في الإذن مرة واحدة، والحديث يردّه . والله أعلم . وقد حكى ابن حبيب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه يقول : " أنشدكن بالعهد الذي أخذ عليكن سليمان عليه السلام ألّا تؤذيننا وألّا تظهرن علينا " .

التاسعة — روى جبير بن نفير عن أبي ثعلبة الخشني — واسمه جرثوم — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الجن على ثلاثة أثلاث فثلث لهم أجنحة يطيرون في الهواء وثلث حيات وكلاب وثلث يحلون ويظعنون ". وروى أبو الدرداء — واسمه عويمر — قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خلق الجن ثلاثة أثلاث فثلث كلاب وحيات وخشاش الأرض وثلث ريح هفافة وثلث كبني آدم لهم الثواب وعليهم العقاب وخلق الله الإنس ثلاثة أثلاث فثلث لهم قلوب لا يفقهون بها وأعين لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا وثلث أجسادهم كأجساد بني آدم وقلوبهم قلوب الشياطين وثلث في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله" .

العاشرة — ما كان من الحيوان أصــله الأذاه فإنه يقتل ابتداء لأجل إذاته من غير خلاف كالحية والعقرب والفأر والوزغ وشبهه . وقد قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : " خمس فواسق يُقتلن في الحل والحرم" وذكر الحديث، فالحية أبدت جوهرها الخبيث حيث خانت آدم بأن أدخلت إبليس الجنة بين فكيها ؛ ولو كانت تبرزه ما تركها رضوان تدخل به ؛ وقال لهــا إبليس أنت في ذمتي ؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها وقال: "اقتلوها وإن كنتم في الصلاة" يعني الحية والعقرب . والوزغة نفخت على نار إبراهيم عليه السلام من بين سائر الدواب فلُعنت . وهــذا من نوع ما يروى في الحية . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وســلم أنه قال : "من قتل وزغة فكأنما قتل كافرا " وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من قتل وزغة في أول ضربة كتبت له مائة حسنة وفي الثانية دون ذلك وفي الثالثــة دون ذلك" . وفي رواية أنه قال : "في أول ضربة سبعون حسنة" . والفأرة أبدت جوهرها بأن عمدت إلى حبال سفينة نوح عليه السلام فقطعتها .

وروى عبد الرحمن بن أبي نعم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يقتل المحرم الحيــة والعقرب والحدأة والسبع العادي والكلب العقور والفويسقة» . واستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أخذت فتيلة لتحرق البيت فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها . والغراب أبدى جوهره حيث بعثه نبي الله نوح عليه السلام من السفينة ليأتيه بخبر الأرض، فترك أمره وأقبل على جيفة . هذا كله في معنى الحية؛ فلذلك ذكرناه . وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في التعليل في المـائدة وغيرها إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ . فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا﴾ . حذفت الألف من «اهبطوا» في اللفظ لأنها ألف وصل . وحذفت الألف من «قلنا» في اللفظ لسكونها وسكون الهاء بعدها . وروى محمد بن مصَفَّى عن أبي حَيْوَة ضم الباء في «اهبطوا» وهي لغة يقويها أنه غير متعد، والأكثر في غير المتعدّى أن يأتي على يَفْعُل . والخطاب لآدم وحواء والحية والشيطان في قول ابن عباس؛ وقال الحسن : آدم وحواء والوسوسة؛ وقال مجاهد والحسن أيضا : بنو آدم وبنو إبليس . والهبوط : النزول من فوق إلى أسفل؛ فأهبط آدم بسَرَنْدِيبَ من الهند بجبل يقال له « نوذ »[1] ومعه ريح الجنة فعلق بشجرها وأوديتها فامتلأ ما هنالك طيبا ؛ فمن ثَمّ يؤتى بالطيب من ريح آدم عليه السلام . وكان السحاب يمسح رأسه فأُصلع، فأورث ولده الصلع . وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «خلق الله آدم وطوله ستون ذراعا» الحديث؛ وأخرجه مسلم وسيأتي . وأُهبطت حوّاء بجُدّه، وإبليس بالأبلة ، والحية بيسان، وقيــل : بسجستان، وسجستان أكثر بلاد الله حيات ولولا العربدّ ما يأكلها ويفنى كثيرا منها لأُخليت سجستان من أجل الحيات، ذكره أبو الحسن المسعودي .

الثانية ــ قوله تعالى : ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ . بعضكم مبتدأ، عدو خبره، والجملة في موضع نصب على الحال؛ والتقدير وهذه حالكم . وحذفت الواو من «وبعضكم» لأن في الكلام عائدا؛ كما يقال: رأيتك السماء تمطر عليك . والعدوّ : خلاف الصديق، وهو من عدا إذا ظلم؛ وذئب عدوان : يعدو على

(١) في اللسان والقاموس ومعجم البلدان : « واشم » .

الناس . والعُدْوان : الظلم الصراح ، وقيل : هو مأخوذ من المجاوزة، من قولك : لا يعدوك هذا الأمر أى لا يتجاوزك، وعداه إذا جاوزه؛ فسمى عدوًّا لمجاوزة الحد فى مكروه صاحبه ، ومنه العَدْوُ بالقَدَم لمجاوزة الشيء، والمعنيان متقاربان؛ فان من ظلم فقد تجاوز .

قلت: وقد حمل بعض العلماء قوله تعالى: ﴿ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ . على الإنسان نفسه،وفيه بعد وإن كان صحيحا معنى يدل عليه قوله عليه السلام : " إن العبد إذا أصبح تقول جوارحه للسانه : اتق الله فينا؛ فإنك إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا". فإن قيل: كيف قال عدوّ ولم يقل أعداء، ففيه جوابان . أحدهما : أن بعضا وكلًا يخبر عنهما بالواحد على اللفظ وعلى المعنى، وذلك فى القرآن قال الله تعالى : ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ على اللفظ . وقال تعالى: ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ على المعنى . والجواب الآخر: أن عدوًّا يفرد فى موضع الجمع، قال الله عز وجل : ﴿ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ بمعنى أعداء،وقال تعالى : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ ﴾ . وقال ابن فارس : العدوّ اسم جامع للواحد والاثنين والثلاثة والتأنيث، وقد يجمع .

الثالثة — لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة وإهباطه منها عقوبة له؛ لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقبل توبته، وإنما أهبطه إما تأديبا وإما تغليظا للمحنة . والصحيح فى إهباطه وسكناه فى الأرض ما قد ظهر من الحكمة الأزلية فى ذلك وهى نشر نسله فيها ليكلفهم ويمتحنهم ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخروى. إذ الجنة والنار ليست بدار تكليف، فكانت تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنة. ولله أن يفعل ما يشاء . وقد قال: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ . وهذه منقبة عظيمة وفضيلة كريمة شريفة؛ وقد تقدمت الإشارة إليها مع أنه خلق من الأرض . وإنما قلنا إنما أهبطه بعد أن تاب عليه لقوله ثانية : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا ﴾ . وسيأتى .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾ . ابتداء وخبر أى موضع استقرار، قاله أبو العالية وابن زيد، وقال السُّدّى : مستقر يعنى القبور .

قلت : قول الله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ يحتمل المعنيين . والله أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَمَتَاعٌ ﴾ . المتاع : ما يستمتع به من أكل ولبس وحياة وحديث وأنس وغير ذلك ؛ ومنه سميت متعة النكاح لأنها تمتع به . وأنشد سليمان بن عبد الملك حين وقف على قبر ابنه أيوب إثر دفنه :

وقفتُ على قبرٍ غريبٍ بقَفْرةٍ * متاعٌ قليلٌ من حبيبٍ مفارقِ

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ . اختلف المتأولون فى الحين على أقوال ؛ فقالت فرقة : إلى الموت ؛ وهذا قول من يقول : المستقر هو المقام فى الدنيا ؛ وقيل : إلى قيام الساعة ؛ وهذا قول من يقول : المستقر هو فى القبور ؛ وقال الربيع : إلى حين : إلى أجل . والحين : الوقت البعيد ؛ فحينئذ تبعيدٌ من قولك الآن . قال خُوَيلد :

كابِى الرماد عظيم القِـدْرِ جَفْنتُه * حين الشتاء كحوض المنهل اللَّقِفِ

لقف الحوض لقفا أى تهوّر من أسفله واتسع . وربما أدخلوا عليه التاء . قال أبو وَجْزة :

العاطفونَ تَحِينَ ما مِنْ عاطفٍ * والمُطعِمون زمانَ أينَ المُطعِمُ

والحين أيضا : المدّة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ ﴾ . والحين : الساعة ؛ قال الله تعالى : ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ ﴾ . قال ابن عرفة : الحين : القطعة من الدهر كالساعة فما فوقها . وقوله : ﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أى حتى تفنى آجالهم ؛ وقوله تعالى : ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ أى كل سنة ؛ وقيل : بل كل ستة أشهر ؛ وقيل : بل غدوة وعشيا . قال الأزهرىّ : الحين اسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان كلها طالت أو قصرت ؛ والمعنى أنه ينتفع بها فى كل وقت ولا ينقطع نفعها البتة . قال : والحين : يوم القيامة ، والحين : الغدوة والعشية ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ . ويقال : عاملته محاينة ، من الحين ؛ وأحينت بالمكان إذا أقمت به حينا ؛ وحان حين كذا أى قرب . قالت بُثَيْنة :

وإن سلوّى عن جميلٍ لساعةٌ * من الدهر ما حانت ولا حان حينُها

السابعة — لما اختلف أهل اللسان فى الحين اختلف فيه أيضا علماؤنا وغيرهم ؛ فقال الفراء : الحين حينان : حين لا يوقف على حده ، والحين الذى ذكر الله جل ثناؤه : ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ ستة أشهر . قال ابن العربى : الحين المجهول لا يتعلق به حكم ، والحين المعلوم هو

الذى تتعلق به الأحكام ويرتبط به التكليف، وأكثر المعلوم سنة . ومالك يرى فى الأحكام والأيمان أعم الأسماء والأزمنة، والشافعي يرى الأقل، وأبو حنيفة توسط فقال : ستة أشهر. ولا معنى لقوله؛ لأن المقدرات عنده لا تثبت قياسا، وليس فيه نص عن صاحب الشريعة ، وإنما المعوّل على المعنى بعد معرفة مقتضى اللفظ لغة . فمن نذر أن يصلّى حينًا فيحمل على ركعة عند الشافعي لأنه أقل النافلة، قياسا على ركعة الوتر . وقال مالك وأصحابه : أقل النافلة ركعتان فيقدر الزمان بتقدير الفعل . وذكر ابن خُوَيْزِمَنْداد فى أحكامه : أن من حلف ألا يكلم فلانا حينا أو لا يفعل كذا حينا ، أن الحين سنة . قال : واتفقوا فى الأحكام أن من حلف ألا يفعل كذا حينا أو لا يكلم فلانا حينا أن الزيادة على سنة لم تدخل فى يمينه .

قلت : هذا الاتفاق إنما هو فى المذهب . قال مالك رحمه الله : من حلف ألا يفعل شيئا إلى حين أو زمان أو دهر، فذلك كله سنة . وقال عنه ابن وهب : إنه شك فى الدهر أن يكون سنة . وحكى ابن المنذر عن يعقوب وابن الحسن : أن الدهر ستة أشهر . وعن ابن عباس وأصحاب الرأى وعكرمة وسعيد بن جبير وعامر الشعبي وعبيدة فى قوله تعالى : ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ أنه ستة أشهر . وقال الأوزاعي وأبو عبيدة : الحين ستة أشهر، وليس عند الشافعي فى الحين وقت معلوم، ولا للحين غاية؛ قد يكون الحين عنده مدة الدنيا؛ وقال : لا نحنثه أبدا، والورع أن يقضيه قبل انقضاء يوم . وقال أبو ثور وغيره : الحين والزمان على ما تحتمله اللغة، يقال : قد جئت من حين ولعله لم يجئ من نصف يوم . قال الكيا(1) الطبرى الشافعي . وبالجملة الحين له مصارف، ولم ير الشافعي تعيين محمل من هذه المحامل، لأنه مجمل لم يوضع فى اللغة لمعنى معين . وقال بعض العلماء فى قوله تعالى : ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ فائدة بشارة إلى آدم عليه السلام ليعلم أنه غير باق فيها ومنتقل إلى الجنة التى وعد بالرجوع إليها، وهى لغير آدم دالة على المعاد فحسب . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ . فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ ﴾ . تلقى قيل معناه فهم وفطن ، وقيل : قبل وأخذ ؛ وكان عليه السلام يتلقى الوحى أى يستقبله ويأخذه ويتلقفه . تقول : خرجنا نتلقى الحجيج أى

(1) فى نسخة . « الحب » .

نستقبلهم .وقيل : معنى تلقى تلقن؛ وهذا فى المعنى صحيح، ولكن لا يجوز أن يكون التلقى من التلقن فى الأصل لأن أحد الحرفين إنما يقلب ياء إذا تجانسا ، مثل تظنى من تظنن، وتقصى من تقصص؛ ومثله تسريت من تسررت، وأمليت من أمللت وشبه ذلك؛ ولهـذا لا يقال : تقبّى من تقبّـل؛ ولا تلقّى من تلقّن؛ فاعلم . وحكى مكّىّ أنه ألهمها فانتفع بهـا . وقال الحسن : قبولها تعلمه لهـا وعمله بها .

الثانية — واختلف أهل التأويل فى الكلمات ؛ فقال ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير والضحاك ومجاهد: هى قوله :﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ . وعن مجاهد أيضا : سبحانك اللهم لا إله إلا أنت ربى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم . وقالت طائفة : رأى مكتوبا على ساق العرش « محمد رسول الله » فتشفع بذلك، فهى الكلمات . وقالت طائفـة : المراد بالكلمات البكاء والحياء والدعاء، وقيـل : الندم والاستغفار والحزن . قال ابن عطية : هذا يقتضى أن آدم عليه السلام لم يقل شيئا إلا الاستغفار المعهود. وسئل بعض السلف عما ينبغى أن يقوله المذنب؛ فقال: يقول ما قاله أبواه : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ الآية؛ وقال موسى : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾؛ وقال يونس : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ؛ وعن ابن عباس ووهب بن منبـه : أن الكلمات « سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الغافرين ، سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى فتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم» .وقال محمد بن كعب هى قوله : « لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملت سوءا وظلمت نفسى فتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم . لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسى فارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم . لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسى فارحمنى إنك أرحم الراحمين» . وقيل : الكلمات قوله حين عطس : « الحمـد لله » . والكلمات : جمع كلمة . والكلمة تقع على القليـل والكثير . وقد تقـــدم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾. أى قبل توبته أو وفقه للتوبة، وكان ذلك فى يوم عاشوراء فى يوم جمعة، على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى . وتاب العبد: رجع إلى طاعة ربه. وعبد توّاب: كثير الرجوع إلى الطاعة . وأصل التوبة الرجوع؛ يقال : تاب وثاب وآب وأناب : رجع .

الرابعة — إن قيل: لم قال عليه ولم يقل عليهما وحواء مشاركة له في الذنب بإجماع، وقد قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ و﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾، فالجواب أن آدم عليه السلام لما خوطب في أول القصة بقوله: ﴿اسْكُنْ﴾ خصه بالذكر في التلقي، فلذلك كملت القصة بذكره وحده، وأيضا فلأن المرأة حرمة ومستورة فأراد الله الستر لها، ولذلك لم يذكرها في المعصية في قوله: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾، وأيضا لما كانت المرأة تابعة للرجل في غالب الأمر لم تذكر، كما لم يذكر فتى موسى مع موسى في قوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ﴾، وقيل: إنه دل بذكر التوبة عليه أنه تاب عليهما إذ أمرهما سواء، قاله الحسن وقيل: إنه مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ أي التجارة لأنها كانت مقصود القوم، وأعاد الضمير عليها ولم يقل إليهما، والمعنى متقارب. وقال الشاعر:

رماني بأمر كنت منه ووالدي * بريئا ومن فوق الطوِيّ رماني

وفي التنزيل: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾، فحذف إيجازا واختصارا.

الخامسة — قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. وصف نفسه سبحانه وتعالى بأنه التواب، وتكرر في القرآن معرفا ومنكرا واسما وفعلا. وقد يطلق على العبد أيضا تواب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾. قال ابن العربي: ولعلمائنا في وصف الرب بأنه تواب ثلاثة أقوال، أحدها: أنه يجوز في حق الرب سبحانه وتعالى فيدعى به كما في الكتاب والسنة ولا يتأول. وقال آخرون: هو وصف حقيقي لله سبحانه وتعالى، وتوبة الله على العبد رجوعه من حال المعصية إلى حال الطاعة. وقال آخرون: توبة الله على العبد قبوله توبته، وذلك يحتمل أن يرجع الى قوله سبحانه وتعالى: قبلت توبتك، وأن يرجع إلى خلقه الإنابة والرجوع في قلب المسيء وإجراء الطاعات على جوارحه الظاهرة.

السادسة — لا يجوز أن يقال في حق الله تعالى تائب: اسم فاعل من تاب يتوب لأنه ليس لنا أن نطلق عليه من الأسماء والصفات إلا ما أطلقه هو على نفسه، أو نبيه عليه السلام، أو جماعة المسلمين، وإن كان في اللغة محتملا جائزا. هذا هو الصحيح في هذا الباب، على ما بيناه في الكتاب "الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى". قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾.

وقال : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ . وإنمـا قيل لله عز وجل : تواب ، لمبـالغة الفعل وكثرة قبوله توبة عباده لكثرة من يتوب إليه .

السابعة — إعلم أنه ليس لأحد قدرة على خلق التوبة ، لأن الله سبحانه وتعالى هو المنفرد بخلق الأعمال ، خلافا للمعتزلة ومن قال بقولهم . وكذلك ليس لأحد أن يقبل توبة من أسرف على نفسه ولا أن يعفو عنه . قال علماؤنا : وقد كفرت اليهود والنصارى بهذا الأصل العظيم فى الدين ، اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله جل وعز ، وجعلوا لمن أذنب أن يأتى الحبر أو الراهب فيعطيه شيئا ويحط عنه ذنوبه ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ .

الثـامنة — قرأ ابن كثير : ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمَ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَاتٌ﴾ ، والباقون برفع آدم ونصب كلمات . والقراءتان ترجعان الى معنًى لأن آدم اذا تلق الكلمات فقد تلقته . وقيل : لمـا كانت الكلمات هى المنقذة لآدم بتوفيق الله تعالى له لقبوله إياها ودعائه بها كانت الكلمات فاعلة ، وكان الأصل على هذه القراءة «فتلقت آدم من ربه كلمات» ، لكن لمـا بعد مابين المؤنث وفعله حسن حذف علامة التأنيث . وهـذا أصل يجرى فى كل القرآن والكلام إذا جاء فعـل المؤنث بغير علامة ، ومنـه قولهم : حضر القاضىَ اليومَ امرأةٌ . وقيل : إن الكلمات لمـا لم تكن تأنيثا حقيقيا حمل على معنى الكلم فذكّر . وقرأ الأعمش : ﴿آدم من ربّه﴾ مدغما . وقرأ أبو نوفل بن أبى عقرب : ﴿أَنَّهُ﴾ بفتح الهمزة ، على معنى لأنه ، وكسر الباقون على الاستئناف . وأدغم الهاء فى الهاء أبو عمرو وعيسى وطلحة فيما حكى أبو حاتم عنهم ، وقيل : لا يجـوز ، لأن بينهما واوا فى اللفظ لا فى الخط . قال النحاس : أجاز سيبويه أن تحذف هذه الواو وأنشد :

له زجلٌ كأنّهُ صـوتُ حادٍ ، اذا طلب الوسـيقة أو زميرُ

فعلى هذا يجوز الإدغام . وهو رفع بالابتـداء ، التواب خبره ، والجملة خبر إن . ويجوز أن يكون هو توكيدا للهاء ، ويجوز أن تكون فاصلة ، على ما تقدّم .

وقال سعيد بن جبير : لمـا أهبط آدم الى الأرض لم تكن فيها شىء غير النسر فى البر ، والحوت فى البحر ، فكان النسر يأوى الى الحوت فيبيت عنـده ، فلما رأى النسر آدم قال : ياحوت ، لقد

أهبط اليوم الى الأرض شيء يمشي على رجليـه ويبطش بيـديه ؛ فقال الحوت : لئن كنت صادقا مالى منه فى البحر ملجأ ، ولا لك فى البر منه مخلص ! .

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا ﴾ . كرر الأمر على جهة التغليظ وتأكيده ، كما تقول لرجل : قم قم . وقيل : كرر الأمر لما علق بكل أمر منهما حكما غير حكم الآخر : فعلق بالأول العداوة ، وبالثـانى إتيان الهدى . وقيل : الهبوط الأول من الجنة إلى السماء ، والثـانى من السماء الى الأرض ؛ وعلى هذا يكون فيه دليل على أن الجنـة فى السماء السابعة ، كما دل عليه حديث الإسراء على ما يأتى . ﴿ جَمِيعًا ﴾ نصب على الحـال . وقال وهب بن منبـه : لمـا هبط آدم عليـه السلام الى الأرض ؛ قال إبليس للسـباع : إن هـذا عدو لكم فأهلكوه ؛ فاجتمعوا وولوا أمرهم إلى الكلب وقالوا : أنت أشجعنا وجعلوه رئيسا ؛ فلما رأى ذلك آدم عليه السلام تحير فى ذلك ؛ فجاءه جبريل عليه السلام وقال له : امسح يدك على رأس الكلب ففعل ؛ فلما رأت السباع أن الكلب ألف آدم تفرقوا ؛ واستأمنه الكلب فأمنه آدم ، فبقى معه ومع أولاده . وقال الترمذى الحكيم نحو هذا ، وإن آدم عليه السلام لما اهبط الى الأرض جاء إبليس الى السباع فأشلاهم على آدم ليؤذوه ؛ وكان أشـدهم عليه الكلب ، فأميت فؤاده ؛ فروى فى الخبر أن جبريل عليه السلام أمره أن يضع يده على رأسه فوضعها فاطمأن اليه وألفه ، فصار ممن يحرسه ويحرس ولده ويألفهم . وبموت فؤاده يفزع من الادميين ؛ فلو رمى بمدر ولى هاربا ثم يعود آلفا لهم . ففيه شعبة من إبليس ، وفيه شعبة من مسحة آدم عليه السلام ؛ فهو بشعبة إبليس ينبح ويهر ويعدو على الآدمى ، وبمسحة آدم مات فؤاده حتى ذل وانقاد وألف به وبولده يحرسهم ، ولهثـه على كل أحواله من موت فؤاده ؛ ولذلك شـبه الله سبحانه وتعالى العلماء السوء بالكلب ، على ما يأتى بيانه فى الأعراف إن شاء الله تعالى ، ونزلت عليه تلك العصا التى جعلها الله آية لموسى ، فكان يطرد بها السباع عن نفسه .

قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ . اختلف فى معنى قوله : ﴿هُدًى﴾ ، فقيل : كتاب الله ، قاله السدى ؛ وقيل : التوفيق للهداية ؛ وقالت فرقة : الهدى : الرسل ، وهى الى آدم من الملائكة ، وإلى بنيـه من البشر ، كما جاء فى حديث أبى ذر ، وخرجه الآجرى . وفى قوله : ﴿ مِّنِّى ﴾ إشارة

إلى أن أفعال العباد خلق لله تعالى ، خلافا للقدرية وغيرهم ، كما تقدّم . وقرأ الجحدرى " هُدَىَّ " ، وهو لغة هذيل ، يقولون : هُدَىَّ وعَصَىَّ ومَحْيَىَّ . وأنشد النحويون لأبى ذؤيب يرثى بنيه :

سبقوا هَوَىَّ وأعنقوا لهواهمُ * فتخرّموا ولكل جنبٍ مصرعُ

قال النحاس : وعلة هذه اللغة عند الخليل وسيبويه أن سبيل ياء الإضافة أن يكسر ما قبلها ؛ فلما لم يجز أن تتحرك الألف أبدلت ياء وأدغمت . و « ما » فى قوله : ﴿ إِمَّا ﴾ زائدة على إن التى للشرط ، وجواب الشرط الفاء مع الشرط الثانى فى قوله : ﴿ فَمَنْ تَبِعَ ﴾ . ومن فى موضع رفع بالابتداء ، وتبع فى موضع جزم بالشرط ، ﴿ فَلَا خَوْفٌ ﴾ جوابه . قال سيبويه : الشرط الثانى وجوابه هما جواب الأوّل ، وقال الكسائى : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ جواب الشرطين جميعا .

قوله تعالى : ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ . الخوف هو الذعر ، ولا يكون إلا فى المستقبل . وخاوفنى فلان فخفته أى كنت أشد خوفا منه . والتخوف : التنقص ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ ﴾ . وقرأ الزهرى والحسن وعيسى بن عمر وابن أبى إسحاق ويعقوب : ﴿ فَلَا خَوْفَ ﴾ بفتح الفاء على التبرئة ، والاختيار عند النحويين الرفع والتنوين على الابتداء ؛ لأن الثانى معرفة لا يكون فيــه إلا الرفع ، لأن لا لا تعمل فى معرفة ، فاختاروا فى الأوّل الرفع أيضـا ليكون الكلام من وجه واحد . ويجوز أن تكون لا فى قولك : فلا خوف ، بمعنى ليس .

والحُزْن والحَزَن : ضد السرور ، ولا يكون إلا على ماض . وحزِن الرجل (بالكسر) فهو حزِن وحزين ، وأحزنه غيره وحَزَنه أيضا ، مثل أسلكه وسلكه ، ومحزون بنى عليه . قال اليزيدى : حزنه لغة قريش ، وأحزنه لغة تميم ، وقد قرئ بهما . واحتزن وتحزن بمعنى . والمعنى فى الآية فلا خوف عليهم فيما بين أيديهم من الآخرة ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا . وقيل : ليس فيــه دليل على نفى أهوال يوم القيامة وخوفها على المطيعين لمـا وصفه الله تعالى ورسوله من شدائد القيامة إلا أنه يخففه عن المطيعين ، وإذا صاروا إلى رحمته فكأنهم لم يخافوا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى أشركوا ، لقوله : ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ . الصحبة : الاقتران بالشىء فى حالة ما ، فى زمان ما ، فإن كانت الملازمة والخلطة فهى كمال الصحبة ؛ وهكذا هى صحبة أهل النار لهـا . وبهذا القول ينفك الخلاف فى تسمية الصحابة رضى الله عنهم

إذ مراتبهم متباينة، على مانبينـه في « براءة » إن شاء الله ، و باقي ألفاظ الآية تقـدّم معناها والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ نداء مضاف ، علامة النصب فيه الياء وحذفت منه النون للإضافة، الواحد ابن، والأصل فيه بَنَيٌ، وقيل : بَنَوٌ؛ فمن قال : المحذوف منه واو احتج بقولهم : البنوّة . وهذا لا حجة فيه؛لأنهم قد قالوا : الفتوة،وأصله الياء. وقال الزجاج : المحذوف منه عندي ياء كأنه من بنيت . الأخفش اختار أن يكون المحذوف منه الواو لأن حذفها أكثر لثقلها . ويقال: ابن بين البنوّة ، والتصغير بُنَيّ. قال الفراء : يقال : يابُنَيَّ و يابُنَيِّ لغتان مثل يا أبتِ يا أبتَ؛وقرئ بهما . وهو مشتق من البناء وهو وضع الشيء على الشيء، والابن فرع للأب وهو موضوع عليه .

و إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهـم السلام . قال أبو الفرج الجوزي : وليس في الأنبياء من له آسمان غيره إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسـلم فإن له أسمـاء كثيرة . ذكره في كتاب « فهوم الآثار » له .

قلت : وقد قيل في المسيح: إنه اسم علم لعيسى عليه السلام غير مشتق، وقد سماه روحا وكلمة، وكانوا يسـمونه أبيل الأبيلين؛ ذكره الجوهري في الصحاح . وذكر البيهقي في دلائل النبـوة عن الخليل ابن أحمد : خمسـة من الأنبياء ذو و آسمين، محمد وأحمد نبينا صلى الله عليه وسـلم ، وعيسى والمسيح، و إسرائيل و يعقوب، و يونس وذو النون، وإلياس وذو الكفل، صلى الله عليهم وسلم .

قلت : قد ذكرنا أن لعيسى أربعة أسماء ، وأما نبينا صلى الله عليه وسـلم فله أسماء كثيرة بيانها في مواضعها .

و إسرائيل اسم أعجمي ،ولذلك لم ينصرف،وهو في موضع خفض بالإضافة . وفيه سبع لغات : إسرائيل وهي لغـة القرآن ، وإسرائيل بمدّة مهموزة مختلسة حكاها شـنبوذ عن ورش، و إسرايل بمدّة بعـد الياء من غير همز وهي قراءة الأعمش وعيسى بن عمر، وقرأ الحسن والزهري بغير همز ولا مدّ، و إسرائل بغير ياء بهمزة مكسورة، و إسرأَل بهمزة مفتوحة . وتميم يقولون : إسرائين بالنون . ومعنى إسرائيل عبد الله؛ قال ابن عباس : إسر بالعبرانية هو عبد و إيل هو الله؛ وقيل : إسر هو صفوة الله و إيل هو الله؛ وقيل : إسر من الشدّ؛ فكأن إسرائيل الذي شدده الله وأتقن خلقه؛ ذكره المهدوي .

وقال السهيلي : سمي إسرائيل لأنه أسرى ذات ليلة حين هاجر الى الله تعالى ، فسمي إسرائيل أي أسرى الى الله ونحو هذا ، فيكون بعض الاسم عبرانيا وبعضه موافقا للعرب . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ . الذكر اسم مشترك ، فالذكر بالقلب ضدّ النسيان ، والذكر باللسان ضد الإنصات ، وذكرت الشيء بلساني وقلبي ذكرا ، واجعله منك على ذُكر (بضم الذال) أي لا تنسه . قال الكسائي : ما كان بالضمير فهو مضموم الذال ، وما كان باللسان فهو مكسور الذال ، وقال غيره : هما لغتان ، يقال : ذِكْر وذُكْر ، ومعناهما واحد . والذكر (بفتح الذال) خلاف الأنثى . والذُّكر أيضا الشرف ، ومنه قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ . قال ابن الأنباري : والمعنى في الآية اذكروا شكر نعمتي ، فحذف الشكر اكتفاء بذكر النعمة . وقيل : إنه أراد الذكر بالقلب وهو المطلوب أي لا تغفلوا عن نعمتي التي أنعمت عليكم ولا تناسوها ، وهو حسن . والنعمة هنا اسم جنس فهي مفردة بمعنى الجمع ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ أي نعمه . ومن نعمه عليهم أن أنجاهم من آل فرعون ، وجعل منهم أنبياء ، وأنزل عليهم الكتب والمنّ والسلوى ، وفجّر لهم من الحجر الماء ، الى ما استودعهم من التوراة التي فيها صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ورسالته ، والنعم على الآباء نعم على الأبناء لأنهم يشرُفون بشرف آبائهم .

تنبيه — قال أرباب المعاني : ربط سبحانه وتعالى بني إسرائيل بذكر النعمة وأسقطه عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ودعاهم الى ذكره ، فقال : ﴿ ٱذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ ، ليكون نظر الأمم من النعمة الى المنعم ، ونظر أمة محمد صلى الله عليه وسلم من المنعم الى النعمة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ ، أمر وجوابه . وقرأ الزهري : أُوَفِّ (بفتح الواو وشد الفاء) للتكثير ، واختلف في هذا العهد ما هو . فقال الحسن : عهده قوله : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ . وقيل : هو قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ . وقال الزجاج : أوفوا بعهدي الذي عهدت إليكم في التوراة من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، أوف بعهدكم بما ضمنت لكم على ذلك إن أوفيتم به فلكم الجنة . وقيل : أوفوا بعهدي في أداء الفرائض على السنة والإخلاص ، أوف بقبولها منكم ومجازاتكم عليها . وقال بعضهم : أوفوا بعهدي في العبادات ، أوف بعهدكم أي أوصلكم

إلى منازل الرعايات . وقيل : أوفوا بعهدي في حفظ آداب الظواهر، أوف بعهدكم بتزيين سرائركم . وقيل : هو عام في جميع أوامره ونواهيه ووصاياه؛ فيدخل في ذلك ذكر محمد صلى الله عليه وسلم الذي في التوراة وغيره؛ هذا قول الجمهور من العلماء، وهو الصحيح ؛ وعهده سبحانه وتعالى هو أن يدخلهم الجنة .

قلت : وما طلب من هؤلاء من الوفاء بالعهد هو مطلوب منا ؛ قال الله تعالى : ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾، ﴿ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ . وهو كثير ، ووفاؤهم بعهد الله أمارة لوفاء الله تعالى لهم لا علة له بل ذلك تفضل منه عليهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ أي خافون، والرَّهْب والرَّهْبة : الخوف . ويتضمن الأمر به معنى التهديد . وسقطت الياء بعد النون لأنها رأس آية؛ وقرأ ابن أبي إسحاق : فارهبوني بالياء، وكذا فاتقوني على الأصل . وإياي منصوب بإضمار فعل، وكذا الاختيار في الأمر والنهي والاستفهام؛ التقدير وإياي ارهبوا فارهبون . ويجوز في الكلام وأنا فارهبون على الابتداء والخبر . وكون فارهبون الخبر على تقدير الحذف، المعنى وأنا ربكم فارهبون .

قوله تعالى : ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ ﴾ أي صدقوا، يعني بالقرآن . ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ حال من الضمير في أنزلت؛ التقدير بما أنزلته مصدقا؛ والعامل فيه أنزلت . ويجوز أن يكون حالا من ما والعامل فيه آمنوا؛ التقدير آمنوا بالقرآن مصدقا . ويجوز أن تكون مصدرية؛ التقدير آمنوا بإنزالي لما معكم يعني من التوراة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ . الضمير في به قيل : هو عائد على محمد صلى الله عليه وسلم، قاله أبو العالية؛ وقال ابن جريج : هو عائد على القرآن إذ تضمنه قوله : ﴿ بِمَا أَنْزَلْتُ ﴾ ؛ وقيل : على التوراة إذ تضمنها قوله : ﴿ لِمَا مَعَكُمْ ﴾ .

فإن قيل : كيف قال كافر ولم يقل كافرين ، قيل : التقدير ولا تكونوا أول فريق كافر . وزعم الأخفش والفراء أنه محمول على معنى الفعل لأن المعنى أول من كفر به ؛ وحكى سيبويه : هو أظرف الفتيان وأجمله، وكان ظاهر الكلام هو أظرف فتى وأجمله . وقال : أول،وقد كان قد كفر قبلهم كفار قريش، فإنما معناه من أهل الكتاب؛ إذ هم منظور إليهم في مثل هذا لأنهم حجة مظنون

بهم علم . وأوّل عند سيبويه نصب على خبر كان . وهو مما لم ينطق منه بفعل . وهو على أفعل، عينُه وفاؤه واو . وإنمـا لم ينطق منه بفعل لئلا يعتلّ من جهتين العين والفاء؛ وهذا مذهب البصريين .
وقال الكوفيون : هو من وأل اذا نجا، فأصله أوْأَل ، خففت الهمزة وأبدلت واوا وأدغمت فقيل أوّل، كما تخفف همزة خطيئـة . قال الجوهري : والجمع الأوائل والأوَالِي أيضا على القلب وقال قوم : أصله وَوْعَل على فَوْعَل؛ فقلبت الواو الأولى همزة . وإنما لم يجمع على أواول لاستثقالهم اجتماع الواوين بينهما ألف الجمع . وقيل : هو أفعل من آل يؤول، فأصله أأْوَل؛ قلب بفاء أعفل مقلوبا من أفعل، فسُهِّل وأبدل وأُدغم .

مسئلة — لا حجـة في هذه الآية لمن يمنع القول بدليل الخطاب وهم الكوفيون ومن وافقهم ؛ لأن المقصود من الكلام النهي عن الكفر أولا وآخرا؛ وخص الأول بالذكر لأن التقدم فيه أغلظ، فكان حكم المذكور والمسكوت عنه واحدا؛ وهذا واضح .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ . فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ معطوف على قـوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا ﴾ . نهاهم عن أن يكونوا أوّل من كفر وألا يأخذوا على آيات الله ثمنا أي على تغيير صفة محمد صلى الله عليه وسلم رِشًى . وكان الأحبار يفعلون ذلك فنهوا عنه؛ قاله قوم من أهل التأويل منهم الحسن وغيره . وقيل : كانت لهم مآكل يأكلونها على العلم كالراتب، فنهوا عن ذلك . وقيل : إن الأحبار كانوا يعلّمون دينهم بالأجرة فنهوا عن ذلك . وفي كتبهم : يابن آدم علِّم مجّانا كما عُلِّمت مجّانا أي باطلا بغير أجرة؛ قاله أبو العالية . وقيـل : المعنى ولا تشتروا بأوامري ونواهيّ وآياتي ثمنا قليلا، يعني الدنيا ومدّتها والعيش الذي هو نزر لا خطر له؛ فسمى ما اعتاضوه عن ذلك ثمنا لأنهم جعلوه عوضا ، فانطلق عليه اسم الثمن وإن لم يكن ثمنا . وقد تقدّم هذا المعنى . وقال الشاعر :

إن كنتَ حاولتَ دنيًا أو ظفرتَ به * فما أصبتَ بترك الحج من ثمن

قلت : وهـذه الآية وإن كانت خاصـة ببني إسرائيل فهي تتناول من فعل فعلهم . فمن أخذ رشوة على تغيير حق أو إبطاله، أو امتنع من تعليم ما وجب عليه، أو أداء ما علمه وقد تعين عليه حتى

يأخذ عليه أجرا، فقد دخل في مقتضى الآية ، والله أعلم . وقد روى أبو داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تعلّم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلّمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة » . (يعنى ريحها) .

الثانية — وقد اختلف العلماء في أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم لهذه الآية وما كان في معناها؛ فمنع ذلك الزهريّ وأصحاب الرأي وقالوا : لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن لأن تعليمه واجب من الواجبات التي يحتاج فيها إلى نية التقرب والإخلاص، فلا يؤخذ عليها أجرة كالصلاة والصيام. وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ . وروى ابن عباس أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : «معلمو صبيانكم شراركم أقلهم رحمة باليتيم وأغلظهم على المسكين» . وروى أبو هريرة قال : قلت يارسول الله ما تقول في المعلمين؟ قال : «درهمهم حرام وثوبهم سحت وكلامهم رياء» . وروى عُبادة بن الصامت قال : علّمت ناسًا من أهل الصُّفّة القرآن والكتابة، فأهدى إليّ رجل منهم قوسا؛ فقلت : ليست بمال وأرمى عنها في سبيل الله؛ فسألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال : «إن سَرّك أن تطوّق بها طوقا من نار فاقبلها» . وأجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن مالك والشافعي وأحمد وأبو ثور وأكثر العلماء لقوله عليه السلام في حديث ابن عباس — حديث الرقية — « إن أحقّ ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله» أخرجه البخاري؛ وهو نص يرفع الخلاف، فينبغي أن يعوّل عليه .

وأمّا ما احتج به المخالف من القياس على الصلاة والصيام ففاسد، لأنه في مقابلة النص؛ ثم إن بينهما فرقانا ، وهو أن الصلاة والصوم عبادات مختصة بالفاعل ، وتعليم القرآن عبادة متعدية لغير المعلم؛ فتجوز الأجرة على محاولته النقل كتعليم كتابة القرآن . قال ابن المنذر : وأبو حنيفة يكره تعليم القرآن بأجرة، ويجوّز أن يستأجر الرجلَ يكتب له لوحا أو شعرا أو غناءً معلوما بأجرٍ معلوم؛ فيجوّز الإجارة فيما هو معصية ويبطلها فيما هو طاعة .

وأما الجواب عن الآية — فالمراد بها بنو إسرائيل؛ وشرع من قبلنا هل هو شرع لنا ؟ فيه خلاف، وهو لا يقول به .

جواب ثان — وهو أن تكون الآية فيمن تعين عليه التعليم فأبى حتى يأخذ عليه أجرا . فأما إذا لم يتعين فيجوز له أخذ الأجرة بدليل السنة في ذلك . وقد يتعين عليه إلا أنه ليس عنده ما ينفقه

على نفسه ولا على عياله فلا يجب عليه التعليم وله أن يقبل على صنعته وحرفته ؛ ويجب على الإمام أن يعين لإقامة الدين إعانته ، وإلا فعلى المسلمين ؛ لأن الصدّيق رضى الله عنه لمّا ولى الخلافة وعيّن لها لم يكن عنده مايقيم به أهله ، فأخذ ثيابا وخرج إلى السوق ، فقيل له فى ذلك ، فقال : ومن أين أنفق على عيالى ! فردوه وفرضوا له كفايته . وأما الأحاديث فليس شىء منها يقــوم على ساق ، ولا يصح منها شىء عند أهل العلم بالنقل . أما حديث ابن عباس فرواه سعيد بن طريف عن عكرمة عنــه ؛ وسعيد متروك . وأما حديث أبى هريرة فرواه علىّ بن عاصم عن حماد بن سلمة عن أبى جرهم عنه ؛ وأبو جرهم مجهول لا يعرف ، ولم يرو حماد بن سلمة عن أحد يقال له أبو جرهم ، وإنمـا رواه عن أبى المُهَزِّم وهو متروك الحديث أيضا ، وهو حديث لا أصــل له . وأما حديث عبادة بن الصامت فرواه أبو داود من حديث المغيرة بن زياد الموصــلىّ عن عبادة بن نُسَىّ عن الأسود بن ثعلبة عنه ؛ والمغيرة معروف عنــد[1] أهل العلم ولكنه له مناكير ، هذا منها ؛ قاله أبو عمر . ثم قال : وأما حديث القوس فمعروف عنــد أهل العلم ؛ لأنه روى عن عبادة من وجهين ، وروى عن أُبَىّ بن كعب من حديث موسى بن علىّ عن أبيه عن أبىّ ، وهو منقطع ؛ وليس فى الباب حديث يجب العمل به من جهة النقل ؛ وحديث عبادة وأبىّ يحتمل التأويل ؛ لأنه جائز أن يكون علّمه لله ثم أخذ عليه أجرا . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وســلم أنه قال : « خير النــاس وخير من يمشى على جديد الأرض المعلمون كلمـا خلق الدين جددوه أعطوهم ولا تستأجروهم فتحرجوهم فإن المعلم إذا قال للصبىّ قل بسم الله الرحمن الرحيم فقــال الصبىّ بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله براءةً للصبى وبراءةً للمعــلم وبراءةً لأبويه من النار » .

الثالثة — واختلف العلماء فى حكم المصلى بأجرة ؛ فروى أشهب عن مالك أنه سئل عن الصلاة خلف من آستؤجر فى رمضان يقوم للناس ، فقال : أرجو ألا يكون به بأس ؛ وهو أشد كراهة له فى الفريضة . وقال الشافعى وأصحابه وأبو ثور : لا بأس بذلك ولا بالصلاة خلفه . وقال الأوزاعى : لاصلاة له . وكرهه أبو حنيفة وأصحابه ، على ماتقدم . قال آبن عبد البر : وهذه المسئلة معلقة من التى قبلها وأصلهما واحد . قلت : ويأتى لهذا أصل آخر من الكتاب فى براءة إن شاء الله تعالى . وكره

(١) فى نسخة : « معروف بحمل العلم » .

ابن القــاسم أخذ الأجرة على تعليم الشــعر والنحو . وقال ابن حبيب : لا بأس بالإجارة على تعليم الشعر والرسائل وأيام العرب ، ويكره من الشعر ما فيــه الخمر والخنا والهجاء . قال أبو الحسن اللخمي : ويلزم على قوله أن يجيز الإجارة على كتبه ويجيز بيع كتبه . وأما الغناء والنوح فممنوع على كل حال .

الرابعــة ــ روى الدارمي أبو محمد في مسنده أخبرنا يعقوب بن ابراهيم قال حدثنــا محمد بن عمر ابن الكميت قال حدثنا علي بن وهب الهمداني قال أخبرنا الضحاك بن موسى قال : مر سليمان بن عبــد الملك بالمدينة وهو يريد مكة فأقام بها أياما ، فقال : هل بالمدينة أحد أدرك أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا له : أبو حازم؛ فأرسل إليه؛ فلما دخل عليه قال له : يا أبا حازم ما هذا الجفاء ؟ قال أبو حازم : يا امير المؤمنين وأى جفاء رأيت مني ؟ قال : أتاني وجوه أهل المدينة ولم تأتني ، قال : يا أمير المؤمنين أُعيذك بالله أن تقول ما لم يكن ، ما عرفتني قبل هذا اليوم ولا أنا رأيتك ! قال : فالتفت إلى محمد بن شهاب الزهري فقال : أصاب الشيخ وأخطأت . قال سليمان : يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ ! قال : لأنكم أخربتم الآخرة وعمرتم الدنيا فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب ، قال : أصبت يا أبا حازم ، فكيف القدوم غدا على الله تعالى ؟ قال : أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله ، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه . فبكى سليمان وقال : ليت شعري مالنا عند الله؟ قال : اعرض عملك على كتاب الله . قال : وأى مكان أجده ؟ قال : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ . قال سليمان : فأين رحمة الله يا أبا حازم ؟ قال أبو حازم : رحمة الله قريب من المحسنين . قال له سليمان : يا أبا حازم فأي عباد الله أكرم؟ قال : أولوا المروءة والنهى . قال له سليمان : فأي الأعمال أفضــل ؟ قال أبو حازم : أداء الفرائض مع اجتناب المحــارم . قال سليمان : فأى الدعاء أسمع ؟ قال : دعاء المحسن إليه للمحسن . فقال : أى الصدقة أفضل ؟ قال : للسائل البائس ، وجهد المقل ، ليس فيها منّ ولا أذى . قال : فأى القول أعدل ؟ قال : قول الحق عند من تخافه أو ترجوه . قال : فأى المؤمنين أكيس؟ قال : رجل عمــل بطاعة الله ودل النــاس عليها . قال : فأى المؤمنين أحمق؟ قال : رجل انحط في هوى أخيــه وهو ظالم، فباع آخرته بدنيــا غيره . قال له ســليمان : أصبت ، فمــا تقول فيما نحن فيه؟ قال : يا أمير المؤمنين أو تعفيني؟ قال له

سليمان : لا ! ولكن نصيحة تلقيها إلىّ ؛ قال : يا أمير المؤمنين إن آباءك قهروا الناس بالسيف وأخذوا هذا الملك عنوة على غير مشورة من المسلمين ولا رضا لهم، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة، فقد ارتحلوا عنها فلو شعرت ما قالوه وما قيل لهم ! . فقال له رجل من جلسائه : بئس ما قلت يا أبا حازم ! قال أبو حازم : كذبت، إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه ؛ قال له سليمان : فكيف لنا أن نصلح ؟ قال : تدعون الصلف وتمسّكون بالمروءة وتقسمون بالسوية . قال له سليمان : فكيف لنا بالمأخذ به ؟ قال أبو حازم : تأخذه من حلّه وتضعه فى أهله . قال له سليمان : هل لك يا أبا حازم أن تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك ؟ قال : أعوذ بالله ! قال له سليمان : ولم ذاك ؟ قال : أخشى أن أركن إليكم شيئا قليلا فيذيقنى الله ضعف الحياة وضعف الممات . قال له سليمان : ارفع إلينا حوائجك؛ قال : تنجينى من النار وتدخلنى الجنة ؛ قال سليمان : ليس ذاك إلىّ ؛ قال له أبو حازم : فمالى إليك حاجة غيرها . قال : فادع لى ؛ قال أبو حازم : اللهم إن كان سليمان وليك فيسّره لخير الدنيا والآخرة، وإن كان عدوك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى؛ قال له سليمان : قط ! قال أبو حازم : قد أوجزت وأكثرت إن كنت من أهله ، وإن لم تكن من أهله فما ينبغى أن أرمى عن قوس ليس لها وتر . قال له سليمان : أوصنى ؛ قال : سأوصيك وأوجز ، عظّم ربك ونزّهه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك . فلما خرج من عنده بعث إليه بمائة دينار وكتب [إليه][1] أن أنفقها ولك عندى مثلها كثير . قال : فردّها عليه وكتب إليه : يا أمير المؤمنين ، أعيذك بالله أن يكون سؤالك إياى هزلا أو ردّى عليك بذلا[2]، وما أرضاها لك، فكيف [أرضاها][1] لنفسى ! إن موسى بن عمران لما ورد ماء مدين وجد عليه رعاء يسقون ، ووجد من دونهم جاريتين تذودان [فسألهما، فقالتا : لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير][1]؛ فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال : رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير ؛ وذلك أنه كان جائعا خائفا لا يأمن، فسأل ربه ولم يسأل الناس . فلم يفطن الرعاء ، وفطنت الجاريتان . فلما رجعتا إلى أبيهما أخبرتاه بالقصة وبقوله ؛ فقال أبوهما وهو شعيب عليه السلام : هذا رجل جائع، فقال لإحداهما : اذهبى

---

(١) الزيادة عن مسند الدارمى .

(٢) بذلا أى راجيا لمالك وعطائك .

فادعيه . فلما أتتـه عظّمته وغطّت وجهها وقالت : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنـا ؛ فشق على موسى حين ذكرت "أجر ما سقيت لنا" ولم يجد بُدًّا من أن يتبعها لأنه كان بين الجبال جائعا مستوحشا . فلما تبعها هبّت الريح فجعلت تصفق ثيابها على ظهرها فتصف له عجيزتها ـ وكانت ذات عجز ـ وجعل موسى يعرض مرة ويغض أخرى ؛ فلما عيل صبره ناداها : يا أمة الله كوني خلفي ، وأريني السمت بقولك . فلما دخل على شعيب إذ هو بالعشاء مهيأ ؛ فقال له شعيب : اجلس ياشاب فتعشّ ؛ فقال له موسى عليـه السلام : أعوذ بالله ! فقال له شعيب : لِمَ ! أما أنت جائع ؟ قال : بلى ، ولكني أخاف أن يكون هـذا عوضًا لمـا سقيت لهما ، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئا من ديننا بملء الأرض ذهبا ؛ فقال له شـعيب : لا يا شاب ، ولكنها عادتي وعادة آبائي نقري الضـيف ونطعم الطعام ؛ فجلس موسى فأكل . فإن كانت هذه المـائة دينار عوضا لمـا حدثت فالميتـة والدم ولحم الخنزير في حال الاضطرار أحل من هـذه ، وإن كان لحق في بيت المـال فلي فيها نظراء ، فإن ساويت بيننا ، وإلا فليس لي فيها حاجة .

قلت : هكذا يكون الاقتداء بالكتاب والأنبياء . انظروا إلى هذا الإمام الفاضل والحبر العـالم كيف لم يأخذ على عمله عوضا ، ولا على وصيته بدلا ، ولا على نصيحته صَفَدا (١) ، بل بيّن الحق وصدع ، ولم يلحقه في ذلك خوف ولا فزع . قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : « لا يمنعن أحدكم هيبة أحد أن يقول أو يقوم بالحق حيث كان » . وفي التنزيل : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ . قد تقدّم معنى التقوى . وقرئ فاتقوني بالياء ، وقد تقدّم . وقال سهل بن عبد الله : قوله : ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ قال : موضع علمي السابق فيكم : ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ (٢) قال : موضع المكر والاستدراج لقول الله تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ . فما استثنى نبيًا ولا صدِّيقا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ . اللَّبْس : الخلط . لَبَست عليه الأمر أَلْبِسه إذا مزجتَ بيِّنه بمشكله وحقّه بباطله . قال الله تعالى : ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ . وفي الأمر لُبْسة

(١) الصفد (بالتحريك) : العطاء . (٢) العبارة هاهنا غير واضحة . وفي تفسير البحر المحيط لأبي حيان عند قوله تعالى : (وإياي فارهبون) . وقال سهل : «وإياي فارهبون موضع اليقين بمعرفته ، وإياي فاتقون موضع العلم السابق وموضع المكر والاستدراج» .

أى ليس بواضح . ومن هذا المعنى قول علىّ رضى الله عنه للحارث بن حوط . ياحار إنه ملبوس عليك، إنّ الحق لا يُعرَف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله . وقالت الخنسا :

ترى الجليسَ يقول الحقَّ تحسَبه * رُشْداً وهيهات فانظر ما به التبسا

صدِّق مقالته واحذَر عداوته * والبِسْ عليه أمورا مثلَ ما لَبَسا

وقال العجاج :

لما لَبَسْن الحقَّ بالتجنِّى * غَنِينَ واستبدلن زيدًا منى

روى سعيد عن قتادة فى قوله : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ ﴾ ، يقول : لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام ، وقد علمتم أن دين الله الذى لا يقبل غيره ولا يجزى إلا به الإسلام، وأن اليهودية والنصرانية بدعة وليست من الله . والظاهر من قول عنترة :

* وكتيبةٍ لَبَّستها بكتيبة *

أنه من هذا المعنى ، ويحتمل أن يكون من اللباس . وقد قيل هذا فى معنى الآية أى لا تُغَطّوا . ومنه لبس الثوب، يقال : لبست الثوب ألبَسه . ولباس الرجل زوجته، وزوجها لباسها . قال الجَعْدىّ :

إذا ما الضَّجيعُ ثنَى جِيدَها * تَثَنَّتْ عليه فكانت لباسا

وقال الأخطل :

وقد لَبِستُ لهذا الأمر أعْصُرَه * حتى تجلّل رأسى الشيبُ فاشتعلا

واللَّبوس : كل ما يلبس من ثياب ودرع . قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ . ولابست فلانا حتى عرفتُ باطنه . وفى فلان مَلْبَس أى مستمتع . قال :

ألَا إنّ بعد العُدْم للمرء قَنْوةً * وبعد المشيب طولَ عمر وملبسَا

ولِبْس الكعبة والهودج ما عليهما من لباس (بكسر اللام) . قوله : ﴿ بِالْبَاطِلِ ﴾ . الباطل فى كلام العرب خلاف الحق ، ومعناه الزائل . قال لبيد :

* ألَا كلُّ شىء ما خلا الله باطلُ *

وبطل الشيء يبـطل بُطْلا وبُطُولا وبُطْلانا [ذهب ضياعا وخسرا](1)، وأبطله غيره . ويقال : ذهب دمه بطلا أي هدرا، والباطل : الشيطان، والبطل : الشجاع، سمي بذلك لأنه يُبطل شجاعة صاحبه . قال النابغة :

لهم لواءٌ بأيدي ماجدٍ بطـــلٍ * لا يقطع الخرق إلا طرفُه سامي

والمرأة بطلة . وقد بطل الرجل (بالضم) يبطُل بُطُولة وبَطالة أي صار شجاعا . وبَطَل الأجير بالفتح بَطالة أي تعطّل فهو بطّال . واختلف أهـل التأويل في المراد بقوله : ﴿ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ ﴾ . فروى عن ابن عباس وغيره : لا تخلطوا ما عندكم من الحق في الكتاب بالباطل وهو التغيير والتبديل . وقال أبو العالية : قالت اليهود : محمد مبعوث ولكن إلى غيرنا؛ فإقرارهم ببعثه حق، وجحدهم أنه بعث إليهم باطل . وقال ابن زيد : المراد بالحق التوراة، والباطل ما بدلوا فيها من ذكر محمد عليه السلام وغيره . وقال مجاهد : لا تخلطوا اليهودية والنصرانية بالإسلام . وقاله قتادة؛ وقد تقدّم .

قلت : وقول ابن عباس أصوب؛ لأنه عام فيدخل فيه جميع الأقوال . والله المستعان .

قوله تعالى : ﴿ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ ﴾ . يجوز أن يكون معطوفا على تلبسوا فيكون مجزوما، ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أن، التقدير لا يكن منكم لبس الحق وكتمانه أي وأن تكتموه . قال ابن عباس يعني كتمانهم أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم وهم يعرفونه . وقال محمد بن سيرين : نزل عصابة من ولد هارون يثرب لمّا أصاب بني إسرائيل ما أصابهم من ظهور العدوّ عليهم والذلة ، وتلك العصابة هم حملة التوراة يومئذ، فأقاموا بيثرب يرجون أن يخرج محمد صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم وهم مؤمنون مصدّقون بنبوّته ، فمضى أولئك الآباء وهم مؤمنون وخلف الأبناء وأبناء الأبناء فأدركوا محمدا صلى الله عليه وسلم فكفروا به وهم يعرفونه؛ وهو معنى قوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ جملة في موضع الحال أي أن محمدا عليه السلام حق؛ فكفرهم به كان كفر عناد . ولم يشهد تعالى لهم بعلم، وإنما نهاهم عن كتمان ما علموا . ودل هذا على تغليظ الذنب على من واقعه على علم وأنه أعصى من الجاهل . وسيأتي بيان هذا عند قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ ﴾ الآية .

---

(1) الزيادة عن اللسان .

قوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ الآية؛ فيه أربع وثلاثون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أمر معناه الوجوب، ولا خلاف فيه؛ وقد تقدّم القول في معنى إقامة الصلاة واشتقاقها، وفي جملة من أحكامها والحمد لله .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أمر أيضا يقتضي الوجوب . والإيتاء : الإعطاء ، آتيته : أعطيته؛ قال الله تعالى : ﴿ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ . وأتيته — بالقصر من غير مد — جئته؛ فاذا كان المجيء بمعنى الاستقبال مد؛ ومنه الحديث : « ولآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأخبرنه »؛ وسيأتي .

الثالثة — الزكاة مأخوذة من زكا الشيء اذا نما وزاد ؛ يقال : زكا الزرع والمال يزكو اذا كثر وزاد؛ ورجل زكي أي زائد الخير. وسمي الإخراج من المال زكاة وهو نقص منه من حيث ينمو بالبركة أو بالأجر الذي يثاب به المزكي. ويقال: زرع زاكٍ: بين الزكاء؛ وزكأت الناقة بولدها تزكأ به اذا رمت به من بين رجليها؛ وزكا الفرد اذا صار زوجا بزيادة الزائد عليه حتى صار شفعا . قال الشاعر :

كانوا خَسًا أو زَكًا من دون أربعة * لم يَخْلَقوا وجدودُ الناس تَعتلِجُ

أي ترتفع؛ اعتلجت الأرض : طال نباتها؛ فخسا الفرد وزكا الزوج .

وقيل : أصلها الثناء الجميل؛ ومنه زكّى القاضي الشاهد . فكأن من يُخرج الزكاة يحصل لنفسه الثناء الجميل . وقيل : الزكاة مأخوذة من التطهير؛ كما يقال : زكا فلان أي طهر من دنس الجرحة والإغفال؛ فكأن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذي جعل الله فيه للمساكين . ألا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سمى ما يخرج من الزكاة أوساخ الناس، وقد قال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ .

الرابعة — واختلف في المراد بالزكاة هنا ؛ فقيل : المراد بالزكاة المفروضة لمقارنتها بالصلاة؛ وقيل : صدقة الفطر؛ قاله مالك في سماع ابن القاسم .

قلت : فعلى الأول — وهو قول أكثر العلماء — فالزكاة في الكتاب مجملة بيّنها النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فروى الأئمة عن أبي سعيد الخدري أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « ليس في حَبٍّ

ولا تمر صدقة حتى يبلغ خمسة أوسق ولا فيما دون خمس ذود صدقة ولا فيما دون خمس أواق صدقة"، وقال البخاري : « خمس أواق من الوَرِق » . وروى البخاري عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «فيما سقت السماء والعيون أو كان عثريا العشرُ وما سُقي بالنضح نصفُ العشر» . وسيأتي بيان هـذا الباب في الأنعام إن شاء الله تعالى ، ويأتي في براءة زكاة العين والماشية ، وبيان المال الذي لا يؤخذ منه زكاة عند قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ . وأما زكاة الفطر فليس لها في الكتاب نص عليها إلا ما تأوله مالك هنا، وقوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ . والمفسرون يذكرون الكلام عليها في سورة الأعلى ، ورأيت الكلام عليها في هـذه السورة عند كلاما على آي الصيام؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض زكاة الفطر في رمضان، الحديث. وسيأتي، فأضافها الى رمضان .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَٱرْكَعُوا ﴾ . الركوع في اللغة : الإنحناء في الشخص . وكل منحن راكع . قال لبيد :

أُخَبِّر أخبارَ القرون التي مضت * أدبّ كأني كلما قمت راكعُ

قال ابن دريد : الركعة الهوّة في الأرض، لغة يمانية . وقيل : الإنحناء يعم الركوع والسجود، ويستعار أيضا في الانحطاط في المنزلة . قال :

ولا تُعادِ الضعيفَ علّك أن * تركع يومًا والدهر قد رفعهُ

السادسة — واختلف الناس في تخصيص الركوع بالذكر، فقال قوم : جعل الركوع لما كان من أركان الصلاة عبارة عن الصلاة .

قلت : وهذا ليس مختصا بالركوع وحده، فقد جعل الشرع القراءة في الصلاة والسجود عبارة عن الركعة بكمالها، فقال : ﴿ وَقُرْآنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ أي صلاة الفجر، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أدرك سجدة من الصلاة فقد أدرك الصلاة »، وأهل الحجاز يطلقون على الركعة سجدة . وقيل : إنما خص الركوع بالذكر لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع . وقيل : لأنه كان أثقل على القوم في الجاهلية، حتى لقد قال بعض من أسلم للنبي صلى الله عليه وسلم : على ألّا أخِرّ إلّا قائما ؛ فمن تأويله على ألا أركع؛ فلما تمكن الإسلام من قلبه اطمأنت بذلك نفسه وامتثل ما أمر به من الركوع .

السابعة — الركوع الشرعى هــو أن يحنى الرجل صلبه ويمــدّ ظهره وعنقه ويفتح أصابع يديه ويقبض على ركبتيه ثم يطمئن راكعا يقول : سبحان ربى العظيم ثلاثا ، وذلك أدناه . روى مســلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين؛ وكان إذا ركع لم يشخص رأسه ولم يصوّبه ولكن بين ذلك . وروى البخارى عن أبى حميد الساعدى قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وســلم إذا كبّر جعــل يديه حذو منكبيه ، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هصر ظهره ، الحديثَ .

الثامنة — الركوع فرض قرآنا وسنة ، وكذلك السجود؛ لقوله تعالى فى آخر الحج : ﴿ ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا ﴾ . وزادت السنة الطمأنينة فيهما والفصل بينهما . وقد تقدّم القول فى ذلك وبيّنا صــفة الركوع آنفا . وأما السجود فقد جاء مبينا من حديث أبى حميد الساعدى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا سجد مكن جبهته وأنفه من الأرض ونحى يديه عن جنبيه ووضع كفيه حذو منكبيه؛ خرّجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح . وروى مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اعتدلوا فى السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب » . وعن البراء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا سجدت فضع كفيك وارفع مرفقيك » . وعن ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سجد خوّى بيديه — يعنى جنح حتى يرى وضح إبطيه من ورائه — وإذا قعد اطمأن على فخذه اليسرى .

التاسعة — واختلف العلماء فيمن وضع جبهته فى السجود دون أنفه أو أنفه دون جبهته؛ فقال مالك : يسجد على جبهته وأنفه؛ وبه قال الثورى وأحمد ، وهو قول النخعى . قال أحمد : لايجزئه السجود على أحدهما دون الآخر؛ وبه قال أبو حنيفة[1] وابن أبى شيبة . قال إسحاق : إن سجــد على أحدهما دون الآخر فصلاته فاسدة . وقال الأوزاعى وسعيد بن عبد العزيز ، وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وعبد الرحمن بن أبى ليلى كلهم أمر بالسجود على الأنف . وقالت طائفة : يجزئ أن يسجد على جبهته دون أنفه؛ هذا قول عطاء وطاوس وعكرمة وابن سيرين والحسن البصرى؛ وبه قال الشافعى وأبو ثور ويعقوب ومحمد . قال ابن المنذر : وقال قائل : إن وضع جبهته ولم يضع

(١) فى نسخة : « أبو خيثمة » .

أنفه أو وضع أنفه ولم يضع جبهته فقد أساء وصلاته تامة ؛ هـذا قول النعمان . قال ابن المنذر : ولا أعلم أحدا سبقه إلى هذا القول ولا تابعه عليه .

قلت : الصحيح في السجود وضع الجبهة والأنف، لحديث أبي حميد ؛ وقد تقدم . وروى البخاري عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أسجد على سبعة أعظم الجبهة — وأشار بيده على أنفه — واليدين والركبتين وأطراف القدمين ولا نكفت الثياب ولا الشعر » . وهذا كله بيان لمجمل الصلاة ، فتعين القول به . والله أعلم . وروى عن مالك : أنه يجزيه أن يسجد على جبهته دون أنفه ، كقول عطاء والشافعي . والمختار عندنا قوله الأول ولا يجزئ عند مالك إذا لم يسجد على جبهته .

العاشرة — ويكره السجود على كور العمامة ؛ وإن كان طاقة أو طاقتين مثل الثياب التي تستر الركب والقدمين فلا بأس ؛ والأفضل مباشرة الأرض أو ما يسجد عليه . فإن كان هناك ما يؤذيه أزاله قبل دخوله في الصلاة ، فان لم يفعل فليمسحه مسحة واحدة . روى عن مسلم عن معيقيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في الرجل يسوّي التراب حيث يسجد قال : « إن كنت فاعلا فواحدة » . وروى عن أنس بن مالك قال : كنا نصلّي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شدّة الحر ؛ فإذا لم يستطع أحدنا أن يمكن جبهته من الأرض بسط ثوبه سجد عليه .

الحادية عشرة — لما قال تعالى : ﴿ ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا ﴾ قال بعض علمائنا وغيرهم : يكفي منهما ما يسمى ركوعا وسجودا ، وكذلك من القيام ؛ ولم يشترطوا الطمأنينة في ذلك ؛ فأخذوا بأقل الاسم في ذلك ؛ وكأنهم لم يسمعوا الأحاديث الثابتة في إلغاء الصلاة . قال ابن عبد البر : ولا يجزى ركوع ولا سجود ولا وقوف بعد الركوع ولا جلوس بين السجدتين حتى يعتدل راكعا وواقفا وساجدا وجالسا ؛ وهو الصحيح في الأثر ، وعليه جمهور العلماء وأهل النظر ، وهي رواية ابن وهب وأبي مصعب عن مالك . وقال القاضي أبو بكر بن العربي : وقد تكاثرت الرواية عن ابن القاسم وغيره بوجوب الفصل وسقوط الطمأنينة ؛ وهو وهم عظيم ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم فعلها وأمر بها وعلّمها .

فإن كان لابن القاسم عذر أن كان لم يطّلع عليها ، فما لكم أنتم وقد انتهى العلم إليكم وقامت الحجة به عليكم ! روى النسائى والدارقطنى وعلى بن عبد العزيز عن رفاعة بن رافع قال : كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فدخل المسجد فصلّى ، فلما قضى الصلاة جاء فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى القوم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ارجع فصلّ فإنك لم تصلّ » وجعل الرجل يصلى وجعلنا نرمق صلاته لا ندرى ما يعيب منها ؛ فلما جاء فسلّم على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى القوم ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « وعليك ارجع فصلّ فإنك لم تصلّ » قال همام : فلا ندرى أمره بذلك مرتين أو ثلاثا ؛ فقال له الرجل : ما ألوت ، فلا أدرى ما عبت علىّ من صلاتى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه لا تتم صلاة أحدكم حتى يُسبغ الوضوء كما أمره الله فيغسلَ وجهه ويديه الى المرفقين ويمسحَ برأسه ورجليه الى الكعبين ثم يكبر الله تعالى ويُثنى عليه ثم يقرأ أمّ القرآن وما أذن له فيه وتيسّر ثم يكبر فيركع فيضع كفيه على ركبتيه حتى تطمئن مفاصله ويسترخى ثم يقول سمع الله لمن حمده ويستوى قائما حتى يقيم صلبه ويأخذ كل عظم مأخذه ثم يكبر فيسجد فيمكن وجهه — قال همام : وربما قال : — جبهته من الأرض حتى تطمئن مفاصله ويسترخى ثم يكبر فيستوى قاعدا على مقعده ويقيم صلبه — فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ ، ثم قال : — لا تتم صلاة أحدكم حتى يفعل ذلك » . ومثله حديث أبى هريرة خرّجه مسلم ، وقد تقدّم .

قلت : فهذا بيان الصلاة المجملة فى الكتاب بتعليم النبي عليه السلام وتبليغه إياها جميع الأنام ، فمن لم يقف عند هذا البيان وأخل بما فرض عليه الرحمن ، ولم يمتثل ما بلغه عن نبيه عليه السلام كان من جملة من دخل فى قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾ ، على ما يأتى بيانه هنالك إن شاء الله تعالى . روى البخارى عن زيد بن وهب قال : رأى حذيفة رجلا لا يتم الركوع ولا السجود ، فقال : ما صلّيت ولو متّ لمتّ على غير الفطرة التى فطر الله عليها محمدا صلى الله عليه وسلم .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ . مع تقتضى المعية والجمعية ؛ ولهذا قال جماعة من أهل التأويل بالقرآن : إن الأمر بالصلاة أوّلا لم يقتض شهود الجماعة ، فأمرهم بقوله « مع شهود

الجماعة . وقد اختلف العلماء في شهود الجماعة على قولين؛ فالذي عليه الجمهور أن ذلك من السنن المؤكدة، ويجب على من أدمن التخلف عنها من غير عذر العقوبة . وقد أوجبها بعض أهل العلم فرضا على الكفاية . قال ابن عبد البر : هذا قول صحيح؛ لإجماعهم على أنه لا يجوز أن يُجتَمع على تعطيل المساجد كلها من الجماعات . فاذا قامت الجماعة في المسجد فصلاة المنفرد في بيته جائزة؛ لقوله عليه السلام : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذّ بسبع وعشرين درجة » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر . وروى عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمسة وعشرين جزءا » . وقال داود : الصلاة في الجماعة فرض على كل أحد في خاصته كالجمعة، واحتج بقوله عليه السلام : « لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد» خرجه أبو داود وصححه أبو محمد عبد الحق؛ وهو قول عطاء بن أبي رباح وأحمد بن حنبل وأبي ثور وغيرهم . وقال الشافعي : لا أرخّص لمن قدر على الجماعة في ترك إتيانها إلا من عذر؛ حكاه ابن المنذر . وروى مسلم عن أبي هريرة قال : أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم رجل أعمى فقال : يارسول الله، إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرخص له فيصليَ في بيته؛ فرخّص له؛ فلما ولّى دعاه فقال : « [هل](1) تسمع النداء بالصلاة » قال نعم؛ قال : « فأجب » ، وقال أبو داود في هذا الحديث : « لا أجد لك رخصة » . خرّجه من حديث ابن أم مكتوم؛ وذكر أنه هو كان السائل . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سمع النداء فلم يمنعه من إتيانه عذر » . قالوا : وما العذر؟ قال : « خوف أو مرض ـــ لم تقبل منه الصلاة التي صلى» . قال أبو محمد عبد الحق : هذا يرويه مغراء العبدي . والصحيح أنه موقوف على ابن عباس : «من سمع النداء فلم يأت فلا صلاة له» . على أن قاسم بن أصبغ ذكره في كتابه فقال : حدّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي قال حدّثنا سليمان بن حرب حدّثنا شعبة عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من سمع النداء فلم يجب فلا صلاة له إلا من عذر » وحسبك بهذا الإسناد صحة . ومغراء العبدي روى عنه أبو إسحاق . وقال ابن مسعود : ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق

---

(1) الزيادة من صحيح مسلم .

معلوم النفاق . وقال عليه السلام : « بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح لا يستطيعونهما » .
قال ابن المنذر : ولقد روينا عن غير واحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا : « من سمع النداء فلم يجب من غير عذر فلا صلاة له » ؛ منهم ابن مسعود وأبو موسى الأشعري . وروى أبو داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد هممت أن آمر فتيتي فيجمعوا حزما من حطب ثم آتى قوما يصلّون في بيوتهم ليست لهم علة فأحرقها عليهم » . هذا ما احتج به من أوجب الصلاة في الجماعة رضًا ، وهي ظاهرة في الوجوب . وحملها الجمهور على تأكيد أمر شهود الصلوات في الجماعة ، بدليل حديث ابن عمر وأبي هريرة ؛ وحملوا قول الصحابة وما جاء في الحديث من أنه لا صلاة له على الكمال والفضل ؛ وكذلك قوله عليه السلام لابن أم مكتوم : « فأجب » على الندب . وقوله عليه السلام : « لقد هممت » لا يدل على الوجوب الحتم ؛ لأنه همّ ولم يفعل ؛ وإنما مخرجه مخرج التهديد والوعيد للمنافقين الذين كانوا يتخلّفون عن الجماعة والجمعة .
يبين هذا المعنى ما رواه مسلم عن عبد الله قال : «من سرّه أن يلقى الله غدًا مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن ، فإن الله شرع لنبيكم صلى الله عليه وسلم سنن الهدى ، وإنهن من سنن الهدى . ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم . ولو تركتم سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم لضللتم . وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ثم يعمد الى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ويرفعه بها درجة ويحط عنه بها سيئة . ولقد رأيتنا وما يتخلّف عنها إلا منافق معلوم النفاق . ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف» . فبيّن رضي الله عنه في حديثه أن الاجتماع سنة من سنن الهدى وتركه ضلال ؛ ولهذا قال القاضي أبو الفضل عياض : أُختلف في التمالؤ على ترك ظاهر السنن : هل يقاتل عليها أو لا ؛ والصحيح قتالهم ؛ لأن في التمالؤ عليها إماتتها .

قلت : فعلى هذا إذا أقيمت السنة وظهرت ، جازت صلاة المنفرد وصحّت . روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه بضعا وعشرين درجة وذلك أن أحدهم اذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا يَنْهَزُه إلا الصلاةُ لا يريد إلا الصلاةَ فلم يخطُ خطوةً إلا رُفع له بها درجةٌ وحُطّ عنه بها

خطيئة حتى يدخل المسجد فاذا دخل المسجد كان فى الصلاة ما كانت الصلاةُ هى تحبِسه والملائكة يصلُّون على أحدكم ما دام فى مجلسه الذى صلى فيه يقولون اللهم ارحمه اللهم اغفر له اللهم تب عليه ما لم يؤذِ فيه ما لم يُحْدِث فيه » . قيل لأبى هريرة : مايحدث؟ قال : يفسو أو يضرط .

الثالثة عشرة — واختلف العلماء فى هذا الفضل المضاف للجماعة، هل لأجل الجماعة فقط حيث كانت، أو إنما يكون ذلك الفضل للجماعة التى تكون فى المسجد، لما يلازم ذلك من أفعال تختص بالمساجد كما جاء فى الحديث ؟ قولان؛ والأول أظهر لأن الجماعة هو الوصف الذى علّق عليه الحكم. والله أعلم . وما كان من إكثار الخطا إلى المساجد وقصد الإتيان اليها والمكث فيها فذلك زيادة ثواب خارج عن فضل الجماعة . والله أعلم .

الرابعة عشرة — واختلفوا أيضا هل تفضل جماعة جماعة بالكثرة وفضيلة الإمام؟ فقال مالك، لا ، وقال ابن حبيب نعم ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل وما كثر فهو أحبّ إلى الله » . رواه أبىّ بن كعب أخرجه أبو داود، وفى إسناده لين .

الخامسة عشرة — واختلفوا أيضا فيمن صلى فى جماعة هل يعيد صلاته تلك فى جماعة أخرى؟ فقال مالك وأبو حنيفة والشافعى وأصحابهم : إنما يعيد الصلاة فى جماعة مع الإمام من صلّى وحده فى بيته وأهله أو فى غير بيته، وأمّا من صلّى فى جماعة وإن قلّت فإنه لا يعيد فى جماعة أكثر منها ولا أقلّ . وقال أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهَوَيْهِ وداود بن علىّ: جائز لمن صلّى فى جماعة ووجد جماعة أخرى فى تلك الصلاة أن يعيدها معهم إن شاء، لأنها نافلة وسنة . وروى ذلك عن حذيفة بن اليمان وأبى موسى الأشعرىّ وأنس بن مالك وصلة بن زافر والشعبى والنخعى؛ وبه قال حماد بن زيد وسليمان بن حرب .

احتج مالك بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تُصَلَّى صلاةٌ فى يوم مرتين» ومنهم من يقول : لا تصلوا . رواه سليمان بن يسار عن ابن عمر . واتفق أحمد وإسحاق على أن معنى هذا الحديث أن يصلى الإنسان الفريضة ، ثم يقوم فيصليها ثانية ينوى بها الفرض مرة أخرى؛ فأمّا إذا صلّاها مع

الإمام على أنها سنة وتطوع فليس بإعادة الصلاة ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للذين أمرهم بإعادة الصلاة فى جماعة : "إنها لكم نافلة". من حديث أبى ذر وغيره .

السادسة عشرة — روى مسلم عن أبى مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «يؤمّ القومَ أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا فى القراءة سواءً فأعلمُهم بالسنة فإن كانوا فى السنّة سواءً فأقدمهم هجرةً فإن كانوا فى الهجرة سواءً فأقدمُهم سِلْمـا ولا يؤمّنّ الرجلُ الرجلَ فى سلطانه ولا يقعُد فى بيتـه على تَكْرِمَته إلا بإذنه » وفى رواية "سِنًّا" مكان " سلما " . وأخرجه أبو داود قال : قال شعبة : فقلت لإسماعيل ما تكرمته ؟ قال : فراشـه . وأخرجه الترمذى وقال : حديث أبى مسـعود حديث حسن صحيح والعمل عليه عند أهل العلم .

قالوا : أحق الناس بالإمامة أقرؤهم لكتاب الله وأعلمهم بالسنة. وقالوا : صاحب المنزل أحق بالإمامة. وقال بعضهم : إذا أذن صاحبُ المنزل لغيره فلا بأس أن يصلى به ؛ وكرهه بعضهم وقالوا : السنة أن يصلّى صاحبُ البيت . قال ابن المنذر : روينا عن الأشعث بن قيس أنه قدّم غلاما وقال : إنما أُقدّم القرآن . وممن قال : يؤمّ القوم أقرؤهم ابن سيرين والثورىّ وإسحاق وأصحاب الرأى . قال ابن المنذر : بهذا نقول لأنه موافق للسنة . وقال مالك : يتقدّم القوم أعلمهم إذا كانت حاله حسنة ؛ وإن للسن حقّا . وقال الأوزاعىّ : يؤمّهم أفقههم ؛ وكذلك قال الشافعى وأبو ثور إذا كان يقـرأ القرآن ؛ وذلك لأن الفقيه أعرف بما ينوبه من الحوادث فى الصلاة، وتأولوا الحـديث بأن الأقرأ من الصحابة كان الأفقه ، لأنهم كانوا يتفقهون فى القرآن ، وقـد كان من عرفهم الغالب تسميتهم الفقهاء بالقُرّاء ؛ واستدلوا بتقديم النبىّ صلى الله عليـه وسلم فى مرضه الذى مات فيـه أبا بكر لفضله وعلمـه . وقال إسحاق : إنمـا قدّمه النبىّ صلى الله عليه وسـلم ليدل على أنه الخليفة بعـده . ذكره أبو عمر فى التمهيد . وروى أبو بكر البزّار بإسناد حسن عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا سافرتم فَلْيَؤُمَّكُم أقرؤكم وإن كان أصغركم وإذا أمّكم فهو أميركم" . قال : لا نعلمه يروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم إلا من رواية أبى هريرة بهذا الإسناد .

قلت : إمامة الصغير جائزة إذا كان قارئا . ثبت فى صحيح البخارى عن عمرو بن سَلِمة قال : كنا بماء ممرّ الناس وكان يمرّ بنا الركبان فنسألهم ما للناس ؟ ما هـذا الرجل ؟ فيقولون : يزعم أن الله

أرسله ، أوحى إليه كذا ! أوحى إليه كذا ! فكنت أحفظ ذلك الكلام فكأنما يقرّ في صدري ؛ وكانت العرب تلوّم بإسلامها فيقولون : اتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبيّ صادق ؛ فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم ، وبدر أبي قومي بإسلامهم ، فلما قدم قال : جئتكم والله من عند نبي الله حقا ، قال : صلوا صلاة كذا في حين كذا ، وصلاة كذا في حين كذا ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآنا ، فنظروا فلم يكن أحد أكثر مني قرآنا لما كنت أتلقى من الركبان فقدموني بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع سنين ، وكانت عليّ بردة اذا سجدت تقلصت عني ، فقالت امرأة من الحيّ : ألا تغطون عنا آست قارئكم[(١)] ! فاشتروا فقطعوا لي قميصا ، فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص . وممن أجاز إمامة الصبي غير البالغ الحسن البصري وإسحاق بن راهويه ، واختاره ابن المنذر اذا عقل الصلاة وقام بها لدخوله في جملة قوله صلى الله عليه وسلم : « يؤم القوم أقرؤهم » ولم يستثن ، ولحديث عمرو بن سلمة . وقال الشافعي في أحد قوليه : يؤم في سائر الصلوات ولا يؤم في يوم الجمعة ؛ وقد كان قبل يقول : ومن أجزأت إمامته في المكتوبة أجزأت إمامته في الأعياد ، غير أني أكره فيها إمامة غير الوالي . وقال الأوزاعيّ : لا يؤم الغلام في الصلاة المكتوبة حتى يحتلم ، إلا أن يكون قوم ليس معهم من القرآن شيء فإنه يؤمهم الغلام المراهق . وقال الزهري : إن اضطروا إليه أمهم . ومنع ذلك جملة مالك والثوريّ وأصحاب الرأي .

السابعة عشرة — الائتمام بكل إمام بالغ مسلم حرّ على استقامة جائز من غير خلاف ، اذا كان يعلم حدود الصلاة ولم يكن يلحن في أم القرآن لحنًا يخلّ بالمعنى : مثل أن يكسر الكاف من ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ويضم التاء في ﴿ أَنْعَمْتَ ﴾ . ومنهم من راعى تفريق الطاء من الضاد ، وإن لم يفرق بينهما لا تصح إمامته لأن معناهما يختلف . ومنهم من رخّص في ذلك كله اذا كان جاهلًا بالقراءة وأمّ مثله . ولا يجوز الائتمام بامرأة ولا خنثى مشكل ولا كافر ولا مجنون ولا أميّ ، ولا يكون واحد من هؤلاء إمامًا بحال من الأحوال عند أكثر العلماء ، على ما يأتي ذكره ، إلا الأميّ لمثله . قال علماؤنا : لا تصح إمامة الأمي الذي لا يحسن القراءة مع حضور القارئ له ولا لغيره ؛ وكذلك قال الشافعي .

---

(١) في الأصول : « ألا تغطوا ... » بحذف النون ، ولا مقتضى له . وفي مسند الامام أحمد بن حنبل (ج ٥ ص ٧١) طبع مصر ، فقالت امرأة : « غطوا آست قارئكم » .

فإن أم أميا مثله صحت صلاتهم عندنا وعند الشافعي. وقال أبو حنيفة : اذا صلى الأمىّ بقوم يقرءون وبقوم أميين فصلاتهم كلهم فاسدة . وخالفه أبو يوسف فقال : صلاة الإمام ومن لا يقرأ تامة . وقالت فرقة : صلاتهم كلهم جائزة لأن كلا مؤدى فرضه وذلك مثل المتيمم يصلى بالمتطهرين بالماء، والمصلى قاعدا يصلى بقوم قيام صلاتهم مجزئة فى قول من خالفنا لأن كلا مؤدى فرض نفسه .

قلت : وقد يحتج لهذا القول بقوله عليه السلام : « ألا ينظر المصلى [إذا صلى][1] كيف يصلى فإنما يصلى لنفسه » أخرجه مسلم . وإن صلاة المأموم ليست مرتبطة بصلاة الإمام والله أعلم . وكان عطاء بن أبى رباح يقول : إذا كانت امرأته تقرأ ، كبر هو وتقرأ هى فإذا فرغت من القراءة كبر وركع وسجد وهى خلفه تصلى . وروى هذا المعنى عن قتادة .

الثامنة عشرة — ولا بأس بإمامة الأعمى والأعرج والأشل والأقطع والخصىّ والعبد إذا كان كل واحد منهم عالما بالصلاة . وقال ابن وهب : لا أرى أن يؤم الأقطع والأشل لأنه منتقص عن درجة الكمال، وكرهت إمامته لأجل النقص . وخالفه جمهور أصحابه وهو الصحيح، لأنه عضو لا يمنع فقده فرضا من فروض الصلاة فجازت الإمامة الراتبة مع فقده كالعين ؛ وقد روى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم استخلف ابن أم مكتوم يؤم الناس وهو أعمى وكذا الأعرج والأقطع والأشل والخصىّ قياسا ونظرا والله أعلم ؛ وقد روى عن أنس بن مالك أنه قال فى الأعمى : وما حاجتهم إليه ! وكان ابن عباس وعتبان بن مالك يؤمان وكلاهما أعمى وعليه عامة العلماء .

التاسعة عشرة — واختلفوا فى إمامة ولد الزنا، فقال مالك : أكره أن يكون إماما راتبا . وكره ذلك عمر بن عبد العزيز؛ وكان عطاء بن أبى رباح يقول : له أن يؤم إذا كان مرضيا ، وهو قول الحسن البصرى والزهرى والنخعىّ وسفيان الثورى والأوزاعى وأحمد وإسحاق . وتجزئ الصلاة خلفه عند أصحاب الرأى، وغيره أحب إليهم . وقال الشافعى : أكره أن ينصب إماما راتبا من لا يعرف أبوه، ومن صلى خلفه أجزأه . وقال عيسى بن دينار : لا أقول بقول مالك فى إمامة ولد الزنا وليس عليه من ذنب أبويه شىء ونحوه قال ابن عبد الحكم إذا كان فى نفسه أهلا للإمامة . قال ابن المنذر : يؤم لدخوله فى جملة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يؤم القوم أقرؤهم» وقال

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

أبو عمر : ليس في شيء من الآثار الواردة في شرط الإمامة ما يدل على مراعاة نسب، وإنما فيها الدلالة على الفقه والقراءة والصلاح في الدين .

الموفية عشرين — وأما العبد، فروى البخاري عن ابن عمر قال: لما قدم المهاجرون الأولون العَصَبَة — موضع بقباء — قبل مقدم النبيّ صلى الله عليه وسلم ، كان يؤمهم سالم مولى أبي حذيفة وكان أكثرهم قرآنا ؛ وعنه قال : كان سالم مولى أبي حذيفة يؤم المهاجرين الأولين وأصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم في مسجد قباء ، فيهم أبو بكر وعمر وزيد وعامر بن ربيعة؛ وكانت عائشة يؤمها عبدها ذكوان من المصحف . قال ابن المنذر : وأمّ أبو سعيد مولى أبي أسيد — وهو عبد — نفرا من أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم، منهم حذيفة وأبو مسعود .

ورخّص في إمامة العبد ، النخعيّ والشعبيّ والحسن البصريّ والحكم والثوري والشافعي وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي؛ وكره ذلك أبو مجلز . وقال مالك : لا يؤمهم إلا أن يكون العبد قارئا ومن معه من الأحرار لا يقرءون إلا أن يكون في عيد أو جمعة فإن العبد لا يؤمهم فيها ؛ ويجزئ عند الأوزاعي إن صلوا وراءه . قال ابن المنذر : العبد داخل في جملة قول النبي صلى الله عليه وسلم : « يؤم القوم أقرؤهم » .

الحادية والعشرون — وأما المرأة فروى البخاريّ عن أبي بكرة قال : لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال : "لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة" . وذكر أبو داود عن عبد الرحمن بن خلاد عن أم ورقة بنت عبد الله قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها في بيتها ، قال : وجعل لها مؤذنا يؤذن لها وأمرها أن تؤم أهل دارها ؛ قال عبد الرحمن : فأنا رأيت مؤذنها شيخا كبيرا . قال ابن المنذر : والشافعي يوجب الإعادة على من صلى من الرجال خلف المرأة ؛ وقال أبو ثور : لا إعادة عليهم . وهذا قياس قول المزني .

قلت : وقال علماؤنا : لا تصح إمامتها للرجال ولا للنساء . وروى ابن أيمن(١) جواز إمامتها للنساء.

وأما الخنثى المشكل ، فقال الشافعي : لا يؤم الرجال ويؤم النساء . وقال مالك : لا يكون إماما بحال؛ وهو قول أكثر الفقهاء .

(١) في نسخة « ابن أبي أيمن » .

الثانية والعشرون — الكافر المخالف للشرع كاليهودى والنصرانى يؤم المسـلمين وهم لا يعلمون بكفره ؛ وكان الشافعى وأحمـد يقولان . لا يجزئهم ويعيدون . وقاله مالك وأصحابه لأنه ليس من أهـل القربة . وقال الأوزاعى : يعاقب . وقال أبو ثور والمزنى : لا إعادة على من صلى خلفـه ولا يكون بصلاته مسلما عند الشافعى وأبى ثور . وقال أحمد : يجبر على الإسلام .

الثالثة والعشرون — وأما أهل البدع من أهل الأهواء كالمعتزلة والجهمية وغيرهما فذكر البخارى عن الحسن : صلّ وعليه بدعته . وقال أحمد : لا يصلى خلف أحد من أهل الأهواء إذا كان داعية إلى هواه . وقال مالك : ويصلى خلف أئمة الجور، ولا يصلى خلف أهل البدع من القدرية وغيرهم . قال ابن المنذر : كل من أخرجته بدعته إلى الكفر لم تجز الصلاة خلفه ، ومن لم يكن كذلك فالصلاة خلفه جائزة ؛ ولا يجوز تقديم من هذه صفته .

الرابعة والعشرون — وأما الفاسق بجوارحه كالزانى وشارب الخمر ونحو ذلك فاختلف المذهب فيـه ؛ فقال ابن حبيب : من صلى وراء من شرب الخمـر فإنه يعيد أبدا إلا أن يكون الوالى الذى تؤدى إليه الطاعة، فلا إعادة على من صلى خلفـه إلا أن يكون حينئذ سكران . قاله من لقيت من أصحاب مالك . وروى من حديث جابر بن عبـد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال على المنبر : «لا تؤمّنّ امرأة رجلا ولا يؤمّنّ أعرابى مهاجرا ولا يؤمّنّ فاجر برّا إلا أن يكون ذا سلطان» . قال أبو محمـد عبد الحق : هـذا يرويه علىّ بن زيد بن جدعان عن سـعيد بن المسيب ، والأكثر يضعّف على بن زيد . وروى الدار قطنى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن سرّكم أن تزكو صلاتكم فقدموا خياركم » . فى إسـناده أبو الوليد خالد بن اسمـاعيل المخزومى وهو ضعيف قاله الدارقطنى ؛ وقال فيه أبو أحمـد بن عدىّ : كان يضع الحـديث على ثقات المسلمين ؛ وحديثه هذا يرويه عن ابن جريج عن عطاء عن أبى هريرة . وذكر الدار قطنى عن سلام ابن سليمان عن عمر عن محمد بن واسع عن سعيد بن جبير عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجعلوا أئمتكم خياركم فإنهم وفد فيما بينكم وبين الله » . قال الدار قطنى : عمر هذا هو عندى عمر بن يزيد قاضى المدائن، وسلام بن سليمان أيضا مدائنى ليس بالقوى قاله عبد الحق .

الخامسة والعشرون — روى الأئمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما جعل الإمام ليؤتم به فلا تختلفوا عليه فاذا كبر فكبروا واذا ركع فاركعوا واذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا اللهم ربنا لك الحمد واذا سجد فاسجدوا واذا صلى جالسا فصلوا جلوسا أجمعون » . وقد اختلف العلماء فيمن ركع أو خفض قبل الإمام عامدا على قولين ، أحدهما : أن صلاته فاسدة إن فعل ذلك فيها كلها أو فى أكثرها ؛ وهو قول أهل الظاهر . وروى عن ابن عمر ذكر سنيد قال حدثنا ابن علية عن أيوب عن أبى قلابة عن أبى الورد الأنصارى قال : صليت الى جنب ابن عمر فجعلت أرفع قبل الإمام وأضع قبله ، فلما سلم الامام أخذ ابن عمر بيدى فلوانى وجذبنى ، فقلت : مالك ! قال : من أنت ؟ قلت : فلان ابن فلان ؛ قال : أنت من أهل بيت صدق ! فما يمنعك أن تصلى ؟ قلت : أو ما رأيتنى الى جنبك ! قال : قد رأيتك ترفع قبل الإمام وتضع قبله وإنه لا صلاة لمن خالف الإمام . وقال الحسن بن حيّ فيمن ركع أو سجد قبل الإمام ثم رفع من ركوعه أو سجوده قبل أن يركع الامام أو يسجد : لم يعتد بذلك ولم يجزه . وقال أكثر الفقهاء : من فعل ذلك فقد أساء ولم تفسد صلاته لأن الأصل فى صلاة الجماعة والائتمام فيها بالأئمة ، سنة حسنة ، فمن خالفها بعد أن أدى فرض صلاته بطهارتها وركوعها وسجودها وفرائضها فليس عليه إعادتها وان أسقط بعض سننها لأنه لوشاء أن ينفرد فصلى قبل إمامه تلك الصلاة أجزأت عنه ، و بئس ما فعل فى تركه الجماعة .

قالوا : ومن دخل فى صلاة الامام فركع بركوعه وسجد بسجوده ولم يكن فى ركعة وإمامه فى أخرى فقد اقتدى وان كان يرفع قبله ويخفض قبله لأنه بركوعه يركع و بسجوده يسجد ويرفع وهو فى ذلك تبع له إلا أنه مسئ فى فعله ذلك لخلافه سنة المأموم المجتمع عليها .

قلت : ما حكاه ابن عبد البر عن الجمهور يجيء على أن صلاة المأموم عندهم غير مرتبطة بصلاة الإمام لأن الإتباع الحسى والشرعى مفقود ، وليس الأمر هكذا عند أكثرهم ، والصحيح فى الأثر والنظر القول الأول ؛ فان الإمام إنما جعل ليؤتم به و يقتدى به — بأفعاله — ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ أى يأتمون بك على ما يأتى بيانه ؛ هذا حقيقة الإمام لغة وشرعا ، فمن خالف إمامه لم يتبعه ، ثم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بين فقال : « إذا كبر فكبروا » الحديث ، فأتى بالفاء التى توجب التعقيب وهو المبين عن الله مراده ، ثم أوعد من رفع أو ركع قبل وعيدا

شديدا فقال : «أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحوّل الله رأسه رأس حمار أو صورته صورة حمار» . أخرجه الموطأ والبخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم . وقال أبو هريرة : إنما ناصيته بيد شيطان . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو ردّ» يعنى مردودا . فمن تعمد خلاف إمامه عالما بأنه مأمور باتباعه منهى عن مخالفته فقد استخف بصلاته وخالف أمر ربه ، فواجب أن لا تجزى عنه صلاته تلك والله أعلم .

السادسة والعشرون — فان رفع رأسه ساهيا قبل الإمام فقال مالك رحمه الله : السنة فيمن سهى ففعل ذلك فى ركوع أو فى سجود أن يرجع راكعا أو ساجدا وينتظر الإمام ، وذلك خطأ ممن فعله لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما جعل الإمام ليؤتم به فلا تختلفوا عليه » . قال ابن عبد البر : ظاهر قول مالك هذا لا يوجب الإعادة على من فعله عامدا لقوله : وذلك خطأ ممن فعله . لأن الساهى الإثم عنه موضوع .

السابعة والعشرون — وهذا الخلاف إنما هو فيما عدا تكبيرة الإحرام والسلام ، أما السلام فقد تقدّم القول فيه ؛ وأما تكبيرة الإحرام فالجمهور على أن تكبير المأموم لا يكون الا بعد تكبير الإمام ، الا ما روى عن الشافعى فى أحد قوليه أنه إن كبر قبل إمامه تكبيرة الإحرام أجزأت عنه لحديث أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء الى الصلاة فلما كبر انصرف وأومأ اليهم ، أى كما أنتم ؛ ثم خرج ثم جاء ورأسه تقطر فصلى بهم ؛ فلما انصرف قال : « إنى كنت جنبا فنسيت أن أغتسل » . ومن حديث أنس فكبر وكبرنا معه ؛ وسيأتى بيان هذا عند قوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنُبًا ﴾ فى النساء ان شاء الله تعالى .

الثامنة والعشرون — روى مسلم عن أبى مسعود قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح مناكبنا فى الصلاة ويقول : « استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ليلينى منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » ؛ قال ابن مسعود : فأنتم اليوم أشد اختلافا . زاد من حديث عبد الله : «وإياكم وهيشات الأسواق» . قوله : «استووا» أمر بتسوية الصفوف وخاصة الصف الأول وهو الذى يلى الامام على ما يأتى بيانه فى سورة الحجر ان شاء الله تعالى ، وهناك يأتى الكلام على معنى هذا الحديث بحول الله تعالى .

التاسعة والعشرون — واختلف العلماء في كيفية الجلوس في الصلاة لاختلاف الآثار في ذلك ؛ فقال مالك وأصحابه : يفضي المصلي بإليته إلى الأرض وينصب رجله اليمنى ويثني رجله اليسرى ؛ لما رواه في موطأه عن يحيى بن سعيد أن القاسم بن محمد أراهم الجلوس في التشهد فنصب رجله اليمنى وثنى رجله اليسرى وجلس على وركه الأيسر ولم يجلس على قدمه ، ثم قال : أراني هذا عبد الله ابن عمر وحدثني أن أباه كان يفعل ذلك .

قلت : وهذا المعنى قد جاء في صحيح مسلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين ، وكان إذا ركع لم يشخص رأسه ولم يصوبه ولكن بين ذلك ، وكان إذا رفع رأسه من الركوع لم يسجد حتى يستوي قائما ، وكان إذا رفع رأسه من السجدة لم يسجد حتى يستوي جالسا ، وكان يقول في كل ركعتين التحية وكان يفرش رجله اليسرى وينصب رجله اليمنى ، وكان ينهى عن عقبة الشيطان ، وينهى أن يفترش الرجل ذراعيه افتراش السبع ، وكان يختم الصلاة بالتسليم .

قلت : ولهذا الحديث — والله أعلم — قال ابن عمر : إنما سنة الصلاة أن تنصب رجلك اليمنى وتثني اليسرى . وقال الثوري وأبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن حيّ : ينصب اليمنى ويقعد على اليسرى لحديث وائل بن حجر ، وكذلك قال الشافعيّ وأحمد وإسحاق في الجلسة الوسطى . وقالوا في الآخرة من الظهر أو العصر أو المغرب أو العشاء كقول مالك لحديث أبي حميد الساعدي ، رواه البخاري قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم إذا كبر جعل يديه حذو منكبيه ، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هصر ظهره ، فإذا رفع استوى حتى يعود كل فقار مكانه ، فإذا سجد وضع يديه غير مفترش ولا قابضهما واستقبل بأطراف أصابع رجليه القبلة ، وإذا جلس في الركعتين جلس على رجله اليسرى ونصب الأخرى ، وإذا جلس في الركعة الآخرة قدم رجله اليسرى ونصب اليمنى وقعد على مقعدته . وقال الطبري : إن فعل هذا فحسن ، كل ذلك قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم .

الموفية الثلاثين — مالك عن مسلم بن أبي مريم عن علىّ بن عبد الرحمن المعاوي أنه قال : رآني عبد الله بن عمر وأنا أعبث بالحصباء في الصلاة ، فلما انصرف نهاني فقال : اصنع كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ، قلت : وكيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع؟

قال : كان إذا جلس فى الصلاة وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابعه كلها وأشار بأصبعه التى تلى الإبهام ، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى ، وقال : هكذا كان يفعل . قال ابن عبد البر: وما وصفه ابن عمر من وضع كفه اليمنى على فخـذه اليمنى وقبض أصابع يده تلك كلها إلا السبابة منها فإنه يشير بها ، ووضع كفه اليسرى على فخـذه اليسرى مفتوحة مفروجة الأصابع ، كل ذلك سـنة فى الجلوس فى الصـلاة مجمع عليـه ، لا خلاف أعلمه بين العلمـاء فيها وحسبك بهـذا ، إلا أنهـم اختلفوا فى تحريك أصبعه السبابة ، فمنهم من رأى تحريكها ، ومنهم من لم يره ؛ وكل ذلك مروى فى الآثار الصحاح المسندة عن النبى صـلى الله عليه وسلم ، وجميعه مباح والحمد لله . وروى سفيان ابن عيينة هذا الحديث عن مسلم بن أبى مريم بمعنى ما رواه مالك وزاد فيه ، قال سـفيان : وكان يحيى بن سعيد حدّثناه عن مسلم ثم لقيته فسمعته منه وزادنى فيه ، قال : « هى مذبة الشيطان لا يسهو أحدكم ما دام يشير بإصبعه ويقول هكذا » .

قلت : روى أبو داود فى حديث ابن الزبير أنه عليه السلام كان يشير بإصبعه اذا دعا ولا يحركها ، والى هذا ذهب بعض العراقيين ـــ فمنع من تحريكها ـــ وبعض علمائنا رأوا أن مدها إشارة الى دوام التوحيد . وذهب أكثر العلماء من أصحاب مالك وغيرهم الى تحريكها إلا أنهم اختلفوا فى الموالاة بالتحريك على قولين ، تأوّل من والاه بأن قال : إن ذلك يذكّر بموالاة الحضور فى الصلاة ، وبأنها مقمعة ومدفعة للشيطان على ما روى سفيان . ومن لم يوال رأى تحريكها عند التلفظ بكلمتى الشهادة ، وتأوّل فى الحركة كأنها نطق بتلك الجارحة بالتوحيد والله أعلم .

الحادية والثلاثون ـــ واختلفوا فى جلوس المرأة فى الصـلاة ؛ فقال مالك : هى كالرجل ، ولا تخالفه فيها بعد الإحرام الا فى اللباس والجهر . وقال الثورى : تسدل المرأة جلبابها من جانب واحد ؛ ورواه عن إبراهيم النخعى . وقال أبو حنيفة وأصحابه : تجلس المرأة كأيسر ما يكون لها . وهو قول الشعبى : تقعد كيف تيسر لها . وقال الشافعى : تجلس بأستر ما يكون لها .

الثانية والثلاثون ـــ روى مسـلم عن طاوس قال : قلنا لابن عباس فى الإقعاء على القدمين ، فقال : هى السنة ، فقلنا له : إنا لنراه جفاء بالرجل ، فقال ابن عباس : [بل](١) هى سنة نبيك صلى الله عليه

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

وسلم . وقد اختلف العلماء فى صفة الإقعاء ما هو؛ فقال أبو عبيد: الإقعاء: جلوس الرجل على أليتيه ناصبا فخذيه مثل إقعاء الكلب والسبع . قال ابن عبد البر : وهذا إقعاء مجتمع عليه لا يختلف العلماء فيه . وهذا تفسير أهل اللغة وطائفة من أهل الفقه؛ وقال أبو عبيد : وأما أهل الحديث فانهم يجعلون الإقعاء أن يجعل أليتيه على عقبيه بين السجدتين . قال القاضى عياض : والأشبه عندى فى تأويل الإقعاء الذى قال فيه ابن عباس إنه من السنة ، الذى فسر به الفقهاء من وضع الأليتين على العقبين بين السجدتين؛ وكذا جاء مفسرا عن ابن عباس : من السنة أن تمس عقبك أليتك . رواه إبراهيم بن ميسرة عن طاوس عنه، ذكره أبو عمر . قال القاضى: وقد روى عن جماعة من السلف والصحابة أنهم كانوا يفعلونه، ولم يقل بذلك عامة فقهاء الأمصار وسموه إقعاء . ذكر عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه أنه رأى ابن عمر وابن عباس وابن الزبير يقعون بين السجدتين .

الثالثة والثلاثون — لم يختلف من قال من العلماء بوجوب التسليم وبعدم وجوبه أن التسليمة الثانية ليست بفرض إلا ما روى عن الحسن بن حى أنه أوجب التسليمتين معا . قال أبو جعفر الطحاوى : لم نجد عن أحد من أهل العلم الذين ذهبوا الى التسليمتين أن الثانية من فرائضها غيره . قال ابن عبد البر : من حجة الحسن بن صالح فى إيجابه التسليمتين جميعا ، وقوله : إن من أحدث بعد الأولى وقبل الثانيه فسدت صلاته ؛ قوله صلى الله عليه وسلم : « تحليلها التسليم » ثم بين كيفية التسليم فكان يسلم عن يمينه وعن يساره ؛ ومن حجة من أوجب التسليمة الواحدة دون الثانية قوله صلى الله عليه وسلم : « تحليلها التسليم » قالوا : والواحدة يقع عليها اسم تسليم .

قلت: هذه المسئلة مبنية على الأخذ بأول الاسم أو بآخره، ولما كان الدخول فى الصلاة بتكبيرة واحدة بإجماع فكذلك الخروج منها بتسليمة واحدة ، إلا أنه تواترت السنن الثابتة من حديث ابن مسعود وهو أكثرها تواترا — ومن حديث وائل بن حجر الحضرمى وحديث عمار وحديث البراء بن عازب وحديث ابن عمر وحديث سعد بن أبى وقاص أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يسلم تسليمتين . روى ابن جريج وسليمان بن بلال وعبد العزيز بن محمد الدراوردى كلهم عن عمرو ابن يحيى المازنى عن محمد بن يحيى بن حبان عن عمه واسع بن حبان قال قلت لابن عمر : حدثنى

عن صلاة رسـول الله صلى الله عليه وسـلم كيف كانت؟ فذكر التكبير كلما رفع رأسه وكلما خفضه، وذكر السـلام عليكم ورحمة الله عن يمينه، السلام عليكم ورحمة الله عن يساره . قال ابن عبد البر: وهـذا إسناد مدنى صحيح ، والعمل المشهور بالمدينة التسليمة الواحدة، وهو عمل قد توارثه أهـل المدينـة كابرا عن كابر ومثله يصح فيه الاحتجاج بالعمل فى كل بلد لأنه لا يخفى لوقوعه فى كل يوم مرارا، وكذلك العمل بالكوفة وغيرها مستفيض عنـدهم بالتسليمتين متوارث عنـدهم أيضا، وكل ما جرى هـذا المجرى فهو اختلاف فى المباح كالأذان ، وكذلك لا يروى عن عالم بالحجاز ولا بالعراق ولا بالشام ولا بمصر إنكار التسليمة الواحدة ولا إنكار التسليمتين بل ذلك عندهم معروف،وحديث التسليمة الواحدة رواه سـعد بن أبي وقاص وعائشة وأنس إلا أنها معلولة لا يصححها أهـل العلم بالحـــديث .

الرابعة والثلاثون — روى الدارقطنى عن ابن مسعود أنه قال : من السنة أن يخفى التشهد . واختار مالك تشهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو : التحيات لله الزكيات لله الطيبات الصـلوات لله ، السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته، السـلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله . واختار الشافعى وأصحابه والليث بن سعد تشهد ابن عباس ؛ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن ، فكان يقول : "التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله . واختار الثورى والكوفيون وأكثر أهل الحديث تشهد ابن مسـعود الذى رواه مسـلم أيضا قال : كنا نقول فى الصـلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام على الله السلام على فلان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم : " إن الله هو السـلام فإذا قعد أحدكم فى الصلاة فليقل التحيات والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين — فإذا قالها أصابت كل عبد [لله] (1) صالح فى السماء والأرض — أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ثم يتخير من المسألة ما شاء" . وبه قال أحمد وإسحاق وداود . وكان أحـمد بن خالد بالأندلس يختاره

(1) الزيادة عن مسلم .

ويميل إليه . وروى عن أبي موسى الأشعري مرفوعا وموقوفا نحو تشهد ابن مسعود . وهذا كله اختلاف في مباح ليس شيء منه على الوجوب . والحمد لله وحده ؛ فهذه جملة من أحكام الإمام والمأموم تضمنها قوله جل وعز : ﴿ وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ . وسيأتي القول في القيام في الصلاة عند قوله تعالى : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ . ويأتي هنالك حكم الإمام المريض وغيره من أحكام الصلاة ، ويأتي في آل عمران حكم صلاة المريض غير الإمام ، ويأتي في النساء في صلاة الخوف حكم المفترض خلف المتنفل ، ويأتي في سورة مريم حكم الإمام يصلي أرفع من المأموم إلى غير ذلك من الأوقات والأذان والمساجد ؛ وهذا كله بيان لقوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ . وقد تقدم في أول السورة جملة من أحكامها والحمد لله على ذلك .

قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ ﴾ الآية ؛ فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ ﴾ . هذا استفهام معناه التوبيخ ، والمراد في قول أهل التأويل علماء اليهود . قال ابن عباس : كان يهود المدينة يقول الرجل منهم لصهره ولذي قرابته ولمن بينه وبينه رضاع من المسلمين : اثبت على الذي أنت عليه وما يأمرك به هذا الرجل ـ يريدون محمدا صلى الله عليه وسلم ـ فإن أمره حق ؛ فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه . وعن ابن عباس أيضا : كان الأحبار يأمرون مقلديهم وأتباعهم باتباع التوراة ، وكانوا يخالفونها في جحدهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن جريج : كان الأحبار يحضون على طاعة الله وكانوا هم يواقعون المعاصي . وقالت فرقة : كانوا يحضون على الصدقة ويبخلون . والمعنى متقارب . وقال بعض أهل الإشارات : المعنى أتطالبون الناس بحقائق المعاني وأنتم تخالفون عن ظواهر رسومها ! .

الثانية — في شدة عذاب من هذه صفته . روى حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليلة أسري بي مررت على ناس تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت يا جبريل من هؤلاء قال هؤلاء الخطباء من أهل الدنيا (١) يأمرون الناس بالبر وينسون

(١) كذا في مسند الإمام أحمد بن حنبل (ج ٣ ص ١٢٠) وتفسير الفخر الرازي (ج ١ ص ٤٩٦) وفي الأصول : « من أمتك » .

أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون » . وروى أبو أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم يجرون قُصْبهم فى نار جهنم فيقال لهم من أنتم فيقولون نحن الذين كنا نأمر الناس بالخير وننسى أنفسنا » .

قلت : وهذا الحديث وإن كان فيه لين لأن فى سنده الخصيب بن جحدر وكان الإمام أحمد يستضعفه ؛ وكذلك ابن معين يرويه عن أبى غالب عن أبى أمامة صدى بن عجلان الباهلى، وأبو غالب هو — فيما حكى يحيى بن معين — حزور القرشي مولى خالد بن عبد الله بن أسيد، وقيل: مولى باهلة . وقيل : مولى عبد الرحمن الحضرمى، كان يختلف الى الشام فى تجارته . قال يحيى بن معين : هو صالح الحديث فقد رواه مسلم فى صحيحه بمعناه عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار [بالرحى](1) فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان مالك ألم [تكن](1) تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه » .

القصب بضم القاف : المعى وجمعه أقصاب . والأقتاب : الامعاء، وأحدها قتب . ومعنى فتندلق فتخرج بسرعة . وروينا فتنفلق .

قلت : فقد دل الحديث الصحيح وألفاظ الآية على أن عقوبة من كان عالما بالمعروف وبالمنكر وبوجوب القيام بوظيفة كل واحد منهما أشدّ ممن لم يعلمه ؛ وإنما ذلك، لأنه كالمستهين بحرمات الله تعالى، ومستخف بأحكامه، وهو ممن لا ينتفع بعلمه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أشدّ الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » . أخرجه ابن ماجه فى سننه .

الثالثة — أعلم وفقك الله تعالى أن التوبيخ فى الآية بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر؛ ولهذا ذمّ الله تعالى فى كتابه قوما كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بها ؛ وبخهم به توبيخا يتلى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال : ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ الاية . وقال منصور الفقيه فأحسن:

إن قوما يأمرونا * بالذى لا يفعلونا
لمجانين وإن هم * لم يكونوا يصرعونا

(1) الزيادة عن صحيح مسلم .

وقال أبو العتاهية :

وصفتَ التقى حتى كأنك ذو تقى * وريح الخطايا من ثيابك تسطع

وقال أبو الأسود الدؤلي :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله * عار عليك إذا فعلت عظيم

وابدأ بنفسك فانهها عن غيها * فان انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى * بالقول منك وينفع التعليم

وقال أبو عمرو بن مطر : حضرت مجلس أبي عثمان الحيرى الزاهد فخرج وقعد على موضعه الذي كان يقعد عليه للتذكير فسكت حتى طال سكوته ؛ فناداه رجل كان يعرف بأبي العباس ، ترى أن تقول في سكوتك شيئا ؟ فأنشأ يقول :

وغير تقي يأمر الناس بالتقى * طبيب يداوى والطبيب مريض

قال : فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج .

الرابعة — قال إبراهيم النخعي : إني لأكره القصص لثلاث آيات، قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ﴾ الآية، وقوله : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ . وقال سلم بن عمرو (1) :

ما أقبح التزهيد من واعظ * يزهد الناس ولا يزهد

لو كان في تزهيده صادقا * أضحى وأمسى بيته المسجد

إن رفض الدنيا فما باله * يستمنح (2) الناس ويسترفد

والرزق مقسوم على من ترى * يناله الأبيض والأسود

وقال الحسن لمطرف بن عبد الله : عظ أصحابك، فقال : إني أخاف أن أقول ما لا أفعل ؛ قال : يرحمك الله ! وأينا يفعل ما يقول ! ويودّ الشيطان أنه قد ظفر بهذا ، فلم يأمر أحد بمعروف

(1) كذا في الأصول ، والصحيح أن الأبيات لهارون بن أخت سلم بن عمرو الخاسر . يراجع الأغاني (ج ٤ ص ٧٦) طبع دار الكتب المصرية .

(2) كذا في الأغاني . وفي الأصول : «يسعى له» .

ولم ينه عن منكر . وقال مالك عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن سمعت سعيد بن جبير يقول : لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء، ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر . قال مالك : وصدق، من ذا الذى ليس فيه[1] شيء؟ .

الخامسة — قوله تعالى (﴿ بِالْبِرِّ ﴾) البر هنا الطاعة والعمل الصالح؛ والبر : الصدق . والبر : ولد الثعلب . والبر : سوق الغنم؛ ومنه قولهم : "لا يعرف هرا من بر" أى لا يعرف دعاء الغنم من سوقها . فهو مشترك؛ وقال الشاعر :

لا هم رب إن بكرا[2] دونكا * يَبَرُّكَ النـاس ويفجرونكا

أراد بقوله : يبرك الناس أى يطيعونك . ويقال : إن البرّ الفؤاد فى قوله :

أكون مكان البرّ[3] منه ودونه * وأجعل مالى دونه وأُوَامِرُه

والبر بضم الباء معروف، و بفتحها الإجلال والتعظيم؛ ومنه ولد برو بار أى يعظم والديه ويكرمهما .

السادسة — قوله تعالى : (﴿ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾) أى تتركون . والنسيان بكسر النون يكون بمعنى الترك . وهو المراد هنا وفى قوله تعالى : (﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾) وقوله : (﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾) . وقوله : (﴿ وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾) . ويكون خلاف الذكر والحفظ؛ ومنه الحديث : «نسى آدم فنسيت ذريته» وسيأتى؛ يقال : رجل نسيان بفتح النون كثير النسيان للشيء . وقد نسيت الشيء نسيانا، ولا تقل نسيانا بالتحريك لأن النسيان إنما هو تثنية نسا : العرق . وأنفس : جمع نفس جمع قلة . والنفس : الروح؛ يقال : خرجت نفسه؛ قال أبو خراش :

نجا سالم والنفس منـه بشدقه * ولم ينج إلا جفن سيف ومئزرا

أى بجفن سيف ومئزر . ومن الدليـل على أن النفس الروح قوله تعالى : (﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾) . يريد الأرواح؛ فى قول جماعة من أهل التأويل على ما يأتى . وذلك بين فى قول بلال

(١) فى نسخة : «عليه» .

(٢) كذا فى البحر المحيط لأبى حيان . وفى الأصول : «بكرا» بالواو . وفى تفسير الشوكانى : «إن يكونوا» .

(٣) كذا فى الأصول واللسان مادة «برر» . وفى شرح القاموس :

* يكون مكان البرمنى ودونه *

للنبيّ صلى الله عليه وسلم في حديث ابن شهاب : أخذ بنفسي يارسول الله الذي أخذ بنفسك ، وقوله عليه السلام في حديث زيد بن أسلم : « إن الله قبض أرواحنا ولو شاء لردّها إلينا في حين غير هذا » . رواهما مالك؛ وهو أولى ما يقال به . والنفس أيضا الدم ؛ يقال : سالت نفسه ؛ قال الشاعر :

تسيل على حدّ السيوف نفوسنا ٭ وليست على غير الظبات تسيل

وقال إبراهيم النخعيّ : ما ليس له نفس سائلة فانه لا ينجس الماء إذا مات فيه . والنفس أيضا الجسد؛ قال الشاعر :

نبئت أن بني سحيم أدخلوا ٭ أبياتهم تامور نفس المنذرِ

والتامور أيضا : الدم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ﴾ . توبيخ عظيم لمن فهم . وتتلون : تقرءون . الكتاب : التوراة . وكذا من فعل فعلهم كان مثلهم . وأصل التلاوة الاتباع، ولذلك استعمل في القراءة لأنه يتبع بعض الكلام ببعض في حروفه حتى يأتي على نسقه؛ يقال : تلوته إذا تبعته تلوا، وتلوت القرآن تلاوة . وتلوت الرجل تلوا إذا خذلته . والتلية والتلاوة (بضم التاء) : البقية ؛ يقال : تليت لي من حقي تلاوة وتلية أي بقيت؛ وأتليت : أبقيت . وتتليت حقي إذا تتبعته حتى تستوفيه . قال أبو زيد : تلى الرجل إذا كان بآخر رمق .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ . أي أفلا تمنعون أنفسكم من مواقعة هذه الحال المردية لكم . والعقل : المنع ؛ ومنه عقال البعير لأنه يمنع عن الحركة . ومنه العقل للدية لأنه يمنع وليّ المقتول عن قتل الجاني . ومنه اعتقال البطن واللسان . ومنه يقال للحصن : معقل . والعقل : نقيض الجهل . والعقل : ثوب أحمر تتخذه نساء العرب تغشّى به الهوادج؛ قال علقمة :

عقلا ورقما تكاد الطير تخطفه ٭ كأنه من دم الأجواف مدموم

المدموم (بالدال المهملة) : الأحمر، وهو المراد هنا . والمدموم الممتلئ شحما من البعير وغيره .

ويقال : هما ضربان من البرود . قال ابن فارس : والعقل من شياب الثياب ما كان نقشه طولا ؛ وما كان نقشه مستديرا فهو الرقم . وقال الزجاج : العاقل من عمل بما أوجب الله عليه، فمن لم يعمل فهو جاهل .

التاسعة — اتفق أهـل الحق على أن العقل كائن موجود ليس بقديم ولا معدوم، لأنه لو كان معـدوما لمـا اختص بالاتصاف به بعض الذوات دون بعض؛ وإذا ثبت وجوده فيستحيل القول بقدمه إذ الدليل قد قام على أن لا قديم إلا الله تعالى على ما يأتى بيانه فى هذه السورة وغيرها إن شاء الله تعـالى .

وقد صارت الفلاسفة إلى أن العقل قديم؛ ثم منهم من صار إلى أنه جوهر لطيف فى البـدن ينبث شعاعه منه بمنزلة السراج فى البيت، يفصـل به بين حقائق المعلومات . ومنهم من قال : إنه جوهر بسيط أى غير مركب . ثم اختلفوا فى محله، فقالت طائفة منهم : محله الدماغ، لأن الدماغ محل الحس . وقالت طائفة أخرى : محله القلب، لأن القلب معدن الحياة ومادة الحواس . وهذا القول فى العقل بأنه جوهر، فاسـد من حيث إن الجواهر متماثلة؛ فلو كان جوهر عقلا لكان كل جوهر عقلا . وقيـل : إن العقل هو المدرك للأشياء على ما هى عليه من حقائق المعانى . وهـذا القول وإن كان أقرب مما قبله فيبعد عن الصواب من جهة أن الإدراك من صفات الحىّ، والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن يكون ملتذا ومشتهيا . وقال الشـيخ أبو الحسن الأشعرى والأسـتاذ أبو إسحاق الاسفراينى وغيرهما من المحققين : العقل هو العلم، بدليل أنه لا يقال : عقلت وما علمت، أو علمت وما عقلت . وقال القاضى أبو بكر : العقل علوم ضرورية بوجوب الواجبات وجواز الجائزات واسـتحالة المستحيلات . وهو اختيار أبى المعـالى فى الإرشاد؛ واختار فى البرهان أنه صفة يتأتى بهـا درك العلوم . واعترض على مذهب القاضى واسـتدل على فساد مذهبه . وحكى فى البرهان عن المحاسبى أنه قال : العقل غريزة . وحكى الأستاذ أبو بكر عن الشافعى وأبى عبد الله بن مجاهد أنهما قالا : العقل آلة التمييز . وحكى عن أبى العباس القلانسىّ أنه قال : العقل قوة التمييز . وحكى عن المحاسبى أنه قال : العقل أنوار وبصائر. ثم رتب هذه الأقوال وحملها على محامل فقال : والأولى ألا يصح هذا النقل عن الشافعى ولا عن ابن مجاهد، فإن الآلة إنما تستعمل فى الآلة المثبّته واستعمالها فى الأعراض مجاز ؛ وكذلك قول من قال : إنه قوة فإنه لا يعقل من القوة إلا القدرة ، والقلانسى أطلق ما أطلقه توسعا فى العبارات، وكذلك المحاسبى . والعقل ليس بصورة ولا نور ولكن تستفاد به الأنوار والبصائر . وسيأتى فى هذه السورة بيان فائدته فى آية التوحيد إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ الآية . فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ . الصبر : الحبس في اللغة . وقُتِلَ فلان صبرا أى أُمْسِكَ وحُبِس حتى أُتلف . وصبَّرت نفسي على الشيء : حبستها . والمصبورة التى نهى عنها في الحديث هى المحبوسة على الموت وهى المُجَثَّمَة . وقال عنترة :

فَصَبَرْتُ عارفــةً لذلك حُرَّةً * تَرْسُو إذا نَفْسُ الجبان تَطَلَّعُ

الثانية — أمر تعالى بالصبر على الطاعة وعن المخالفة في كتابه فقال : ﴿وَاصْبِرُوا﴾ . يقال : فلان صابر عن المعاصى . وإذا صبر عن المعاصى فقد صبر على الطاعة ؛ هذا أصح ما قيل . قال النحاس : ولا يقال لمن صبر على المصيبة : صابر ؛ إنما يقال : صابر على كذا ، فاذا قلت : صابر مطلقا فهو على ما ذكرنا ؛ قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .

الثـالثة — قوله تعالى : ﴿وَالصَّلَاةِ﴾ . خص الصــلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويها بذكرها . وكان عليه السلام إذا حَزَبه أمر فزع إلى الصلاة ؛ ومنه ماروى أن عبد الله بن عباس نُعِي له أخوه قثم — وقيل بنت له — وهو فى ســفر فاسترجع وقال : عورة سترها الله ، ومؤونة كفاها الله ، وأجر ساقه الله . ثم تنحى عن الطريق وصــلى ثم انصرف الى راحلته وهو يقرأ : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّــبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ . فالصلاة على هذا التأويل هى الشرعية . وقال قوم : هى الدعاء على عرفها فى اللغة ؛ فتكون الآية على هذا التأويل مشبهة لقوله تعالى : ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ . لأن الثبات هو الصبر . والذكر هو الدعاء . وقول ثالث ، قال مجاهد : الصبر فى هذه الآية الصوم ؛ ومنه قيل لرمضان : شهر الصبر ، فجاء الصوم والصلاة على هذا القول فى الآية متناسبا فى أن الصيام يمنع من الشهوات ويزهد فى الدنيا ، والصــلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتخشع ويقرأ فيها القــرآن الذى يذكر الآخرة . الله أعلم .

الرابعــة — الصبر على الأذى والطاعات من باب جهاد النفس وقمعها عن شهواتها ومنعها من تطاولها ، وهو من أخلاق الأنبياء والصــالحين . قال يحيى بن اليمــان : الصــبر ألا تتمنى حالة سوى ما رزقك الله ، والرضى بما قضى الله من أمر دنياك وآخرتك . وقال الشعبى : قال على رضى الله عنه : الصبر من الإيمــان بمنزلة الرأس من الجسد . قال الطبرى : وصدق علىّ رضى الله عنه . وذلك أن

الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمـل بالجوارح ؛ فمن لم يصبر على العمل بجوارحه لم يستحق الإيمان بالإطلاق؛ فالصبر على العمل بالشرائع نظير الرأس من الجسد للإنسان الذى لا تمام له إلا به .

الخامسة — وصف الله تعالى جزاء الأعمال وجعل لهـا نهاية وحدا فقال : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ . وجعل جزاء الصدقة فى سبيل الله فوق هذا فقال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ ﴾ الآية . وجعل أجر الصابرين بغير حساب ومدح أهله فقال : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ . وقال : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ . وقد قيل : إن المراد بالصابرين فى قوله : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ ﴾ . أى الصـائمون، لقوله تعـالى فى صحيح السنة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « الصيام لى وأنا أجزى به » فلم يذكر ثوابا مقدرا كما لم يذكره فى الصبر . والله أعلم .

السادسة — من فضل الصبر وصف الله تعالى نفسه به كما فى حديث أبى موسى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « ليس أحد أو ليس شىء أصبر على أذى سمعه ، من الله تعالى إنهم لَيَدْعُون له ولدا وإنه ليعافيهم ويرزقهم » . أخرجه البخارى . قال علماؤنا : وصف الله تعالى بالصبر إنمـا هو بمعنى الحلم، ومعنى وصفه تعالى بالحلم هو تأخير العقوبة عن المستحقين لهـا ، ووصفه تعالى بالصبر لم يرد فى التنزيل وإنما ورد فى حديث أبى موسى، وتأوله أهل السنة على تأويل الحلم . قاله ابن فُورَك وغيره . وجاء فى أسمائه الصبور للمبالغة فى الحلم عمن عصاه .

السابعـة — قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ . اختلف المتأولون فى عود الضمير من قوله : ﴿ وإنهـا ﴾ فقيل : على الصلاة وحدها خاصـة، لأنها تكبر على النفوس ما لا يكبر الصوم . والصبر هنا : الصوم . فالصلاة فيها سجن النفوس، والصوم إنما فيه منع الشهوة؛ فليس من منع شهوة واحدة أو شهوتين كمن منع جميع الشهوات؛ فالصائم إنما منع شهوة النساء والطعام والشراب، ثم ينبسط سائر الشهوات من الكلام والمشى والنظر الى غير ذلك من ملاقاة الخلق، فيتسلى بتلك الأشياء عما منع ، والمصلى يمتنع من جميع ذلك، فجوارحه كلها مقيـدة بالصلاة عن جميع الشهوات . وإذا كان ذلك كانت الصلاة أصعب على النفس ومكابدتها أشدّ فلذلك قال : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ . وقيل : عليهما ، ولكنه كنى عن الأغلب وهو الصلاة كقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّـةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَـا

في سبيل الله ﴾ . وقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ . فرد الكناية إلى الفضة لأنها الأغلب والأعم ، وإلى التجارة لأنها الأفضل والأهم . وقيل : إن الصبر لما كان داخلا في الصلاة أعاد عليها كما قال : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ . ولم يقل : يرضوهما ، لأن رضى الرسول داخل في رضى الله جل وعز ؛ ومنه قول الشاعر[1] :

إن شرخ الشباب والشعر الأسـ * ـود ما لم يعاص كان جنونا

ولم يقل يعاصيا ، ردّ إلى الشباب لأن الشعر داخل فيه ؛ وقيل : رد الكناية إلى كل واحد منهما لكن حذف اختصارا ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ ولم يقل آيتين ؛ ومنه قول الشاعر[2] :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله * فإني وقيّارٌ بها لغريب

وقال آخر[3] :

لكل هم من الهموم سعه * والصبح والمُسْيُ لا فلاح معه

أراد لغريبان ، لا فلاح معهما . وقيل : على العبادة التي يتضمنها بالمعنى ذكر الصبر والصلاة . وقيل : على المصدر وهي الاستعانة التي يقتضيها قوله : ﴿ وَاسْتَعِينُوا ﴾ . وقيل : على إجابة محمد عليه السلام ، لأن الصبر والصلاة مما كان يدعو إليه . وقيل : على الكعبة ، لأن الأمر بالصلاة إنما هو إليها . وكبيرة ، معناه ثقيلة شاقة ، خبر إن ويجوز في غير القرآن وإنه لكبيرة إلا على الخاشعين ، فإنها خفيفة عليهم . قال أرباب المعاني : إلا على من أيد في الأزل بخصائص الاجتباء والهدى .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ . الخاشعون جمع خاشع وهو المتواضع . والخشوع : هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع . وقال قتادة : الخشوع في القلب وهو الخوف وغض البصر في الصلاة . قال الزجاج : الخاشع الذي يُرى أثر الذل والخشوع عليه كخشوع الدار بعد الإقواء . هذا هو الأصل . قال النابغة :

رماد ككحل العين لأيا أبينه * ونؤيٌ كجذم الحوض أثلم خاشع

(١) هو حسان بن ثابت .

(٢) هو ضابئ البرجمي ؛ كما في اللسان مادة (قير) . والكامل للمبرد (ج ١ ص ١٨١) طبع أوربا .

(٣) هو الأضبط بن قريع السعدي ؛ اللسان مادة (مسا) .

ومكان خاشع لا يهتدى له . وخشعت الأصوات أى سكنت . وخشعت خراشى صدره إذا ألقى بصاقا لزجا . وخشع ببصره إذا غضه . والخشعة : قطعة من الأرض رخوة ؛ وفى الحديث : « كانت خشعة على المـاء ثم دحيت بعـد »(١) . وبلدة خاشعة : مغبرة لا منزل بهـا . قال سفيان الثورىّ : سألت الأعمش عن الخشوع فقال : يا ثورىّ ، أنت تريد أن تكون إماما للنـاس ولا تعرف الخشوع ! سألت إبراهيم النخعىّ عن الخشوع ؛ فقال : اعيمش ! تريد أن تكون إماما للنـاس ولا تعرف الخشوع ! ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطؤ الرأس ! لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنىء فى الحق سـواء ، وتخشع لله فى كل فرض آفترض عليك . ونظر عمر بن الخطاب الى شاب قد نكس رأسه فقال : يا هذا ! ارفع رأسك ، فان الخشوع لا يزيد على ما فى القلب . وقال علىّ بن أبى طالب : الخشوع فى القلب ، وأن تلين كفيك للمرء المسلم ، وألا تلتفت فى صلاتك . وسيأتى هـذا المعنى مجوّدا عند قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ . فمن أظهر للناس خشوعا فوق ما فى قلبه فإنمـا أظهر نفاقا على نفاق . قال سهل بن عبـد الله : لا يكون خاشعا حتى تخشع كل شـعرة على جسده ؛ لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ .

قلت : هذا هو الخشوع المحمود ، لأن الخوف اذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعـه فتراه مطرقا متأدبا متذللا . وقـد كان السلف يجتهدون فى سـتر ما يظهر من ذلك ؛ وأما المذموم فتكلفه والتباكى ومطاطأة الرأس كما يفعله الجهال ليروا بعين البر والإجلال ، وذلك خدع من الشيطان ، وتسويل من نفس الانسان . روى الحسن أن رجلا تنفس عند عمر بن الخطاب كأنه يتحازن ؛ فلكزه عمر ، أو قال لكمه . وكان عمر رضى الله عنه اذا تكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، واذا ضرب أوجع ، وكان ناسكا صدقا ، وخاشعا حقا . وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : الخاشعون هم المؤمنون حقا .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ ﴾ . الذين فى موضع خفض على النعت للخاشعين ، ويجوز الرفع على القطع . والظن هنا فى قول الجمهور بمعنى اليقين ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ وقوله : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ . قال دريد بن الصمة :

(١) الذى فى نهاية ابن الأثير مادة (خشع) : « كانت الكعبة خشعة على المـاء فدحيت منها الأرض »

فقلت لهم ظنوا بألفى مدجج * سراتهم فى الفارسىّ المسرّد

وقال أبو دؤاد :

رب هم فرّجته بغريم * وغيوب كشفتها بظنون

وقد قيل : إن الظن فى الآية يصح أن يكون على بابه ويضمر فى الكلام بذنوبهم، فكأنهم يتوقعون لقاءه مذنبين ذكره المهدوى والماوردى . قال ابن عطية : وهذا تعسف . وزعم الفراء أن الظنّ قد يقع بمعنى الكذب . ولا يعرف ذلك البصريون . وأصل الظن وقاعدته : الشك مع ميل الى أحد معتقديه ، وقد يوقع موقع اليقين، كما فى هذه الآية وغيرها ، لكنه لا يوقع فيما قد خرج الى الحس، لا تقول العرب فى رجل مرئىّ حاضر : أظن هذا إنسانا . وإنما تجد الاستعمال فيما لم يخرج الى الحس بعد، كهذه الآية والشعر، وكقوله تعالى: ﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ وقد يجيء اليقين بمعنى الظن وقد تقدم بيانه أوّل السورة . وتقول : سؤت به ظنا، وأسأت به الظن . يدخلون الألف اذا جاءوا بالألف واللام . ومعنى ﴿ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ جزاء ربهم؛ وقيل : جاء على المفاعلة وهو من واحد؛ مثل عافاه الله . ﴿ وأنهم ﴾ بفتح الهمزة عطف على الأوّل ، ويجوز وإنهم بكسرها على القطع . ﴿ إِلَيْهِ ﴾ أى الى ربهم . وقيل الى جزائه ﴿رَاجِعُونَ﴾ إقرار بالبعث والجزاء والعرض على الملك الأعلى .

قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ تقدم . ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ بما جعل فيهم من الأنبياء . وهذا خاصة لهم وليست لغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا ﴾ أمر معناه الوعيد، وقد مضى الكلام فى التقوى . ﴿ يَوْمًا ﴾ يريد عذابه وهوله وهو يوم القيامة . وانتصب على المفعول باتقوا، ويجوز فى غير القرآن يوم لا تجزى على الاضافة . وفى الكلام حذف بين النحويين فيه اختلاف؛ قال البصريون : التقدير يوما لا تجزى فيه نفس عن نفس شيئا ثم حذف فيه، كما . قال :

* ويوما شهدناه سليما وعامرا *

أى شهدنا فيه . وقال الكسائى : هذا خطأ لا يجوز حذف فيه ولكن التقدير واتقوا يوما لا تجزيه نفس ثم حذف الهاء . وإنما يجوز حذف الهاء لأن الظروف عنده لا يجوز حذفها؛ قال : لا يجوز

أن تقول: هذا رجلا قصدت، ولا رأيت رجلا أرغب، وأنت تريد قصدت إليه وأرغب فيه. قال: ولو جاز ذلك لجاز الذى تكلمت زيد بمعنى تكلمت فيه زيد. وقال الفراء: يجوز أن تحذف الهاء وفيه. وحكى المهدوى أن الوجهين جائزان عند سيبويه والأخفش والزجاج. ومعنى: ﴿ لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾. أى لا تؤاخذ نفس بذنب أخرى ولا تدفع عنها شيئا؛ تقول: جزى عنى هذا الأمر يجزى؛ كما تقول: قضى عنى. واجتزأت بالشىء اجتزاء اذا اكتفيت به؛ قال الشاعر:

بأن الغـــدر فى الأقوام عار * وأن الحر يجزأ بالكراع

أى يكتفى بها. وفى حديث عمر: «اذا أجريت المـاء على المـاء جزى عنك» يريد اذا صببت المـاء على البول فى الأرض فجرى عليه طهر المكان، ولا حاجة بك الى غسل ذلك الموضع، وتنشيف المـاء بخرقة أو غيرها كما يفعل كثير من الناس. وفى صحيح الحديث عن أبى بردة بن نيار فى الأضحية: ولا تجزى [جذعة][1] عن أحد بعدك، أى لن تغنى، فمعنى لاتجزى لا تقضى ولا تغنى ولا تكفى إن لم يكن عليها شىء، فان كان فانها تجزى وتقضى وتغنى، بغير اختيارها، من حسناتها ما عليهـا من الحقوق؛ كما فى حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وان لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليـه». خرجه البخارى. ومثله حديثـه الآخر فى المفلس وقـد ذكرناه فى التذكرة خرجه مسـلم. وقرئ تُجزِئ بضم التاء والهـمز، ويقال: جزى وأجزى بمعنى واحد، وقد فرق بينهما قوم فقالوا: جزى بمعنى قضى وكافأ: وأجزأ بمعنى أغنى وكفى. أجزأنى الشىء يجزئنى أى كفانى؛ قال الشاعر:

وأجزأت أمر العالمين ولم يكن * ليجزئ إلا كامل وابن كامل

الثالثة — قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾. الشفاعة مأخوذة من الشفع وهما الاثنان، تقول: كان وترا فشفعته شفعا؛ والشفعة منه، لأنك تضم ملك شريكك إلى ملكك. والشفيع: صاحب الشفعة وصاحب الشـفاعة. وناقة شافع إذا اجتمع لهـا حمل وولد يتبعها؛ تقول منه: شفعت الناقة شفعا، وناقة شفوع وهى التى تجمع بين محلبين فى حلبة واحدة. واستشفعته الى فلان:

(١) الزيادة عن صحيح مسلم.

مسألته أن يشفع لى إليه، وتشفعت إليه فى فلان فشفعنى فيه ؛ فالشفاعة إذا ضم غيرك الى جاهك ووسيلتك؛ فهى على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع وإيصال منفعته للشفوع .

الرابعة — مذهب أهل الحق أن الشفاعة حق؛ وأنكرها المعتزلة وخلدوا المؤمنين من المذنبين الذين دخلوا النار فى العذاب . والأخبار متظاهرة بأن من كان من العصاة المذنبين الموحدين من أمم النبيين هم الذين تنالهم شفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين ؛ وقد تمسك القاضى عليهم فى الرد بشيئين؛ أحدهما : الأخبار الكثيرة التى تواترت فى المعنى . والثانى : الإجماع من السلف على تلقى هذه الأخبار بالقبول ولم يبد من أحد منهم فى عصر من الأعصار نكير ؛ فظهور روايتها وإطباقهم على صحتها وقبولهم لها دليل قاطع على صحة عقيدة أهل الحق وفساد دين المعتزلة .

فإن قالوا : قد وردت نصوص من الكتاب بما يوجب رد هذه الأخبار مثل قوله : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ . قالوا : وأصحاب الكبائر ظالمون . وقال : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ . قلنا : ليست هذه الآيات عامة فى كل ظالم، والعموم لا صيغة له ؛ فلا تعم هذه الآيات كل من يعمل سوءا وكل نفس، وإنما المراد بها الكافرون دون المؤمنين بدليل الأخبار الواردة فى ذلك . وأيضا فإن الله تعالى أثبت شفاعة لأقوام ونفاها عن أقوام؛ فقال فى صفة الكافرين : ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ وقال : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ وقال : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ . فعلمنا بهذه الجملة أن الشفاعة إنما تنفع المؤمنين دون الكافرين . وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ . النفس الكافرة لا كل نفس . ونحن وإن قلنا بعموم العذاب لكل ظالم عاص، فلا نقول: إنهم مخلدون فيها بدليل الأخبار التى رويناها، وبدليل قوله : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ . وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

فإن قالوا : فقد قال تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ . والفاسق غير مرتضى . قلنا : لم يقل لمن لا يرتضى، وإنما قال : ﴿ لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ ومن ارتضاه الله للشفاعة هم الموحدون ؛ بدليل قوله : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ . وقيل للنبى صلى الله عليه

وســلم : ما عهد الله مع خلقه ؟ قال : « أن يؤمنوا ولا يشركوا به شيئا » . وقال المفسرون : إلا من قال : لا إله إلا الله .

فإن قالوا : المرتضى هو التائب الذى اتخــذ عند الله عهدا بالإنابة اليه بدليل أن الملائكة استغفروا لهم، وقال : ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ . وكذلك شفاعة الأنبياء عليهم السلام إنما هى لأهل التوبة دون أهل الكبائر . قلنا : عندكم يجب على الله تعالى قبول التوبة، فإذا قبل الله توبة المذنب فلا يحتاج الى الشفاعة ولا الى الاســتغفار . وأجمع أهل التفسير على أن المراد بقوله : ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا ﴾ . أى من الشرك ﴿ وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ . أى سبيل المؤمنين، سألوا الله تعــالى أن يغفر لهم ما دون الشرك من ذنوبهم، كما قال تعالى : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ .

فإن قالوا : جميع الأمة يرغبون فى شفاعة النبىّ صلى الله عليه وسلم، فلو كانت لأهل الكبائر خاصة بطل سؤالهم . قلنا : إنما يطلب كل مسلم شفاعة الرسول ويرغب الى الله فى أن تناله ؛ لاعتقاده أنه غير سالم من الذنوب ولا قائم لله سبحانه بكل ما افترض عليه، بل كل واحد معترف على نفســه بالنقص فهو لذلك يخاف العقاب ويرجو النجاة، وقال صلى الله عليه وسلم : «لا ينجو أحد إلا برحمة الله تعالى — فقيل: ولا أنت يا رسول الله ؟ فقال — : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » .

الخــامسة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ ﴾ . قرأ ابن كثير وأبو عمرو «تقبل» بالتاء، لأن الشفاعة مؤنثة . وقرأ الباقون بالياء على التذكير لأنها بمعنى الشفيع . وقال الأخفش : حسن التذكير، لأنك قد فرقت ؛ كما تقدّم فى قوله : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ . أى فداء . والعدل بفتح العين : الفداء، وبكسرها، المثل، يقال : عدل وعديل للذى يماثلك فى الوزن والقدر، ويقال، عدل الشيء هو الذى يساويه قيمة وقدرا وإن لم يكن من جنسه ؛ والعدل بالكسر هو الذى يساوى الشيء من جنسه وفى جرمه . وحكى الطبرى أن من العرب من يكسر العين من معنى الفدية . فأما واحد الأعدال فبالكسر لا غير .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ أى يعانون، والنصر : العون، والأنصار : الأعوان ، ومنه قوله : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ . أى من يضم نصرته إلى نصرتى، وانتصر الرجل : انتقم، والنصر: الإتيان، يقال : نصرت أرض بنى فلان أتيتها، قال الشاعر :

إذا دخل الشهر الحرام فودعي * بلاد تميم وانصري أرض عامر

والنصر : المطر؛ يقال : نُصِرَت الأرض : مُطِرت . والنصر : العطاء؛ قال :

إني وأسطارٍ سُطِرن سطرا * لقـائل يا نصر نصرا نصرا

وكان سبب هذه الآية فيما ذكروا ، أن بني إسرائيل قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه وأبناء أنبيائه وسيشفع لنا آباؤنا . فأعلمهم الله تعالى عن يوم القيامة أنه لا تقبل فيه الشفاعات ولا يؤخذ فيه فدية . وإنما خص الشفاعة والفدية والنصر بالذكر لأنها هي المعاني التي اعتادها بنو آدم في الدنيا ؛ فإن الواقع في الشدّة لا يتخلص إلا بأن يشفع له أو ينصر أو يفتدى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ الآية؛ فيه ثلاث عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ . إذ في موضع نصب عطف على : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ﴾ . وهذا وما بعده تذكير ببعض النعم التي كانت له عليهم أي اذكروا نعمتي بإنجائكم من عدوكم وجعل الأنبياء فيكم؛ والخطاب للموجودين والمراد من سلف من الآباء؛ كما قال : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ . أي حملنا آباءكم. وقيل : إنمـا قال نجيناكم لأن نجاة الآباء كانت سببا لنجاة هؤلاء الموجودين؛ ومعنى نجيناكم ألقيناكم على نجوة من الأرض وهي ما ارتفع منها . هذا هو الأصل؛ ثم سمي كل فائز ناجيا . فالناجي من خرج من ضيق إلى سعة . وقرئ : ﴿ وإذ نجيتكم ﴾ على التوحيد .

الثـانية — قوله تعالى : ﴿ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ . آل فرعون . قومه وأتباعه وأهل دينه . وكذلك آل الرسول صلى الله عليه وسلم من هو على دينه وملته في عصره وسائر الأعصار؛ سواء كان نسيبا له أو لم يكن . ومن لم يكن على دينه وملتـه فليس من آله ولا أهله ، وإن كان نسيبه وقريبـه؛ خلافا للرافضة حيث قالت : إن آل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة والحسن والحسين فقط . دليلنا قوله تعـالى : ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَـذَابِ ﴾ . أي آل دينـه ، إذ لم يكن له ابن ولا بنت ولا أب ولا عم ولا أخ ولا عصبة ، ولأنه لا خلاف أن من ليس بمؤمن ولا موحد فإنه ليس من آل محمد وإن كان قريبا له ؛ ولأجل هذا يقال : إن أبا لهب وأبا جهـل ليسا من آله ولا من أهله ، وإن كان بينهما وبين النبي صلى الله عليه وسلم قرابة ؛ ولأجل هـذا قال

الله تعالى فى ابن نوح : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ وفى صحيح مسـلم عن عمرو بن العاص قال : سمعت رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم جهارا غير سرّ يقول : "[ألا][1] إن آل أبى — يعنى فلانا — ليسوا [لى][1] بأولياء إنما ولِيى الله وصالح المؤمنين" وقالت طائفة : آل محمد أزواجه وذريته خاصـة، لحديث أبى حميـد الساعدى أنهم قالوا : يا رسول الله كيف نصلى عليك ؟ قال : "قولوا اللهم صل على محمـد وعلى أزواجه وذريتـه كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمـد وعلى أزواجه وذريتـه كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد" رواه مسـلم . وقالت طائفة من أهل العلم : الأهـل معلوم، والآل : الأتباع ؛ والأول أصح لمـا ذكرناه ، ولحديث عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم كان إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : "اللهم صل عليهم" فأتاه أبى بصدقته فقال : "اللهم صل على آل أبى أوفى" .

الثالثة — اختلف النحاة هل يضاف الآل الى البلدان أولا؟ فقال الكسائى : إنما يقال : آل فلان وآل فلانة ولا يقال فى البلدان : هو من آل حمص ولا من آل المدينة . قال الأخفش : إنما يقال فى الرئيس الأعظم نحو : آل محمد صـلى الله عليه وسلم وآل فرعون لأنه رئيسهم فى الضلالة . قال : وقد سمعناه فى البلدان، قالوا : أهل المدينة وآل المدينة .

الرابعة — واختلف النحاة أيضا هل يضاف الآل الى المضمر أولا؟ فمنع من ذلك النحاس والزبيدى والكسائى ، فلا يقال إلا : اللهم صل على محمد وآل محمد ، ولا يقال : وآله . والصواب أن يقال : أهله . وذهبت طائفة أخرى إلى أن ذلك يقال، منهم ابن السِّيد وهو الصواب ، لأن السماع الصحيح يعضده، فانه قد جاء فى قول عبد المطلب :

لا هم إن العبـــد يمـ * ـنع رحله فامنـــع رحلالك
وانصر على آل الصليـ * ـب وعابديه اليـــوم آلك

وقال ندبة :

أنا الفارس الحامى حقيقة والدى * وآلى كما تحمى حقيقـــة آلكا

الحقيقة (بقافين) : ما يحق على الإنسان أن يحميه أى تجب عليه حمايته .

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

الخامسة — واختلفوا أيضا فى أصل آل؛ فقال النحاس : أصله أهل ثم أبدل من الهاء ألفا، فإن صغرته رددته إلى أصله فقلت : اهيل . وقال المهدوى : أصله أول؛ وقيل : أهل؛ قلبت الهاء همزة ثم أبدلت الهمزة ألفا . وجمعه آلون وتصغيره أويل فيما حكى الكسائى . وحكى غيره أهيل وقد ذكرناه عن النحاس . وقال أبو الحسن بن كيسان : إذا جمعت آلا قلت : آلون ؛ فإن جمعت آلًا الذى هو السراب، قلت : آوال؛ مثل : مال وأموال .

السادسة — قوله تعالى : ﴿فِرْعَوْنَ﴾ . فرعون، قيل : إنه اسم ذلك الملك بعينه . وقيل: إنه اسم كل ملك من ملوك العمالقة؛ مثل كسرى للفرس، وقيصر للروم، والنجاشى للحبشة؛ وإن اسم فرعون موسى قابوس فى قول أهل الكتاب . وقال وهب : اسمه الوليد بن مصعب بن الريان، ويكنى أبا مرة وهو من بنى عمليق بن لاوذ بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام . قال السهيلى : وكل من ولى القبط ومصر فهو فرعون . وكان فارسيا من أهل اصطخر . قال المسعودى : لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية . قال الجوهرى : فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر؛ وكل عات فرعون؛ والعتاة : الفراعنة ، وقد تفرعن وهو ذو فرعنة : أى دهاء ومكر . وفى الحديث : « أخذنا فرعون هذه الأمة » . وفرعون فى موضع خفض الا أنه لا ينصرف لعجمته .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ . قيل : معناه يذيقونكم ويلزمونكم إياه . وقال أبو عبيدة : يولونكم؛ يقال : سامه خطة خسف إذا أولاه إياها، ومنه قول عمرو بن كلثوم :

إذا ما الملك سام الناس خسفا ＊ أبينا أن نقر الخسف فينا

وقيل : يديمون تعذيبكم، والسوم : الدوام؛ ومنه سائمة الغنم لمداومتها الرعى؛ قال الأخفش : وهو فى موضع رفع على الابتداء[1] وإن شئت كان فى موضع نصب على الحال أى سائمين لكم .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ . مفعول ثان ليسومونكم، ومعناه أشد العذاب؛ ويجوز أن يكون بمعنى سوم العذاب؛ وقد يجوز أن يكون نعتا بمعنى سوما سيئا؛ فروى أن فرعون جعل بنى إسرائيل خدما وخولا وصنفهم فى أعماله؛ فصنف يبنون، وصنف يحرثون ويزرعون،

(١) الذى فى البحر لأبى حيان : " هذه الجملة مستأنفة وهى حكاية حال ماضية ويحتمل أن تكون فى موضع نصب على الحال" .

وصنف يخدمون. وكان قومه جندا ملوكا ومن لم يكن منهم فى عمل من هذه الأعمال ضربت عليه الجزية فذلك سوء العذاب .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ . يذبحون بغير واو على البدل من قوله : ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ ؛ كما قال — أنشده سيبويه — :

متى تأتنا تلمم بنا فى ديارنا ❊ تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

قال الفراء وغيره : يذبحون بغير واو على التفسير لقوله : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ ؛ كما تقول : أتانى القوم زيد وعمرو ؛ فلا تحتاج الى الواو فى زيد ؛ ونظيره : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ ﴾ . وفى سورة إبراهيم : ﴿ وَيُذَبِّحُونَ ﴾ بالواو لأن المعنى يعذبونكم بالذبح وبغير الذبح . فقوله : ﴿ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ ؛ جنس آخر من العذاب لا تفسير لما قبله . والله أعلم .

قلت : قد يحتمل أن يقال : إن الواو زائدة بدليل سورة البقرة والواو قد تزاد؛ كما قال :

❊ فلما أجزنا ساحة الحىّ وآنتحى ❊

أى قد انتحى . وقال آخر :

الى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

أراد الى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة؛ وهو كثير .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ قراءة الجماعة بالتشديد على التكثير . وقرأ ابن محيصن يذبحون بفتح الباء . والذبح : الشق؛ والذِّبح : المذبوح . والذُّبَاح : تشقق فى أصول الأصابع . وذبحت الدّنّ : بزلته أى كشفته . وسعد الذابح : أحد السعود . والمذابح : المحاريب . والمذابح جمع مذبح وهو اذا جاء السيل فخدّ فى الأرض فما كان كالشبر ونحوه سمى مذبحا؛ فكان فرعون يذبح الأطفال ويبقى البنات؛ وعبر عنهم باسم النساء بالمآل . وقالت طائفة : يذبحون أبناءكم يعنى الرجال؛ وسموا أبناء لما كانوا كذلك ؛ وآستدل هذا القائل بقوله : ﴿نِسَاءَكُمْ﴾ . والأوّل أصح لأنه الأظهر والله أعلم .

الحادية عشرة — نسب الله تعالى الفعل الى آل فرعون ؛ وهم إنما كانوا يفعلون بأمره وسلطانه؛ لتوليهم ذلك بأنفسهم؛ وليعلم أن المباشر مأخوذ بفعله . قال الطبرىّ : ويقتضى أن من أمره ظالم بقتل أحد فقتله المأمور فهو المأخوذ به .

قلت : وقد اختلف العلماء فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال ؛ يقتلان جميعا ، هذا بأمره ، والمأمور بمباشرته . هكذا قال النخعى ، وقاله الشافعى ومالك فى تفصيل لهما . قال الشافعى : اذا أمر السلطان رجلا بقتل رجل والمأمور يعلم أنه أمر بقتله ظلما كان عليه وعلى الإمام القود كقاتلين معا ، وإن أكرهه الامام عليه وعلم أنه يقتله ظلما كان على الإمام القود ، وفى المأمور قولان ؛ أحدهما أن عليه القود ؛ والآخر لا قود عليه وعليه نصف الدية . حكاه ابن المنذر . وقال علماؤنا : لا يخلو المأمور أن يكون ممن تلزمه طاعة الآمر ويخاف شره كالسلطان والسيد لعبده ، فالقود فى ذلك لازم لهما ؛ أو يكون ممن لا يلزمه ذلك فيقتل المباشر وحده دون الآمر ؛ وذلك كالأب يأمر ولده ، أو المعلم بعض صبيانه ، أو الصانع بعض متعلميه اذا كان محتلما ؛ فإن كان غير محتلم فالقتل على الآمر ، وعلى عاقلة الصبى نصف الدية . وقال ابن نافع : لا يقتل السيد اذا أمر عبده — وإن كان أعجميا — بقتل انسان .

قال ابن حبيب : وبقول ابن القاسم أقول : إن القتل عليهما . فأما أمر من لا خوف على المأمور فى مخالفته فإنه لا يلحق بالإكراه بل يقتل المأمور دون الآمر ، ويضرب الآمر ويحبس . وقال أحمد فى السيد يأمر عبده أن يقتل رجلا : يقتل السيد . وروى هذا القول عن على بن أبى طالب وأبى هريرة رضى الله عنهما . وقال على : ويستودع العبد السجن . وقال أحمد : ويحبس العبد ويضرب ويؤدب . وقال الثورى : يعزر السيد . وقال الحكم وحماد : يقتل العبد . وقال قتادة : يقتلان جميعا . وقال الشافعى : إن كان العبد فصيحا يعقل ، قتل العبد وعوقب السيد ، وإن كان العبد أعجميا فعلى السيد القود . وقال سليمان بن موسى : لا يقتل الآمر ولكن تقطع يديه ثم يعاقب ويحبس — وهو القول الثانى — ويقتل المأمور للمباشرة ؛ كذلك قال عطاء والحكم وحماد والشافعى وأحمد وإسحاق فى الرجل يأمر الرجل بقتل الرجل ، وذكره ابن المنذر . وقال زُفَر : لا يقتل واحد منهما — وهو القول الثالث — حكاه أبو المعالى فى البرهان ؛ ورأى أن الآمر والمباشر ليس واحد منهما مستقلا فى القود ؛ فلذلك لا يقتل واحد منهما عنده . والله أعلم .

الثانية عشرة — قرأ الجمهور ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ بالتشديد على المبالغة . وقرأ ابن محيصن ﴿ يَذْبَحُونَ ﴾ بالتخفيف . والأولى أرجح إذ الذبح متكرر . وكان فرعون على ما روى قد رأى فى منامه نارا خرجت

من بيت المقدس فأحرقت بيوت مصر؛ فأوّلت له رؤياه : أن مولودا من بنى إسرائيل ينشأ فيكون خراب ملكه على يديه . وقيل غير هذا؛ والمعنى متقارب .

الثالثــة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكُمْ ﴾ . إشارة الى جملة الأمر إذ هو خبر فهو كمفرد حاضر أى وفى فعلهم ذلك بكم بلاء : أى امتحان واختبار . وبلاء : نعمة؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ﴾ . قال أبو الهيثم : البلاء يكون حسنا و يكون سيئا ، وأصله المحنة ؛ والله عزّ وجلّ يبلو عبــده بالصنع الجميل ليمتحن شكره، ويبلوه بالبلوى التى يكرهها ليمتحن صبره ؛ فقيــل للحسن بلاء، وللسيئ بلاء؛ حكاه الهروى . وقال قوم : الإشارة بذلكم الى التنجية فيكون البلاء على هــذا فى الخير أى تنجيتكم نعمة من الله عليكم . وقال الجمهور : الإشارة الى الذبح ونحوه، والبلاء هنا فى الشر، والمعنى وفى الذبح مكروه وامتحان . وقال ابن كيسان : و يقال فى الخير : أبلاه الله و بلاه؛ وأنشـــد :

جزى اللهُ بالإحسان ما فعلا بكم ✽ وأبلاهما خيرَ البــلاء الذى يَبْلُو

بجمع بين اللغتين ؛ والأكثر فى الخــير أبليته ، وفى الشر بلوته ، وفى الاختبار ابتليته و بلوته ، قاله النحاس .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ ﴾ . إذ فى موضع نصب . وفرقنا : فلقنا ؛ فكان كل فرق كالطود العظيم أى الجبل . وأصل الفرق الفصل ؛ ومنه فَرْق الشعر، ومنه الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل أى يفصل ؛ ومنه : ﴿ فَٱلْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴾ يعنى الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل ؛ ومنه : ﴿ يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ﴾ يعنى يوم بدر كان فيه فرق بين الحق والباطل ؛ ومنه : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ ﴾ أى فصلناه وأحكمناه . وقرأ الزهرى : فرّقنا بتشديد الراء أى جعلناه فرقا . ومعنى بكم أى لكم ، فالباء بمعنى اللام . وقيل : البــاء فى مكانها أى فرقنا البحر بدخولكم إياه أى صاروا بين المــاءين ، فصار الفرق بهم ؛ وهذا أولى بيبسه فانفلق .

قوله تعالى : ﴿ ٱلْبَحْرَ ﴾ . البحر معروف سمى بذلك لاتساعه . ويقال : فَرَس بَحْرٌ إذا كان واسع الجرى أى كثيره ؛ ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وســلم فى مَنْدوب فرس أبى طلحة : " وإن وجدناه لبحرا " . والبحر : المــاء الملح . ويقال : أبحر المــاء : ملح ؛ قال نُصَيْب :

وقد عاد ماء الأرض بَحْـرا فزادني * إلى مَرَضي أن أبْحَر المَشْرَبُ العذبُ

والبَحْرة : البلدة ؛ يقال : هـذه بحرتنا أي بلدتنا . قاله الأموى . والبَحَرُ : السلال[1] يصيب الإنسان . ويقولون : لقيته صَحْرَةَ بَحْرَةَ أي بارزا مكشوفا . وفي الخبر عن كعب الأحبار قال : إن لله ملكا يقال له : صندفاييل ، البحار كلها في نقرة إبهامه . ذكره أبو نعيم عن ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدان عن كعب .

قوله : ﴿ فَأَنْجَيْنَاكُمْ ﴾ أي أخرجناكم منه ؛ يقال : نجوت من كذا نجاء ، ممدود ، ونجاة ، مقصور . والصدق مَنجاة . وأنجيت غيري ونجّيته . وقرئ بهما ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ ﴾ . ﴿ فَأَنْجَيْنَاكُمْ ﴾ .

قوله : ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ . يقال : غرِق في الماء غَرَقا فهو غَرِق وغارق أيضا ؛ ومنه قول أبي النجم :

* من بين مَقتولٍ وطافٍ غارِقِ[2] *

وأغرقه غيره وغرّقه فهو مغرَق وغريق . ولجام مغرَّق بالفضة أي محلًّى . والتغريق : القتل؛ قال الأعشى[3] :

ألا ليت قيساً غرّقته القوابلُ *

وذلك أن القابلة كانت تغرّق المولود في ماء السَّلَى عام القحط ، ذكرا كان أو أنثى حتى يموت . ثم جعل كل قتل تغريقا ؛ ومنه قول ذي الرمة :

إذا غَرَّقَتْ أرباضُها ثِنْيَ بَكْرةٍ * بتَيْهاءَ لم تُصبِحْ رَءوما سَلُوبُها

والأرباض : الحبال . والبَكْرة : الناقة الفتيّة . وثِنْيُها : بطنها الثاني ؛ وإنما لم تعطف على ولدها لما لحقها من التعب .

القول في اختلاف العلماء في كيفية إنجاء بني إسرائيل

فذكر الطبري أن موسى عليه السلام أوحى إليه أن يسرى من مصر ببني إسرائيل فأمرهم موسى أن يستعيروا الحليّ والمتاع من القبط ، وأحلّ الله ذلك لبني إسرائيل ؛ فسرى بهم موسى من أول

(١) قرحة تصيب الرئة أو زكام .

(٢) صدر البيت : فأصبحوا في الماء والخنادق

(٣) المراد به قيس بن مسعود الشيباني . وصدر البيت : أطورين في عام غزاة ورحلة

الليل، فأعلم فرعون فقال : لا يتبعهم أحد حتى تصيح الدِّيَكة ؛ فلم يصح تلك الليـلة بمصر ديك ؛ وأمات الله تلك الليلة كثيرا من أبناء القبط فاشتغلوا فى الدفن وخرجوا فى الاتباع مشرقين ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ . وذهب موسى الى ناحية البحر حتى بلغه . وكانت عدّة بنى إسرائيل نيفا على ستمائة ألف . وكانت عدّة فرعون ألف ألف ومائتى ألف . وقيـل : إن فرعون أتبعـه فى ألف ألف حصان سوى الإناث . وقيل : دخل إسرائيل — وهو يعقوب عليه السلام — مصر فى ستة وسبعين نفسا من ولده وولد ولده فأنمى الله عددهم وبارك فى ذريته، حتى خرجوا إلى البحر يوم فرعون وهم ستمائة ألف من المُقاتِلة سوى الشيوخ والذرّية والنساء . وذكر أبو بكر عبد الله بن محمـد بن أبى شيبة قال حدّثنا شَبَابة بن سَوّار عن يونس بن أبى إسحاق عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود أن موسى عليه السلام حين أسرى ببنى إسرائيل بلغ فرعون فأمر بشاة فذبحت، ثم قال : لا والله لا يفرغ من سلخها حتى تجتمع لى ستمائة ألف من القبط ؛ قال : فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر ؛ فقـال له : افرق، فقال له البحر : لقد استكبرت يا موسى ! وهل فَرَقْت لأحد من ولد آدم فأفرق لك ! قال : ومع موسى رجل على حصان له ؛ قال : فقال له ذلك الرجل : أين أمرت يانبىّ الله؟ فقال : ما أمرت إلا بهذا الوجه . قال : فأقحم فرسه فسبح فخرج . فقال : أين أمرت يا نبىّ الله؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه، قال : والله ما كَذَبتَ ولا كُذِّبتَ ؛ ثم اقتحم الثانيـة فسبح به حتى خرج، فقال : أين أمرت يانبىّ الله ؟ فقال : ما أمرت إلا بهـذا الوجه ؛ قال : والله ما كذبت ولا كذبت ؛ قال : فأوحى الله إليه : ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ فضربه موسى بعصاه، ﴿ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ . فكان فيه اثنا عشر فرقا، لاثنى عشر سِبْطًا، لكل سبط طريق يتراءون، وذلك أن أطواد المـاء صار فيها طيقانا وشبابيك يرى منها بعضهم بعضا، فلما خرج أصحاب موسى وقام أصحاب فرعون التطم البحر عليهم فأغرقهـم، ويذكر أن البحر هو بحر القُلْزم . وأن الرجل الذى كان مع موسى على الفرس هو فتاه يوشع بن نون . وأن الله تعـالى أوحى إلى البحر أن انفرق لموسى إذا ضربك ؛ فبات البحر تلك الليلة يضطرب ؛ فحين أصبح ضرب البحر وكنّاه أبا خالد . ذكره ابن أبى شـيبة أيضا . وقد أكثر المفسرون فى قصص هذا المعنى، وما ذكرناه كاف وسيأتى فى سورة يونس والشعراء زيادة بيان إن شاء الله تعالى .

فصــــل — ذكر الله تعالى الإنجاء والإغراق ، ولم يذكر اليوم الذى كان ذلك فيه . فروى مسلم عن ابن عباس أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قدم المدينة فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما هذا اليوم الذى تصومون فقالوا هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه وغرّق فرعون وقومه فصامه موسى شـكرا فنحن نصومه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فنحن أحق وأولى بموسى منكم فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه". وأخرجه البخارىّ أيضا عن ابن عباس ، وأن النبي صـلّى الله عليه وسـلّم قال لأصحابه : " أنتم أحق بموسى منهم فصوموا " .

مسئلة — ظاهر هذه الأحاديث تدل على أن النبيّ صـلّى الله عليه وسلّم إنمـا صام عاشوراء وأمر بصيامه اقتداء بموسى عليه السلام على ما أخبره به اليهود ، وليس كذلك لما روته عائشة رضى الله عنهـا قالت : كان يوم عاشوراء تصومه قريش فى الجاهلية ، وكان رســول الله صلى الله عليه وسلم يصومه فى الجاهلية ، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه ، فلما فرض رمضان ترك صيام يوم عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه . أخرجه البخارىّ ومسلم .

وإن قيل : يحتمل أن تكون قريش إنمـا صامته بإخبار اليهود لهـا لأنهم كانوا يسمعون منهم ، لأنهم كانوا عندهم أهل علم ، فصامه النبيّ عليه السلام كذلك فى الجاهلية أى بمكة ، فلما قدم المدينة ووجد اليهود يصومونه قال : " نحن أحق وأولى بموسى منكم " فصامه اتباعا لموسى . وأمر بصيامه أى أوجبه وأكد أمره ، حتى كانوا يُصوّمونه الصغار . قلنا هذه شبهة من قال : إن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لعلّه كان متعبّدا بشريعة موسى ، وليس كذلك على ما يأتى بيانه فى الأنعام عند قوله تعالى : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ .

مسئلة — اختلف فى يوم عاشــوراء ، هل هو التاسع من المحرّم أو العاشر ؟ فذهب الشافعىّ الى أنه التاسع ، لحديث الحكم ابن الأعرج قال . انتهيت الى ابن عباس رضى الله عنهما وهو متوسّد رداءه فى زمزم ، فقلت له : أخبرنى عن صوم عاشوراء ، فقال : اذا رأيت هلال المحرّم فاعدُدْ وأصبح يوم التاسع صائمـا . قلت : هكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يصومه ؟ قال : نعم . خرّجه مسلم .

وذهب سـعيد بن المسيّب والحسن البصريّ ومالك وجمـاعة من السلف إلى أنه العـاشر . وذكر الترمذيّ حديث الحكم ولم يصـفه بصحة ولا حسن . ثم أردفه أنبأنا قتيبة أنبأنا عبـد الوارث عن يونس عن الحسن عن ابن عباس قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوم عاشوراء يوم العاشر . قال أبو عيسى (١) : حديث ابن عباس حديث حسن صحيح . قال الترمذيّ : وروى عن ابن عباس أنه قال : صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود . وبهذا الحديث يقول الشافعيّ وأحمـد بن حنبل و إسحاق . قال غيره : وقول ابن عباس للسائل : فاعدد وأصبح يوم التاسع صائما ، ليس فيه دليل على ترك صوم العاشر، بل وعد أن يصوم التاسع مضافا الى العاشر. قالوا : فصيام اليومين جمع بين الأحاديث . وقول ابن عباس للحكم لمـا قال له : هكذا كان محمد صلّى الله عليه وسلّم يصومه ؟ قال : نعم . معناه أن لو عاش ؛ وإلا فمـا كان النبيّ صـلّى الله عليه وسلّم صام التاسع قطّ . يبيّنه ما خرّجه ابن ماجه فى سننه ومسلم فى صحيحه عن ابن عباس قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "لئن بقيت الى قابل لأصومنّ اليوم التاسع" .

فضيلة — روى أبو قتادة أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "صيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يُكفّر السنة التى قبله" . أخرجه مسلم والترمذيّ . وقال : لا نعلم فى شىء من الروايات أنه قال : "صيام يوم عاشوراء كفارة سنة" إلا فى حديث أبى قتادة .

قوله تعالى :﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ . جملة فى موضع الحال . ومعناه بأبصاركم؛ فيقال : إن آل فرعون طفوا على المـاء فنظروا اليهم يغرقون ، والى أنفسهم ينجون ففى هذا أعظم المنة . وقد قيل : إنهم أخرجوا لهم حتى رأوهم . فهذه منّة بعد منّة . وقيـل : المعنى وأنتم تنظرون أى ببصائركم للاعتبار، لأنهـم كانوا فى شـغل عن الوقوف والنظر بالأبصار . وقيل : المعنى وأنتم بحال من ينظر لو نظر ؛ كما تقول : هذا الأمر منك بمرأى ومسمع أى بحال تراه وتسمعه إن شئت . وهذا القول والأوّل أشبه بأحوال بنى إسرائيل؛ لتوالى عدم الاعتبار فيما صدر من بنى إسرائيل بعد خروجهم من البحر؛ وذلك أن الله تعالى لمـا أنجاهم وغرّق عدوهم قالوا : ياموسى إن قلوبنا لا تطمئن ، إن فرعون قد غرق! حتى أمر الله البحر فلفظه فنظروا اليه .

(١) أبو عيسى : كنية للإمام الترمذى .

ذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن قيس بن عُباد[(١)] أن بني إسرائيل قالت : ما مات فرعون وما كان ليموت أبدا! قال : فلم يَعْدُ أن سمع الله تكذيبهم نبيّه عليه السلام ، رمى به على ساحل البحر كأنه ثور أحمر يتراءاه بنو إسرائيل ؛ فلما اطمأنّوا وبُعثوا من طريق البرّ الى مدائن فرعون حتى نقلوا كنوزه وغرقوا في النعمة ، رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم؛ قالوا : ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ؛ حتى زجرهم موسى وقال : أغير الله أبغيكم إلها وهو فضّلكم على العالمين ؛ أي عالمي زمانه . ثم أمرهم أن يسيروا الى الأرض المقدّسة التي كانت مساكن آبائهم ويتطهروا من أرض فرعون . وكانت الأرض المقدّسة في أيدي الجبارين قد غلبوا عليها فاحتاجوا الى دفعهم عنها بالقتال؛ فقالوا : أتريد أن تجعلنا لَحمة للجبارين ! فلو أنك تركتنا في يد فرعون كان خيرا لنا . قال : ﴿ يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ الى قوله : ﴿ قَاعِدُونَ ﴾ حتى دعا عليهم وسمّاهم فاسقين . فبقوا في التّيه أربعين سنة عقوبة ثم رحمهم فمنّ عليهم بالسّلوى وبالغمام . على ما يأتي بيانه . ثم سار موسى الى طورسيناء ليجيئهم بالتوراة؛ فاتخذوا العجل — على ما يأتي بيانه — ثم قيل لهم : قد وصلتم الى بيت المقدس فادخلوا الباب سجّدا وقولوا حطة . على ما يأتي . وكان موسى عليه السلام شديد الحياء ستّيرا؛ فقالوا : إنه آدر. فلما اغتسل وضع على الحجر ثوبه ؛ فعدا الحجر بثوبه الى مجالس بني إسرائيل ، وموسى على أثره عريان وهو يقول : ياحجر ثوبي ! فذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ . على ما يأتي بيانه . ثم لما مات هارون قالوا له : أنت قتلت هارون وحسدته ؛ حتى نزلت الملائكة بسريره وهارون ميت عليه — وسيأتي في المائدة — ثم سألوه أن يعلموا آية في قبول قربانهم ؛ فجعلت نار تجيء من السماء فتقبل قربانهم ؛ ثم سألوه أن يبيّن لنا كفارات ذنوبنا في الدنيا؛ فكان من أذنب ذنبا أصبح على بابه مكتوب : « عملت كذا ، وكفارته قطع عضو من أعضائك » يسميه له ؛ ومن أصابه بول لم يطهر حتى يقرضه ويزيل جلدته من بدنه؛ ثم بدّلوا التوراة وافتروا على الله وكتبوا بأيديهم واشتروا به عرضا؛ ثم صار أمرهم الى أن قتلوا أنبياءهم ورسلهم . فهذه معاملتهم مع ربّهم وسيرتهم في دينهم وسوء أخلاقهم . وسيأتي بيان كل فصل من هذه الفصول مستوفًى في موضعه إن شاء الله تعالى .

---

(١) عباد بضم العين وتخفيف الباء الموحدة كما في المشتبه للذهبي وغيره .

وقال الطبري : وفي أخبار القرآن على لسان محمد عليه السلام بهذه المغيّبات التي لم تكن من علم العرب ولا وقعت إلا في حق بني إسرائيل دليل واضح عنـد بني إسرائيل قائم عليهـم بنبوّة محمد صلّى الله عليه وسلّم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ . فيه ست مسائل .

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ . قرأ أبو عمرو « وعدنا » بغـير ألف واختاره أبو عبيد ورجحه، وأنكر « واعدنا » قال : لأن المواعدة إنما تكون من البشر فأما الله جلّ وعزّ فإنمـا هو المنفرد بالوعد والوعيد . على هذا وجدنا القرآن كقوله عزّ وجلّ : ﴿ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ ﴾، وقوله : ﴿ وَإِذْ يَعِـدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ . قال مكيّ : وأيضا فإن ظاهر اللفظ فيه وعد من الله تعالى لموسى ، وليس فيه وعد من موسى؛ فوجب حمـله على الواحد لظاهر النص أن الفعل مضاف إلى الله تعـالى وحده ؛ وهي قراءة الحسن وأبي رجاء وأبي جعفر وشـيبة وعيسى بن عمر؛ وبه قرأ قتادة وابن أبي إسحاق . قال أبو حاتم : قراءة العامة عندنا « وعدنا » بغير ألف ، لأن المواعدة أكثر ما تكون بين المخلوقين والمتكافئين ، كل واحد منهما يعِـدُ صاحبه . قال الجوهري : الميعاد : المواعدة والوقت والموضع . قال مكيّ : المواعدة أصلها من اثنين، وقد تأتي المفاعلة من واحد في كلام العـرب ؛ قالوا : طارقتُ النّعل، وداويت العليـل ، وعاقبت اللص . والفعل من واحد؛ فيكون لفظ المواعدة من الله خاصـة لموسى كمعنى وعدنا؛ فتكون القراءتان بمعنى واحد . والاختيـار واعدنا بالألف لأنه بمعنى وعدنا في أحد معنييـه، ولأنه لا بدّ لموسى من وعد أو قبول يقوم مقـام الوعد فتصح المفاعلة . قال النحاس : وقراءة واعدنا بالألف أجود وأحسن . وهي قراءة مجاهد والأعرج وابن كثير ونافع والأعمش وحمـزه والكسائي ؛ وليس قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ ﴾ . من هذا في شيء، لأن واعدنا موسى إنما هو من باب الموافاة؛ وليس هذا من الوعد والوعيد في شيء، وإنمـا هو من قولك : موعدك يوم الجمعة ، وموعدك موضع كذا . والفصيح في هـذا أن يقال : واعدته . قال أبو إسحـاق الزّجاج : واعدنا ها هنا بالألف جيّـد ، لأن الطاعة في القبول بمنزلة المواعدة؛ فمن الله جلّ وعزّ وعد، ومن موسى قبول وإتباع يجري مجرى المواعدة . قال ابن عطية : ورجح أبوعبيـدة وعدنا . وليس بصحيح ، لأن قبول موسى لوعد الله والتزامه وارتقابه يشبه المواعدة .

الثانيــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ مُوسَى ﴾ موسى اسم أعجمي لا ينصرف للعجمة والتعريف .
والقبط على ما يُروى يقولون للماء : مو ، وللشجر : شا[1] . فلما وجد موسى في التابوت عند
ماء وشجر، سمّي موسى . قال السدّي : لما خافت عليه أمه جعلته في التابوت وألقته في اليمّ ـــ
كما أوحى الله إليها فألقته في اليم ـــ بين أشجار عند بيت فرعون ، فخرج جوارى آسية امرأة
فرعون يغتسلن فوجدنه فسمّي باسم المكان . وذكر النقاش وغيره : أن اسم الذى التقطته صابوث .
قال ابن إسحاق : وموسى هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب إسرائيل الله
ابن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام .

الثالثة ـــ قوله تعـالى : ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ أربعين نصب على المفعول الثانى ، وفي الكلام
حذف ، قال الأخفش : التقدير وإذ واعدنا موسى تمام أربعين ليلة ، كما قال : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾
والأربعون كلها داخلة في الميعاد .

والأربعون في قول أكثر المفسرين ذو القعدة وعشر من ذى الحجة ؛ وكان ذلك بعد أن جاوز
البحر، وسأله قومه أن يأتيهم بكتاب من عند الله، فخرج الى الطور في سبعين من خيار بني إسرائيل،
وصعدوا الجبل وواعدهم الى تمام أربعين ليلة ؛ فعدّوا فيما ذكر المفسرون عشرين يوما وعشرين
ليلة، وقالوا : قد أخلفنا موعده . فاتخذوا العجل، وقال لهم السامريّ : هذا إلهكم وإله موسى .
فاطمأنّوا الى قوله . ونهاهم هارون وقال : ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا
أَمْرِي . قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾ . فلم يتبع هارون . ولم يطعه
في ترك عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفا فيما روى في الخبر . وتهافت في عبادته سائرهم وهم أكثر
من ألفى ألف ؛ فلما رجع موسى ووجدهم على تلك الحال ، ألقى الألواح فرفع من جملتها ستة
أجزاء وبقي جزء واحد وهو الحلال والحرام وما يحتاجون ؛ وأحرق العجل وذراه في البحر، فشربوا
من مائه حُبّاً للعجل، فظهرت على شفاههم صفرة وورمت بطونهم، فتابوا ولم تقبل توبتهم دون
أن يقتلوا أنفسهم ؛ فذلك قوله تعـالى : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ . فقاموا بالخناجر

(١) كذا في بعض نسخ الأصول، وفي بعضها : «سا» بالسين المهملة . وفي القاموس وشرحه : «... (وسا الشجر) ؛
كذا في سائر النسخ ؛ وقال ابن الجواليقي : هو بالشين المعجمة .

والسيوف بعضهم إلى بعض من لدن طلوع الشمس إلى ارتفاع الضحى؛ فقتل بعضهم بعضا لا يسئل والد عن ولده ولا ولد عن والده، ولا أخ عن أخيه ولا أحد عن أحد؛ كل من آستقبله ضربه بالسيف وضربه الآخر بمثله؛ حتى عجّ موسى إلى الله صارخا يا ربّاه قد فنيت بنو إسرائيل! فرحمهم الله وجاد عليهم بفضله؛ فقبل توبة من بق وجعل من قتل فى الشهداء؛ على ما يأتى .

الرابعة — إن قيل : لم خصّ الليالى بالذكر دون الأيام ؟ قيل له : لأن الليلة أسبق من اليوم فهى قبله فى الرتبة، ولذلك وقع بها التاريخ؛ فالليالى أوّل الشهور والأيام تبع لها .

الخامسة — قال النّقاش : فى هذه الآية إشارة الى صلة الصوم لأنه لو ذكر الأيام لأمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل، فلما نصّ على الليالى اقتضت قوّة الكلام أنه عليه السلام واصل أربعين يوما بلياليها . قال ابن عطية : سمعت أبى يقول : سمعت الشيخ الزاهد الإمام الواعظ أبا الفضل الجوهرىّ رحمه الله يعظ الناس فى الخلوة بالله والدنوّ منه فى الصلاة ونحوها، وأن ذلك يشغل عن كل طعام وشراب . ويقول : أين حال موسى فى القرب من الله! ووصل ثمانين من الدهر من قوله حين سار لخضر لفتاه فى بعض يوم : ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ . قلت : وبهذا استدل علماء الصوفية على الوصال، وأن أفضله أربعون يوما . وسيأتى الكلام فى الوصال فى آى الصيام من هذه السورة إن شاء الله تعالى؛ ويأتى فى الأعراف زيادة أحكام لهذه الآية عند قوله تعالى : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً ﴾ . ويأتى لقصة العجل بيان فى كيفيته وخواره هناك وفى طه إن شاء الله تعالى .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ . أى آتخذتموه إلها من بعد موسى . وأصل آتخذتم ائتخذتم من الأخذ ووزنه آفتعلتم؛ سهلت الهمزة الثانية لامتناع همزتين فجاء إيتخذتم فاضطربت الياء فى التصريف جاءت ألفا فى ياتخذ، وواوا فى موتخذ، فبدلت بحرف جلد ثابت من جنس ما بعدها وهى التاء وأدغمت؛ ثم اجتلبت ألف الوصل للنطق؛ وقد يستغنى عنها إذا كان معنى الكلام التقرير؛ كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا ﴾ . فاستغنى عن ألف الوصل بألف التقرير؛ قال الشاعر (١) :

(١) هو ذو الرمة .

أَسْتَحْدَثَ الرَّكْبُ عن أشياعهم خَبَرًا * أم راجع القلبَ من أطرابه طربُ

ونحوه في القرآن : ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ ﴾ . ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ ﴾ . ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ ﴾ . مذهب أبي عليّ الفارسيّ أن اتخذتم ، من تخذ لا من أخذ . ﴿ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ . جملة في موضع الحال . وقد تقدّم معنى الظلم . والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ الآية . فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ ﴾ . العفو : عفو الله جلّ وعزّ عن خلقه ؛ وقد يكون بعد العقوبة وقبلها ، بخلاف الغفران فانه لا يكون معه عقوبة البتّة ؛ وكل من استحق عقوبة فتركت له فقد عفي عنه . فالعفو : محو الذنب أي محونا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم ؛ مأخوذ من قولك : عفت الريح الأثر أي أذهبته . وعفا الشيء : كثر . فهو من الأضداد ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ عَفَوْا ﴾ .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ . أي من بعد عبادتكم العجل . وسمّى العجل عجلا لاستعجالهم عبادته . والله أعلم . والعجل : ولد البقرة . والعِجّوْل مثله ، والجمع العجاجيل ؛ والأنثى عجلة . عن أبي الجراح .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ . كي تشكرون عفو الله عنكم . وقد تقدّم معنى لعلّ . وأما الشكر فهو في اللغة الظهور من قوله : دابّة شكور ؛ اذا ظهر عليها من السّمَن فوق ما تُعطَى من العلف . وحقيقته الثناء على الإنسان بمعروف يوليكه ، كما تقدّم في الفاتحة . قال الجوهري : الشكر : الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف ؛ يقال : شكرته وشكرت له ؛ وباللام أفصح . والشكران : خلاف الكفران . وتشكّرت له مثل شكرت له . وروى الترمذيّ وأبو داود عن أبي هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : " لا يشكر الله من لا يشكر الناس " . قال الخطّابيّ (١) : هذا الكلام يتأوّل على معنيين ، أحدهما : أن من كان من طبعه كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعم الله عزّ وجلّ وترك الشكر له . والوجه الآخر : أن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذ كان العبد لا يشكر إحسان الناس إليه ويكفر معروفهم ، لاتصال أحد الأمرين بالآخر .

---

(١) الخطابي هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي ، كان فقيها أديبا محدّثا ، توفي سنة ثمان وثمانين وثلثمائة بمدينة بست ابن خلكان .

الرابعة — فى عبارات العلماء فى معنى الشكر . فقال سهل بن عبد الله : الشكر : الاجتهاد فى بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصية فى السر والعلانية . وقالت فرقة أخرى : الشكر هو الاعتراف فى تقصير الشكر للنعم؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ . فقال داود : كيف أشكرك يارب ، والشكر نعمة منــك ! قال : الآن قد عرفتنى وشكرتنى؛ إذ قد عرفت أن الشكر منى نعمة . قال : يا رب فأرنى أخْفَى نعمك علىّ . قال : يادود تنفّس ! فتنفس داود . فقال الله تعالى : من يحصى هذه النعمة الليل والنهار . وقال موسى عليه السلام : كيف أشكرك وأصغر نعمة وضعتها بيدى من نعمك لا يجازى بها عملى كله ! فأوحى الله إليه يا موسى الآن شكرتنى . وقال الجنيد : حقيقة الشكر، العجز عن الشكر . وعنــه قال : كنت بين يدى السرىّ السَّقطىّ ألعب وأنا ابن ســبع سنين و بين يديه جماعة يتكلمون فى الشــكر ؛ فقال لى : ياغلام ما الشكر؟ فقلت : ألا يعصى الله بنعمة . فقال لى : أخشى أن يكون حظّك من الله لسانك . قال الجنيد : فلا أزال أبكى على هــذه الكلمة التى قالها السرىّ لى . وقال الشبلىّ : الشكر : التواضع والمحافظة على الحسنات، ومخالفة الشهوات وبذل الطاعات، ومراقبة جبار الأرض والسموات . وقال ذو النون المصرىّ أبو الفيض : الشكر لمن فوقك بالطاعة، ولنظيرك بالمكافأة، ولمن دونك بالإحسان والإفضال .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَـا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ ﴾ . إذ ، اسم للوقت المــاضى . وإذا، اسم للوقت المستقبل . وآتينا : أعطينا . وقد تقدّم جميع هذا . والكتاب : التوراة بإجمــاع من المتأولين . واختلف فى الفرقان؛ فقال الفرّاء وقُطرُب : المعنى آتينا موسى التوراة، ومحمدا عليه السلام الفرقان . قال النحاس : هــذا خطأ فى الإعراب والمعنى؛ أما الإعراب فإن المعطوف على الشىء مثله ؛ وعلى هذا القول يكون المعطوف على الشىء خلافه . وأما المعنى فقد قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ . قال أبو إسحاق الزجاج : يكون الفرقان هو الكتاب أعيد ذكره باسمين تأكيدا . وحكى عن الفرّاء ؛ ومنه قول الشاعر[1] :

فقدّدتِ الأديم لراهشَيه[2] * وألفى قولها كذبا ومَينا

(١) هو عدى بن زيد .

(٢) فى الأصول : «وعدمت» . والتصويب عن اللسان مادة «مين» .

وقال آخر[(١)]:

ألا حبّذا هند وأرض بها هند * وهند أتى من دونها النّأى والبُعدُ

فنسق البعد على النّأى، والمين على الكذب، لاختلاف اللفظين تأكيدا؛ ومنه قول عنترة :

حُيِّيت من طلل تقادم عهده * أقوَى وأقفر بعد أمّ الهيثم

قال النحاس : وهذا إنما يجئ فى الشعر . وأحسن ما قيل فى هذا قول مجاهد؛ فرقا بين الحق والباطل أى الذى علمه إياه . وقال ابن زيد[(٢)] : الفرقان : انفراق البحر له حتى صار فرقا فعبروا . وقيل : الفرقان: الفرج من الكرب لأنهم كانوا مستعبدين مع القبط؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ . أى فرجا ومخرجا . وقيل : إنه الحجة والبيان . قاله ابن بحر . وقيل : الواو صلة ، والمعنى آتينا موسى الكتاب الفرقان ، والواو قد تزاد فى النعوت ؛ كقولهم : فلان حسن وطويل ؛ وأنشد :

الى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة فى المزدحم

أراد الى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة ؛ ودليل هذا التأويل قوله عز وجل : ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَىْءٍ﴾ . أى بين الحرام والحلال والكفر والإيمان والوعد والوعيد وغير ذلك . وقيل : الفرقان : الفرق بينهم و بين قوم فرعون؛ أنجى هؤلاء وغرق أولئك . ونظيره : ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ . فقيل : يعنى به يوم بدر؛ نصر الله فيه محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وأهلك أبا جهل وأصحابه . ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ . لكى تهتدوا من الضلالة . وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ . الى قوله : ﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ . قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ . القوم : الجماعة الرجال دون النساء؛ قال الله تعالى : ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ . ثم قال : ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾ . وقال زهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى * أقوم آل حصن أم نساء

(١) هو الحطيئة .

(٢) فى أكثر الأصول : « ابن يزيد » . والتصويب عن تفسير الطبرى، والشوكانى .

وقال تعـالى : ﴿ ولوطا إذ قال لقومِه ﴾ . أراد الرجال دون النساء . وقـد يقع القوم على الرجال والنساء، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ . وكذا كل نبي مرسـل الى النساء والرجال جميعا . قوله تعـالى : ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ . منادى مضاف . وحذفت الياء في يا قوم، لأنه موضع حذف والكسرة تدل عليها، وهي بمنزلة التنوين فحذفتها كما تحذف التنوين من المفرد . ويجوز في غير القرآن إثباتها ساكنة ، فتقول : ياقومي، لأنها اسم وهي في موضع خفض . وإن شئت فتحتها وان شئت ألحقت معها هاء، فقلت : يا قوميه . وإن شئت أبدلت منها ألفا لأنها أخف، فقلت : يا قوما، وإن شئت قلت : يا قوم، بمعنى يأيهـا القوم . وإن جعلتهم نكرة نصبت ونونت . وواحد القوم امرؤ على غير اللفظ . وتقول : قوم وأقوام ، وأقاوم، جمع الجمع . والمراد هنا بالقوم عبدة العجل ، وكانت مخاطبته عليه السلام لهم بأمر من الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾. استغنى بالجمع القليل عن الكثير، والكثير نفوس . وقد يوضع الجمع الكثير موضع جمع القلة ، والقليل موضع الكثرة ، قال الله تعـالى : ﴿ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ . وقال : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي الانفس ﴾ . ويقال لكل من فعل فعلا يعود عليه ضرره : إنمـا أسأت الى نفسك . وأصل الظلم وضـع الشيء في غير موضـعه . ثم قال تعالى : ﴿ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ . قال بعض أرباب المعاني : عجل كل إنسان نفسه، فمن أسقطه وخالف مراده فقد برئ من ظلمه . والصحيح أنه هنا عجل على الحقيقة عبدوه كما نطق به التنزيل . والحمد لله . قوله تعالى ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾ . لمـا قال لهم : فتوبوا الى بارئكم . قالوا : كيف؟ قال : ﴿ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ . قال أرباب الخواطر : ذللوها بالطاعات وكفوها عن الشهوات . والصحيح انه قتل على الحقيقة هنا . والقتل : إماتة الحركة . وقتلت الخمر : كسرت شدتها بالمـاء . قال سـفيان بن عيينة : التوبة نعمة من الله أنعم الله بها على هذه الأمة دون غيرها من الأمم ، وكانت توبة بني إسرائيل القتل . وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده . قال الزهري : لمـا قيل لهم : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ . قاموا صفين وقتـل بعضهم بعضا ، حتى قيـل لهم : كُفوا . فكان ذلك شهادة للمقتول وتوبة للحي . على ما تقـدم . وقال بعض المفسرين : أرسـل الله عليهم ظلاما ففعلوا ذلك . وقيـل : وقف الذين عبدوا العجل صفًا ، ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسـلاح

فقتلوهم . وقيل : قام السبعون الذين كانوا مع موسى فقتلوا إذ لم يعبدوا العجل [مع] من عبد العجل .
ويروى أن يوشع بن نون خرج عليهم وهم محتبون فقال : ملعون من حل حبوته أو مدّ طرفه إلى قاتله أو آتقاه بيد أو رجل . فما حلّ أحد منهم حبوته حتى قتل منهم ؛ يعني من قتل ؛ وأقبل الرجل يقتل من يليه . ذكره النحاس وغيره . وإنما عوقب الذين لم يعبدوا العجل بقتل أنفسهم — على القول الأول — لأنهم لم يغيّروا المنكر حين عُبِدَ، وإنما اعتزلوا ، وكان الواجب عليهم أن يقاتلوا من عبده . وهذه سنة الله في عباده إذا فشا المنكر ولم يغيّر عوقب الجميع . روى جرير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز منهم وأمنع لا يغيّرون إلا عمّهم الله بعقاب » . أخرجه ابن ماجه في سننه . وسيأتي الكلام في هذا المعنى إن شاء الله تعالى . فلما استحرّ فيهم القتل وبلغ سبعين ألفا عفا الله عنهم . قاله ابن عباس وعليّ رضي الله عنهما . وإنما رفع الله عنهم القتل لأنهم أعطوا المجهود في قتل أنفسهم . فما أنعم الله على هذه الأمة نعمة بعد الإسلام هي أفضل من التوبة . وقرأ قتادة : فأقيلوا أنفسكم . من الإقالة أي استقيلوها من العثرة بالقتل . قوله تعالى : ﴿ بَارِئِكُمْ ﴾ . البارئ : الخالق ؛ وبينهما فرق وذلك أن البارئ هو المبدع المحدث . والخالق هو المقدّر النّاقل من حال الى حال . والبرية : الخلق ؛ وهي فعيلة بمعنى مفعولة غير أنها لا تهمز . وقرأ أبو عمرو « بارِئْكم » بسكون الهمزة — ويشعركم وينصركم ويأمركم — واختلف النحاة في هذا ؛ فمنهم من يسكن الضمة والكسرة في الوصل ؛ وذلك في الشّعر . وقال أبو العبّاس المبرّد : لا يجوز التسكين مع توالي الحركات في حرف الإعراب في كلام ولا شعر . وقراءة أبي عمرو لحن . قال النحاس وغيره : وقد أجاز ذلك النحويون القدماء الأئمة ، وأنشدوا :

إذا آعوججن قلت صاحبْ قوّم * بالدّو أمثال السّفين العُوّم

وقال آمرؤ القيس :

فاليوم أشربْ غير مستحقِبٍ * إثما من الله ولا واغِلِ

وقال آخر :

* قالت سليمى اشترْ لنا سويقا *

قلت : والأول أصح ، فإن بنى إسرائيل قد رأوا الجبل فى الهواء ساقطا عليهم والنار محيطة بهم ، وذلك مما اضطرهم إلى الإيمان . وبقاء التكليف ثابت عليهم ، ومثلهم قوم يونس . ومحال أن يكونوا غير مكلّفين . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ . الآية . فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾ أى جعلناه عليكم كالظلّة . والغمام جمع غمامة كسحابة وسحاب . قاله الأخفش سـعيد . قال الفراء : ويجوز غمائم وهى السحاب لأنها تغم السماء أى تسترها ، وكل مغطًّى فهو مغموم ، ومنـه المغموم على عقله . وغُمّ الهلال إذا غطاه الغيم . والغين مثل الغيم ، ومنه قوله عليه السلام : "إنه ليُغانُ على قلبى" . قال صاحب العين : غين عليه : غُطّى عليه . والغين : شجر ملتف . وقال السدّى : الغمام : السحاب الأبيض . وفعل هذا بهم ليقيهم حرّ الشمس نهارا ، و يتجلى فى آخره ليستضيئوا بالقمر ليلا . وذكر المفسرون أن هذا جرى فى التّيه بين مصر والشام لمـا امتنعوا من دخول مدينة الجبارين وقتالهم ، وقالوا لموسى : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا ﴾ . فعوقبوا فى ذلك الفَحْص[1] أربعين سنة يتيهون فى خمسة فراسخ أو ستة . روى أنهم كانوا يمشون النهار كله وينزلون للبيت فيصبحون حيث كانوا بكرة أمس . وإذ كانوا بأجمعهم فى التّيه قالوا لموسى : من لنـا بالطعام ! فأنزل الله عليهم المنّ والسّلوى . قالوا : من لنا من حر الشمس ! فظلل عليهم الغمام . قالوا : فبم نستصبح ! فضرب لهم عمود نور فى وسط محلتهم . وذكر مكّىّ : عمود من نار . قالوا : من لنـا بالمـاء ! فأمر موسى بضرب الحجر . قالوا : من لنا باللباس ! فأعطوا ، ألا يبلى لهم ثوب ولا يخلق ولا يدرن ، وأن تنمو صغارها حسب نمو الصبيان . والله أعلم .

الثانيـة — قوله تعـالى . ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴾ . اختلف فى المنّ ما هو وتعيينـه على أقوال . فقيل : الترنجبين[2] — بتشديد الراء وتسكين النون ، ذكره النحاس ، ويقال : الطّرنجبين بالطاء — وعلى هذا أكثر المفسرين . وقيل : صمغة حلوة . وقيل : عسل . وقيل : شراب حلو .

(1) الفحص : كل موضع يسكن . وفى حديث كعب : ان الله بارك فى الشام وخص بالتقديس من فحص الأردن الى رفح ، وفحصه ما بسط منه وكشف من نواحيه . القاموس ونهاية ابن الأثير .

(2) الترنجبين : طل يقع من السماء ، وهو ندى شبيه بالعسل جامد متحبب . عن مفردات ابن البيطار .

وقيل : خبز الرُّقاق، عن وهب بن منبّه . وقيل : المنّ مصدر يعم جميع ما منّ الله به على عباده من غير تعب ولا زرع، ومنه قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل : "الكمأة من المنّ الذى أنزل الله على بنى إسرائيل وماؤها شفاء للعين"، فى رواية "من المنّ الذى أنزل الله على موسى" . رواه مسلم . قال علماؤنا : وهذا الحديث يدل على أن الكمأة مما أنزل الله على بنى إسرائيل أى مما خلقه الله لهم فى التيه . قال أبو عبيد : إنما شبهها بالمنّ لأنه لا مؤونة فيها ببذر ولا سقى ولا علاج ؛ فهى منه أى من جنس منّ بنى إسرائيل فى أنه كان دون تكلّف . روى أنه كان ينزل عليهم من طلوع الفجر الى طلوع الشمس كالثلج ؛ فيأخذ الرجل ما يكفيه ليومه فإن ادّخر منه شيئا فسد عليه إلا فى يوم الجمعة فإنهم كانوا يدّخرون ليوم السبت فلا يفسد عليهم؛لأن يوم السبت يوم عبادة وما كان ينزل عليهم يوم السبت شيء .

الثالثة ـــ لما نصّ عليه السّلام على أن ماء الكمأة شفاء للعين؛ قال بعض أهل العلم بالطب : أما لتبريد العين من بعض ما يكون فيها من الحرارة فتستعمل بنفسها مفردة ، وأما لغير ذلك فمركبة مع غيرها . وذهب أبو هريرة رضى الله عنه إلى استعمالها بحتا فى جميع مرض العين . وهذا كما استعمل أبو وَجْزَة العسل فى جميع الأمراض كلها حتى فى الكحل . على ما يأتى بيانه فى سورة النحل إن شاء الله تعالى . وقال أهل اللغة : الكَمْءُ واحد، وكَمْأَان اثنان، وأكْمُؤ ثلاثة، فإذا زادوا قالوا : كمأة، بالتاء على عكس شجرة وشجر . والمنّ، اسم جنس لا واحد له من لفظه؛ مثل الخير والشر . قاله الأخفش .

الرابعة ـــ قوله تعالى : ﴿ والسَّلْوَى ﴾ . اختلف فى السلوى فقيل : هو السُّمَانَى بعينه . قاله الضحاك . قال ابن عطية : السلوى : طير بإجماع المفسرين ، وقد غلط الهُذَلِيّ[1] فقال :

وقاسمها بالله جهدا لأنتما ٭ ألذ من السلوى إذا ما نشورها

ظن السلوى العسل .

قلت : ما ادّعاه من الإجماع لا يصح؛ وقد قال المؤرِّج[2] أحد علماء اللغة والتفسير: إنه العسل؛ واستدل ببيت الهذلى وذكر أنه كذلك بلغة كنانة، سمى به لأنه يسلى به؛ ومنه عين السُّلوان[3]، وأنشد :

(١) هو خالد بن زهير .

(٢) هو مؤرّج بن عمر السدوسى ، ويكنى أبا فيد . كان من أصحاب الخليل بن أحمد ؛ مات سنة خمس وتسعين ومائة .

(٣) عين السلوان : عين نضاحة يتبرك بها ويستشفى منها بالبيت المقدس . معجم ياقوت .

لو أشرب الســـلوان ما سَليتُ * ما بى غنًى عنــك وإن غَنيتُ

وقال الجوهرى : والسلوى العسل؛ وذكر بيت الهذلىّ :

* ألذ من السلوى إذا ما نشورها *

ولم يذكر غلطا . والسُّــلوانة (بالضم) : خرزة كانوا يقولون إذا صب عليها ماء المطــر فشربه العاشق سلا؛ قال :

شربتُ على سُــلوانةٍ ماء مُزْنةٍ * فلا وجديدِ العيش يامَىُّ ما أسلو

واسم ذلك المــاء السُّلوان . وقال بعضهم . السلوان : دواء يُسقاه الحزين فيسلو؛ والأطبـاء يسمونه المفرِّح ؛ يقال : سليت وسلوت لغتان . وهو فى ســلوة من العيش أى فى رغد ، عن أبى زيد .

الخامسة — واختلف فى السلوى هل هو جمع أو مفرد؟ فقال الأخفش : جمع لا واحد له من لفظه ؛ مثل الخير والشر؛ وهو يشبه أن يكون واحده سلوى مثل جماعه ، كما قالوا : دِفْلَى[1] للواحد والجماعة . وسُمَانى وشُكَاعَى[2] فى الواحد والجمع . وقال الخليل . واحده سَلواة ؛ وأنشد :

وإنى لتعـــرونى لذكراك ســـلوة * كما انتفض السـلواة من بلل المطر

وقال الكسائى : السلوى : واحدة، وجمعه سلاوى .

السادسة — السلوى عطف على المنّ ولم يظهر فيه الإعراب لأنه مقصور ووجب هــذا فى المقصــور كله ، لأنه لا يخلو من أن يكون فى آخره ألف ؛ قال الخليــل : والألف حرف هوائى لا مستقر له ؛ فأشبه الحركة فاستحالت حركته . وقال الفراء : لو حركت الألف صارت همزه .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ كُلُوا ﴾ . فيه حذف تقديره وقلنا : كلوا ؛ فحذف اختصارا لدلالة الظاهر عليه . والطيبات هنا قد جمعت الحلال واللذيذ .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ . يقدّر قبله فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر . ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ . لمقابلتهم النعم بالمعاصى .

---

(١) الدفلى (كذكرى) . شجر مر أخضر حسن المنظر يكون فى الأدوية .

(٢) الشكاعى (كحبارى وقد تفتح) : من دق النبات ؛ وهى دقيقة العيدان صغيرة خضراء ؛ والناس يتداوون بها .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ . الآية . فيه تسع مسائل .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ . حذفنا الألف من قلنا لسكونها وسكون الدال بعدها . والألف التي يبتدأ بها قبل الدال ألف وصل لأنه من يدخل .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ . أي المدينة ؛ سميت بذلك لأنها تقرت أي اجتمعت ؛ ومنه قريت الماء في الحوض أي جمعته ؛ واسم ذلك الماء قرى بكسر القاف مقصور . وكذلك ما قرى به الضيف . قاله الجوهري . والمقراة للحوض . والقَرِيّ لمسيل الماء . والقَرَا للظهر ؛ ومنه قوله :

* لاحق بطن بقرى سمين *

والمقاري : الجفان الكبار ؛ قال :

* عظام المقاري ضيفهم لا يفزع *

وواحد المقاري مِقراة ؛ وكله بمعنى الجمع غير مهموز . والقِرية — بكسر القاف — لغة اليمن ؛ واختلف في تعيينها ؛ فقال الجمهور : هي بيت المقدس . وقيل : أريحاء من بيت المقدس . قال عمر بن شبّة : كانت قاعدة ومسكن ملوك . ابن كيسان : الشام . الضحاك : الرَّمْلة والأُرْدُن وفلسطين وتَدْمُر . وهذه نعمة أخرى وهي أنه أباح لهم دخول البلدة وأزال عنهم التيه .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا ﴾ . إباحة . ورغدا : كثيرا واسعا ؛ وهو نعت لمصدر محذوف أي أكلا رغدا . ويجوز أن يكون في موضع الحال على ما تقدّم . وكانت أرضا مباركة عظيمة الغلّة فلذلك قال : رغدا .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ . الباب يجمع أبوابا ؛ وقد قالوا : أبوبة للازدواج ؛ قال الشاعر :

هتاك أَخبيةٍ وَلّاج أَبْوِبةٍ * يخلط بالبِرّ منه الجدّ واللِّينا

ولو أفرده لم يجز ؛ ومثله قوله عليه السلام : "مرحبا بالقوم — أو بالوفد — غير خزايا ولا ندامى" وتبوّبت بوّابا اتخذته . وأبواب مبوّبة ؛ كما قالوا : أصناف مصنّفة . وهذا شيء من بابتك أي يصلح لك . وقد تقدّم معنى السجود فلا معنى لإعادته . والحمد لله .

والبـاب الذى أمروا بدخوله هو باب فى بيت المقدس يعرف اليوم بباب حِطّة، عن مجاهد وغيره . وقيـل : باب القُبّة التى كان يصلى إليها موسى وبنو إسرائيل . وسُجَّدا، قال ابن عباس منحنين ركوعا . وقيل : متواضعين خضوعا لاعلى هيئة متعيّنة .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿وَقُولُوا﴾ . عطف على ادخلوا . وقولوا حِطّة بالرفع، قراءة الجمهور على إضمار مبتدإ أى مسئلتنا حطّة أويكون حكاية . قال الأخفش : وقرئت حِطّةً بالنصب، على معنى احطط عنا ذنوبنا حطة . قال النحاس : جاء الحديث عن ابن عباس أنه قيـل لهم : قولوا لا إله إلا الله . وفى حديث آخر عنه قيل لهم : قولوا مغفرة . تفسير للنصب أى قولوا شيئا يحط ذنوبكم كما يقال : قل خيرا . والأئمة من القراء على الرفع وهو أولى فى اللغة؛ لمـا حكى عن العرب فى معنى بدّل؛ قال أحمد بن يحيى : يقال بدّلته أى غيّرته ولم أزل عينه، وأبدلته أزلت عينه وشخصه؛ كما قال

* عَزْل الأمير للأمير المُبْدَل *

وقال الله عز وجل : ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَـآءَنَا ٱئْتِ بِقُـرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ ، وحـديث ابن مسعود قالوا : حنطة، تفسير على الرفع . هذا كله قول النحاس . وقال الحسن وعكرمة : حطّة بمعنى حُطّ ذنوبنا؛ أمروا أن يقولوا : لا إله إلا الله ليحط بهـا ذنوبهم . وقال ابن جبـير : معناه الاستغفار . أبان بن تغلب : التوبة . قال الشاعر :

فاز بالحطة التى جعـــل الـلـ * ـه بهـا ذنب عبــده مغفورا

وقال ابن فارس فى المجمل : حطة ، كلمة أمر بهـا بنو اسرائيل لو قالوها لحطّت أوزارهم . وقاله الجوهرى أيضا فى الصحاح .

قلت : يحتمل أن يكونوا تعبّدوا بهذا اللفظ بعينه وهو الظاهر من الحـديث . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " قيل لبنى اسرائيل ادخلوا البـاب سجدا وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم [فبـدّلوا][1] فدخلوا البـاب يزحفون على أستاههم وقالوا حَبّة فى شَعْرة " . وأخرجه البخارى وقال : " فبدّلوا وقالوا حِطّة حَبّـة فى شَعْرة " . فى غير الصحيحين : « حنطة فى شَعْر » . وقيل : قالوا هِطّا سُمْهَاثَا . وهى لفظة عبرانية، تفسيرها : حنطة حمراء حكاها ابن قتيبة،

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

وحكاه المروى عن السدّى ومجاهد . وكان قصدهم خلاف ما أمرهم الله به فعصوا وتمرّدوا واستهزءوا فعاقبهم الله بالرجز وهو العذاب . قال ابن زيد : كان طاعونا أهلك منهم سبعين ألفا . وروى أن الباب جعل قصيرا ليدخلوه ركّعا فدخلوه متورّكين على أستاههم . والله أعلم .

السادسة — استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها فى الشريعة لا يخلو أن يقع التعبّد بلفظها أو بمعناها ؛ فان كان التعبّد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها ، لذم الله تعالى من بدّل ما أمره بقوله ؛ وإن وقع بمعناها جاز تبديلها بما يؤدّى الى ذلك المعنى ، ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه .

وقد اختلف العلماء فى هذا المعنى ؛ فحكى عن مالك والشافعىّ وأبى حنيفة وأصحابهم أنه يجوز للعالم بمواقع الخطاب البصير بآحاد كلماته نقل الحديث بالمعنى لكن بشرط المطابقة للمعنى بكماله ، وهو قول الجمهور . ومنع ذلك جمع كثير من العلماء منهم ابن سيرين والقاسم بن محمد ورجاء بن حيوة . وقال مجاهد : انقص من الحديث إن شئت ولا تزد فيه . وكان مالك بن أنس يشدّد فى حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى التاء والياء ونحو هذا . وعلى هذا جماعة من أئمة الحديث لا يرون إبدال اللفظ ولا تغييره حتى أنهم يسمعون ملحونا ويعلمون ذلك ولا يغيّرونه . وروى أبو مِجْلَز عن قيس بن عُباد قال قال عمر بن الخطاب : من سمع حديثا فحدّث به كما سمع فقد سلم . وروى نحوه عن عبد الله بن عَمرو وزيد بن أرقم ؛ وكذا الخلاف فى التقديم والتأخير والزيادة والنقصان ؛ فان منهم من يعتدّ بالمعنى ولا يعتدّ باللفظ ، ومنهم من يشدّد فى ذلك ولا يفارق اللفظ ؛ وذلك هو الأحوط فى الدين والأتقى والأولى ؛ ولكن أكثر العلماء على خلافه . والقول بالجواز هو الصحيح إن شاء الله تعالى ؛ وذلك أن المعلوم من سيرة الصحابة رضى الله عنهم هو أنهم كانوا يروون الوقائع المتحدة بألفاظ مختلفة وما ذاك إلا أنهم كانوا يصرفون عنايتهم للمعانى ولم يلتزموا التكرار على الأحاديث ولا كتبها . وروى عن واثلة بن الأسقع أنه قال : ليس كل ما أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم نقلناه اليكم ، حسبكم المعنى . وقال قتادة عن زُرارة بن أَوْفَى : لقيت عدّة من أصحاب النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فاختلفوا علىّ فى اللفظ واجتمعوا فى المعنى . وكان النَّخعىّ والحسن والشعبىّ رحمهم الله يأتون بالحديث على المعانى . وقال الحسن : إذا أصبت المعنى أجزأك . وقال سفيان الثّورىّ رحمه الله : إذا قلت لكم

انى أحدثكم كما سمعت فلا تصدقونى، إنما هو المعنى . وقال وكيع رحمه الله : إن لم يكن المعنى واسعا فقد هلك الناس . واتفق العلماء على جواز نقل الشرع للعجم بلسانهم وترجمته لهم ؛ وذلك هو النقل بالمعنى. وقد فعل الله ذلك فى كتابه فيما قص من أنباء ما قد سلف؛ فقص قصصا ذكر بعضها فى مواضع بألفاظ مختلفة والمعنى واحد، ونقلها من ألسنتهم إلى اللسان العربى وهو مخالف لها فى التقديم والتأخير، والحذف والالغاء، والزيادة والنقصان . وإذا جاز إبدال العربية بالعجمية فلأن يجوز بالعربية أولى . احتج بهذا المعنى الحسن والشافعى وهو الصحيح فى الباب .

فإن قيل : فقد قال النبى صلّى الله عليه وسلّم : "نضر الله آمرأ سمع مقالتى فبلّغها كما سمعها" . وذكر الحديث . وما ثبت عنه صلّى الله عليــه وسلّم أنه أمر رجلا أن يقول عنــد مضجعه فى دعاء علمه : آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت ؛ فقال الرجل : وبرسولك الذى أرسلت ؛ فقال النبى صلّى الله عليه وسلّم : "ونبيك الذى أرسلت" . قالوا : أفلا ترى أنه لم يسوّغ لمن علّمه الدعاء مخالفة اللفظ ؛ وقال : "فأدّاها كما سمعها" . قيل لهم : أما قوله " فأدّاها كما سمعها" . فالمراد حكمها لا لفظها، لأن اللفظ غير معتد به . ويدلّك على أن المراد من الخطاب حكمه قوله : "فربّ حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه" . ثم أن هذا الحديث بعينه قد نقل بألفاظ مختلفة والمعنى واحد . وإن أمكن أن يكون جميع الألفاظ قول النبى صلّى الله عليه وسلّم فى أوقات مختلفة ؛ لكن الأغلب أنه حديث واحد نقل بألفاظ مختلفة ؛ وذلك أول دليــل على الجواز . وأما ردّه عليه السّلام الرجل من قوله : برسولك الى قوله وبنبيك؛ فإن النبى صلّى الله عليه وسلّم أمدح؛ ولكل نعت من هذين النعتين موضع . ألا ترى أن آسم الرسول يقــع على الكافة ، وآسم النبى لا يستحقه إلا الأنبياء عليهم السلام ! وإنما فُضّل المرسلون من الأنبياء لأنهم جمعوا النبوّة والرسالة؛ فلما قال : وبنبيك، جاء بالنعت الأمدح ثم قيّده بالرسالة بقوله : الذى أرسلت . وأيضا فإن نقله من قوله : وبرسولك إلى قوله وبنبيك، ليجمع بين النبوّة والرسالة؛ ومستقبح فى الكلام أن تقول: هذا رسول فلان الذى أرسله . وهذا قتيل زيد الذى قتله ؛ لأنك تجتزئ بقولك: رسول فلان، وقتيل فلان عن إعادة المرسل والقاتل إذ كنت لاتفيد به إلا المعنى الأوّل؛ وإنمـا يحسن أن تقول: هذا رسول عبدالله الذى أرسله إلى عمرو، وهذا قتيل زيد الذى قتله بالأمس أو فى وقعة كذا. والله ولىّ التوفيق.

فإن قيل : إذا جاز للراوى الأول تغيير ألفاظ الرسول عليه السلام جاز للثانى تغيير ألفاظ الأول، ويؤدى ذلك إلى طمس الحديث بالكلية لدقة الفروق وخفائها . قيل له : الجواز مشروط بالمطابقة والمساواة كما ذكرنا ؛ فإن عدمت لم يجز . قال ابن العربى : الخلاف فى هذه المسألة إنما يتصور بالنظر إلى عصر الصحابة والتابعين لتساويهم فى معرفة اللغة الجبلية الذوقية؛ وأما من بعدهم فلا نشك فى أن ذلك لا يجوز؛ إذ الطباع قد تغيرت، والفهوم قد تباينت، والعوائد قد اختلفت؛ وهذا هو الحق. والله أعلم . قال بعض علمائنا : لقد تحاجم ابن العربى رحمه الله ؛ فإن الجواز إذا كان مشروطا بالمطابقة فلا فرق بين زمن الصحابة والتابعين وزمن غيرهم؛ ولهذا لم يفصل أحد من الأصوليين ولا أهل الحديث هذا التفصيل؛ نعم لو قال : إن المطابقة فى زمنه أبعد كان أقرب . والله أعلم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ . قراءة نافع بالياء مع ضمها . وابن عامر بالتاء مع ضمها وهى قراءة مجاهد . وقرأها الباقون بالنون مع نصبها وهى أبينها ؛ لأن قبلها ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا ﴾ . فجرى نغفر على الإخبار عن الله تعالى، والتقدير وقلنا ادخلوا الباب سجدا نغفر، ولأن بعده ﴿ وَسَنَزِيدُ ﴾ بالنون . وخطاياكم، اتباعا للسواد وأنه على بابه . ووجه من قرأ بالتاء أنه أنث لتأنيث لفظ الخطايا، لأنها جمع خطيئة على التكسير . ووجه القراءة بالياء أنه ذكر لما حال بين المؤنث وبين فعله ؛ على ما تقدم فى قوله : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ . وحسن الياء والتاء وإن كان قبله إخبار عن الله تعالى فى قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ لأنه قد علم أن ذنوب الخاطئين لا يغفرها إلا الله تعالى ؛ فاستغنى عن النون ورد الفعل إلى الخطايا المغفورة .

الثامنة — واختلف فى أصل خطايا جمع خطيئة بالهمزة ، فقال الخليل : الأصل فى خطايا أن يقول : خطايئ، ثم قلب فقيل : خطائى بهمزة بعدها ياء؛ ثم تبدل من الياء ألفا بدلا لازما فتقول: خطاءا؛ فلما اجتمعت ألفان بينهما همزة والهمزة من جنس الألف صرت كأنك جمعت بين ثلاث ألفات ؛ فأبدلت من الهمزة ياء فقلت : خطايا . وأما سيبويه فمذهبه أن الأصل مثل خطايع ثم وجب بهذه أن تهمز الياء كما همزتها فى مدائن فتقول : خطائئ ، ولا تجتمع همزتان فى كلمة؛ فأبدلت من الثانية ياء فقلت : خطائى ، ثم عملت كما عملت فى الأول . وقال الفراء : خطايا جمع

خطية بلا همز، كما تقول : هدية وهدايا . قال الفراء : ولو جمعت خطيئة مهموزة لقلت : خطاءا . وقال الكسائى : لو جمعتها مهموزة أدغمت الهمزة فى الهمزة، كما قلت : دواب .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ . أى نزيدهم إحسانا على الإحسان المتقدم عندهم ؛ وهو اسم فاعل من أحسن . والمحسن : من صحح عقد توحيده، وأحسن سياسة نفسه ، وأقبل على أداء فرائضه ، وكفى المسلمين شره . وفى حديث جبريل عليه السلام : " ما الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك قال صدقت " . وذكر الحديث خرجه مسلم .

قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا ﴾ . فيه أربع مسائل .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا ﴾ . الذين فى موضع رفع أى فبدل الظالمون منهم قولا غير الذى قيل لهم . وذلك أنه قيل لهم : قولوا حطة، فقالوا : حنطة على ما تقدم، فزادوا حرفا فى الكلام فلقوا من البلاء ما لقوا؛ تعريفا أن الزيادة فى الدين والابتداع فى الشريعة عظيمة الخطر شديدة الضرر، هذا فى تغيير كلمة هى عبارة عن التوبة أوجبت كل ذلك من العذاب، فما ظنك بتغيير ما هو من صفات المعبود! هذا والقول أنقص من العمل فكيف بالتبديل والتغيير فى الفعل .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ ﴾ . تقدم معنى بدل وأبدل، وقرئ ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا ﴾ . على الوجهين . قال الجوهرى : وأبدلت الشيء بغيره . وأبدله الله من الخوف أمنا . وتبديل الشيء أيضا تغييره ، وان لم يأت ببدل . واستبدل الشيء بغيره . وتبدله به اذا أخذه مكانه . والمبادلة : التبادل . والأبدال : قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم ؛ إذا مات واحد منهم أبدل الله مكانه بآخر . قال ابن دريد : الواحد بديل . والبديل : البدل . وبدل الشيء : غيره ، يقال : بَدْل وبِدْل لغتان، مثل : شَبَه وشِبْه ، ومَثَل ومِثْل ، ونَكَل ونِكْل . قال أبو عبيد[1] : لم يسمع فى فَعَل وفِعْل غير هذه الأربعة الأحرف . والبَدَل : وجع يكون فى اليدين والرجلين، وقد بَدِل بالكسر يبْدَل بَدَلا .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ . كرر لفظ ظلموا ولم يضمره تعظيما للأمر . والتكرير يكون على ضربين ؛ أحدهما : استعماله بعد تمام الكلام كما فى هذه الآية، وقوله :

(1) فى الأصل : «أبو عبيدة» . والتصويب عن اللسان وصحاح الجوهرى .

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ . ثم قال بعد : ﴿ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ .
ولم يقل : مما كتبوا . وكرر الويل تغليظا لفعلهم؛ ومنه قول الخنساء :

تعرّقنى الدهر نَهْسا وحزا(١) ‏ ‏ ‏ وأوجعنى الدهر قرعا وغمزا

أرادت أن الدهر أوجعها بكبريات نوائبه وصغرياتها .

والضرب الثانى : مجيء تكرير الظاهر فى موضع المضمر قبل أن يتم الكلام؛ كقوله تعالى : ﴿ الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ . ﴿ الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ . كان القياس لولا ما أريد به من التعظيم والتفخيم الحاقة ما هى! والقارعة ما هى! ومثله : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ . كرر أصحاب الميمنة تفخيما لما ينيلهم من جزيل الثواب . وكرر لفظ المشأمة لما ينالهم من أليم العذاب . ومن هذا الضرب قول الشاعر :

ليت الغراب غداة ينعب دائبا ‏ ‏ ‏ كان الغراب مقطّع الأوداج

وقد جمع عدىّ بن زيد المعنيين فقال :

لا أرى الموت يسبق الموت شيء ‏ ‏ ‏ نغّص الموت ذا الغنى والفقيرا

فكرر لفظ الموت ثلاثا وهو من الضرب الأول؛ ومنه قول الآخر :

ألا حبذا هند وأرض بها هند ‏ ‏ ‏ وهند أتى من دونها النأى والبعد

فكرر ذكر محبوبته ثلاثا تفخيما لها .

الرابعة — قوله تعالى ﴿ رِجْزاً ﴾ قراءة الجماعة رجزا بكسر الراء . وابن محيصن بضم الراء . والرجز : العذاب؛ بالزاى . وبالسين؛ النتن والقذر؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ . أى نتنا إلى نتنهم؛ قاله الكسائى . وقال الفراء : الرجز هو الرجس . قال أبو عبيد : كما يقال : السُّدغ والزُّدغ . وكذا رجس ورجز بمعنًى . قال الفراء : وذكر بعضهم أن الرجز (بالضم) : اسم صنم كانوا يعبدونه؛ وقرئ بذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ . والرجز (بفتح الراء والجيم) : نوع من الشعر؛ وأنكر الخليل أن يكون شعرا . وهو مشتق من الرَّجَز وهو داء يصيب الإبل فى أعجازها؛

(١) ويروى نهشا بالشين المعجمة .

فإذا ثارت ارتعشت أنفاذها . ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أى بفسـقهم؛ والفسق : الخروج ، وقد تقدّم . وقال ابن وثّاب والنخعى : يفسقون بكسر السين .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ الى قوله : ﴿ مُفْسِدِينَ ﴾ . فيه ثمان مسائل .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ . كسرت الذال لالتقاء الساكنين والسين سين السؤال مثل : استعلم واستخبر واستنصر ونحو ذلك . أى طلب وسأل السّقى لقومه والعرب تقول : سقيته وأسقيته لغتان بمعنًى؛ قال[1] :

سَقَى قومى بنى مجدٍ وأسقى * نُميرًا والقبائِلَ من هِـلَالِ

وقيل : سقيته من سقى الشَّفَة، وأسقيته دللته على المـاء .

الثانية — الاستسقاء إنما يكون عند عدم المـاء وحبس القطر، وإذا كان كذلك فالحكم حينئذ إظهار العبوديّة والفقـر والمسكنة والذّلة مع التوبة النّصوح . وقد استسقى نبيّنا محمد صلّى الله عليـه وسلّم فخرج الى المُصلّى متواضعا متذلّلا متخشّعا مترسّلا متضرّعا، وحسبك به ؛ فكيف بنا ولا توبة معنا إلا العناد، ومخالفة رب العباد؛ فأنّى نسقى ! لكن قد قال صلّى الله عليه وسلّم فى حديث ابن عمر "ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعـوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا" . الحديث وسيأتى بكماله إن شاء الله .

الثالثة — سنة الاستسقاء الخروج الى المُصلّى على الصفة التى ذكرنا، والخطبة والصلاة؛ وبهذا قال جمهور العلماء . وذهب أبو حنيفة الى أنه ليس من سنته صلاة ولا خروج ، وإنمـا هو دعاء لا غير . واحتج بحديث أنس الصحيح، أخرجه البخارى ومسلم . ولا حجة له فيه؛ فإن ذلك كان دعاء عجلت إجابته فاكتفى به عما سواه، ولم يقصد بذلك بيان سنة؛ ولمـا قصد البيان بيّن بفعله حسب ما رواه عبـد الله بن زيد المـازنى قال : خرج رسول الله صلى الله عليـه وسلم الى المصلّى فاستسقى وحوّل رداءه ثم صلى ركعتين . رواه مسـلم . وسيأتى من أحكام الاستسقاء زيادة فى سـورة هود إن شاء الله .

---

(١) البيت للبيـــد .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ . العصا : معروف وهو اسم مقصور مؤنث وألفه منقلبة عن واو قال[1] :

* على عصويها سابِرِيٌّ مشبرَقُ *

والجمع عُصِيّ وعِصِيّ وهو فعول، وإنما كسرت العين لما بعدها من الكسرة، وأعصٍ أيضا مثله ، مثل : زَمَنٍ وأزْمُنٍ . وفى المثل : « العصا من العُصَيَّة » . أى بعض الأمر من بعض . وقولهم : « ألقى عصاه » أى أقام وترك الأسفار، وهو مثل، قال :

فألقت عصاها وآستقر بها النّوى * كما قرّ عينا بالإياب المسافرُ

وفى التنزيل : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ . وهناك يأتى الكلام فى منافعها إن شاء الله تعالى . قال الفرّاء : أوّل لحن سمع بالعراق هذه عصاتى . وقد يعبر بالعصا عن الاجتماع والافتراق، ومنه يقال فى الخوارج : قد شقّوا عصا المسلمين أى آجتماعهم وائتلافهم . وانشقت العصا أى وقع الخلاف، قال الشاعر :

إذا كانت الهيجاء وانشقّت العصا * فحسبك والضّحاكَ سيفٌ مُهنّدُ

أى يكفيك و يكفى الضحاك . وقولهم : لا ترفع عصاك عن أهلك ، يراد به الأدب . والله أعلم .

والحجر معروف ، وقياس جمعه فى أدنى العدد أحجار ، وفى الكثير حِجار وحِجارة ، والحجارة نادر ، وهو كقولنا . جَمَل وجِمَالة ، وذَكَر وذِكَارة ، كذا قال ابن فارس والجوهرى .

قلت : وفى القرآن ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ ﴾ . ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ ﴾ . ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً ﴾ . ﴿ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ ﴾ . ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً ﴾. فكيف يكون نادرا إلا أن يراد أنه نادر فى القياس كثير فى الاستعمال فصيح ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَانْفَجَرَتْ ﴾ . فى الكلام حذف تقديره فضرب فانفجر . وقد كان تعالى قادرا على تفجير الماء وفلق الحجر من غير ضرب ، لكن أراد أن يربط المسببات بالأسباب حكمة منه

(١) هو ذو الرمة . وصدر البيت :

* عفا دث نسج العنكبوت كأنه *

للعباد في وصولهم الى المراد، وليرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم في المعاد . والانفجار : الانشـقاق؛ ومنه انشق الفجر . وانفجر المـاء انفجارا : انفتح . والفُجْرَة : موضـع تفجّر المـاء . والانبجاس أضيق من الانفجار، لأنه يكون انبجاسا ثم يصير انفجارا . وقيل : انبجس وتبجّس وتفجّر وتفتّق، بمعنًى واحد، حكاه الهروىّ وغيره .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ . اثنتا في موضع رفع بانفجرت، وعلامة الرفع فيها الألف . وأعربت دون نظائرها لأن التثنية معربة أبدا لصحة معناها . عينا، نصب على البيان . وقرأ مجاهد وطلحة وعيسى عشِرة بكسر الشين، وهي لغة بنى تميم؛ وهذا من لغتهم نادر؛ لأن سبيلهم التخفيف . ولغة أهل الحجاز عشْرة؛ وسـبيلهم التثقيل . قال جميعه النحاس . والعين من الأسمـاء المشتركة؛ يقال : عين المـاء، وعين الإنسان، وعين الرُّكبة[(1)]، وعين الشمس . والعين : سحابة تقبل من ناحية القبلة . والعين : مطر يدوم خمسا أو ستة لا يقلع . وبلد قليل العين أى قليل النـاس . وما بها عين محرّكة الياء . والعين : الثقب في المَزَادة . والعين من المـاء مشبهة بالعين من الحيوان، لخروج المـاء منها كخروج الدمع من عين الحيـوان . وقيـل : لمـا كان عين الحيوان أشرف ما فيه شبهت به عين المـاء لأنها أشرف ما في الأرض .

السادسة : لمـا استسقى موسى عليه السلام لقومه أمر أن يضرب عند استسقائه بعصاه حجرا؛ قيـل : مربّعا طوريّا من الطور على قدر رأس الشاه يلقى في كسر جُوالق ويرحل به؛ فاذا نزلوا وضع في وسط محلتهم . وذكر أنهم لم يكونوا يحملون الحجر لكنهم كانوا يجدونه في كل مرحلة في منزلته من المرحلة الأولى . وهذا أعظم في الآية والإعجاز . وقيل : إنه أطاق له اسم الحجر؛ ليضرب موسى أىّ حجر شاء . وهذا أبلغ في الإعجاز . وقيل : إن الله تعالى أمره أن يضرب حجرا بعينه بيّنه لموسى عليه السلام، ولذلك ذكر بلفظ التعريف . قال سعيد بن جبير : هو الحجر الذى وضـع عليه موسى ثوبه لمـا اغتسل، وفرّ بثوبه حتى برأه الله مما رماه به قومه . قال ابن عطية : ولا خلاف أنه كان حجرا منفصلا مربّعا تطّـرد من كل جهـة ثلاث عيون إذا ضربه موسى؛ وإذا استغنوا عن المـاء ورحلوا جفّت العيون .

---

(1) عين الركبة : نقرة في مقدمها عند الساق؛ ولكل ركبة عينان؛ على التشبيه بنقرة العين الحاسة .

قلت : ما أوتى نبيّنا محمد صلّى الله عليه وسلّم من نبع الماء وانفجاره من يده و بين أصابعه أعظم فى المعجزة ؛ فإنا نشاهد الماء يتفجّر من الأحجار آناء الليل وآناء النهار ؛ ومعجزة سيّدنا عليه السلام لم تكن لنبيّ قبله صلّى الله عليه وسلّم ؛ يخرج الماء من بين لحم ودم ! . روى الأئمة الثقات والفقهاء الأثبات عن عبد الله قال : كنّا مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فلم نجد ماء فأتى بتور (1) فأدخل يده فيه ؛ فلقد رأيت الماء يتفجّر من بين أصابعه و يقول : "حيّ على الطّهور" . قال الأعمش فحدّثنى سالم بن أبى الجعد قال قلت لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال ألفا وخمسمائة . لفظ النسائى .

السابعة : قوله تعالى : ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ . يعنى أن لكل سبط منهم عينا قد عرفها لا يشرب من غيرها . والمَشْرَب : موضع الشّرب . وقيل : المشروب . والأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى العرب ، وهم ذرية الاثنى عشر أولاد يعقوب عليه السلام ؛ وكان لكل سبط عين من تلك العيون لا يتعدّاها . قال عطاء : كان للحجر أربعة أوجه يخرج من كل وجه ثلاثة أعين ؛ لكل سبط عين لا يخالطهم سواهم . وبلغنا أنه كان فى كل سبط خمسون ألف مقاتل سوى خيلهم ودوابهم . قال عطاء : كان يظهر على كل موضع من ضربة موسى مثل ثدى المرأة على الحجر فيعرق أولا ثم يسيل .

الثامنة : قوله تعالى : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ . فى الكلام حذف تقديره وقلنا لهم : كلوا المنّ والسّلوى ، واشربوا الماء المتفجّر من الحجر المنفصل . ولا تعثوا أى تفسدوا . والعيث : شدّة الفساد ، نهاهم عن ذلك ؛ يقال : عَثِىَ يَعْثَى عُثِيًّا ، وعثا يعثو عثوا ، وعاث يعيث عَيْثا وعُيوثا ومعاثا ؛ والأوّل لغة القرآن . ويقال : عَثّ يَعُثّ فى المضاعف : أفسد ، ومنه العُثّة وهى السوسة التى تلحس الصوف . ومفسدين ، حال ، وتكرّر المعنى تأكيدا لاختلاف اللفظ . وفى هذه الكلمات إباحة النعم وتعدادها ، والتقدّم فى المعاصى والنهى عنها .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ . كان هذا القول منهم فى التّيه حين ملّوا المنّ والسّلوى ، وتذكّروا عيشهم الأوّل بمصر . قال الحسن : كانوا نتانى أهل كراث

(1) التور (بالتاء المثناة) : إناء من صفر أو حجارة كالإجانة وقد يتوضأ منه .

وأبصال وأعداس، فنزعوا إلى عكَرهم[1] عكر السوء، واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم؛ فقالوا: لن نصبر على طعام واحد. وكنّوا عن المنّ والسلوى بطعام واحد وهما اثنان لأنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر فلذلك قالوا: طعام واحد. وقيل: لتكرارهما فى كل يوم غذاء؛ كما تقول لمن يداوم على الصوم والصلاة والقراءة: هو على أمر واحد؛ لملازمته لذلك. وقيل: المعنى لن نصبر على الغنى فيكون جميعنا أغنياء فلا يقدر بعضنا على الاستعانة ببعض؛ لاستغناء كل واحد منا بنفسه؛ وكذلك كانوا! فهم أوّل من اتّخذ العبيد والخدم.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ طَعَامٍ﴾. الطعام يطلق على ما يُطعم ويشرب؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾. وقال: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾. أى ما شربوه من الخمر على ما يأتى بيانه. وإن كان السّلوى العسل ـ كما حكى المؤرّج ـ فهو مشروب أيضا. وربما خصّ بالطعام البر والتمر كما فى حديث أبى سعيد الخدرى قال: كنا نخرج صدقة الفطر على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صاعا من طعام أو صاعا من شعير؛ الحديث. والعرف جار بأن القائل: ذهبت إلى سوق الطعام؛ فليس يفهم منه إلا موضع بيعه دون غيره مما يؤكل أو يشرب. والطَّعم (بالفتح): هو ما يؤدّيه الذوق؛ يقال: طعمه مرّ. والطعم أيضا ما يشتهى منه؛ يقال: ليس له طعم؛ وما فلان بذى طعم إذا كان غثّا. والطُّعم (بالضم): الطعام؛ قال أبو خراش:

أردّ شجاع البطن لو تعلمينه ... وأوثر غيرى من عيالك بالطُّعم
وأغتبق الماء القراح فأنتهى ... إذا الزاد أمسى للمُزَلَّج ذا طَعْم

أراد بالأوّل الطعام، وبالثانى ما يشتهى منه. وقد طَعِم يَطْعَم فهو طاعم إذا أكل وذاق؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾. أى من لم يذقه. وقال: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾. أى أكلتم. وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى زمزم: "إنها طعامُ طُعْمٍ وشفاءُ سُقْم". واستطعمنى فلان الحديث إذا أراد أن تحدّثه. وفى الحديث: "إذا استطعمكم الإمام فأطعموه". يقول: إذا استفتح فافتحوا عليه. وفلان ما يطعم النوم إلا قائما؛ وقال:

---

(1) العكر (بالكسر): العادة والديدن. و(بالتحريك): دردىّ كل شىء.

تمامًا بوجرة صفرّ الخدو * د ما تطعم النوم إلا صياما(1)

قوله تعالى : (فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ) . لغة بني عامر فادِعِ بكسر العين لالتقاء الساكنين ؛ يجرون المعتل مجرى الصحيح ولا يراعون المحذوف . و«يُخْرِجْ» مجزوم على معنى سَلْه وقل له : أخرج يخرج . وقيل : هو على معنى الدعاء على تقدير حذف اللام ، وضعفه الزجّاج . و«من» في قوله : «مما» زائدة في قول الأخفش ، وغير زائدة في قول سيبويه ؛ لأن الكلام موجب . قال النحاس : وإنما دعا الأخفش إلى هذا لأنه لم يجد مفعولا لِيُخرج فأراد أن يجعل «ما» مفعولا . والأولى أن يكون المفعول محذوفا دل عليه سائر الكلام ؛ التقدير يخرج لنا مما تنبت الأرض مأكولا . و«مِن» الأولى على هذا للتبعيض ، والثانية للتخصيص . و«من بقلها» بدل من «ما» بإعادة الحرف . «وقثّائها» عطف عليه ، وكذا ما بعده فاعلمه . والبقل : معروف وهو كل نبات ليس له ساق . والشجر : ما له ساق . والقِثّاء أيضا معروف ، وقد تضم قافه وهي قراءة يحيى بن وثّاب وطلحة بن مصرف(2) ؛ لغتان والكسر أكثر . وقيل في جمع قثاء : قَثَائِيّ ؛ مثل علباء وعَلَابِيّ ؛ إلا أن قثاء من ذوات الواو ؛ تقول : أقثأتُ القوم أي أطعمتهم ذلك . [وقَثَأَتِ القدرُ سكّنت غليانها بالماء ؛ قال الجعدي :

تفور علينا قِدرهم فَنُدِيمها * ونَفْثؤها عنّا إذا حَمْيُها غَلَا

وفثأت الرجلَ إذا كَسَرْته عنك بقول أو غيره ، وسكّنت غضبه . وعدا حتى أفْثَأَ أي أعيا وانبهر . وأفثأ الحرُّ أي سكَن وفتَر . ومن أمثالهم في اليسير من البرّ قولهم : «إن الرَّثِيئَة تَفْثَأُ الغَضَبَ» . وأصله أن رجلا كان غضب على قوم وكان مع غضبه جائعا فسقوه رَثِيئة فسكن غضبه وكفّ عنهم .](3)

---

(1) كذا في نسخ الأصل . ووجرة (بفتح وسكون) : موضع بين مكة والبصرة . والذي في كتب اللغة ومعاجم البلدان :

تماما بحطمة صفر الخدو * د لا تطعم الماء إلا صياما

وقبله :

فأما بنو عامر بالنسار * غداة لقونا فكانوا نعاما

قائلهما بشر بن أبي خازم . وحطمة (بفتح وسكون) : موضع أعلى المدينة . قال صاحب اللسان بعد البيت المستشهد به : «يقول : هي صائمة منه لا تطعمه ؛ قال : وذلك لأن النعام لا ترد الماء ولا تطعمه» .

(2) مصرف : كمحدّث . (3) الكلام الموضوع بين هذين القوسين نقله المؤلف من معاجم اللغة على أنه في هذه المادة ، والواقع أنه من مادة «فثأ» ، بالفاء لا بالقاف .

الرثيئة : اللبن المحلوب على الحامض ليخثر . رَثَأت اللبنَ رثأً إذا حلبته على حامض تخثّر، والاسم الرثيئة . وارتثأ اللبنُ خَثُرَ] . وروى ابن ماجه حدثنا محمد بن عبد الله بن نُمير حدثنا يونس بن بُكير حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : كانت أمّي تعالجني للسّمنة تريد أن تدخلني على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فما استقام لها ذلك حتى أكلت القثّاء بالرطب فسمنت كأحسن سمنة . وهذا اسناد صحيح .

قوله تعالى : ﴿وفُومِهَا﴾ . اختلف في الفوم، فقيل : هو الثُّوم، لأنه المشاكل للبصل، رواه جويبر عن الضحاك . والثاء تبدل من الفاء، كما قالوا : مَغافير ومَغاثير[1]، وجدَثٌ وجدَف للقبر . وقرأ ابن مسعود ثومها بالثاء المثلثة، وروى ذلك عن ابن عباس ؛ وقال أميّة بن أبي الصّلت :

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرةً * فيها الفراديسُ والفُومانُ والبصَلُ

الفراديس واحدها فرديس، وكَرْمٌ مُفَرْدَسٌ أي مُعرّش .

وقال حسان :

وأنتم أناس لئام الأصول * طعامكمُ الفـوم والحوقل

يعني الثوم والبصل، وهو قول الكسائي والنضر بن شميـل . وقيل : الفوم : الحنطة . روى عن ابن عباس أيضا وأكثر المفسرين، واختـاره النحاس : قال : وهو أولى، ومن قال به أعلى، وأسانيده صحاح، وليس جويبر بنظير لرواته، وإن كان الكسائي والفراء قد اختارا القول الأول، لإبدال العرب الفاء من الثاء، والإبدال لا يقاس عليه، وليس ذلك بكثير في كلام العرب . وأنشد ابن عباس لمن سأله عن الفوم وأنه الحنطة، قول أُحَيحة بن الجُلَاح :

قد كنت أغنى الناس شخصا واحدا * ورد المدينـة عن زراعة فوم

وقال أبو إسحاق الزجاج : وكيف يطلب القوم طعاما لا بُرَّ فيه ؟ والبر أصل الغـذاء . وقال الجوهري أبو نصر : الفوم : الحنطة، وأنشد الأخفش .

قد كنت أحسبُني كأغنى واحد[2] * نزل المدينة عن زراعة فُوم

(١) المغافير : قيل : صمغ يسيل من شجر العرفط رائحته ليست طيبة .

(٢) كذا في بعض نسخ الأصل وشرح القاموس . وفي البعض الآخر واللسان : «وافد» بالفاء .

وقال ابن دريد : الفومة : السنبلة ؛ وأنشد :

وقال رَبِيئُهم لمّا أتانا * بكَفِّه فُومةٌ أو فُومتانِ

والهاء في كفه غير مشبعة . وقال بعضهم : الفوم : الحِمّص ، لغة شامية . وبائعه فاميّ ، مُغيّر عن فوميّ ، لأنهم قد يغيرون في النَّسب ، كما قالوا : سُهْليّ ودُهْريّ . ويقال : فَوِّموا لنا أي اختَبِزوا . قال الفرّاء : هي لغة قديمة . وقال عطاء وقتادة : الفوم : كل حَبٍّ يُختَبَز .

مسئلة — اختلف العلماء في أكل البصل والثوم وما له رائحة كريهة من سائر البقول ؛ فذهب جمهور العلماء إلى إباحة ذلك ، للأحاديث الثابتة في ذلك . وذهبت طائفة من أهل الظاهر القائلين بوجوب الصلاة في الجماعة فرضا إلى المنع ، وقالوا : كلما منع من إتيان الفرض والقيام به فحرام عمله والتشاغل به . واحتجوا بأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سمّاها خبيثة ، والله عزّ وجلّ قد وصف نبيّه عليه السلام بأنه يحرّم الخبائث . ومن الحجة للجمهور ما ثبت عن جابر أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أُتي بقدر فيه خَضِرات من بقول فوجد لها ريحا . قال : فأُخبر بما فيها من البقول ، فقال قرّبوها إلى بعض أصحابه كان معه ، فلما رآه كره أكلها ، قال : "كل فإني أناجي من لا تناجي" . أخرجه مسلم وأبو داود . فهذا بيّن في الخصوص له والإباحة لغيره . وفي صحيح مسلم أيضا عن أبي أيوب أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم نزل على أبي أيوب ، فصنع للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم طعاما فيه ثوم ، فلما رُدّ إليه سأل عن موضع أصابع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، فقيل له : لم يأكل . ففزِع وصَعِد إليه فقال : أحرام هو؟ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا ولكني أكرهه" . قال : فإني أكره ما تكره أو ما كرهت . قال : وكان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يُؤتَى . يعني يأتيه الوحي . فهذا نصّ على عدم التحريم . وكذلك ما رواه أبو سعيد الخُدري عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم حين أكلوا الثوم زمن خَيْبَرَ وفتحوا " أيها الناس إنه ليس لي تحريم ما أحل الله ولكنها شجرة أكره ريحها" . فهذه الأحاديث تشعر بأن الحكم خاص به ، إذ هو المخصوص بمناجاة المَلَك ، لكن قد علّمنا هذا الحكم في حديث جابر بما يقتضي التسوية بينه وبين غيره في هذا الحكم حيث قال : "من أكل من هذه البقلة الثوم" . وقال مرة : "من أكل البصل والثوم والكرّاث فلا يقربنّ مسجدنا فإن الملائكة تتأذّى مما يتأذى منه بنو آدم" . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث فيه طول : أيها الناس ، إنكم تأكلون شجرتين لا أراهما

إلا خبيثتين ، هذا البصل والثوم، ولقد رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذ وجد ريحهما من الرجل فى المسجد أمر به فأخرج الى البقيع، فمن أكلهما فليمتهما طبخا . خرّجه مسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾. العَدَسُ معروف . والعَدَسة: بَثْرة تخرج بالإنسان، وربما قتلت . وعَدَسْ : زجر للبغال، قال :

عَدَسْ ما لِعبّادٍ عليــك إمارةٌ * نَجَوتِ وهــذا تحملين طليــق

والعَدْس : شدّة الوطء، والكَدْح أيضا، يقال : عدسه . وعَدَس فى الأرض : ذهب فيها . وعَدَستْ اليه المنيّة أى سارت، قال الكُميت :

أُكلّفها هَوْلَ الظَّــلام ولم أزلْ * أخا الليــلِ مَعْدُوسًا إلىّ وعادِسًا

أى يسار إلىّ بالليــل . وعَدَسَ : لغــة فى حَدَس، قاله الجوهرى . ويؤثر عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم من حديث علىّ أنه قال : "عليــكم بالعَدَس فإنه مبارك مقدّس وإنه يرقّ القلب ويكثر الدّمعــة فإنه بارك فيــه سبعون نبيّــا آخرهم عيسى بن مريم" . ذكره الثّعلبى وغيره . وكان عمر بن عبد العزيز يأكل يوما خبزا بزيت ، ويوما بلحم(1)، ويوما بعدس . قال الحليمىّ : والعدس والزيت طعام الصالحين، ولو لم يكن له فضيلة إلا أنه ضيافة ابراهيم عليه السلام فى مدينته لا يخلو منه لكان فيه كفاية، وهو مما يخفّف البدن فيخفّ للعبادة، ولا تثور منه الشهوات كما تثور من اللحم . والحنطة من جملة الحبوب وهى الفوم على الصحيح، والشعير قريب منها وكان طعام أهل المدينة، كما كان العدس من طعام قرية ابراهيم عليه السلام، فصار لكل واحد من الحبّتين بأحد النبيّين عليهما السلام . فضيــلة — وقد روى أن النــبىّ صــلّى الله عليه وسلّم لم يشبع هو وأهله من خُبزِ بُرٍّ ثلاثة أيام متتابعة منذ قدم المدينة إلى أن توفّاه الله عزّ وجلّ .

قوله تعــالى : ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ . الاستبدال : وضــع الشىء موضع الآخر، ومنه البدل . وقد تقدّم . وأدنى، مأخوذ عند الزجاج من الدّنو أى القرب فى القيمة من قولهم : ثوب مُقارِبٌ أى قليل الثمن . وقال علىّ بن سليمان : هو مهموز من الدنىء البيّن الدناءة بمعنى الأخس ، إلا أنه خفّف همزته . وقيل : هو مأخوذ من الدون أى الأحط، فأصله أدون ،

(1) فى بعض نسخ الأصل : « بعلج » .

أفعل قلب بفاء أفلع، وحوّلت الواو ألفا لتطرفها . وقرئ في الشواذ أدنى . ومعنى الآية أتستبدلون البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل الذي هو أدنى بالمنّ والسّلوى الذي هو خير ! .

واختلف في الوجوه التي توجب فضل المنّ والسّلوى على الشيء الذي طلبوه وهي خمس، الأول : أن البقول لما كانت لا خطر لها بالنسبة إلى المنّ والسّلوى كانا أفضل ؛ قاله الزجاج . الثاني : لما كان المنّ والسلوى طعاما منّ الله به عليهم وأمرهم بأكله وكان في استدامة أمر الله وشكر نعمته أجر وذُخر في الآخرة، والذي طلبوه عارٍ من هذه الخصال، كان أدنى في هذا الوجه . الثالث : لما كان ما منّ به عليهم أطيب وألذ من الذي سألوه، كان ما سألوه أدنى من هذا الوجه لا محالة . الرابع : لما كان ما أعطوا لا كُلْفة فيه ولا تعب، والذي طلبوه لا يجيء إلا بالحرث والزراعة والتعب، كان أدنى . الخامس : لما كان ما ينزل عليهم لا مِرْية في حِلّه وخلوصه لنزوله من عند الله، والحبوب والأرض يتخللها البيوع والغصوب، وتدخلها الشُّبه، كانت أدنى من هذا الوجه .

مسئلة — في هذه الآية دليل على جواز أكل الطيبات والمطاعم المستلذات، وكان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يحب الحلوى والعسل، ويشرب الماء البارد العذب . وسيأتي هذا المعنى في المائدة والنحل إن شاء الله مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ ٱهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ . تقدم معنى الهبوط ؛ وهذا أمر معناه التعجيز؛ كقوله تعالى : ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ . لأنهم كانوا في التّيه وهذا عقوبة لهم . وقيل : إنهم أعطوا ما طلبوه . ومصرا، بالتنوين منكرا قراءة الجمهور وهو خط المصحف . قال مجاهد وغيره : فمن صرفها أراد مصرا من الأمصار غير معين . وروى عكرمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ ٱهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ . قال : مصرا من هذه الأمصار . وقالت طائفة : ممن صرفها أيضا أراد مصر فرعون بعينها . استدل الأوّلون بما اقتضاه ظاهر القرآن من أمرهم دخول القرية، وبما تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعد التّيه . واستدل الآخرون بما في القرآن من أن الله أورث بني إسرائيل ديار آل فرعون وآثارهم، وأجازوا صرفها . قال الأخفش والكسائي : لخفتها وشبهها بهند ودعد؛ وأنشد :

لم تَتَلَفَّع بفضل مئزرها ۞ دَعْدٌ ولم تُسْقَ دَعْدُ في العُلَبِ

بجمع بين اللغتين . وسيبويه والخليل والفرّاء لا يجيزون هذا؛ لأنك لو سميت امرأة بزيد لم تصرف . وقال غير الأخفش : أراد المكان فصرّف . وقرأ الحسن وأبان بن تغلب وطلحة : مصر ، بترك الصرف . وكذلك هي في مصحف أُبيّ بن كعب وقراءة ابن مسعود . وقالوا : هي مصر فرعون . قال أشهب قال لي مالك : هي عندي مصر قريتك مسكن فرعون؛ ذكره ابن عطية . والمِصْرُ أصله في اللغة الحدّ . ومُصُورُ الدّار : حدودها . قال ابن فارس ويقال : إن أهل هَجَرَ يكتبون في شروطهم "اشترى فلان الدارَ بمُصُورِها" أي حدودها؛ قال عديّ :

وجاعل الشمس مِصرًا لا خَفاءَ به * بين النهار وبين الليــل قد فَصَــلا

وقــوله تعالى : ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ . «ما» نصب بإنّ . وقرأ ابن وثّاب والنخعيّ سِألتم بكسر السين؛ يقال : سألت وسلت بغير همــز ، وهو من ذوات الواو بدليل قولهم : يتساولان . ومعنى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ . أي ألزموهما وقضى عليهم بهما . مأخوذ من ضرب القباب؛ قال الفرزدق في جرير :

ضربت عليــك العنكبوتُ بنَسْجها * وقَضَى عليــك به الكتابُ المُــنْزَلُ

وضرب الحاكم على اليد أي حمل وألزم . والذِّلّة : الذُّل والصَّغار . والمسكنة : الفقر . فلا يوجد يهوديّ وإن كان غنيًّا خاليًــا من زيّ الفقر وخضوعه ومهانته . وقيل : الذّلة فرض الجزية ، عن الحسن وقتادة . والمسكنة : الخضوع ، وهي مأخوذة من السكون أي قلّل الفقرُ حركته ؛ قاله الزجاج . وقال أبو عبيدة : الذّلة : الصّغار . والمسكنة مصدر المسكين . وروى الضّحاك بن مُزاحم عن ابن عباس وضربت عليهم الذلة والمسكنة قال : هم أصحاب القبالات[(1)] .

قوله تعالى : ﴿وَبَاءُوا﴾ : أي انقلبوا ورجعوا أي لزمهم ذلك ، ومنه قوله عليه السلام في دعائه ومناجاته : "أبُوءُ بنعمتك عليّ" أي أقرّبها وألزمها نفسي . وأصله في اللغة الرجوع ؛ يقال : باء بكذا أي رجع به . وباء الى المَباءة — وهي المنزل — أي رجع . والبَواء : الرجوع بالقَوَد . وهم في هذا الأمر بَواءٌ أي سواء ، يرجعون فيــه الى معنى واحد؛ وقال الشاعر :

ألا تنتهي عنّا مــلوكٌ وتتّقى * محارمَنا لا يَبْأَأ الدمُ بالدمِ

(1) في ابن تفسير ابن كثير : «... القبالات يعني الجزية» .

أى لا يرجع الدم بالدم فى القود، وقال :

فآبوا بالنِّهاب وبالسَّبايا ‏*‏ وأُبنا بالملوك مصفَّدينا(١)

أى رجعوا ورجعنا . وقد تقدّم معنى الغضب فى الفاتحة .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ﴾ . ذلك، تعليل . ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ . أى يكذبون بآيات الله أى بكتابه ومعجزات أنبيائه . ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ . معطوف على يكفرون . وروى عن الحسن يُقَتِّلُون، وعنه أيضا كالجماعة . وقرأ نافع النبيئين بالهمز حيث وقع فى القرآن إلا فى موضعين ؛ فى سورة الأحزاب : ﴿إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ﴾ . ﴿وَلَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا﴾ . فإنه قرأ بلا مد ولا همز . وإنما ترك همز هذين لاجتماع همزتين مكسورتين . وترك الهمز فى جميع ذلك الباقون . فأما من همز فهو عنده من أنبأ إذا أخبر ؛ واسم فاعله مُنْبِئ . ويجمع نبىء أنبياء ؛ وقد جاء فى جمع نبىّ نبآء ؛ قال العبّاس بن مِرْداس السُّلَمىّ يمدح النبىّ صلّى الله عليه وسلّم :

يا خاتم النُّبَآءِ إنك مُرْسَلٌ ‏*‏ بالحق كلُّ هُدَى السبيلِ هُدا كا

هذا معنى قراءة الهمز . واختلف القائلون بترك الهمز ؛ فمنهم من اشتق اشتقاق من همز، ثم سهّل الهمز . ومنهم من قال : هو مشتق من نبا ينبو إذا ظهر . فالنّبىّ من النبوة وهى الارتفاع ؛ فمنزلة النّبىّ رفيعة . والنّبىّ بترك الهمز أيضا الطريق، فسُمّى الرسول نبيّا لاهتداء الخلق به كالطريق ؛ قال الشاعر(٢) :

لأصبح رَتْمًا دقاق الحصى ‏*‏ مكانَ النّبىّ من الكاثب

رَتَمْتُ الشىء : كسرته ؛ يقال : رتم أنفه ورثمه بالتاء والثاء جميعا . والرَّتْم أيضا المرثوم أى المكسور . والكاثب : اسم جبل . فالأنبياء لنا كالسُّبُل فى الأرض . ويروى أن رجلا قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم : السلام عليك يا نبىء الله ؛ وهمز . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « لست بنبىء الله — وهمز — ولكنى نبىّ الله » ولم يهمز . قال أبو علىّ : ضُعّف سند هذا الحديث، ومما يقوّى ضعفه أنه عليه السلام قد أنشده المادح :

‏*‏ يا خاتم النبآء . . ‏ ولم يُؤْثَر فى ذلك إنكار .

---

(١) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم التغلبى ؛ ولا شاهد فيه ؛ إذ الرواية فيه « فآبوا . . وأبنا » ومادة « آب » من مادة « باء » وإن كان معنى المادتين واحدا .

(٢) هو أوس بن حجر، يرثى فضالة بن كلدة الأسدى .

قوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ . تعظيم للشنعة والذنب الذى أتوه .

فإن قيل : هذا دليل على أنه قد يصح أن يقتلوا بالحق ؛ ومعلوم أن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يُقتلون به . قيل له : ليس كذلك ، وإنما خرج هذا مخرج الصّفة لقتلهم أنه ظلم وليس بحق ؛ فكان هذا تعظيما للشّنعة عليهم ؛ ومعلوم أنه لا يقتل نبيّ بحق ، ولكن يقتل على الحق فصرّح قوله : ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ عن شنعة الذنب ووضوحه ؛ ولم يأت نبيّ قطّ بشيء يوجب قتله .

فإن قيل : كيف جاز أن يُخلَّى بين الكافرين وقتل الأنبياء؟ قيل : ذلك كرامة لهم وزيادة فى منازلهم ؛ كمثل من يقتل فى سبيل الله من المؤمنين ، وليس ذلك بخذلان لهم . قال ابن عباس والحسن : لم يقتل نبيّ قطّ من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال ، وكل من أمر بقتال نُصر .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا﴾ . ذلك ، ردّ على الأول وتأكيد للإشارة إليه . والباء فى بما باء السبب . قال الأخفش : أى بعصيانهم . والعصيان : خلاف الطاعة . واعتصت النواة إذا اشتدت . والاعتداء : تجاوز الحدّ فى كل شىء ، وعُرف فى الظلم والمعاصى .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا﴾ الآية . فيه ثمان مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ . أى صدّقوا بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم . وقال سفيان : المراد المنافقون . كأنه قال : الذين آمنوا فى ظاهر أمرهم ؛ فلذلك قرنهم باليهود والنصارى والصابئين ثم بيّن حكم من آمن بالله واليوم الآخر من جميعهم .

الثانية — قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا﴾ . معناه صاروا يهودا ؛ نسبوا إلى يهوذا وهو أكبر ولد يعقوب عليه السلام ؛ فقلبت العرب الذال دالا لأن الأعجمية إذا عُرّبت غُيّرت عن لفظها . وقيل : سُمّوا بذلك لتوبتهم عن عبادة العجل . هاد : تاب . والهائد : التائب ؛ قال الشاعر :

* إنى امرؤٌ من حُبّــه هائدُ *

أى تائب؛ وفى التنزيل : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ . أى تبنا . وهاد القوم يهودون هودا وهيادة إذا تابوا . وقال ابن عرفة : هدنا إليك أى سكنّا إلى أمرك . والهوادة : السكون والموادعة ؛ قال : ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا﴾ . وقرأ أبو السّمّاك[1] هادوا ، بفتح الدال .

(١) كذا فى كتاب البحر لأبى حيان . وفى بعض نسخ الأصل : « ابن السماك » . وفى بعضها : « أبو السمال » . بالشين واللام .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ ، جمع ، واحده نصرانيّ . وقيل : نَصْرانٍ بإسقاط الياء ؛ وهــذا قول سيبويه . والأنثى نَصْرانة كندمان وندمانة ؛ وهو نكرة يعرّف بالألف واللام ؛ قال الشــاعر[1] :

صلّت كما صــدّ عمّا لا يَحِــلُّ له * ساقِي نَصارَى قُبيلَ الفِصْحِ[2] صُوّامِ

فوصفه بالنكرة . وقال الخليل : واحد النّصارى نَصْرِيّ ، كمَهْرِيّ ومَهارَى ، وأنشد سيبويه شاهدا على قــوله :

تــراه إذا دار العِشَــا متحنّفــا * ويُضحِي لَدَيْه وهو نَصْرانٌ شامِسُ

وأنشــد :

فكلتاهما خرّتْ وأسْجَد رأسُها * كما أسْجــدتْ نَصرانة لم تَحنّفِ[3]

يقال أسجد : اذا مال . ولكن لا يستعمل نصران ونصرانة إلا بياءى النسب ، لأنهم قالوا : رجل نصرانيّ وامرأة نصرانيّة . ونصّره : جعله نَصْرانيا ؛ وفي الحديث : «فأبَواه يُهوِّدانه ويُنصِّرانه» . وقال عليه السلام : «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهوديّ ولا نصرانيّ ثم لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» وقد جاءت جموع على غير ما يستعمل واحدها ؛ وقياسه النصرانيون . ثم قيل : سُمّوا بذلك لقرية تسمى "ناصرة" كان ينزلهــا عيسى عليه السلام فنسب إليها ، فقيل : عيسى النّاصري ؛ فلما نسب أصحابه اليه قيل : النّصارى . قاله ابن عباس وقتادة . وقال الجوهري : ونَصْرَان قرية بالشــام ينسب اليها النصارى . ويقال : ناصرة . وقيل : سموا بذلك لنصرة بعضهم بعضا ؛ قال الشاعر :

لمــا رأيت نَبَطًا أنصــارَا * شمّرتُ عن رُكبتيَ الإزارَا

* كنتُ لهم من النّصارى جارا *

وقيل : سُمّوا بذلك لقوله : ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ .

---

(١) هو النمر بن تولب . يصف ناقة عرض عليها الماء فعافته .

(٢) في نسخ الأصل : «الصبح» . بالباء والتصويب عن كتاب سيبويه . والفصح : فطر النصارى ، وهو عيد لهم .

(٣) البيت لأبي الأخزر الحماني ؛ يصف ناقتين طأطأتا رءوسهما من الإعياء ؛ فشبه رأس الناقة رأس النصرانية إذا طأطأته في صلاتها . شرح القاموس واللسان .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَالصَّابِئِينَ ﴾ جمع صابئ . وقيل : صابٍ، ولذلك اختلفوا فى هَمْزه وهَمَزَه الجمهور إلا نافعا . فمن همزه جعله من صَبَأَتِ النجومُ إذا طلعت . وصَبَأَتْ ثَنِيَّةُ الغلام إذا خرجت ومن لم يهمز جعله من صبا يصبو إذا مال . فالصابئ فى اللغة من خرج أو مال من دين إلى دين ، ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم : قد صبأ . فالصابئون قد خرجوا من دين أهل الكتاب .

الخامسة — لا خلاف فى أن اليهود والنصارى أهل كتاب ، ولأجل كتابهم جاز نكاح نسائهم وأكل طعامهم — على ما يأتى بيانه فى المائدة — وضربُ الجزية عليهم ، على ما يأتى فى سورة براءة إن شاء الله . واختلف فى الصابئين، فقال السُّدِّى : هم فرقة من أهل الكتاب . وقاله إسحاق ابن رَاهْوَيه . قال ابن المنذر : وقال إسحاق لا بأس بذبائح الصابئين ، لأنهم طائفة من أهل الكتاب . وقال أبو حنيفة : لا بأس بذبائحهم ونكاح نسائهم . وقال الخليل : هم قوم يشبه دينُهم دينَ النصارى، إلا أن قِبْلَتهم نحو مَهَبِّ الجنوب؛ يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . وقال مجاهد والحسن وابن أبى نَجِيح : هم قوم تَرَكَّب دينهم بين اليهودية والمجوسية لا تؤكل ذبائحهم . ابن عباس : ولا تنكح نساؤهم . وقال الحسن أيضا وقتادة : هم قوم يعبدون الملائكة ويصلّون إلى القبلة ويقرءون الزبور ويصلّون الخمس، رآهم زياد بن أبى سفيان فأراد وضع الجزية عنهم حين عرف أنهم يعبدون الملائكة . والذى تحصّل من مذهبهم فيما ذكره بعض علمائنا أنهم موحّدون معتقدون تأثير النجوم وأنها فعّالة . وبهذا أفتى أبو سعيد الإصطخرى القادرَ بالله بكفرهم حين سأله عنهم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ مَنْ آمَنَ ﴾ . أى صدّق . و«من» فى قوله : ﴿ مَنْ آمَنَ ﴾ . فى موضع نصب بدل من الذين . والفاء، فى قوله : ﴿ فَلَهُمْ ﴾ . داخلة بسبب الإبهام الذى فى مَن . و«لهم أجرهم» ابتداء وخبر فى موضع خبر إنّ، ويحسن أن يكون فى موضع رفع بالابتداء، ومعناها الشرط . و«آمن» فى موضع جزم بالشرط . والفاء الجواب . و«لهم أجرهم» خبر من، والجملة كلها خبر إنّ والعائد على الذين محذوف، تقديره من آمن منهم بالله . وفى الإيمان بالله واليوم الآخر اندراج الإيمان بالرسل والكتب والبعث .

السابعة — إن قال قائل : لم جمع الضمير في قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ . وآمن لفظ مفرد ليس بجمع، وإنما كان يستقيم لو قال : له أجره؟ فالجواب أنّ مَن، يقع على الواحد والتثنية والجمع، فجائز أن يرجع الضمير مفردا ومُثنّى ومجموعا؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ ، على المعنى . وقال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ . على اللفظ؛ وقال الشاعر :

ألمَّا بسَلْمَى عنكما إن عرضتما * وقولا لها عوجى على من تخلّفوا

وقال الفرزدق :

تعالَ فإن عاهدتنى لا تخوننى * نكن مثلَ مَنْ ياذئبُ يصطحبانِ

فحمل على المعنى، ولو حمل على اللفظ لقال : يصطحب وتخلف . وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ ﴾ . فحمل على اللفظ . ثم قال : ﴿ خَالِدِينَ ﴾ . فحمل على المعنى، ولو راعى اللفظ لقال : خالدا فيها . وإذا جرى ما بعد مَنْ على اللفظ فجائز أن يخالف به بعدُ على المعنى كما في هذه الآية . وإذا جرى ما بعدها على المعنى لم يجز أن يخالف به بعد على اللفظ؛ لأن الإلباس يدخل في الكلام . وقد مضى الكلام في قوله تعالى :﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . والحمد لله .

الثامنة — روى عن ابن عباس أن قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ . الآية، منسوخ بقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ الآية . وقال غيره : ليست بمنسوخة. وهي فيمن ثبت على إيمانه من المؤمنين بالنبيّ عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴾ . هذه الآية تفسّر معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ . قال أبو عبيد : المعنى زعزعناه فاستخرجناه من مكانه . قال : وكل شيء قلعته فرميت به فقد نتقته . وقيل : نتقناه رفعناه . قال ابن الأعرابي : الناتق : الرافع . والناتق : الباسط . والناتق : الفاتق . وامرأة ناتقٌ ومنتاقٌ : كثيرة الولد . وقال القُتَبى : أخذ ذلك من نَتْق السِّقاء وهو نفضه حتى تقتلع الزبدة منه . قال : قوله : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ . قُلع من أصله . واختلف في الطُّور، فقيل : الطور اسم للجبل الذى كلّم الله عليه موسى عليه السلام، وأنزل عليه فيه التوراة دون غيره . رواه ابن جُرَيج عن ابن عباس . وروى الضّحاك عنه أن الطّور ما أنبت من الجبال خاصة دون ما لم يُنْبِت . وقال مجاهد وقتادة :

أيّ جبل كان ؛ إلا أن مجاهدا قال : هو اسم لكل جبل بالسّريانية . وقاله أبو العالية . وقد مضى الكلام هل وقع في القرآن ألفاظ مفردة غير معربة من غير كلام العرب في مقـدّمة الكتاب . والحمد لله . وزعم البكريّ أنه سُمّى بطُور بن إسماعيل عليه السلام والله تعالى أعلم .

القول في سبب رفع الطّور

وذلك أن موسى عليه السلام لمـا جاء بني إسرائيل من عند الله بالألواح فيها التوراة؛ قال لهم: خذوها والتزموها . فقالوا : لا ! إلا أن يكلمنا الله بها كما كلّمك . فصُـعقوا ثم أُحْيُوا . فقال لهم: خذوها . فقالوا : لا ! فأمر الله الملائكة فاقتلعت جبلا من جبال فلسطين طوله فرسخ في مثـله ؛ وكذلك كان عسكرهم، فجُعل عليهم مثل الظُّلة ، وأوتوا ببحر من خلفهم، ونار من قِبَـل وجوههم . وقيـل لهم : خذوها وعليكم الميثاق ألّا تضـيعوها ، وإلا سقط عليكم الجبل . فسجدوا توبة لله، وأخذوا التّوراة بالميثاق . قال الطّبري عن بعض العلماء : لو أخذوها أوّل مرّة لم يكن عليهم ميثاق. وكان سجودهم على شِقٍّ لأنهـم كانوا يَرْقُبون الجبل خوفا ؛ فلما رحمهـم الله قالوا : لا سجدةَ أفضـلُ من سجدة تقبّلها الله ورحم بها عباده،فأمرّوا سجودَهم على شِقّ واحد . قال ابن عطيّة : والذى لا يصح سواه أن الله تعالى اخترع وقت سجودهم الإيمـان ، لا أنهم آمنوا كُرْهًا وقلوبهم غير مطمئنّة بذلك .

قوله تعالى : ﴿خُذُوا﴾ . أي فقلنا خذوا؛ فحذف . ﴿مَآ آتَيْنَاكُمْ﴾ . أعطيناكم . ﴿بِقُوَّةٍ﴾ . أي بجِـدٍّ واجتهاد . قاله ابن عباس وقتادة والسّدى . وقيل : بنيّـة وإخلاص . مجاهد : القوّة العمل بمـا فيه . وقيل : بقوّة بكثرة درس . ﴿وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ . أي تدبروه واحفظوا أوامره ووعيده، ولا تنسوه ولا تضيعوه .

قلت : هذا هو المقصود من الكتب، العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان وترتيلها ؛ فإن ذلك نبذٌ لها على ما قاله الشعبي وابن عيينة . وسيأتى قولهما عند قوله تعالى : ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ﴾ . وقد روى النّسائيّ عن أبي سعيد الخدريّ أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : « إنّ من شرّ الناس رجلا فاسقا يقرأ القرآن لا يرعوى إلى شيء منه » . فبيّن صلّى الله عليه وسلّم أن المقصود العمل كما بيّنا . وقال مالك : قد يقرأ القرآن من لا خير فيــه . فما لزم إذًا من قبلنا وأخذ

عليهم لازم لنا وواجب علينا . قال الله تعالى : ﴿وَٱتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ . فأمرنا باتّباع كتابه والعمل بمقتضاه؛ لكن تركنا ذلك كما تركت اليهود والنصارى؛ وبقيت أشخاص الكتب والمصاحف لا تفيد شيئا لغلبة الجهل وطلب الرئاسة واتّباع الأهواء . روى الترمذيّ عن جُبير بن نُفَير عن أبي الدّرداء قال : كنّا مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فشخص ببصره إلى السماء ثم قال : « هذا أوانٌ يختلس فيه العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء » . فقال زياد بن لَبِيد الأنصاريّ : كيف يختلس منا وقد قرأنا القرآن ؟ فوالله لنقرأنه ولنقرئنّه نساءنا وأبناءنا . فقال : « ثكلتك أمّك يا زياد إن كنت لأعدّك من فقهاء المدينة هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم » . وذكر الحديث . وسيأتي وخرّجه النسائي من حديث جبير بن نفير أيضا عن عوف ابن مالك الأشجعيّ من طريق صحيحة ، وأن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال لزياد : « ثكلتك أمك زياد هذه التوراة عند اليهود والنصارى» . وفي الموطأ عن عبد الله بن مسعود قال لإنسان : إنك في زمانٍ كثير فقهاؤه، قليل قراؤه تحفظ فيه حدود القرآن وتضيّع حروفه، قليل من يسأل، كثير من يعطي، يطيلون الصلاة ويقصرون الخطبة، يبدّون فيه أعمالهم قبل أهوائهم . وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه ، كثير قراؤه ، تحفظ فيه حروف القرآن ، وتضيع حدوده ، كثير من يسأل، قليل من يعطي، يطيلون فيه الخطبة، ويقصرون الصلاة، يبدّون فيه أهواءهم قبل أعمالهم. وهذه نصوص تدل على ما ذكرنا . وقد قال يحيى : سألت ابن نافع عن قوله : يبدّون أهواءهم قبل أعمالهم . قال : يقول يتبعون أهواءهم ويتركون العمل بالذي افترض عليهم . وتقدّم القول في معنى قوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ . فلا معنى لإعادته . وقوله : ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ . تولى، تفعّل وأصله الإعراض والإدبار عن الشيء بالجسم، ثم استعمل في الإعراض عن الأوامر والأديان والمعتقدات اتساعا ومجازا . وقوله : ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ . أي من بعد البرهان، وهو أخذ الميثاق ورفع الجبل . وقوله : ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ . فضل، مرفوع بالابتداء عند سيبويه والخبر محذوف لا يجوز إظهاره ، لأن العرب استغنت عن إظهاره إلا أنهم إذا أرادوا إظهاره جاءوا بأن، فإذا جاءوا بها لم يحذفوا الخبر، والتقدير فلولا فضل الله تداركم . ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ . عطف على فضل أي لطفه وإمهاله : ﴿لَكُنْتُمْ﴾ جواب لولا . ﴿مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾ خبر كنتم . والخسران : النقصان . وقد تقدّم . وقيل : فضله قبول

التوبة، ورحمته العفو . والفضـــل : الزيادة على ما وجب . والإفضال : فعـل ما لم يجب . قال ابن فارس فى المجمل الفضل : الزيادة والخير، والإفضال : الإحسان .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ الآية . فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ﴾ . علمتم، معناه عرفتم أعيانهم . وقيل : علمتم أحكامهم . والفرق بينهما أن المعرفة متوجّهة إلى ذات المسمّى . والعلم متوجّه إلى أحوال المسمّى، فاذا قلت : عرفت زيدا، فالمـراد شخصه . واذا قلت : علمت زيدا ، فالمراد به العـلم بأحواله من فضل ونقص . فعلى الأوّل يتعدى الفعل إلى مفعول واحد وهو قول سيبويه : علمتم بمعنى عرفتم . وعلى الثـانى إلى مفعولين . وحكى الأخفش ولقـد علمت زيدا ولم أكن أعلمه . وفى التنزيل : ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ . كل هـذا بمعنى المعرفة فآعلم . ﴿ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ صلة الذين . والاعتداء : التجاوز وقد تقدّم .

الثـانية — روى النّسـائى عن صفوان بن عسّال قال قال يهـودىّ لصاحبه : اذهب بنـا إلى هذا النبىّ . فقال له صاحبه : لا تقل نبىّ لو سمعك! فإن له أربعة أعين، فأتيا رسول الله صلّى الله عليه وسـلّم وسألاه عن تسع آيات بيّنات ، فقال لهم : "لا تشركوا بالله شـيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتـلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق ولا تمشـوا ببرىء إلى سلطان ولا تَسْحَروا ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا المحصنة ولا تولّوا يوم الزّحف وعليكم خاصّة يهودُ ألا تعدوا فى السّبت" . فقبّلوا يديه ورجليه وقالوا : نشهد أنك نبىّ . قال "فما يمنعكم أن تتّبعونى" . قالوا : إن داود دعا بألّا يزال من ذريّتـه نبىّ، وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود . وخرجه الترمذىّ وقال : حديث حسن صحيح . وسيأتى لفظه فى سورة سبحان إن شاء الله تعالى .

الثالثة — ﴿ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ . معناه فى يوم السبت، ويحتمل أن يريد فى حكم السبت . والأوّل قول الحسن وأنهم أخذوا فيـه الحيتان على جهة الاستحلال . وروى أشهب عن مالك قال : زعم ابن رومان أنهم كانوا يأخذ الرجل منهم خيطا ويضع فيه وَهْقَة(1) وألقاها فى ذنب الحوت، وفى الطرف الآخر من الخيـط وتد وتركه كذلك إلى الأحد ، ثم تطرّق النـاس حين رأوا من صنع لا يبتلى

(1) فى البحر المحيط : «خزمة» أى حبلا من لحاء شجر تتخذ من لحائه الحبال .

حتى كثر صيد الحوت ومشى به في الأسواق، وأعلن الفسقة بصيده . فقامت فرقة فنهت وجاهرت بالنهي واعتزلت . ويقال : إن الناهين قالوا لا نساكنكم ؛ فقسموا القرية بجدار ؛ فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد؛ فقالوا : إن للناس لشأنا؛ فعلوا على الجدار فنظروا فإذا هم قردة ؛ ففتحوا الأبواب ودخلوا عليهم فعرفت القردة أنسابها من الإنس ، ولا يعرف الإنس أنسابهم من القردة؛ فجعلت القردة تأتي نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي ؛ فيقول : ألم أنهكم ! فتقول برأسها : نعم . قال قتادة : صار الشبان قردة، والشيوخ خنازير؛ فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم . وسيأتي في الأعراف قول من قال : إنهم كانوا ثلاث فرق . وهو أصح من قول من قال : إنهم لم يفترقوا إلا فرقتين . والله أعلم .

والسبت مأخوذ من السبت وهو القطع ؛ فقيل : إن الأشياء فيه سبتت وتمت خلقتها . وقيل : هو مأخوذ من السبوت الذي هو الراحة والدعة .

واختلف العلماء في الممسوخ هل ينسل على قولين . قال الزجاج : قال قوم يجوز أن تكون هذه القردة منهم . واختاره القاضي أبو بكر بن العربي . وقال الجمهور : الممسوخ لا ينسل، وإن القردة والخنازير وغيرهما كانت قبل ذلك؛ والذين مسخهم الله قد هلكوا ولم يبق لهم نسل؛ لأنه قد أصابهم السخط والعذاب، فلم يكن لهم قرار في الدنيا بعد ثلاثة أيام . قال ابن عباس : لم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل . قال ابن عطية : وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم وثبت أن الممسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام .

قلت : هذا هو الصحيح من القولين . وأما ما احتج به ابن العربي وغيره على صحة القول الأول من قوله صلى الله عليه وسلم : " فقدت أمة من بني إسرائيل لا يدرى ما فعلت ولا أراها إلا الفأر ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشربه وإذا وضع لها ألبان الشاء شربته " . رواه أبو هريرة أخرجه مسلم . وبحديث الضب رواه مسلم أيضا عن أبي سعيد وجابر؛ قال جابر : أتى النبي صلى الله عليه وسلم بضب فأبى أن يأكل منه ؛ وقال : " لا أدري لعله من القرون التي مسخت " . فمتأول على ما يأتي . قال ابن العربي : وفي البخاري عن عمرو بن ميمون أنه قال : رأيت في الجاهلية قردة قد زنت فرجموها فرجمتها معهم . ثبت في بعض نسخ البخاري وسقط

فى بعضها، وثبت فى نص الحديث «قد زنت» وسقط هذا اللفظ عند بعضهم . قال ابن العربى: فإن قيل وكأن البهائم بقيت فيهم معالم الشرائع حتى ورثوها خلفا عن سلف الى زمان عمرو . قلنا : نعم كذلك كان، لأن اليهود غيّروا الرّجم فأراد الله أن يقيمه فى ممسوخهم حتى يكون أبلغ فى الحجـة على ما أنكروه من ذلك وغيّروه حتى تشهد عليهـم كتبهم وأحبارهم وممسوخهم، حتى يعلموا أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون، ويحصى ما يبدلون وما يغيرون، ويقيم عليهم الحجة من حيث لا يشعرون، وينصر نبيّه عليه السلام وهم لا ينصرون .

قلت : هذا كلامه فى الأحكام ولا حجة فى شيء منه . فأمّا ذكره من قصة عمرو فذكر الحميدى فى جمع الصحيحين حكى أبو مسعود الدّمشقى أن لعمـرو بن ميمون الأودى فى الصحيحين حكاية من رواية حصين عنـه قال : رأيت فى الجاهلية قِرْدَةً اجتمع عليها قِرَدَةٌ فرجموها فرجمتهـا معهم . كذا حكى أبو مسعود ولم يذكر فى أى موضع أخرجه البخارى من كتابه ؛ فبحثنا عن ذلك فوجدناه فى بعض النسخ لا فى كلها؛ فذكر فى كتاب أيام الجاهلية . وليس فى رواية النعيمى عن الفَرَبرى أصلا شيء من هذا الخبر فى القردة؛ ولعلها من المقحمات فى كتاب البخارى . والذى قال البخارى فى التاريخ الكبير : قال لى نعيم بن حمّاد أخبرنا هُشيم عن أبى بَلْج وحُصين عن عمرو بن ميمون قال : رأيت فى الجاهلية قردة اجتمع عليها قرود فرجموها فرجمتها معهم . وليس فيه قد زنت، فإن صحت هـذه الرواية فإنما أخرجها البخارى دلالة على أن عمرو بن ميمون قد أدرك الجاهلية ولم يبال بظنه الذى ظنه فى الجاهلية . وذكر أبو عمر فى الاستيعاب، عمرو بن ميمون «وأن كنيته أبو عبد الله معدود فى كبار التابعين من الكوفيين، وهو الذى رأى الرّجم فى الجاهليـة من القردة ان صح ذلك، لأن رواته مجهولون، وقد ذكر البخارى عن نُعيم عن هشيم عن حُصـين عن عمرو بن ميمون الأودى مختصرا قال : رأيت فى الجاهليـة قردة زنت فرجموها — يعنى القردة — فرجمتها معهم . ورواه عباد بن العوام عن حصين كما رواه هشيم مختصرا . وأما القصة بطولها فانها تدور على عبد الملك بن مسلم عن عيسى بن حِطّان؛ وليسا ممن يحتج بهما، وهذا عند جماعة أهل العلم منكر إضافة الزنا الى غير مكلف، وإقامة الحدود فى البهـائم، ولو صح لكانوا من الجن لأن العبادات فى الإنس والجن دون غيرهما» . وأما قوله عليه السـلام فى حديث أبى هريرة : "ولا أراها إلا الفأر" . وفى الضب : " لا أدرى

لعله من القرون التي مسخت " . وما كان مثله فإنما كان ظنا وخوفا لأن يكون الضب والفأر وغيرهما مما مسخ ، وكان هذا حدسا منه صلّى الله عليه وسلّم قبل أن يوحى اليه أن الله لم يجعل للمسخ نسلا ؛ فلما أوحى اليه بذلك زال عنه ذلك التخوف، وعلم أن الضب والفأر ليسا مما مسخ؛ وعند ذلك أخبرنا بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن القردة والخنازير هي مما مسخ ؟ فقال : "إن الله لم يهلك قوما أو يعذب قوما فيجعل لهم نسلا وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك " . وهذا نص صريح رواه عبد الله بن مسعود أخرجه مسلم في كتاب القَدَر . وثبتت النصوص بأكل الضّب بحضرته وعلى مائدته ولم ينكر؛ فدل على صحة ما ذكرنا وبالله توفيقنا . وروى عن مجاهد في تفسير هذه الآية أنه إنما مسخت قلوبهم فقط، وردّت أفهامهم كأفهام القردة . لم يقله غيره من المفسرين فيما أعلم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً ﴾ . قردة، خبر كان . ﴿ خَاسِئِينَ ﴾ نعت وإن شئت جعلته خبرا ثانيا لكان، أو حالا من الضمير في كونوا . ومعناه مبعدين ؛ يقال : خسأته خَسْأً . وخسئ وانخسأ أي أبعدته فبعد . وقوله تعالى : ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا ﴾ . أي مبعدا . وقوله : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا ﴾ . أي تباعدوا تباعد سخط . قال الكسائي : خَسَأ الرجل خسوءاً، وخسأته خَسْأً . ويكون الخاسئ بمعنى الصاغر القميء، يقال : قَمُؤَ الرجلُ قماء وقماءة صار قميئاً وهو الصاغر الذليل . وأقمأته : صغرته وذللته، فهو قميء على فعيل .

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا ﴾ . نصب على المفعول الثاني . وفي المجعول نكالا أقاويل ؛ قيل : العقوبة . وقيل : القرية ؛ إذ معنى الكلام يقتضيها . وقيل : الأمة التي مسخت . وقيل : الحيتان؛ وفيه بعد . والنكال : الزجر والعقاب . والنِّكل والأنكال : القيود . وسميت القيود أنكالا لأنها ينكل بها أي يمنع؛ ويقال للجام الثقيل : نِكْل ونَكْلٌ[1]؛ لأن الدابة تمنع به . ونَكَل عن الأمر يَنْكُل ، ونَكِل ينكَل إذا امتنع . والتنكيل : إصابة الأعداء بعقوبة تنكل من وراءهم أي تجبنهم . وقال الأزهري : النكال العقوبة . ابن دريد : والمَنْكَل : الشيء الذي ينكّل بالإنسان ؛ قال :

* وارم على أقفائهم بمنكل *

(١) هذه الكلمة موجودة في بعض نسخ الأصل ؛ ومعاجم اللغة لا تؤيده ، والذي بها إنما هو بالكسر لا غير .

﴿ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا ﴾ . قال ابن عباس والسدى : لما بين يدى المسخة ، ما قبلها من ذنوب القوم وما خلفها لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب . قال الفراء : جعلت المسخة نكالا لما مضى من الذنوب ولما يعمل بعدها ليخافوا المسخ بذنوبهم . قال ابن عطية : وهذا قول جيد، والضميران للعقوبة . وروى الحكم عن مجاهد عن ابن عباس : لمن حضر معهم ولمن يأتى بعدهم . واختاره النحاس ؛ قال : وهو أشبه بالمعنى، والله أعلم . وعن ابن عباس أيضا لما بين يديها وما خلفها من القرى . وقال قتادة : لما بين يديها من ذنوبهم، وما خلفها من صيد الحيتان .

قوله تعالى : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ . عطف على نكال، ووزنها مفعلة من الاتعاظ والانزجار . والوعظ : التخويف . والعظة الاسم . قال الخليل : الوعظ التذكير بالخير مما يرق له القلب . قال الماوردى : وخص المتقين وإن كانت موعظة للعالمين لتفردهم بها عن الكافرين المعاندين . قال ابن عطية : واللفظ يعم كل متق من كل أمة . وقال الزجاج : وموعظة للمتقين ، لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن ينتهكوا من حُرم الله جل وعز ما نهاهم عنه فيصيبهم ما أصاب أصحاب السبت إذ انتهكوا حُرم الله فى سبتهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ . فيه أربع مسائل .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ ﴾ . حكى عن أبى عمرو أنه قرأ يأمرْكم بالسكون، وحذف الضمة من الراء لثقلها . قال أبو العباس المبرد : لا يجوز هذا لأن الراء حرف الإعراب . وإنما الصحيح عن أبى عمرو أنه كان يختلس الحركة . ﴿ أَنْ تَذْبَحُوا ﴾ . فى موضع نصب بيأمركم أى بأن تذبحوا . ﴿ بَقَرَةً ﴾ نصب بتذبحوا . وقد تقدم معنى الذبح فلا معنى لإعادته .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ . مقدم فى التلاوة، وقوله : ﴿ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ﴾ . مقدم فى المعنى على جميع ما ابتدأ به من شأن البقره . ويجوز أن يكون قوله : ﴿ قَتَلْتُمْ ﴾ فى النزول مقدما، والأمر بالذبح مؤخرا . ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها؛ فكأن الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها ثم وقع ما وقع من أمر القتل، فأمروا أن يضربوه ببعضها؛ ويكون وإذ قتلتم مقدما فى المعنى على القول الأول حسب ما ذكرنا ، لأن الواو لا توجب

الترتيب ؛ ونظيره فى التنزيل فى قصة نوح بعد ذكر الطوفان وانقضائه فى قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ . فذكر إهلاك من هلك منهم ثم عطف عليه بقوله : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ . فذكر الركوب متأخرا فى الخطاب ؛ ومعلوم أن ركوبهم كان قبل الهلاك . وكذلك قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قَيِّمًا ﴾ . وتقديره أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا ؛ ومثله فى القرآن كثير .

الثالثة — لا خلاف بين العلماء أن الذبح أولى فى الغنم ، والنحر أولى فى الإبل ، والتخيير فى البقر . وقيل : الذبح أولى لأنه الذى ذكره الله ، ولقرب المنحر من المذبح . قال ابن المنذر : لا أعلم أحدا حرم أكل ما نحر مما يذبح ، أو ذبح مما ينحر . وكره مالك ذلك . وقد يكره المرء الشيء ولا يحرمه . وسيأتى فى سورة المائدة أحكام الذبح والذابح وشرائطهما عند قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ مستوفى إن شاء الله تعالى . قال الماوردى : وإنما أمروا — والله أعلم — بذبح بقرة دون غيرها ، لأنها من جنس ما عبدوه من العجل ليهون عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه ، وليعلم بإجابتهم ما كان فى نفوسهم من عبادته . وهذا المعنى علة فى ذبح البقرة ، وليس بعلة فى جواب السائل ؛ ولكن المعنى فيه أن يحيا القتيل بقتل حى ، فيكون أظهر لقدرته فى اختراع الأشياء من أضدادها .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ بَقَرَةً ﴾ . البقرة اسم للأنثى ، والثور اسم للذكر ، مثل ناقة وجمل ، وامرأة ورجل . وقيل : البقرة واحد البقر ، الأنثى والذكر سواء ، وأصله من قولك : بقر بطنه أى شقه ؛ فالبقرة تشق الأرض بالحرث وتثيره ؛ ومنه الباقر لأبى جعفر محمد بن على زين العابدين ، لأنه بقر العلم وعرف أصله : أى شقه . والبقيرة : ثوب يشق فتلقيه المرأة فى عنقها من غير كمين . وفى حديث ابن عباس فى شأن الهدهد "فبقر الأرض" . قال شمر : بقر نظر موضع الماء ، فرأى الماء تحت الأرض . قال الأزهرى : البقر اسم للجنس وجمعه باقر[1] . ابن عرفة : يقال بقير وباقر وبيقور . وقرأ عكرمة وابن يعمر "إن الباقر" . والثور : واحد الثيران . والثور : السيد من الرجال . والثور : القطعة من الأقط . والثور : الطحلب . وثور : جبل . وثور : قبيلة من العرب .

(١) فى لسان العرب : فأما بقر وباقر وبقير وبيقور وباقور وباقورة فأسماء للجمع .

وفي الحديث : "ووقت العشاء مالم يغب ثور الشفق" يعني انتشاره ؛ يقال : ثار يثور ثورا وثورانا إذا انتشر في الأفق . وفي الحديث : "من أراد العلم فليثوّر القرآن" . قال شمر : تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ . هـذا جواب منهم لموسى عليه السلام لما قال لهم : إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . وذلك أنهم وجدوا قتيلا بين أظهرهم ؛ قيل : اسمه عاميل ، واشتبه أمر قاتله عليهم ، ووقع بينهم خلاف ؛ فقالوا : نقتتل ورسول الله بين أظهرنا ؛ فأتوه وسألوه البيان — وذلك قبل نزول القسامة في التوراة ، فسألوا موسى أن يدعو الله — فسأل موسى عليه السلام ربه فأمرهم بذبح بقرة ؛ فلما سمعوا ذلك من موسى وليس في ظاهره جواب عما سألوه عنه ، واحتكموا فيه عنده ؛ قالوا : أتتخذنا هزؤا ؟ والهزء : اللعب والسخرية ؛ وقد تقدّم . وقرأ الجحدري أيتخذنا بالياء أي قال ذلك بعضهم لبعض ؛ فأجابهم موسى عليه السلام بقوله : ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ . لأن الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزؤ جهل . فاستعاذ منه عليه السلام ، لأنها صفة تنتفي عن الأنبياء . والجهل : نقيض العلم . فاستعاذ من الجهل كما جهلوا في قولهم : أتتخذنا هزؤا لمن يخبرهم عن الله تعالى ، وظاهر هذا القول يدل على فساد اعتقاد من قاله . ولا يصح إيمان من قال لنبيّ قد ظهرت معجزته ، وقال : إن الله يأمرك بكذا . أتتخذنا هزؤا؟ ولو قال ذلك اليوم أحد عن بعض أقوال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لوجب تكفيره . وذهب قوم إلى أن ذلك منهم على جهة غلظ الطبع والجفاء والمعصية ؛ على نحو ما قال القائل للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم في قسمة غنائم حُنَين : إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله . وكما قال له الآخر : أعدل يا محمد . وفي هذا كله أدل دليل على قبح الجهل وأنه مفسد للدّين .

قوله تعالى : ﴿ هُزُوًا ﴾ . مفعول ثان ، ويجوز تخفيف الهمزة تجعلها بين الواو والهمزة . وجعلها حفص واوا مفتوحة ، لأنها همزة مفتوحة قبلها ضمة فهي تجري على البدل ؛ كقوله : السفهاء ولا يجوز حذف الضمة من الزاي كما تحذفها من عضد فتقول : هُزْوا كما قرأ أهل الكوفة ، وكذلك ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ . وحكى الأخفش عن عيسى بن عمر أن كل اسم على ثلاثة أحرف أوّله مضموم ففيه لغتان ، التخفيف والتثقيل ؛ نحو اليسر والعسر والهزء . ومثله ما كان من الجمع على فُعُل

كُكُتُب وكُتْب، ورُسُل ورُسْل، وعُوُن وعُوْن . وأما قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ . فليس مثل هزء وكفء، لأنه على فعل من الأصل . على ما يأتي في موضعه إن شاء الله تعالى .

مسئلة في الآية دليل على منع الاستهزاء بدين الله، ودين المسلمين، ومن يجب تعظيمه، وأن ذلك جهل وصاحبه مستحق للوعيد . وليس المزاح من الاستهزاء بسبيل؛ ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمزح والأئمة بعده . قال ابن خُوَيْزِ مَنْداد : وقد بلغنا أن رجلا تقدم إلى عبيد الله بن الحسن وهو قاضي الكوفة فمازحه عبيد الله فقال : جُبّتك هذه من صوف نعجة أو من صوف كبش؟ فقال له : لا تجهل أيها القاضي ! فقال له عبيد الله : وأين وجدت المزاح جهلا ! فتلا عليه هذه الآية؛ فأعرض عنه عبيد الله لأنه رآه جاهلا لا يعرف المزح من الاستهزاء، وليس أحدهما من الآخر بسبيل .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ . هذا تعنيت منهم وقلة طواعية، ولو امتثلوا الأمر وذبحوا أي بقرة كانت لحصل المقصود، لكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم . قاله ابن عباس وأبو العالية وغيرهما . ونحو ذلك روى الحسن البصري عن النبي صلى الله عليه وسلم . ولغة بني عامر ادع وقد تقدم . و ﴿يُبَيِّن﴾ . مجزوم على جواب الأمر . ﴿مَا هِيَ﴾ . ابتداء وخبر . وماهية الشيء : حقيقته وذاته التي هو عليها .

قوله تعالى : ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ . في هذا دليل على جواز النسخ قبل وقت الفعل، لأنه لما أمر ببقرة، اقتضى أي بقرة كانت؛ فلما زاد في الصفة نسخ الحكم الأول بغيره؛ كما لو قال : في ثلاثين من الإبل بنت مخاض . ثم نسخه بإيجاب ابنة لبون أو حقة . وكذلك هاهنا لما عيّن الصفة صار ذلك نسخا للحكم المتقدم . والفارض : المسنة . وقد فَرَضت تَفرِض فروضا أي أسنت؛ ويقال للشيء القديم : فارض؛ قال الراجز :

شَيّبَ أصداغي فرأسي أبيضُ * محامِلٌ فيها رجالٌ فُرّضُ

يعني هرماء؛ وقال آخر :

لعمرك قد أعطيت جارك فارضا * تساق إليه ما تقوم على رِجلِ

أى قديمة ، وقال آخر :

يا رُبَّ ذى ضِغْن علىَّ فارض * له قُــروء كقروء الحـائض

أى قديم . ولا فارض ، رفع على الصّفة لبقرة . ولا بكر ، عطف . وقيــل : لا فارض خبر مبتدإ مضمر ، أى لا هى فارض ، وكذا لا ذلول ، وكذلك لا تسقى الحرث ، وكذلك مسلّمة . فاعلمه . وقيل : الفارض التى قد ولَدت بطونا كثيرة ، فيتّسع جوفها لذلك ؛ لأن معنى الفارض فى اللغــة الواسع . قاله بعض المتأخرين . والبِكْر : الصغيرة التى لم تحمل . وحكى القُتَبِيّ أنها التى ولدت . والبكر : الأوّل من الأولاد ، قال :

يا بِكْرَ بِكْرَينِ ويا خِلْبَ الكَبِدْ * أصبحتَ مِنّى كذراع من عَضُدْ

والبكر أيضا فى إناث البهائم وبنى آدم : ما لم يَفْتَحِلْهُ الفحل ، وهى مكسورة البــاء . وبفتحها ، الفَتِيُّ من الإبل . والعَوان : النَّصَف التى قد ولدت بطنا أو بطنين ؛ وهى أقوى ما تكون من البقر وأحسنه بخلاف الخيل ، قال الشاعر يصف فرسا :

كُمَيْت بَهِيم اللَّوْنِ ليس بفارِض * ولا بِعَوان ذات لون مُخَصَّف

فرس أخصف إذا ارتفع البَلَق من بطنــه إلى جنبــه . وقال مجاهد : العَوان من البقر هى التى قد ولدت مرّة بعد مرّة . وحكاه أهل اللغــة . ويقال : إن العوان النخلة الطويلة . وهى فيما زعموا لغة يمـانية . وحَرْب عَوان : إذا كان قبلها حرب بكر ، قال زهير :

إذا لَقِحت حربٌ عَوانٌ مُضِرّةٌ * ضَرُوسٌ تُهِرّ الناسَ أنيابُها عُصْلُ

أى لا هى صغيرة ولا هى مسنة أى هى عوان ، وجمعها عون بضم العين وسكون الواو ؛ وسمع عون بضم الواو كرُسُل . وقد تقدّم . وحكى الفرّاء من العوان ، عَوَّنَتْ تعوينا .

قوله تعالى : ﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ . تجديد للأمر وتأكيد وتنبيه على ترك التعنت ، فما تركوه ؛ وهذا يدل على أن مقتضى الأمر الوجوب كما تقوله الفقهاء ، وهو الصحيح ، على ما هو مذكور فى أصول الفقه ، وعلى أن الأمر على الفور ، وهو مذهب أكثر الفقهاء أيضا . ويدل على صحة ذلك أنه تعالى استقصرهم حين لم يبادروا إلى فعل ما أمروا به فقال : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ . وقيل : لا ، بل على التراخى لأنه لم يعنّفهم على التأخير والمراجعة فى الخطاب . قاله ابن خُوَيْزِمَنْدَاد .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ . ما ، استفهام مبتدأة . ولونها ، الخبر . ويجوز نصب لونها بيبين ، وتكون ما زائدة . واللون واحد الألوان، وهو هيئة كالسواد والبياض والحمرة . واللون : النوع . وفلان متلوّن إذا كان لا يثبت على خُلُق واحد وحال واحدة؛ قال :

كل يوم تتلوّنْ ✽ غير هذا بك أجملُ

ولوّنَ البُسْر تلوينا إذا بدا فيه أثر النّضج . واللّون : الدَّقَل ، وهو ضرب من النخل . قال الأخفش : هو جماعة واحدها لِينَة . قوله : ﴿صَفْرَاءُ﴾ . جمهور المفسرين أنها صفراء اللون من الصُّفرة المعروفة . قال مكّيّ عن بعضهم : حتى القَرْن والظِّلف . وقال الحسن وابن جبير : كانت صفراء القرن والظلف فقط . وعن الحسن أيضا صفراء، معناه سوداء ؛ قال الشاعر :

تلك خَيْلي منه وتلك رِكابي ✽ هُنّ صُفْرٌ أولادُها كالزَّبيبِ

قلت : والأول أصح لأنه الظاهر، وهذا شاذ لا يستعمل مجازا إلا في الإبل؛ قال الله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ . وذلك أن السود من الإبل سوادها صفرة . ولو أراد السواد لما أكّده بالفُقُوع ، وذلك نعت مختص بالصفرة وليس يوصف السواد بذلك ؛ تقول العرب : أسودُ حالكٌ وحُلْكُوك وحَلَكوك ودَحُوجِيٌّ وغِرْبِيبٌ . وأحمرُ قانئٌ . وأبيضُ ناصعٌ . ولَهِقٌ ولَهَاقٌ ويَقَقٌ . وأخضرُ ناضرٌ . وأصفرُ فاقعٌ؛ هكذا نصّ نقلة اللغة عن العرب . قال الكسائي : يقال فَقَع لونُها يَفْقَع فُقُوعا إذا خَلَصت صفرته . والإفقاع : سوء الحال . وفواقع الدهر : بَوائقه . وفقّع بأصابعه إذا صوّت؛ ومنه حديث ابن عباس : نَهَى عن التّفقيع في الصلاة . وهي الفرقعة، وهي غمز الأصابع حتى تُنْقِض[(١)] . ولم ينصرف صفراء في معرفة ولا نكرة ، لأن فيها ألف التأنيث وهي ملازمة فخالفت الهاء ، لأن ما فيه الهاء ينصرف في النكرة، كفاطمة وعائشة .

قوله تعالى : ﴿ فَاقِعٌ لَوْنُهَا ﴾ . يريد خالصا لونها لا لون فيها سوى لون جلدها . ﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ . قال وهب : كأن شعاع الشمس يخرج من جلدها، ولهذا قال ابن عباس : الصفرة تسر النفس . وحضّ على لباس النّعال الصّفر حكاه عنه النقاش . وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : من لبس نعلي جلد أصفرَ قلّ همه، لأن الله تعالى يقول : ﴿ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾

(١) النقيض من الأصوات يكون لمفاصل الإنسان عن لسان العرب .

حكاه عنه الثعلبي ، ونهى ابن الزبير ومحمد بن أبي كثير عن لباس النعال السود، لأنها تُهِمّ . ومعنى تسرّ تُعجِبُ . وقال أبو العالية : معناه في سمتها ومنظرها فهي ذات وصفين والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ . سألوا سؤالا رابعا، ولم يمتثلوا الأمر بعد البيان، وذكّر البقر لأنه بمعنى الجمع ، ولذلك قال : ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ فذكّره للفظ تذكير البقر . قال قطرب : جمع البقرة باقر وباقور وبقر . وقال الأصمعي : الباقر جمع باقرة ، قال : ويجمع بقر على باقورة . حكاه النحاس . وقال الزجاج : المعنى إن جنس البقر . وقرأ الحسن، فيما ذكر النحاس ، والأعرج، فيما ذكر الثعلبي، إن البقر تَشّابه، بالتاء وشدّ الشين، جعله فعلا مستقبلا وأنّثه . والأصل تتشابه، ثم أدغم التاء في الشين . وقرأ مجاهد تَشّبّه كقراءتهما إلا أنه بغير ألف . وفي مصحف أُبَيّ تشابهت بتشديد الشين . قال أبو حاتم : وهو غلط لأن التاء في هذا الباب لا تدغم إلا في المضارعة . وقرأ يحيى بن يَعْمُر إن الباقر يشّابه، جعله فعلا مستقبلا وذكّر البقر وأدغم . ويجوز إن البقر تشابه بتخفيف الشين وضم الهاء . وحكاها الثعلبي عن الحسن . النحاس : ولا يجوز يشابه بتخفيف الشين والياء، وإنما جاز في التاء لأن الأصل تتشابه فحذفت لاجتماع التاءين . والبقر والباقر والبيقور والبقير لغات بمعنًى ، والعرب تذكّره وتؤنّثه وإلى ذلك ترجع معاني القراءات في تشابه . وقيل : إنما قالوا : ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ لأن وجوه البقر تتشابه ؛ ومنه حديث حذيفة بن اليمان عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه ذكر فتنًا كقطع الليل تأتي كوجوه البقر . يريد أنها يشبه بعضها بعضا . ووجوه البقر تتشابه ولذلك قالت بنو إسرائيل : إن البقر تشابه علينا .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ . استثناء منهم، وفي استثنائهم في هذا السؤال الأخير إنابة ما وانقياد، ودليل ندم على عدم موافقة الأمر . وروي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : « لو ما استثنوا ما اهتدوا إليها أبدا » . وتقدير الكلام وإنا لمهتدون إن شاء الله . فقدّم على ذكر الاهتداء اهتماما به . وشاء، في موضع جزم بالشرط، وجوابه عند سيبويه الجملة إن وما عملت فيه . وعند أبي العباس المبرّد محذوف .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ ﴾ . قرأ الجمهور لا ذلول بالرفع على الصفة لبقرة . قال الأخفش : لا ذلول نعته ولا يجوز نصبه . وقرأ أبو عبد الرحمن السّلميّ لا ذلول بالنصب على

النّفي والخبر مضمر . ويجوز لا هي ذلول ، لا هي تسقي الحرث ، هي مسلمة . ومعنى لا ذلول لم يذللها العمل؛ يقال : بقرة مذلّلة بيّنة الذّل بكسر الذال . ورجل ذليل بين الذل بضم الذال أى هي بقرة صعبة غير ريّضة لم تذلل بالعمل .

قوله تعالى : ﴿ تُثِيرُ الْأَرْضَ ﴾ . تثير، في موضع رفع على الصفة للبقرة أى هي بقرة لا ذلول مثيرة . قال الحسن : وكانت تلك البقرة وحشية، ولهذا وصفها الله تعالى بأنها لا تثير الأرض ولا تسقي الحرث أى لا يُسنَى بها لسقي الزرع ولا يسقى عليها . والوقف ها هنا حسن . وقال قوم : تثير فعل مستأنف، والمعنى إيجاب الحرث لها، وأنها كانت تحرث ولا تسقي . والوقف على هذا التأويل لا ذلول . والقول الأوّل أصح لوجهين ، أحدهما ما ذكره النحاس عن عليّ بن سليمان أنه قال : لا يجوز أن يكون تثير مستأنفا لأن بعده ولا تسقي الحرث ، فلو كان مستأنفا لما جمع بين الواو ولا . الثاني : أنها لو كانت تثير الأرض لكانت الإثارة قد ذللتها ، والله تعالى قد نفى عنها الذلّ بقوله : ﴿ لَا ذَلُولٌ ﴾ .

قلت : ويحتمل أن تكون تثير الأرض في غير العمل مرحا ونشاطا؛ كما قال امرؤ القيس :

يُهِيلُ ويُذْرِى تربَه ويُثيرُه * إثارةَ نبّاثِ الهواجرِ مُخْمِسِ

فعلى هذا يكون تثير مستأنفا ، ولا تسقي معطوف عليه فتأمله . وإثارة الأرض : تحريكها وبحثها؛ ومنه الحديث : « أثيروا القرآن فإنه علم الأوّلين والآخرين » . وفي رواية أخرى : « من أراد العلم فليُثَوِّر القرآن » . وقد تقدّم . وفي التنزيل : ﴿ وَأَثَارُوا الْأَرْضَ ﴾ . أى قلبوها للزراعة . والحرث : ما حرث وزرع . وسيأتى .

مسئلة — في هذه الآية أدلّ دليل على حصر الحيوان بصفاته ، وإذا ضبط بالصفة وحصر بها جاز السَّلَم فيه . وبه قال مالك وأصحابه والأوزاعى والليث والشافعى . وكذلك كل ما يضبط بالصفة؛ لوصف الله تعالى البقرة في كتابه وصفا يقوم مقام التعيين؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تصف المرأة المرأة لزوجها حتى كأنه ينظر إليها » . أخرجه مسلم ؛ فجعل صلّى الله عليه وسلّم الصفة تقوم مقام الرؤية ، وجعل صلّى الله عليه وسلّم دية الخطأ في ذمّة من أوجبها عليه دَيْنًا إلى أجل ولم يجعلها على الحلول . وهو يرد قول الكوفيين أبى حنيفة وأصحابه والثورى والحسن بن صالح

حيث قالوا : لا يجوز السَّلَم فى الحيوان . وروى عن ابن مسعود وحذيفة وعبد الرحمن بن سَمُرَة ، لأن الحيوان لا يوقف على حقيقــة صفته من مشى وحركة وكل ذلك يزيد فى ثمنه ويرفع من قيمته . وسيأتى حكم السلم وشروطه فى آخر السورة فى آية الدين ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ . أى هى مسلمة ، ويجوز أن يكون وصــفا أى إنها بقرة مسلّمة من العرج وسائر العيوب . قاله قتادة وأبو العالية . ولا يقال : مسلمة من العمل لنفى الله العمل عنها . وقال الحسن : يعنى سليمة القوائم لا أثر فيها للعمل .

قوله تعالى : ﴿ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴾ . أى ليس فيها لون يخالف معظم لونها ، هى صفراء كلّها لا بياض فيها ولا حمرة ولا ســواد ؛ كما قال : ﴿ فَاقِعٌ لَوْنُهَا ﴾ . وأصل شية وشية حذفت الواو كما حذفت من يشى ، والأصل يوشى ، ونظيره الزِّنة والعِدة والصِّلة . والشِّية مأخوذة من وشى الثوب إذا نسج على لونين مختلفين . وثور موشَّى : فى وجهه وقوائمه سواد . قال ابن عرفة : الشِّية اللون . ولا يقال لمن نمّ : واشٍ حتى يغيّر الكلام و يلوّنه فيجعله ضروبا و يزيّن منــه ما شاء . والوشى : الكثرة . ووَشَى بنو فلان : كثروا . ويقال : فرس أبْلَقُ ، وكبش أخْرَج ، وتيس أزْرَق ، وغراب أبْقَع ، وثور أشْيَه . كل ذلك بمعنى البلقة ؛ هكذا نصّ أهل اللغة .

وهذه الأوصاف فى البقرة سببها أنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم ، ودين الله يسر ، والتعمّق فى سؤال الأنبياء وغيرهم من العلمــاء مذموم ، نسأل الله العافيــة . وروى فى قصص هــذه البقرة روايات تلخيصها : أن رجلا من بنى إسرائيل ولد له ابن ، وكانت له عجلة فأرسلها فى غَيْضَة وقال : اللّهم إنى استودعك هذه العجلة لهذا الصبى . ومات الرجل فلما كبر الصبى قالت له أمّه ، وكان برًّا بها : إن أباك استودع الله عجلة لك فاذهب فخذها ؛ فذهب فلما رأته البقرة جاءت إليه حتى أخذ بقرنيها ـــ وكانت مستوحشة ـــ فجعــل يقودها نحو أمّه . فلقيه بنو إسرائيــل ووجدوا بقرة على الصّفة التى أمروا بها فساموه فاشــتطّ عليهم . وكان قيمتها على ما روى عن عكرمة ثلاثة دنانير فأتوا به موسى عليه السلام وقالوا : إن هذا اشتطّ علينا ؛ فقال لهم ارضوه فى ملكه ؛ فاشتروها منه بوزنها مرّة . قاله عبيدة . السدى : بوزنها عشر مرار . وقيل : بملء مَسْكها دنانير . وذكر مكىّ أن هــذه البقرة نزلت من السماء ولم تكن من بقر الأرض . فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ . أى بيّنت الحق . قاله قتادة . وحكى الأخفش : قالوا الآن . قطع ألف الوصل؛ كما يقال : يالله . وحكى وجها آخر قالوا لآنَ . بإثبات الواو. نظيره قراءة أهل المدينة وأبى عمرو عادا لُّاولى . وقرأ الكوفيون قالوا الآن بالهمز . وقراءة أهل المدينة قالوا لان بتخفيف الهمز مع حذف الواو لالتقاء الساكنين . قال الزجاج : الآن مبنى على الفتح لمخالفته سائر ما فيه الألف واللام ، لأن الألف واللام دخلتا لغير عهد؛ تقول : أنت إلى الآن هنا ؛ فالمعنى إلى هذا الوقت ، فبنيت كما بنى هذا . وفتحت النون لالتقاء الساكنين . وهو عبارة عما بين الماضى والمستقبل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ . أجاز سيبويه كاد أن يفعل تشبيها بعسى . وقد تقدّم أوّل السورة . وهذا إخبار عن تثبيطهم فى ذبحها وقلّة مبادرتهم إلى أمر الله . وقال القرظى محمد بن كعب : لغلاء ثمنها . وقيل : خوفا من الفضيحة على أنفسهم فى معرفة القاتل منهم . قاله وهب بن منبه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ . هذا الكلام مقدّم على أوّل القصة ، التقدير وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها ، فقال موسى : إن الله يأمركم بكذا . وهذا كقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قَيِّمًا ﴾ . أى أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا . ومثله كثير وقد بيناه أول القصة . وفى سبب قتله قولان؛أحدهما لابنة له حسناء أحب أن يتزوجها ابن عمها فمنعه عمه، فقتله ، وحمله من قريته الى قرية أخرى، فألقاه هناك . وقيل : ألقاه بين قريتين . الثانى قتله طلبا لميراثه ؛ فإنه كان فقيرا وادّعى قتله على بعض الأسباط . قال عكرمة : كان لبنى إسرائيل مسجد له إثنا عشر بابا لكل باب قوم يدخلون منه ؛ فوجدوا قتيلا فى سبط من الأسباط فادعى هؤلاء على هؤلاء ، وادعى هؤلاء على هؤلاء، ثم أتوا موسى يختصمون إليه فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ الآية : ومعنى ادّارأتم ، اختلفتم وتنازعتم . قاله مجاهد . وأصله تدارأتم ثم أدغمت التاء فى الدال ؛ ولا يجوز الابتداء بالمدغم لأنه ساكن فزيد ألف الوصل . ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ ﴾ . ابتداء وخبر . ﴿ مَا كُنْتُمْ ﴾ . فى موضع نصب بمخرج ؛ ويجوز حذف التنوين على الإضافة . ﴿ تَكْتُمُونَ ﴾ . جملة فى موضع خبر كان، والعائد محذوف، التقدير تكتمونه .

وعلى القول بأنه قتله طلبا لميراثه لم يرث قاتل عمـد من حينئذ ، قاله عبيدة السلماني . قال ابن عباس : قتل هذا الرجل عمه ليرثه . قال ابن عطية : وبمثله جاء شرعنا . وحكى مالك رحمه الله في موطئه أن قصة أحيحة بن الجلاح في عمه هي كانت سبب ألا يرث قاتل ، ثم ثبت ذلك الإسلام كما ثبت كثيرا من نوازل الجاهلية . ولا خلاف بين العلماء أنه لا يرث قاتل العمد من الدية ولا من المـال . ولا يرث من الدية في قول مالك والأوزاعي وأبي ثور والشافعي لأنه لا يتهم على أنه قتله ليرثه و يأخذ ماله . وقال سفيان الثوري وأبو حنيفة وأصحابه ، والشافعي في قول له آخر : لا يرث القاتل عمـدا ولاخطأ شيئا من المـال ولا من الدية . وهو قول شريح وطاوس والشعبي والنخعي . ورواه الشعبي عن عمر وعلي وزيد قالوا : لا يرث القاتل عمدا ولا خطأ شيئا . وروى عن مجاهد القولان جميعا . وقالت طائفة من البصريين : يرث قاتل الخطأ من الدية ومن المـال جميعا . حكاه أبو عمر . وقول مالك أصح على ما يأتي بيانه في آية المواريث إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ . قيـل : باللسان لأنه آلة الكلام . وقيل : بعجب الذنب إذ فيـه يركب خلق الانسان . وقيل : بالفخذ . وقيل : بعظم من عظامها ، والمقطوع به عضو من أعضائها ، فلما ضرب به حيي وأخبر بقاتله ثم عاد ميتا كما كان .

مسئلة — استدل مالك رحمه الله في رواية ابن وهب وابن القاسم على صحة القول بالقسامة ، بقول المقتول : دمي عنـد فلان ، أو فلان قتلني . ومنعه الشافعي وجمهور العلماء قالوا : وهو الصحيح ، لأن قول المقتول : دمي عنـد فلان ، أو فلان قتلني ، خبر يحتمل الصـدق والكذب . ولا خلاف أن دم المدعى عليه معصوم ممنوع إباحته إلا بيقين ، ولا يقين مع الاحتمال ، فبطل اعتبار قول المقتول دمي عند فلان . وأما قتيل بني إسرائيل فكانت معجزة وأخبر تعالى أنه يحييه ، وذلك يتضمن الإخبـار بقاتله خبرا جزما لا يدخله احتمال فافترقا . قال ابن العربي : المعجزة إنمـا كانت في إحيائه فلمـا صار حيا كان كلامه كسائر كلام الناس كلهم في القبول والرد ، وهـذا فن دقيق من العلم لم يتفطن له إلا مالك . وليس في القرآن أنه اذا أخبر وجب صدقه فلعله أمرهم بالقسامة معه . واستبعد ذلك البخاري والشافعي وجماعة من العلماء فقالوا : كيف يقبل قوله في الدم وهو لا يقبل قوله في درهم .

مسئلة — اختلف العلماء فى الحكم بالقسامة فروى عن سالم وأبى قلابة وعمر بن عبد العزيز والحكم بن عتيبة التوقف فى الحكم بها. وإليه مال البخارى لأنه أتى بحديث القسامة فى غير موضعه. وقال الجمهور: الحكم بالقسامة ثابت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، ثم اختلفوا فى كيفية الحكم بها؛ فقالت طائفة: يبدأ فيها المدعون بالأيمان فان حلفوا استحقوا، وإن نكلوا حلف المدّعى عليهم خمسين يمينا وبرءوا. هذا قول أهل المدينة والليث والشافعى وأحمد وأبى ثور. وهو مقتضى حديث حويصة ومحيصة خرجه الأئمة مالك وغيره. وذهبت طائفة إلى أنه يبدأ بالأيمان المدّعى عليهم فيحلفون ويبرءون. روى هذا عن عمر بن الخطاب والشعبيّ والنخعى، وبه قال الثورى والكوفيون؛ واحتجوا بحديث شعبة بن عبيد عن بشير بن يسار، وفيه فبدأ بالأيمان المدعى عليهم وهم اليهود، وبما رواه أبو داود عن الزهرى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن رجال من الأنصار أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ليهود وبدأ بهم: «أيحلف منكم خمسون رجلا». فأبوا فقال للأنصار: «استحقوا» فقالوا: نحلف على الغيب يارسول الله! فجعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم دية على يهود، لأنه وجد بين أظهرهم. وبقوله عليه السلام: «ولكن اليمين على المدّعى عليه». قالوا: وهذا هو الأصل المقطوع به فى الدعاوى الذى نبه الشرع على حكمته بقوله عليه السلام: «لو يعطى الناس بدعواهم لادّعى ناس دماء رجال وأموالهم ولكن اليمين على المدّعى عليه». رد عليهم أهل المقالة الأولى فقالوا: حديث سعيد بن عبيد فى تبدية اليهود وَهَمٌ عند أهل الحديث، وقد أخرجه النسائى وقال: ولم يتابع سعيد على هذه الرواية فيما أعلم، وقد أسند حديث بشير عن سهل أن النبى صلى الله عليه وسلم بدأ المدّعين، يحيى ابن سعيد وابن عيينة وحماد بن زيد وعبد الوهاب الثقفى وعيسى بن حماد وبشر بن المفضل؛ فهؤلاء سبعة وإن كان أرسله مالك فقد وصله جماعة الحفاظ وهو أصح من حديث سعيد بن عبيد. قال أبو محمد الأصيلى: فلا يجوز أن يعترض بخبر واحد على خبر جماعة مع أن سعيد بن عبيد قال فى حديثه: فوداه رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة من إبل الصدقة؛ والصدقة لا تعطى فى الدّيات ولا يصالح بها عن غير أهلها. وحديث أبى داود مرسل فلا تعارض به الأحاديث الصحاح المتصلة، وأجابوا عن التمسك بالأصل بأن هذا الحكم أصل بنفسه لحرمة الدماء. قال ابن المنذر: ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل البينة على المدّعى واليمين على المدّعى عليه، والحكم بظاهر ذلك يجب إلا أن يخص

الله فى كتابه أو على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم حكما فى شىء من الأشياء فيستثنى من جملة هذا الخبر، فيا دل عليه الكتاب إلزام القاذف حد المقذوف، اذا لم يكن معه أربعة شهداء يشهدون له على صدق ما رمى به المقذوف . وخص من رمى زوجته بأن أسقط عنه الحد إذا شهد أربع شهادات . ومما خصته السنة حكم النبى صلى الله عليه وسلم بالقسامة، وقد روى ابن جريج عن عطاء عن أبى هريرة أن النبى صلّى الله عليه وسلّم قال : "البينة على من آدعى واليمين على من انكر إلا فى القسامة" . خرّجه الدارقطنى . وقد احتج مالك لهذه المسئلة فى موطئه بما فيه كفاية فتأمله هناك .

مسئلة — واختلفوا أيضا فى وجوب القَوَد بالقسامة ؛ فأوجبت طائفة القود بها . وهو قول مالك والليث وأحمد وأبى ثور؛ لقوله عليه السلام لحويصة ومحيصة وعبد الرحمن : «أتحلفون وتستحقون دم صاحبكم» . وروى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبى صلّى الله عليه وسلّم قتل رجلا بالقسامة من بنى نضر بن مالك . قال الدارقطنى : نسخة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده صحيحة ؛ وكذلك أبو عمر بن عبد البر يصحح حديث عمرو بن شعيب ويحتج به . وقال البخارى : رأيت علىّ بن المدينى وأحمد بن حنبل والحميدى وإسحاق بن راهويه يحتجون به ؛ قاله الدارقطنى فى السنن . وقالت طائفة : لاقود بالقسامة، وإنما توجب الدية . روى هذا عن عمر وابن عباس ؛ وهو قول النخعى والحسن وإليه ذهب الثورى والكوفيون والشافعى وإسحاق ، واحتجوا بما رواه مالك عن ابن أبى ليلى عن عبد الله عن سهل بن أبى حثمة عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله للأنصار : «إما أن يدوا صاحبكم وإما يؤذنوا بحرب» . قالوا : وهذا يدل على الدية لا على القود، قالوا : ومعنى قوله عليه السلام : «وتستحقون دم صاحبكم» دية دم قتيلكم . لأن اليهود ليسو بأصحاب لهم ؛ ومن استحق دية صاحبه فقد استحق دمه ؛ لأن الدية قد تؤخذ فى العمد فيكون ذلك استحقاقا للدم .

مسـئلة — الموجب للقسامة اللَّوْثُ ولا بد منه ، واللَّوث : أمارة تغلب على الظنّ صدق مدّعى القتل كشهادة العدل الواحد على رؤية القتل، أو يرى المقتول يتشحط فى دمه، والمتّهم نحوه أو قربه عليه آثار القتل . وقد اختلف فى اللّوث والقول به ؛ فقال مالك : هو قول المقتول دمى عند فلان . والشاهد العدل لوث . كذا فى رواية ابن القاسم عنه . وروى أشهب عن مالك أنه يقسم

مع الشاهد غير العدل ومع المرأة . وروى ابن وهب أن شهادة النساء لوث . وذكر محمد عن ابن القاسم أن شهادة المرأتين لوث دون شهادة المرأة الواحدة . قال القاضي أبو بكر بن العربي : اختلف في اللوث اختلافا كثيرا، مشهور المذهب أنه الشاهد العدل . وقال محمد : هو أحب إليّ . قال : وأخذ به ابن القاسم وابن عبد الحكم . وروى عن عبد الملك بن مروان : أن المجروح أو المضروب اذا قال : دمي عند فلان ومات كانت القسامة . وبه قال مالك والليث بن سعد . واحتج مالك بقتيل بني إسرائيل أنه قال : قتلني فلان . وقال الشافعيّ : اللوث الشاهد العدل ، أو يأتي ببيّنة وإن لم يكونوا عدولا . وأوجب الثوريّ والكوفيون القسامة بوجود القتيل فقط ، واستغنوا عن مراعاة قول المقتول وعن الشاهد ، قالوا : اذا وجد قتيل في محلة قوم وبه أثر، حلف أهل ذلك الموضع أنهم لم يقتلوه ويكون عقله عليهم ، واذا لم يكن به أثر لم يكن على العاقلة شيء إلا أن تقوم البينة على واحد . وقال سفيان : وهذا مما أجمع عليه عندنا ، وهو قول ضعيف خالفوا فيه العلم، ولا سلف لهم فيه، وهو مخالف للقرآن والسنة ، ولأن فيه إلزام العاقلة مالاً بغير بينة ثبتت عليهم ولا إقرار منهم . وذهب مالك والشافعيّ الى أن القتيل إذا وجد في محلّة قوم أنه هدر ، لا يؤخذ به أقرب الناس دارا ، لأن القتيل قد يقتل ثم يلقى على باب قوم ليلطخوا به ، فلا يؤاخذ بمثل ذلك حتى تكون الأسباب التي شرطوها في وجوب القسامة . وقد قال عمر بن عبد العزيز : هذا مما يؤخر فيه القضاء حتى يقضي الله فيه يوم القيامة .

مسألة — قال القاسم بن مسعدة : قلت للنسائي لا يقول مالك القسامة إلا باللّوث ، فلمَ أورد حديث القسامة ولا لوث فيه ؟ قال النسائي : أنزل مالك العداوة التي كانت بينهم وبين اليهود بمنزلة اللوث، وأنزل اللوث أو قول الميت بمنزلة العداوة . قال ابن أبي زيد : وأصل هذا في قصة بني إسرائيل حين أحيا الله الذي ضُرب ببعض البقرة فقال : قتلني فلان، وبأن العداوة لوث. قال الشافعي : ولا نرى قول المقتول لوثا كما تقدّم . قال الشافعي : إذا كان بين قوم وقوم عداوة ظاهرة كالعداوة التي كانت بين الأنصار واليهود ، ووجد قتيل في أحد الفريقين ولا يخالطهم غيرهم وجبت القسامة فيه .

مســـألة — واختلفوا فى القتيل يوجد فى المحلة التى أكراها أربابها ؛ فقال أصحاب الرأى هو على أهل الخطة وليس على السكان شىء ، فإن باعوا دورهم ثم وجد قتيل فالدّية على المشترى وليس على السكان شىء ، وإن كان أرباب الدور غُيّبا وقد أكروا دورهم فالقسامة والدية على أرباب الدور الغُيّب وليس على السكان الذى وجد القتيل بين أظهرهم شىء . ثم رجع يعقوب من بينهم عن هذا القول فقال : القسامة والدية على السكان فى الدور . وحكى هذا القول عن ابن أبى ليلى واحتج بأن أهل خيبر كانوا عمالا سكانا يعملون فوجد القتيل فيهم . قال الثورى : ونحن نقول هو على أصحاب الأصل يعنى أهل الدور . وقال أحمد : القول قول ابن أبى ليلى فى القسامة لا فى الدية . وقال الشافعى : وذلك كله سواء ، ولا عقل ولا قود إلا ببينة تقوم ، أو ما يوجب القسامة فيقسم الأولياء . قال ابن المنذر : وهذا أصح .

مســـألة — ولا يحلف فى القسامة أقل من خمسين يمينا ؛ لقوله عليه السلام فى حديث حُوَيصة ومُحَيِّصة : «يقسم خمسون منكم على رجل منهم» . فإن كان المستحقون خمسين حلف كل واحد منهم يمينا واحدة ، فإن كانوا أقل من ذلك أو نكل منهم من لا يجوز عفوه ردّت الأيمان عليهم بحسب عددهم . ولا يحلف فى العمد أقل من اثنين من الرجال ، لا يحلف فيـه الواحد من الرجال ولا النساء . يحلف الأوليـاء ومن يستعين بهم الأولياء من العصبة خمسين يمينا . هذا مذهب مالك والليث والثورى والأوزاعىّ وأحمد وداود . وروى مطرّف عن مالك أنه لا يحلف مع المدّعى عليه أحد ويحلف هم أنفسهم كما لو كانوا واحدا فأكثر خمسين يمينا يبرئون بها أنفسهم، وهو قول الشافعى. قال الشافعى : لا يقسم إلا وارث كان القتل عمدا أو خطأ . ولا يحلف على مال ويستحقه إلا من له الملك لنفسه أو من جعل الله له الملك من الورثة ؛ والورثة يقسمون على قدر مواريثهم . وبه قال أبو ثور واختاره ابن المنذر وهو الصحيح ، لإن من لم يدّع عليـه لم يكن له سبب يتوجه عليه فيـه يمين . ثم مقصود هذه الأيمـان البراءة من الدعوى ومن لم يدّع عليه برئ . وقال مالك : فى الخطأ يحلف فيهـا الواحد من الرجال والنساء فمهما كملت خمسين يمينا من واحد أو أكثر استحق الحالف ميراثه ، ومن نكل لم يستحق شيئا ؛ فإن جاء من غاب حلف من الأيمـان ما كان يجب عليـه لو حضر بحسب ميراثه . هذا قول مالك المشهور عنه ؛ وقد روى عنه أنه لا يرى فى الخطأ قسامة .

وتمم مسائل القسامة وفروعها وأحكامها مذكور في كتب الفقه والخلاف ، وفيما ذكرنا كفاية والله الموفق .

مسـألة — في قصة البقرة هـذه دليل على أن شرع من قبلنا شرع لنا ؛ وقال به طوائف من المتكلمين، وقوم من الفقهاء، واختاره الكرجي[1] ونص عليه ابن بكير القاضي من علمائنا ؛ وقال القاضي أبو محمد عبد الوهاب : هو الذي تقتضيه أصول مالك ومنازعه في كتبه؛ وإليه ميل الشافعي؛ وقد قال الله : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ على ما يأتي إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ . أي كما أحيا هذا بعـد موته كذلك يحيي كل من مات . فالكاف في موضـع نصب لأنه نعت لمصـدر محذوف . ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ . أي علاماته وقدرته . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ كي تعقلوا . وقد تقدم . أي تمتنعون من عصيانه . وعقلت نفسي عن كذا : أي منعتها منه . والمعاقل : الحصون .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ . القسوة : الصلابة والشدة واليبس . وهي عبارة عن خلوها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى . قال أبو العالية وقتادة وغيرهما : المراد قلوب جميع بني إسرائيل . وقال ابن عباس : المراد قلوب ورثة القتيل لأنهم حين حيي وأخبر بقاتله وعاد إلى موته أنكروا قتله وقالوا : كذب . بعد ما رأوا هذه الآية العظمى فلم يكونوا قط أعمى قلبا ، ولا أشد تكذيبا لنبيهم ، منهم عند ذلك ، لكن نفذ حكم الله بقتله . روى الترمذي عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : "لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن أبعـد الناس من الله القلب القاسي" . وفي مسند البزار عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أربعة من الشقاء جمود العين وقساء[2] القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا" .

قوله تعالى : ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ . أو، قيل : هي بمعنى الواو كما قال : ﴿ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ . ﴿ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ . وقال الشاعر :

* نال الخـلافة أو كانت له قـدرا *

---

(١) في نسخة : «الكرخي» بالخاء . (٢) بالفتح والمد مصدر مثل القسوة والقساوة .

أى ركانت . وقيــل : هى بمعنى بل كقوله تعــالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ . المعنى بل يزيدون . وقال الشاعر :

بدت مثل قرن الشمس فى رونق الضحى * وصورتهــا أو أنت فى العيــن أملح

أى بل أنت . وقيل : معناها الإبهام على المخاطب، ومنه قول أبى الأسود الدؤلى :

أحب محمـــدا حبــا شـــديدا * وعباســا وحمـــزة أو عليــا

فإن يك حبهم رشـــدا أصبه * ولست بمخطئ إن كان غيــا

ولم يشك أبو الأسود أن حبهم رشد ظاهر وإنمــا قصد الإبهام . وقد قيل لأبى الأسود حين قال ذلك : شككت ! قال : كلا ؛ ثم استشهد بقوله : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ . وقال : أوكان شاكًّا من أخبر بهذا ! وقيل : معناها التخيير أى شبهوها بالحجارة تصيبوا أو بأشد من الحجارة تصيبوا ؛ وهذا كقول القائل : جالس الحسن أو ابن سيرين، وتعلم الفقه أو الحديث . وقيل : بل هى على بابها من الشك ومعناها عندكم أيها المخاطبون وفى نظركم أن لو شاهدتم قسـوتها لشككتم أهى كالحجارة أو أشد من الحجارة . وقد قيل هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ وقالت فرقة : إنمــا أراد الله تعالى أن فيهــم من قلبه كالحجر، وفيهم من قلبه أشد من الحجر . فالمعنى هم فرقتــان .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَشَدُّ ﴾ . أشد مرفوع بالعطف على موضع الكاف فى قوله : ﴿ كَالْحِجَارَةِ ﴾ لأن المعنى فهى مثل الحجارة أو أشد ؛ ويجوز أو أشدَّ بالفتح عطف على الحجارة . و﴿ قَسْوَةً ﴾ نصب على التمييز . وقرأ أبو حيوة قساوة والمعنى واحد .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ﴾ . قد تقدم معنى الانفجار . ويشقق أصله يتشــقق أدغمت التــاء فى الشين ؛ وهذه عبارة عن العيون التى لم تعظم حتى تكون أنهارا، أو عن الحجارة التى تشقق وإن لم يجر ماء منفسح . وقرأ ابن مصرف ينشقق بالنون، وقرأ لمَّا يتفجر، لمــا يشقق، بتشديد لمَّــا فى الموضعين . وهى قراءة غير متجهة . وقرأ مالك بن دينار ينفجر بالنون وكسر الجيم . قال قتادة : عذر الحجارة ولم يعــذر شقى بنى آدم . قال أبو حاتم : يجوز لمــا تتفجر بالتاء، ولا يجوز لمــا تشقق بالتاء لأنه إذا قال تتفجر أنثه بتأنيث

الأنهار؛ وهـذا لا يكون فى تشقق . قال النحاس : يجوز ما أنكره على المعنى؛ لأن المعنى وإن منها لحجارة تتشقق، وأما يشقق فمحمول على لفظ ما . والشق واحد الشقوق، فهو فى الأصل مصدر تقول : بيد فلان ورجليه شُقوق، ولا تقل : شُقاق، إنما الشُّقاق داء يكون بالدواب، وهو تشقق يصيب أرساغها وربما ارتفع إلى وظيفها . عن يعقوب . والشّق : الصبح . وما، فى قوله : ﴿ لَمَا يَتَفَجَّرُ ﴾ . فى موضع نصب لأنها اسم إن، واللام للتأكيد . منه على لفظ ما ، ويجوز منها على المعنى؛ وكذلك ﴿ وَإِنَّ مِنْهَـا لَمَـا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْـهُ الْمَـاءُ ﴾ . وقرأ قتادة وإن فى الموضعين مخففة من الثقيـلة .

قوله تعالى : ﴿ وإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ . يقول : إن من الحجارة ما هو أنفع من قلوبكم، لخروج المـاء منها وترديها . قال مجاهد: ما تردّى حجر من رأس جبل، ولا تفجر نهر من حجر، ولا خرج منه ماء إلا من خشية الله، نزل بذلك القرآن . ومثله عن ابن جريج . وقال بعض المتكلمين فى قوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ : البرد الهـابط من السحاب . وقيل : لفظة الهبوط مجاز، وذلك أن الحجارة لمـا كانت القلوب تعتبر بخلقها، وتخشع بالنظر إليها، أضيف تواضع الناظر إليها، كما قالت العرب : ناقة تاجرة : أى تبعث من يراها على شرائها . وحكى الطبرى عن فرقة أن الخشية للحجارة مسـتعارة كما استعيرت الإرادة للجـدار فى قوله : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ﴾ . وكما قال زيد الخيـل :

لمـا أتى خبر الزبير تواضعت * سـور المدينة والجبال الخشع

وذكر ابن بحر[1] أن الضمير فى قوله تعالى، ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا ﴾ راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة أى من القلوب لمـا يخضع من خشية الله .

قلت : كل ما قيل يحتمله اللفظ، والأول صحيح فإنه لا يمتنع أن يعطى بعض الجمادات المعرفة فيعقل، كالذى روى عن الجذع الذى كان يستند اليه رسول الله صلّى الله عليه وسـلّم اذا خطب، فلما تحوّل عنه حنّ . وثبت عنه أنه قال : «إن حجرا كان يسلم علىّ فى الجاهلية إنى لأعرفه الآن» .

(١) فى نسخة . «ابن عرزة» .